سلسلة شروحات الشيخ

شرح كشف الشبهات

تصنيف شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى

شرح الشيخ

أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى

شرح كشف الشبهات

شرح
كشف الشبهات

سلسلة شروحات الشيخ

شرح
كشف الشبهات

تصنيف شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى

شرح الشيخ

أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان. أمَّا بعد:

ففي هذه الليلة؛ ليلة الثلاثاء الثالث من شهر جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين وأربعمائة بعد الألف من هجرة النبي ﷺ، نجتمع -بتوفيق الله- في هذا المسجد مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجامعة الإسلامية في مدينة النبي ﷺ؛ لأجل أن نتدارس متنًا من متون التوحيد، ومن المصنفات الشهيرة عند أهل السنة والجماعة، ألا وهو: كتاب «كشف الشبهات».

وكالعادة في الدروس التي تُقام يُقدم بين يدي الدرس بمقدماتٍ مُمهدات؛ هي على ضربين:

❁ **الأول**: مُقدماتٌ تتعلق بالكتاب.

❁ **والثاني**: مُقدماتٌ تتعلق بمحتوى الكتاب.

أمَّا ما يتعلق بالكتاب: فالكتاب الذي بين أيدينا هو «كشف الشبهات»؛ هذا هو الاسم المشهور الذي أطبق عليه عامة أهل العلم، وقد يسميه بعضهم بـ«كشف الشُبه»، أو «كشف الشبهة»، لكن الاسم المعروف والمشهور لهذا الكتاب هو «كشف الشبهات».

ومؤلفه : هو الإمام أبو علي محمد بن عبد الوهاب التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، المولود سنة خمس عشرة ومائة بعد الألف، والمتوفى سنة ست ومائتين بعد الألف رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمةً واسعة، وهذا الشيخ الجليل والإمام المجدد غنيٌ عن أن نُعرِّف به، فهو المُجدِّد لما اندرس من معالم الدين في القرن الثاني عشر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجزاه الله عنَّا خير الجزاء، ومصنفاته ومؤلفاته في غاية النَّفع، وقد انتفع بها الألوف المؤلفة من المسلمين، وهداهم الله بها إلى التوحيد الخالص الذي وفقه الله عَزَّ وَجَلَّ إلى الدعوة إليه.

الكتابَ الذي بين أيدينا موضوعه: كشف الشبهات المتعلقة بتوحيد الألوهية؛ هذا هو موضوع الكتاب، فهو لا يتكلم عن الشبهات عمومًا، أو في كل الأبواب، وإنَّما يتكلم عن شبهاتٍ متعلقة بتوحيد الألوهية، أو توحيد العبادة. وقد ضمَّنها جُملةً من الشُبه المشتهرة في زمنه، والتي لا يزال تداولها حاصلًا إلى هذا اليوم.

وهذا الكتاب اشتمل على: مُقدمة، وصُلب، وخاتمة ؛ محتوى الكتاب ينقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة:

❁ **أما المُقدمة؛ فإنها دارت على ثلاثة أمور:**

الأول: بيانُ حال المُشركين وما كانوا يعتقدون.

والثاني: حقيقةُ التوحيد الذي دعت إليه الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

والثالث: إنذارٌ وتحذيرٌ من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأهل السنة من أنَّ أهل البدع

عندهم علوم وشُبه وتلبيسات، فينبغي أن يأخذوا للأمر أُهبته وعُدَّته.

❁ **أمَّا صُلب الكتاب**: فإنه قد رسم فيه ما أراد في هذا الكتاب من بيان الشبهات المشهورة التي تصدُّ عن الحق في باب توحيد العبادة، وساق فيه هذه الشبهات مع جوابها، ولكنَّه قدم بين يدي ذلك بجوابٍ مُجمل هو في غاية النفع -كما سيأتي الحديث عنه لاحقًا إن شاء الله- فقدَّم بهذا الجواب المُجمل، ثم أردفَ ذلك بِذكر بضع عشرة شُبهة، والشبه الثلاث الأولى ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها أكبرُ شبهاتهم، فمن تجلى له الحق فيها، فإنَّ ما بعدها أيسر منها، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسوق الشبهة، ثم يُعْقِبُ ذلك ببيان بطلان الاستدلال بها.

❁ **والقسم الأخير**: **كان خاتمة نافعة** فيها وصية عظيمة من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن التوحيد ووجوب العلم به والعمل به.

وهذا المؤلَّف مؤلفٌ قليلُ الأوراق، عظيمُ النفع، قد وفق الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هذا المؤلِّف إليه -فيما نحسب-، فخرج قطعةً نفيسة لا يستغني عنها أهل التوحيد في باب مجادلة المشركين القبوريين، فهذا الكتاب ورسالة القواعد الأربع من أهم الكتب في تجلية حقيقة التوحيد، وحال أعداء التوحيد وشُبههم، فمن جمع بين هاتين الرسالتين، وأحسن الاستفادة منهما فإنني أظن أنه سيكون على خيرٍ كثير.

والذي ينبغي أن تكون دراسة هذه الرسالة بعدَ أن يكون الطالب مُؤصلًا في التوحيد، فإنها -أعني هذه الرسالة- مؤلفة في مقام الردِّ، والردُّ لابد أن يسبقه التأصيل، فإذا درس الطالب كتاب التوحيد فإنه يُناسب أن يدرس هذا الكتاب؛

فإنه سيُحسِن الاستفادة منه، بخلاف ما إذا خالف في ترتيب الكتاب. وأقول هذا على سبيل الأفضلية، وإلا فلن يعدِم طالب العلم الاستفادة من هذه الرسالة، ولو أنه قدَّمها على غيرها.

وما يذكره العلماء -يا إخوتاه- في مسألة الترتيب في الكتب هو في الغالب شيءٌ اجتهادي من جهة، ومن جهة أخرى هو من جهة التفضيل، الأوْلى والأحسن هو أن تُرتب على هذا الترتيب، كذا ثم كذا ثم كذا، وليس أن هذا ضربةُ لازب والشيء الذي لا يجوز ولا ينبغي مخالفته، ليس الأمر كذلك بكل تأكيد غالبًا.

قيمة الكتاب: هذا الكتاب قد احتفى به أهل السنة والتوحيد أيما احتفاء، وأشادوا به، واعتنوا بقراءته، ودراسته، وتدريسه، ولم يزل علماؤنا -علماء التوحيد- يُدرِّسُون هذه الرسالة ويوصون بحفظها، والفضل والمنة لله، هذا الكتاب قد دُرِّس كثيرًا، وطُبعت له شروحٌ كثيرة، وعامة مشايخنا وعلمائنا في الغالب لهم شروح ودروس، إمَّا صوتية وإمَّا مكتوبة لهذه الرسالة، وهذا مما يُسهل الانتفاع بها.

كما أنَّ هذه الرسالة حظيت بعنايةٍ خاصة؛ وهي أنها قد نُظمت، فالشيخ محمد بن الطيب الأنصاري المدني المتوفى سنةَ اثنتين وستين وثلاثمائة بعد الألف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد نظم هذه الرسالة، ونظْمه جاء في أربعمائة وخمسٍ وثمانين بيتًا، ومن كان صاحب همة وعنده قدرة فدونه هذا النظم فليحفظه ، فإنه نافعٌ إن شاء الله.

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألف هذه الرسالة للعامة وللمُبتدئين، وليس أنه ألَّفها للمعاندين، وتُلاحظ هذا إذا ولجنا إلى داخل الكتاب ورأيت الأسلوب الذي سار عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وحقيقة الأمر: أنَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما انتشرت دعوته، وذاع صيته، وكثُر في الناس رسائله ومؤلفاته، قد شغَّب على دعوته وتقريراته العظيمة بعضُ أهل البدع والضلال، وأوردوا بعض الشبه، وردُّوا عليه ببعض هذه التخريفات التي سيأتي الكلام عنها، فانتدب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى كتابة هذه الرسالة، وبعثها إلى الناس لتُقرأ على العامة، فهذه الرسالة نافعة لطالب العلم، ونافعة أيضًا للعامة، فهي تُعطيك الحق دون الوقوع في أوضار الشُّبه المُضلة بحمد الله كما سيأتي التنبيه على هذا إن شاء الله.

هذا مُلخصٌ يتعلق بهذا الكتاب وقيمته ومحتواه.

وأنتقل بعد ذلك إلى المُقدمة الثانية، والتي تتعلق بمحتوى الكتاب:

الكتاب -كما قد سمعت- مؤلَّفٌ لنقض أبرز الشبهات المتعلقة بتوحيد الألوهية، واعلم يا طالب العلم أن هذا الباب له أصول تحتاج منك أن تضبطها، **وإني أُوصيك بالعناية بخمسة أصول؛ ضبطها يُعينك بتوفيق الله عَزَّ وَجَلَّ على أن تتجلى لك حقيقة هذا المقام**، وتكون -بتوفيق الله- في منأى من شبهات الضالين المبتدعين، اضبط هذه الأصول، وأحكِم هذه المسائل، وسوف تزول أي شُبهةٍ تقف أمامك مما يتعلق بهذا الموضوع.

۞ **أولًا: أن تعرف ما هو التوحيد الذي بعث الله عَزَّ وَجَلَّ رُسله به**، ويتبين لك

هذا بتتبع نصوص القرآن والسنة، والتأمل في ألفاظها، ومعرفة مغازيها ومراميها، فحينها تعرف ما هو التوحيد الذي كان محورَ دعوة الأنبياء، والذي أخذ جُل مساحةِ دعواتهم، فهذا هو الأمر الأول الذي أوصيك أن تعتنيَ به.

۞ **المسألة الثانية: أن تعتني بمعرفة حال المُشركين الذين بُعث فيهم النبيﷺ**، ما هي عقيدتهم في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ما الذي كانوا يفعلون ويعتقدون؛ فإذا فهمت ذلك فإن هذا سيعينك كثيرًا على انكشاف شُبه المخالفين في هذا الباب.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تكلم على هذين الأمرين كلامًا في غاية النفاسة في هذه الرسالة، وفي غيرها أيضًا.

۞ **الأمر الثالث: أن تعرف معنى العبادة**؛ ما هي العبادة التي أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها؟ فإن مدار التوحيد والشرك على هذه العبادة؛ إن أُخلصت فهذا هو التوحيد، وإن أُشرك مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها فهذا هو الشرك، ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦]، ما هي هذه العبادة؟ لابد أن تُنْعِم النظر في معنى العبادة لتعرف الحق في هذا الباب.

۞ **الأمر الرابع: أن تعرف حقيقة الشرك**؛ ما هو الشرك الذي نهى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنه، وجاءت الآيات تلو الآيات، والأحاديث تلو الأحاديث في التحذير منه وبيانِ عاقبته الوخيمة؟ هذا أمرٌ لابد أن تضبطه يا طالب العلم.

۞ **والأمر الخامس والأخير: التفريق بين الربوبية والألوهية**، فإن هذا مدخلٌ من مداخل الضالين التي يُلبِّسون بها على الناس، فلابد أن تفهم الفرق

بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، بين صور الشرك في توحيد الألوهية وصور الشرك في توحيد الربوبية، وما هي العلاقة والصلة بين هذين النوعين.

هذه المسائل الخمس حريةٌ منك يا طالب العلم بالعناية والضبط، وستجد الحقيقة فيها جليةً واضحة بتوفيق الله ﷻ إذا اعتنيت بتراث أئمة الدعوة، والمراد بأئمة الدعوة: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأبناؤه، وتلاميذه، وأحفاده، ومن جاء بعدهم من أهل هذه المدرسة، هذه مدرسة عظيمة، من أهم ما ينبغي عليك في هذا الباب -في باب توحيد الإلهية وما يُضاده- أن تعتني بتراث أئمة الدعوة، وتقرأ في مختصراتهم، وتقرأ في مطوَّلاتهم، وتقرأ في فتاويهم، حتى تتشبع بمعرفة الحق في هذا المقام، فلا أعلمُ أحدًا اعتنى عنايتهم في هذا الباب، لا أعرف أحدًا من العلماء ولا مدرسةً من المدارس اعتنى علماؤها بتجلية الحق، وإعادة الكلام فيه، وتكراره بأساليب مختلفة، وتأصيله في مقام التقرير وفي مقام الرد كهذه المدرسة العظيمة رحمة الله تعالى على علمائها.

الموضوع الثاني الذي يتعلق بهذه المقدمة: قلنا هذه الأصول التي ينبغي العناية بها، وشيءٌ آخر يتعلق بالمحتوى، وهو موضوع الشبهات؛ الكتاب اسمه «كشف الشبهات»، **والكشف: إزالة غطاء المغطى،** فالمقصود بكشف الشبهات: نقدُ ونقضُ وإزالةُ الإشكال الذي يكون من تلبيس المُلبِّسين فيما يتعلق بهذا الباب أو غيره.

«كشف الشبهات»؛ الشبهات: جمع شبهة، والشبهة حقيقتها: استدلالٌ ممزوجٌ بين الحق والباطل، **وإن شئت فقل:** هو الباطل الذي يُشبه الحق، **وإن**

شئت فقل: هو الباطل في صورة الحق، **وإن شئت فقُل**: هو إلباس جسد الباطل لباس الحق . كل هذه التعريفات تدور على معنىً واحد، ألا وهو: أنَّ هناك استدلالًا يشوبُ فيه المُبطلون الباطل بالحق، فيكون ثمة التباس، وهذا الالتباس والاشتباه هو السبب الذي يدعو إلى الإقبال على الباطل، وإلا فإن الباطل المحض لا تُقبِل عليه النُّفوس.

ولذا لا تجد بدعةً من البدع عليها فئامٌ من الناس إلا وفيها أو في مقالة أهلها حقٌّ وباطل، هذا الحق الموجود في مقالتهم أو مقالاتهم هو السبب الذي جلب النَّاس والعامة والجهال والأغمار إلى هذه البدعة، وإلا فلو برزَت على الناس في حقيقتها وأنها باطل محض لم يُزخرف ويوشَّ بشيء من الحق، فإنه لن تُقبل عليه النفوس، وهذا مما يدلك على خطرها، فهذا اللبس الذي يقوم به أهل البدع والضلال هو أعظم أسلحتهم التي تفتك بعقائد الناس وأديانهم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد نهى عن ذلك؛ ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة:٤٢] ، فلبْسُ الحق بالباطل هو حقيقة إيراد هذه الشبهات ، سواءً ما تعلق منها بباب توحيد العبادة، أو في باب توحيد الأسماء والصفات، أو في القدر، أو في النبوة، أو حتى في العبادة، أو في غير ذلك من أبواب الدين.

إذن هذه هي الشبهة، وغايةُ أهلها الصد عن الحق وأهله، لماذا تورد الشبهات؟ لماذا تُركب؟ لماذا تُساق وتُبرز للناس؟ الغاية من ذلك والهدف إنما هو الصد عن الحق وأهله.

وتعظم المحنة بهذه الشُّبَه إذا أُحسِن سبْكها، إذا سيقت للنَّاس في عبارات

مزخرفة ومحلاة، وأُحسن رصف كلماتها، فإنَّ الفتنة بها ستكون فتنةً عظيمة.

فإذا انضاف إلى هذا أن أُضيفت المقالة أو الشُبهة إلى نبيهٍ ذي مكانةٍ وقدرٍ في النَّاس، وله فيهم لسانُ صدق، فإنَّ الفتنة تعظم وتعظم بهذه الشبهة، وكم أُضيف إلى العلماء باطلٌ بسبب هذا المسلك؛ وهو أنَّه أُضيف إليهم مقالةٌ لا تصح عنهم ، أو أنها حُملت على غير محملها، أو أن تكون زلة من الزلاّت، فإنَّ آحاد العلماء ليسوا معصومين.

المقصود أنَّ الباطل إذا حُلِّيَ بشيءٍ من الحق، ثم أُحسن سبكه، ثم أُضيف إلى شخصٍ نبيه في الأمة، فإن هذا سيكون له أثرٌ كبير. ولذا؛ الرافضة جاءوا إلى الجاحظ الأديب المشهور، وهذه قصة أوردها الإسفراييني في «التبصير في الدين» جاءوا إليه لأجل أن ينتحل لهم بعض الكلام الذي يروِّجونه على العامة، لأجل أن يُقبلوا إلى بدعتهم، فطلب منهم أن يُمهلوه - والجاحظ من الأدباء البارعين، من ذوي الأساليب والأقلام- فطلب أن يُمهلوه لينظر في قالتهم، فلما عادوا إليه قال: ما وجدتُ لكم شيئًا أتصرف فيه، كلامٌ غُثاء ليس هناك مجال إلى أن أُحسِّن لكم شيئًا لكي يروج على الناس، لكني أُوصيكم بوصية، وهي أنكم إذا أردتم أن تُشيعوا شيئًا في الناس فانسبوه إلى جعفر الصادق، كلما أردتم أن تروِّجوا شيئًا بين الناس فانسبوه إلى جعفر الصادق رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ قولوا: جعفر يقول كذا، يقول أبو عبد الله كذا وكذا، وهذا الذي جروا عليه في كثير من مُصنفاتهم. فكم كذبوا على جعفر الصادق رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، حتى إن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: ما كُذب على أحدٍ ما كُذب على جعفرٍ الصادق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فإذا انضاف إلى هذه الأمور الثلاثة أمرٌ رابع: وهو أن سيقت هذه الشبهة ومعها تشويه للباطل وأهله، وفي أعطاف سَوق الشبهة؛ يُشوَّه الحق، ويُشوَّه أهله، وتُضاف إليهم كل سوأة تنفر منها الأسماع والقلوب، فحينئذٍ تستحكم المحنة، إلا أن يمنَّ الله ﷻ بعونه وتوفيقه فيسلم الإنسان من هذه الورطة، وإلا فكثير من الناس يقع في هذه الهُوَّة نظرًا لجهله، وكثيرٌ من الناس إنما يقفون عند الألفاظ، وتبهرهم زخارفها، دون أن يكون منهم غوص إلى الحقائق والمعاني.

المقصود -يا إخوتاه- أنَّ الشبهة شأنها عظيم، وخطرها جسيم، وهي في الحقيقة مادةُ الباطل، ودهليز الشر، والمرقاة إلى كل ضلال، فما ضل من ضل غالبًا إلا بسبب شُبهة، إذا وردت إلى القلب واستحكمت فيه فعلت به الأفاعيل، وإلا فهل ارتدَّ أو ألحد أو تنصَّر، أو انحرف إلى طُرق أهل البدع، أو سلَّ السيف على هذه الأمة، أو غير ذلك من هذه المقالات إلا بسبب شُبهة وردت إلى النفوس!! هذا الذي يقع -مع الأسف الشديد- غالبًا.

وعظُمت البلية بالشبهات في هذا الزمان أكثر؛ الشبهات في السابق كانت ذات أثر، وكان العلماء يُكثرون من التحذير منها، لكن الأمر اليوم تفاقم تفاقمًا عظيمًا فصارت السمة لهذا العصر الذي نعيش فيه مع الأسف الشديد هي انتشار الشبهات بين الناس ورواجها، مع وجود وسائل التواصل والاتصال الحديثة اليوم الناس أصبحوا في قريةٍ واحدة، فالذي يتكلم في أقصى الشرق يسمعه من في أقصى الغرب في اللحظة نفسها، إذا عطس مُسلم في أقصى الصين يُشمِّته رجل في المدينة، يُمكن له نفس اللحظة يُشمته.

الشُّبهة -مقالة باطلة، تغريدة، مقطع من المقاطع، مقالة في إحدى هذه الوسائل- في الساعة الواحدة تصل إلى الآلاف المؤلفة من البشر، بل ربما يصل عدد مشاهديها ومتابعيها إلى الملايين في الساعة الواحدة!! في السابق لم يكن الأمر كذلك، يعني الذين روَّجوا لهذه الشبهات التي أجاب عنها الشيخ الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ كيف روَّجوها؟ كتبوها في أوراق، ولم يكن ثمة مطابع، وتناولها بعض دُعاتهم، وصار يُحدِّث بها هنا وهنا، أو يرسلها إلى فلان، فصار هناك تأثر، لكن حدِّثني إذا أردت أن تُقارن بين انتشار تلك الشبهات في ذاك الزمان، وانتشار الشبهات نفسها اليوم من خلال وسائل التواصل، كيف ستكون النتيجة؟ ليس هناك مقارنة، وهذا مما يدعو إلى أن يتنبه طلاب العلم في أنفسهم وفي غيرهم إلى خطر الشبهات، وإلى أن يُحسنوا التعامل معها، وإلى أن يُحسنوا تأصيل المنهج الشرعي في التعامل مع الشبهات.

والمنهج الشرعي الواجب مع الشبهات؛ الكلام فيه ينقسم إلى قسمين:

۞ **الأول**: ما يتعلق بالعامي.

۞ **والثاني**: ما يتعلق بالعالم، أو طالب العلم الراسخ.

أما العامي ؛ فله حالتان:

۞ **الحالة الأولى**: حالةُ العافية.

۞ **والحالة الثانية**: حالةُ الابتلاء.

الحالة الأولى: حالة العافية من هذه الشبهة؛ ما وصلت ولا ولجت إلى قلبه، ما الذي ينبغي إذا طرقت بابه؟ الواجب هو: أن يهجُرها، وأن يُعرِض عنها

تمام الإعراض، هذا واجبٌ شرعي مُتحتم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر:٥]. والنبي ﷺ يقول كما في «الصحيح»: «**وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**» ، وهذا الذي تحتويه هذه الشبهة لا شك أنه مما نهى الله عنه، فإن شُبهات الضالين ما هي إلا قولٌ على الله بغير علم، ولبسٌ للحق بالباطل، فهي مما نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه قطعًا، إذن واجبٌ هُجرانه، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام:٦٨] ؛ (أعرض): فعل أمر، والأمر يقتضي الوجوب، واللهِ واجبٌ عليك يا عبد الله أن تُعرِض. ونبينا ﷺ يقول كما في «الصحيحين»: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**» ، أيضًا فعل أمر يقتضي الوجوب، هذا أمرُ نبينا محمدٍ ﷺ الواجب الاتباع.

إذن لا خيار لك يا أيها المسلم في أن تُعرِض وتبتعد ، وهذه هي الشجاعة . بعض الناس يظن أن هذا خوَر وجُبن وضعف، لا والله ؛ هذه هي الشجاعة العقلية المحمودة، هذا دليل قوة الإيمان ، لأنَّ الإيمان عندك غالٍ وثمين، فأنت أحرص ما تكون على أن تُحافظ عليه، ولذا تنأى بسمعك وقلبك عن أن يقر فيه شيء من الباطل، وهذا نهج السلف رحمهم الله ، والآثار في هذا كثيرة.

إذن في حالة العافية منها ينبغي للإنسان أن ينأى، وأن يبتعد، وألا يُمِّكن منها سمعه وقلبه، فما يُدريه لربما ولجتْ ولم تخرج، ولربما صرعته وهو يظن أنه قوي، ولو نظرت في أحوال الناس لوجدت من هذا نماذج كثيرة في السابق واللاحق.

الأمر الثاني في حال الابتلاء: وهذا يقع كثيرًا مع الأسف الشديد، تأتيه رسالة من رسائل هذه البرامج، أو يقع على مقطع، أو يقرأ تغريدة، دون أن يكون منه قصد إلى مطالعة الباطل، وإذا بالشبهة قد دخلت إلى قلبه وبدأت تؤثر فيه، فما الذي ينبغي عليه أن يفعل حينئذٍ؟ **الذي ينبغي أن يفعل أمام ذلك ستة أمور:**

۞ **أولًا: على من ابتُلي بها أن يقوى ولا يضعف، وأن يثبت ولا يسقط ولا يهتز**؛ فأنت قد وفقك الله إلى الحق، إلى التوحيد، إلى اتباع السنة، لا ينبغي أن تعصف بك كل شاردة وواردة، هذه شبهة وتبقى شبهة، وتزول بتوفيق الله ﷻ وإعانته، فلا تكن ضعيف القلب يؤثر فيك كل شيء، كن قويًا متماسكًا، واعلم أن ورود الشبهة لا يعني صحتها، وليس مُجرد وجودها دليلًا على صحتها، ولا حُسن سبكها أمارةً على صدقها، ولا عدمُ علمك بالجواب عنها ليس دليلًا على انتفاء وجود الجواب، إذن عليك أن تكون قويًا متماسكًا أمامها.

۞ **الأمر الثاني: اللجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصدق وإخبات** ؛ عجِّل بهذا، فإن الهداية بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو الذي يهدي من يشاء، وهو الذي يُضل من يشاء جل ربنا وعز، فاطلب الهداية ممن أزِمَّة الأمور بيديه، والهداية والإضلال منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الجأ إلى الله بصدق وأبشر بالخير، فإن الله يهدي من أناب، ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧]، إن صدقت الله صدقك الله وأزال عن قلبك ما اعتراه، وحذارِ من أن تتكاسل في هذا الأمر، تظن أن هذا الأمر سهلٌ وماذا يعني أن الشبهة تقع في القلب؟!! كم من الناس من وقعت في نفسه الشبهة، لكن ما دعا الله بصدق بإزالتها، ربما ما دعا أصلًا، أو دعا

بقلبٍ غافل، وربما يتعلق قلبه بالعلماء وطلبة العلم لكي يُزيلوا هذه الشبهة عن قلبه أكثر من تعلقه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا من ضعف الإيمان والتوحيد، فالأمر كله بيد الله، والخير كله منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فاجعل فقرك واحتياجك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والجأ إليه بصدق واضطرار، وأبشر بالخير، لن يخذلك الله، فهو الكريم الرحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

۞ **الأمر الثالث: عليك ألا تسترسل معها، وألا تُكثر تقليبها في قلبك،** بعض الناس إذا سمع بشبهة وبدأت تؤثر في قلبه، يبدأ بالنظر فيها، وتحليلها، وتطويرها، والتفريع عليها، ويجد الشيطان مدخلًا عليه من هذا الجانب، وإذا بالحبة تُصبح قُبة، وما هكذا المنهج الشرعي، عليك أن تُخمدها بعدم الاسترسال فيها، فلربما كانت عارضًا ووسوسةً من الشيطان، وتزول عن قريب -بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-.

۞ **الأمر الرابع: إيّاك أن تحكيها لأحد؛** لا تنشرها عند جلسائك، لا تكن سببًا في أن يتضرر غيرُك كما تضررت، من الخطأ إذا جاءت الشبهة يكتب الإنسان في مجموعة يدخلها الصغير والكبير، ويقول: يا أخوة ما جواب هذا الإشكال، أنا أشكل عليَّ الأمر، هذا لا يصلح، بهذا الأمر أنت تجعل الباطل يروج، إنَّما عليك أن تسكت عن حكايتها لغيرك.

۞ **الأمر الخامس: عليك أن تذهب إلى الأطباء تطلب العلاج،** لو أُصبت في بدنك بقليل أو كثير بادرتَ مُباشرةً إلى الأطباء، وهذا لا بأس به حسن، لكن ما يُصيب قلبك أخطر، وضرره أعظم، وهؤلاء الأطباء هم العلماء وطلبة العلم

الراسخون، فعليك أن تذهب إليهم، وأن تطلب منهم الجواب الشافي، ونبيكﷺ قد قال: «**إِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ**»، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣] ، أولوا الأمر هنا: هم العلماء، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، فاذهب إلى عالم أو طالب علم معاصر مُتمكن تظن أن عنده قُدرة على جوابك عنها، وإزالة هذه الشبهة.

۞ **الأمر السادس والأخير: مهما يكن من شيء، فعليك أن تستمسك بالأصول، وأن ترجع إلى القواعد، وأن تردَّ المُتشابه إلى المُحكم**؛ فهذا دواءٌ نافعٌ جدًا، والمؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ أشار إلى هذا الأمر حينما تكلم على الجواب المُجمل في هذه الرسالة، وسنتكلم عنه في حينه بإذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

هذا في حق العامي أو المُبتدئ؛ هذا هو المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه.

أما بالنسبة للعلماء وطلبة العلم الراسخين: فإن المُتعين في حقهم أن ينهضوا إلى كشف هذه الشبهة ونقضها مع مراعاة الحكمة في ذلك، عليهم أن يزنوا المقام بميزانٍ أدق من ميزان الذهب، ثم يُرجِّحوا المصلحة في ذلك، ثم ينهضوا بتوفيق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إلى نقدها، كما فعل الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ؛ فإنه ما وقف وقال: لا حاجة، المُهم أن نُبين الحق ونمضي، ولا حاجة إلى كشف الشبهات . هذا ليس بصحيح، بل هذا من الجهاد المُتعين على القادر عليه الذي لا تكون الكفايةُ إلا بقيامِهِ، هذا مُتعين عليه، ونبيك ﷺ قد قال كما في «سنن أبي داود» و«مسند الإمام أحمد» قال ﷺ: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ**

وَأَلْسِنَتِكُمْ» ؛ هذا جهاد اللسان الذي ينبغي أن يجتهد ويحرص القادرون المُحصِّلون عليه، لا يفوتهم ثواب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه.

هنيئًا لمن وفقه الله عَزَّوَجَلَّ ليذب عن دين الله، وعن كتابه، وعن سنة رسوله ﷺ، وهذا لا شك أنه من الجدال المحمود الذي قد يتعين ويكون في حُكم الفرض، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦] ، وهذه سنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود:٣٢]، كان يُجادلهم وأكثرَ من جدالهم عليه الصلاة والسلام، وهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم الذين هداهم الله ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، فالرد والبيان وتفكيك هذه الشبه هذا من المهمات، والأسلوب يختلف محل اجتهاد، الأسلوب والطريقة والوسيلة في الجواب والرد هذا يختلف، قد يكون بكتاب، قد يكون بوسائل التواصل، قد يكون بمقطعٍ مسموع إلى آخر ما هنالك من هذه الوسائل.

لولا أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد وفق وقيَّض علماء السنة والتوحيد لبيان الحق وإجابة الشبهات، خبِّروني كيف سيكون الحال بعد أكثر من ألفٍ وأربعمائة عام؟ لو قدَّرنا أنه في كل سنة دخل على المسلمين بدعة أو بدعتان أو ثلاث، وزُيِّن في الناس شُبهة أو شبهتان أو ثلاث، تتعلق بالتوحيد ، بالقرآن ، بالسنة، كيف سيكون الحال بعد ألف وأربعمائة سنة؟ سيكون الدِّين دينًا مشوهًا، ربما لا يبقى مما أُنزل على محمدٍ ﷺ كما هو إلا القليل -إن بقي- ، لكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد قيَّض لهذا الدين أولئك الرجال الصالحين الذين انتدبوا لهذا الجهاد العظيم،

وصاروا ممن يُحيون بكتاب الله الموتى، ويُبصِّرون بنور الله أهل العمى، وينفون عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تحريف الجاهلين وانتحال المُبطلين، فمن كان من هؤلاء فعليه أن يحرص على ألا يفوته فضل الله ﷻ، وأن يُصيب من هذا الخير بسهم إن كان من أهل القُدرة عليه.

أخيرًا مسألة تتعلق بهذا التنبيه :

قلنا: عندنا تنبيه يتعلق بموضوع الكتاب، وهو الشُبه المتعلقة بالتوحيد.

وعندنا موضوع يتعلق بالمنهج الشرعي في التعامل مع الشبهات.

وعندنا مسألة قد يرِد تساؤل أو استشكال يتعلق بها، **وهي مسألة: نشر الشبهات وإذاعتها في الناس، فهل يُستحسَن أن نبيِّن للنَّاس الشُّبهة، أو أن نسكت عنها وأن نُعرض عن بيانها؟**

فإن من الناس من يقول: لا ينبغي أن يُخبَر الناس بالشبهة، أميتوا الباطل بعدم ذكره، كذا يقولون، ويُشددون في هذا المقام، أنه لا ينبغي أن يُذكر للناس الباطل ولا يُرد، وإنما علينا أن نُبين الحق، وأن نُميت الباطل بعدم ذِكره.

ومن الناس من يتوسع في هذا المقام، فأي باطل، وأي شبهة، وأيُّ كلامٍ هو من جملة الباطل، صغُر أو كبُر، فإنه يبثُّه في الناس وينشره ويقول: انظروا ماذا يقول فلان، وهل سمعتم ما قال فلان؟ وماذا خرج من الكتب والمصنفات من فلان؟ وإلى آخره .

فما هو الصواب في هذا المقام؟ هل إماتتها؟ أو التعريف بها؟ أو نشرُها؟

الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن الواجب هاهنا التفصيل ؛ فتارةً تكون

الحِكمة في أن يُمات الباطل بإخمال ذِكره، وإخمال ذِكر قائله، والإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد قال كلمة حسنة في مُقدمة «صحيح مسلم» ؛ قال رحمه الله : «إِذِ الإِعْرَاضُ عَنِ الْقَوْلِ الْمُطَّرَحِ أَحْرَى لإِمَاتَتِهِ وَإِخْمَالِ ذِكْرِ قَائِلِهِ» ؛ فهذا مسلكٌ صحيح في محلِّه، والمسلك الآخر صحيحٌ في محلِّه.

عدمُ ذِكر الشبهة، وعدمُ التنبيه عليها، وغضِّ الطرف عن الكلام فيها؛ هذا مُتعين في حال ما إذا كانت الشبهة وكان الباطل مغمورًا خاملًا لم ينتشر في الناس، ولا يكاد يسمع به أحد، فضلًا عن أن يتأثر به أحد؛ ففي هذه الحالة ينبغي أن يُسلَك هذا المسلَك؛ وهو أن تُعرض عن ذِكر الشبهة، ولا تتكلم بها، وإنما أمِتها بعدم ذِكرها.

أمَّا إذا انتشرت الشبهة وكان لها رواج في الجملة، فإن الذي ينبغي التنبيه عليها في مقام الرد عليها؛ تُذكر لأن من لازم ردِّها ذِكرها، كيف تردُّ وكيف تنقد وتنقض شيئًا مجهولًا؟ لابد أن تُذكر، وبالتالي كان ذكرها مُتعينًا لا ذِكرًا مُجردًا، وإنما في مقام الردِّ والنَّقد، **ولكن هذا لابد أن يكون مُنضبطًا وضوابطه ستة، لابد أن يُلاحظ في هذا المقام هذه الضوابط الستة:**

۞ **أولًا: أن تكون** -كما قدَّمتُ- **مُنتشرةً بالفعل،** تكون موجودة، ولها تأثير، ولها رواج، والمُتكلم بها قد أشاعها في الناس، وصارتْ قالةً بينهم؛ فمثل هذه مما ينبغي أن تُذكر فيُحذَّر منها، ومن تلبيس المُلبسين المنحرفين أنهم قد يُشيعون في الناس الجملة السابقة، وهي: «أميتوا الباطل بعدم ذكره»، ومُرادهم أن تسكت الناس عنهم، وهم يشتغلون بترويجها في الناس، فلربما رفعوا هذه

الراية من بعض أتباعهم وجنودهم؛ لأجل أن يُفسح المجال لهم ويسكت أهل الحق عن بيان باطلهم، ولاشك أن هذا مخالفٌ للمنهج الشرعي، وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيها ذِكر شُبه ومقالاتٍ باطلة، ولكن مع بيان بُطلانها بأحسن بيان.

۞ **الأمر الثاني: أن يسبقها تأصيلُ الحق**؛ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما سمعت- كتب هذه الرسالة، وبثها وحثَّ على أن تُقرأ على العامة، لكن متى كان هذا؟ بعد أن انتشرت الدعوة، بعد أن كثُر الكلام في التوحيد في الناس، بعد أن كانت الأصول الثلاثة في نجدٍ يُحفَّظها الناس، كانت تُقرأ عليهم ويحفظونها بعد الفجر وبعد المغرب كل يوم، كان كتاب التوحيد يُدرَّس ويُعلَّم كل وقت، كل المساجد مشغولة ببيان التوحيد، فمن المهم أن يُلاحظ هذا الأمر: وهو أن التنبيه على الباطل مع الردِّ عليه لابد أن يسبقه تأصيل الحق وبيانه ؛حتى يكون بيان الباطل في محله.

۞ **الأمر الثالث: أن يتصدى للرد على الشبهات المُتأهل لهذا المقام** ؛ عالمٌ طالب علم مُتمكن عنده قدرة علمية على أن يرد، فهذا الذي ينبغي أن يكون، أما الجاهل فليس له أن يخوض في هذا المضمار البتة، ليس المقام مقامه، ولا هذا مضماره، إنما يتصدى لكشف الشبه المتأهلون لذلك من أهل العلم.

۞ **الأمر الرابع**: لابد **أن يكون الردُّ على الشبهة قويًا مُحكمًا**، بحيث أن أنواره تُزيل كل ظلمةٍ في القلب كانت منه، الذي لا يقوم بهذا وإنما يرد على هذه الشبهة من طرف القلم -كما يقولون- أو من رأس القلم، بكلمات مقتضبة لا

تشفي ولا تروي، مثل هذا ما أدى حق الإسلام عليه، ولا حصل بكلامه الشفاء، إنما ينبغي أن يكون الرد في غاية الإحكام والقوة، لا من جهة الأسلوب ولا من جهة المادة العلمية، فهذه من المهمات التي ينبغي العنايةُ بها.

❁ **الأمر الخامس: ملاحظة المصلحة في مسألة الإجمال أو التفصيل في ذِكر الشبهة،** فإن هذا المقام يحتاج إلى فقه، هل المصلحة تقتضي أن تُجمل في ذِكر الشبهة، أو أن تُفصِّل القول فيها، وأن تُجليها، وأن تُبين مستندها، وتُطيل الكلام في ذلك، ثم تُعقب على هذا الرد عليها؟ هذا المقام فيه تفصيل:

إن كان كشف الشبهات يُخاطَب به العامة والمبتدئون، فينبغي أن يكون بيان الشبهة بيانًا مُجملًا، وهذا الذي سار عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الرسالة كما سترى إن شاء الله، فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يُجْمِل في الشبهة ، وليس أنه يُفصلُ بيانها، لم يكن منه هذا الأمر.

وأما في مقام كشف الشبهات المخاطَب به المتخصصون - كُتب متخصصة ورسائل متخصصة في غالب الظن لن يطَّلع عليها ولن يُقبِل عليها إلا أُناس متخصصون- **أو أن تكون موجَّهة إلى الضالين أنفسِهم وإلى أتباعهم؛** في هذه الحال ينبغي أن يكون عرض الشبهةِ مُفصلًا، ولذا؛ لو قارنت بين كشف الشبهات هذه الرسالة التي بين أيدينا، وبين الكتب المطولة التي كتبها أئمة الدعوة مثل: «كشف ما ألقاه إبليس» للشيخ عبد الرحمن بن حسن، أو «مصباح الظلام»، أو «منهاج التأسيس والتقديس» للشيخ عبد اللطيف، أو «الصواعق المرسلة الشهابية»، أو «الضياء الشارق» كلاهما للشيخ ابن سحمان، لو نظرت

في هذه المدونات الكبيرة تجد أن الشُّبه كانت فيها مُفصلة، فيها تتبُّع لمقالة هؤلاء الضالين المردود عليهم، ثم يُعقِب هذا الرد المفصَّل الشافي.

إذن لابد من ملاحظة هذا الأمر، فإن من الناس من إذا رد أحسن إيراد الشبهة، وفصَّل فيها، ثم جاء الجواب مُقتضبًا مُجملًا؛ وهذا لا شك أنه خطأٌ كبير، وربما ترتب عليه مفسدةٌ عظيمة.

❁ **الأمر السادس والأخير**: لابد **أن يكون الردُّ على الشبهةِ عقيب إيرادها مباشرة**، ولا يصح تأخير هذا، لا ينبغي أن تكون الشبهة نقدًا، وأن يكون الجواب نسيئةً، هذا من الخطأ الكبير، بل لابد أن تُتبع -يا أيها الراد والكاشف للشبهة- الرد عقيب إيرادك الشبهة ولا تؤخر ذلك، بعض الناس ربما تكلم أو كتب قال: (مما يبثه أهل الضلال كذا وكذا ، أو مما يقول المبطلون كيت وكيت، وهذا كلام باطل وسيأتي الرد عليه لاحقًا، وإن شاء الله في مجلسٍ آخر سوفَ نرد على هذه الشبهة)، تجد أنه نشر داءً وأثار شُبهة ربما تقع في القلوب ولم يُعالجها؛ هذا لاشك أنه خطأ، بل الذي ينبغي ، وهذا الذي ترى أهل العلم سائرين عليه، لو نظرت في كلام عثمان بن سعيد الدارمي، لو نظرت في كتب شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «بيان التلبيس»، في «المنهاج»، في غيرها من كتب الردود عند شيخ الإسلام، في كتب أئمة الدعوة رحمهم الله، تجد أنه يقول قال فلان وقال المُبطل أو قال الضال فلان كذا وكذا، والرد عليه من وجوه ؛ واحد اثنين ثلاثة أربعة، هكذا ينبغي أن يكون كشف الشبهات يا طلاب العلم.

نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يُعيذنا من الفتن، ما ظهر منها وما بطن. وأن يرزقنا العلم

النافع والعمل الصالح، والإخلاص في القول والعمل.

قال المصنف رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين.

اعلمْ رحمك الله أن التَّوحيد: هو إفرادُ الله سبحانه وتعالى بالعبادة، وهو دين الإسلام، وهو دين الرُّسل الذي أرسلهم الله به إلى عبادِهِ.

قال الشارح وفقه الله:

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بسم الله الرحمن الرحيم**) ؛ بدأ عليه رحمة الله بالبسملة كعادته في كتبه ورسائله اقتداءً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ثم قال: (**اعلمْ رحمك الله**) هذه طريقةٌ يسلُكها إمامُ الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عددٍ من كتبه ورسائله ؛ حيثُ يفتتح كلامه بهذه الجملة: (**اعلمْ رحمك الله**)، وهذا ما كان قد مضى عليه كثيرٌ من الأئمة المتقدمين، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُحبُ أن ينسج على منوالهم، فكانوا ربما افتتحوا كما فعل أبو عُبيد القاسم بن سلّام في «كتاب الإيمان»، افتتحوا كتبهم بمثل هذه الكلمة، أو في أثناء كتبهم يورِدون هذه الجملة: (اعلم رحمك الله)، كما تجدُ هذا كثيرًا عند علماء الاعتقاد وغيرهم كالبربهاري في «السنة»، وابن بطة، وكثير من الأئمة، وإلى المتوسطين كشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه كان يقع منهم مثل هذه الجملة (**اعلم رحمك الله**).

وهذه الجملة فيها فائدتان:

❁ **الأولى**: لفتُ الانتباه في قوله: (اعلمْ)؛ هذه جملة يُراد منها أن يشحذ طالب العلم المتلقِّي لهذا العلم الذي يُلقيه الإمام، أن يشحذ همته، ويُرخيَ سمعه لسماع هذا الذي يُلقيه الإمام له، (اعلمْ).

۞ وقوله: (رحمك الله) فيه **الفائدة الثانية**؛ إذْ في هذا الدعاء من التلطف بالمتلقي ما لا يخفى عليك، وحاجة العالِم من المُتعلِّم هذان الأمران: أن يُرخي سمعه وأن يفتح أُذنه لما يُلقيه له، وأن يفتح قلبه وعقله له؛ فإنه إذا تلطف به وترفَّق، وأبدى له حرصه عليه، وأبدى له محبة الخير له، فإنه يُقبِل بقلبه وعقله عليه، ويفتحُ هذه النوافذ النفسية؛ لأجل تلقي ما يُلقيه العالِم، وهذا الذي يُريده العالِم من المتعلم، وهذا من حكمة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ والأئمة من قبله؛ أنهم يسلكون مثل هذا المسلك الحسن في إلقاء العلم للمتعلمين.

(اعلم رحمك الله أن التَّوحيد: هو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة)؛ كلمة التوحيد كلمة مأثورة جاءت بها السنة في عددٍ من الأحاديث، كما عرفنا هذا أو عرفه كثيرٌ منكم في دروس كتاب التوحيد، وذكرنا أدلةً من السنة عدة تدل على أنَّ هذه الكلمة كلمةٌ مأثورة دلت السنة عليها، وتكلم الصحابة رضي الله تعالى عنهم بها.

وقوله هنا: **(اعلمْ رحمك الله أن التَّوحيد: هو إفرادُ الله سبحانه وتعالى بالعبادة)**، هذا من باب إطلاق الكُل على الجزء، فالذي ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى التوحيد إنَّما هو جزءٌ من التوحيد، إنما هو قِسمٌ منه، وإلا فالتوحيد بمعناه الشامل يشمل توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات أيضًا، لكنَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ركز على هذا التوحيد؛ كأنه يقول لنا: التوحيد الأهم، التوحيد الذي هو مدار دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، التوحيد الذي كان محل الخصومة بين الأنبياء وأُممهم إنَّما هو هذا التوحيد الذي معناه: **إفراد الله تعالى**

بالعبادة، وهذا هو توحيد العبادة، وهذا هو توحيد الألوهية، يُقال له: «**توحيد الألوهية**» باعتبار الموحَّد، ويُقال له: «**توحيد العبادة**» باعتبار الموحِّد، ويُقال له أيضًا: «توحيد الإرادة والقصد» ؛ هذا هو التوحيد الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام ابتداءً من نوح، وختامًا بمحمدٍ على الجميع الصلاة والسلام.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وهو دين الإسلام، وهو أيضًا دين الرُّسل الذي أرسلهم الله به إلى عبادِهِ)**.

هذا التوحيد هو إفرادُ الله بالعبادة، ولا حظ أن المؤلف يقول: **(إفرادُ الله سبحانه وتعالى بالعبادة)**، لم يقل: هو عبادةُ الله، لأن التوحيد ليس هو عبادة الله، إنما هو إفراد الله بالعبادة، كلمة (إفراد) هنا كلمة مقصودة تتضمنُ أمرين: النفي، والإثبات، ولا توحيد إلا بهما، إفراد الله بالعبادة تعني: أن تُثبت العبادة لله عزوجل، وأن تنفيها عمَّا سواه، أن تعتقد أن العبادة حقٌّ لله، وأنَّ صرفها لغير الله عز وجل باطل، هذا هو الإفراد ؛ تجمعُ بين النفي والإثبات في هذه القضية الكبرى، ألا وهي قضية العبادة.

هذا التوحيد هو دين الإسلام ولاشك، هذا هو أساس الملة، هذا الذي أُسِّست الشريعة عليه، هذا أول وأولى وأهمُّ أركان الإسلام، وكل أركان الإسلام ومبانيه مبنيةٌ عليه، وراجعةٌ إليه، فـ(لا إله إلا الله) هي الكلمة المُعبِّرة عن التوحيد، (لا إله إلا الله) كلمة التوحيد، وبقية أركان الإسلام وجميع شرائع الإسلام راجعةٌ إلى هذه الكلمة العظيمة وإلى هذا التوحيد، إذن هذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام، ولم يكن رسول الله ﷺ بِدْعًا من الرسل، إنما جاء بما جاء

به الأنبياء من قبله، فهو دينه ودين الأنبياء والرسل من قبله عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

قال: (**وهو أيضًا دين الرُّسل الذي أرسلهم الله به إلى عبادِهِ**)؛ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. هذا هو دين الرسل جميعًا عليهم الصلاة والسلام.

وهذا التوحيد -أيضا- هو الأصل في بني آدم، الله عز وجل فَطَرَ العباد على هذا التوحيد، لو خُلِّي الناس وما فطرهم الله عليه، ولم يكن ثمة مؤثرٌ خارجي يؤثر فيهم لبقوا على هذا التوحيد، قال الله عز وجل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣]، كانوا أمةً واحدةً على التوحيد فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، ولذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «بين آدم ونوح عشرة قرون كلها على شريعةٍ من الحق» يعني كلها على التوحيد، «فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» ، وهذا أثرٌ صحيح أخرجه الطبري وغيره بإسنادٍ صحيح لابن عباس رضي الله عنهما، وجاء عن غيره من السلف؛ جاء عن قتادة وعن عكرمة، وجاء عن غيرهما من السلف عليهم رحمة الله.

ويؤيد هذا أيضًا حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه وهو مُخرج في «صحيح مسلم» ؛ أن النبي ﷺ أخبر عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ» كلهم كانوا حنفاء كانوا موحدين يعبدون الله وحده، «وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ

لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»، هكذا فطر الله سبحانه وتعالى العباد على التوحيد، فالشركُ في البشرية طارئٌ وليس أصيلًا، الأصيل فيهم إنما هو التوحيد، أيُّ طفلٍ يولد، ولو كان من أبوين ملحدَين أو يهوديين أو نصرانيين، فوالله إنه يولدُ وهو على التوحيد، لكن مع الأسف أبواه يهوِّدانه أو يُنصرانه أو يمجِّسانه، يصرفانه عن هذه الفطرة التي فطره الله تبارك وتعالى عليها.

قال المصنف رحمه الله:

فأولهم نوحٌ عليه السلام، أرسله الله إلى قومِهِ لما غلوا في الصالحين، ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا.

قال الشارح وفقه الله:

يقول: هذا دين الرسل عليهم الصلاة والسلام، من هؤلاء الرُّسل؟ يقول: كلهم، من أولهم إلى آخرهم، (**فأولهم: نوح عليه الصلاة والسلام**)؛ نوح عليه الصلاة والسلام أول الرسل، كما ثبت في «الصحيحين» في حديث الشفاعة أنَّ آدم أبا البشر عليه الصلاة والسلام يقول للناس: «ائْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ»، فيأتونه فَيَقُولُونَ: «أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أُرْسِلَ إِلَى الأَرْضِ».

وقد بعثه الله عز وجل بهذا التوحيد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩]، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح:١]. فهو كان داعيةً إلى التوحيد، وناهيًا عن الشرك عليه الصلاة والسلام، بعثه الله عز وجل لما حدث في قومِهِ أول شركٍ على وجه الأرض، وهو الشرك بمن سمعت: بوَد وسواع ويغوث ويعوق ونسرًا، هؤلاء كما أخرج البخاري رَحِمَهُ اللهُ عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «هذه أسماء رجالٍ صالحين في قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان»، الشيطان هو السبب المؤثر في وقوع الشرك، «أوحى الشيطان إلى

قومهم أن انصبوا أنصابًا في مجالسهم وسمّوها باسمهم، ففعلوا فلم تُعبد، فلمَّا هلك أولئك، ونُسِخَ العلم» وفي نسخة عند البخاري: «وتنسَّخ العلمُ عبدوهم»؛ وهذا الذي كان منهم.

والذي يتحقق من مجموع الروايات الواردة في شأنهم -كما بيَّن هذا ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أنهم أول الأمر عكفوا عند قبورهم، ثم نصبوا لهم تلك الأصنام، ثم عبدوهم، هكذا فعلوا، فهذا أول شركٍ وقع على وجه الأرض ، بين آدم ونوح عشرة قرون ما كان يُعرف فيهم الشرك ولا وُجد فيهم الشرك، وهذا أول شركٍ وقع على وجه الأرض، وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه، والذي حدَّثنا به ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وهو أثرٌ صحيح، بل في غاية الصحة. ودعك ممن يُشغب على إسناد هذا الأثر فهو في صحيح البخاري بإسنادٍ صحيح متصل، وأما التشغيب في رواية ابن جريج عن عطاء والكلام في عطاء هل هو الخراساني، أو هو ابن أبي رباح؟ فدعك من هذا التشغيب، وأُحيلك يا طالب العلم إلى ما بحثه ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتح» في هذه المسألة.

المقصود أن هذا أولُ شركٍ وقع على وجه الأرض، وقبله لم يكن ثمة شرك، وما ذكره الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تاريخه» أنَّ أول شركٍ كان من قابيل ابن آدم عليه الصلاة والسلام، وأنه بعد أن قتل هابيل عبَد النار؛ هذا ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلا إسناد، وإنما قال: ذُكر كذا وكذا، وهذا لا عبرة به.

كذلك ما يذكره غيره كما نقله ابن الكلبي في كتاب «الأصنام» ؛ بدأ الشرك في أولاد قابيل، هذا كله ليس بصحيح، بل تلك الحقبة كانوا على التوحيد، وإنما

نشأ وبدأ الشرك في عهد قوم نوح، فأرسل الله سبحانه وتعالى نوحًا عليه الصلاة والسلام إليهم.

في هذا الموضوع -في مسألة حدوث الشرك- في قصة وَد وسواع ويغوث ويعوق ونسر، عندنا عدة فوائد:

۞ **الفائدة الأولى:** أن نعلم أن أول شركٍ وقعَ في الأرض كان سببه تعظيم الصالحين، لأن هذه الأنصاب التي نُصبت لهؤلاء الصالحين إنما كانت لأجل أنهم معظِّمون لهم، ويُريدون أن يتذكروهم لأجل أن يتشوَّقوا إلى العبادة، وكان ابتداء الأمر هكذا، ثم لمَّا هلك الذين كانوا يعلمون الحقيقة والسبب لنصب هذه الصور جاء من قال هؤلاء معظَّمون ولهم شفاعةٌ عند الله عز وجل؛ فعبدوهم لأجل ذلك.

وهذا يدلك على خطر الغلو في الصالحين، ويُرشدك إلى السبب الذي جاءت الشريعة بالتحذير من هذه المُصيبة الكبرى التي يقع فيها من يقع من الجُهال؛ وهو الغلو في الصالحين، فإن هذا الغلو أوردَ أولئك المشركين مورد الشرك، وأوقعهم فيه، وهكذا يُزين الشيطان من خلال هذه الأُحبُولة لكثير ممن يُطيعه من الجُهال، فالغلو في الصالحين مبدأ الشرك؛ فحذارِ.

۞ **الفائدة الثانية:** ما جاء في أثر ابن عباس رضي الله عنهما السابق؛ وهو في بيان متى حصل الشرك؟ متى عُبد أولئك الصالحون؟ لما تنسَّخ العلم، لما نُسي العلم، لما قلَّت الدعوة إلى التوحيد، برز جُهال أوحى إليهم الشيطان، فوقعوا في الشرك.

إذن الشرك لا ينشأ ولا يترعرع إلا في بيئةٍ جاهلة، إلا في بيئة قاحلة، لـم ترتـوِ بالدعوة إلى التوحيد، أما متى ما كـان نبعُ الـدعوة إلـى التوحيـد دفَّاقًا ساريًا في الناس، فإنهم يكونون -بتوفيق الله- في حماية وصيانة مـن الوقـوع في الشـرك. إذا تنسَّخ العلم بالتوحيـد، إذا نُسي العلـم بالتوحيـد، إذا تقـاعس الـدعاة إلـى الله عـز وجل عن الـدعوة إلـى التوحيـد، فلينتظـروا انتشـار الشـرك ؛ هـذا درس ينبغـي أن يعيَه الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا العصر الذي نعيشه الناس فيه أحوج ما يكونون إلى الدعوة إلى التوحيد ليل نهار .

اليوم وُجد في الناس من يُشغِّب على التوحيـد، بـل يُلـبِّس علـى النـاس، بـل يقلِب دين الله سبحانه وتعالى رأسًا على عقب، يُحـادُّ الله ويُحاد رسـول الله ﷺ، يُزين للناس الكفـر والشـرك بـالله عـز وجـل، وقليـل -مـع الأسـف الشـديد- مـن ينبري للدعوة وللبيان وللتنبيه وللتحذير، إذا ضعُفت الدعوة إلى التوحيد تخـرج الأصوات التي تقـول: "كـلٌ يعبـد الله، كلهـا طُـرق شـتى توصـل إلـى الله سـبحانه وتعـالى، ولـو كنـت نصـرانيًا تسـجد للصـليب وتعبـد مـريم أو عيسـى، أو كنـت ساجدًا لبوذا، أو كنتَ عاكفًا عند النَّار للمجـوس، أو كنـتَ تعبـد الـولي الفـلاني والنبي الفلاني عند مشهد أو عند قبر، كلها طُرق توصل إلى الله عز وجل" .

يا لله العجب! كيف بإنسـان يتفـوَّه بمثـل هـذا الكـلام، بـل كيـف بـأن توجـد عقول تسمع لهذا الكلام وتتقبله!! وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ من البدايـة وإلـى النهاية كلها تُبين أن هذا عينُ ما وقع فيه أعداء الله عز وجل، وأن هذا هو الشـرك، وأن هذا هو الكفر، وأن النبي ﷺ وأن الأنبياء قبله ما بُعثوا إلا لبيـان أنـه لا طـريق

يوصل إلى الله إلا التوحيد، ولا طريق يوصل إلى الله بعد بعثة محمدٍ ﷺ إلا باتباعه عليه الصلاة والسلام. فينبغي على الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى أن يتنبهوا، وأن يحذروا، وأن يتقوا الله في أنفسهم، وأن يجتهدوا في الدعوة إلى التوحيد.

۞ **الفائدة الثالثة**: مبدأ الشرك الذي كان في قوم نوح كان شركًا بالسُّفليات، وهكذا مضى من كان من المشركين بعد قوم نوح إلى أن جاء قوم إبراهيم، فانتقلوا إلى الشرك بالعلويات، وهكذا انفصلت المعبودات من دون الله عز وجل إلى علويات وسفليات .

مبدأ الشرك -كما قد سمعت- كان شركًا بالصالحين، هذه الأصنام نُصبت على صور الصالحين، والذي عُبد أولئك الصالحون الذين نُصبت لهم هذه الأصنام، وفي قوم إبراهيم انتقل الشرك -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ- انتقل هؤلاء المشركون إلى الشرك بالعلويات، فصاروا يعبدون الكواكب، ويزعمون أن لها روحانيات، وأنها عقولٌ ناطقة، وأنها تُقرب إلى الله سبحانه وتعالى فعبدوهم، وهكذا مضى الشرك في الناس إما أن يُشرك به بعلوي كالملائكة، أو الكواكب، أو الشمس، أو القمر، وإما أن يُشرك به سبحانه وتعالى بسفلي كالصالحين والأنبياء والجن وما إلى ذلك.

۞ **الفائدة الرابعة**: لماذا تُعبد الأصنام؟ لا يوجد عاقلٌ يصنعُ صنمًا بيده ثم يدَّعي أنه إلهه فيعبده، الأصنام إنما عُبدت لأنَّ المقصود بها استحضار غائبٍ يُراد عبادته، يعني الصنَّم إنما صنعه أهله على هيئة المعبود الذي يُراد أن يُعبد إما

على هيئته وإما على هيئةٍ ترمز إليه؛ إما على هيئته كأن يُصنع صنمٌ على صورة صالحٍ من الصالحين، أو يكون مصنوعًا على هيئة ما يرمز له كالأنصاب، والأصنام التي تُصنع للملائكة أو للكواكب، فهذا هو الذي فعلوه ؛ أنهم يصنعونه على هذه الهيئة ليكون الصنم نائبًا مناب المعبود، وليكون قائمًا مقام المعبود، هذا هو الذي لأجله اتخذوا هذه الأصنام، فالأصنام من -حيثُ هي- مرادةٌ لغيرها وليست مرادةً لذاتها، والعقلاء كلهم يُدركون ذلك، وربما كان في الجُهال من لم يفهم هذا، وظن أن الأصنام مقصودةٌ لذاتها، وإلا فالأمر ما وصفتُ لك.

۞ **الفائدة الخامسة**: ينبغي أن نعلم أنَّ عبادة الأصنام أضلَّت كثيرًا من الناس، بل الفتنةُ بالأصنام طبَّقت الأرض، ولم ينجُ من هذه الفتنة إلا الحنفاء الموحدون من عهد قوم نوح وإلى يومنا هذا، قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦] ، إي والله، قد ضل بهذه الأصنام كثيرٌ من الناس كما سمعت في قوم نوح، وهلمَّ جرًّا إلى زمن رسول الله ﷺ، فإنه قد كثُرت الأصنام كثرةً عظيمة، وفي «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ عام الفتح لما دخل مكةَ ووصل إلى الكعبة، وجد حول الكعبة ثلاثمائةٍ وستين نُصُبًا، فكان ينكتها ويطعن فيها بعودٍ في يده عليه الصلاة والسلام وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا»، حتى الكعبة في جوفها، وضعوا هُبل ذلك الصنم العظيم، وهكذا في أنحاء متفرقة في جزيرة العرب

وُجدت الأصنام، وهكذا في خارج جزيرة العرب وُجدت الأصنام، وهلم جرًّا استمر الأمر إلى يومنا هذا ، فما أكثر الأصنام والأوثان التي تُعبد من دون الله عز وجل.

كم الذين يعبدون الصليب؟ وكم الذين يعبدون الأصنام المصورة على ما يزعمون أنه صورة عيسى أو صورة مريم؟ وكم الأصنام التي نُصبت لبوذا؟ وكم الأصنام التي نُصبت لآلهة كثيرة تُعبد من دون الله عز وجل؟ بل كم تلك القبور التي هي أوثانٌ تُعبد من دون الله سبحانه وتعالى في مشارق الأرض ومغاربها؟ ربما وجدتَ في البلدة الواحدة عشرة آلاف أو خمسة آلاف أو ستة آلاف من القبور التي تُعبد من دون الله سبحانه وتعالى؛ تُشد الرحال إليها، ويُطاف بها، ويُنحر عندها ويُتمسح بها، ويُسجد لها، ويُدعى أربابها من دون الله سبحانه وتعالى، إذن الفتنة بالأصنام والأوثان فتنةٌ عامة طبَّقت الأرض كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما نجا من هذا إلا الحنفاء الموحدون» أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.

❁ **الفائدة السادسة**: افتتاح المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكتابه ببيانِ ما كان عليه الأمر في ابتداء عبادة الأصنام افتتاحٌ في غاية الحُسن؛ لأنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُريد أن ينتقل من هذا إلى بيانِ حقيقةِ الشرك الذي كان ولا يزال عليه القبوريون، بمعنى: المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُريد أن يُبين لنا -كما سيظهر لك لاحقًا بعون الله- أنه لا فرق بين ما يكون من عُبّاد الأصنام، وما يكون من عُبّاد القبور، إذن فالحكم في الحالين واحد، لا يوجد فارقٌ مؤثر بين هؤلاء وهؤلاء إذن الحُكم حكمٌ واحد، ولذا يُمكن أن

نستخلص قاعدة ستُفيدنا فيما يُستقبل؛ وهي: (كل ما وقع من عُباد الأصنام، فإنه واقعٌ من عُباد القبور)، هؤلاء يتبعون هؤلاء حذو القذة بالقذة، كل ما وقع من عُبَّاد الأصنام فإنه واقعٌ من عُباد القبور، وسترى هذا بعون الله سبحانه وتعالى.

قال المصنف رحمه الله:

وآخِرُ الرسل محمدٌ ﷺ، وهو الذي كسَّر صور هؤلاء الصالحين.

❁ ❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

نبينا ﷺ كسَّر صور هؤلاء، إن أُريد بهؤلاء ودًا وسواعًا فنعم، ولذا في كتاب الأصنام أن هذه الأصنام بقيت في الناس يعبدونها إلى أن كسَّرها رسول الله ﷺ، وجاء في كتب التاريخ والسير ما يُفيد ذلك، فالنبي ﷺ بعث عمرو بن العاص فهدم سُواعًا الذي كان في قوم هُذيل، وكان هذا عام الفتح، وبعده في غزوة تبوك بعث خالد بن الوليد فهدم وَدًا وكان ذلك في غزوة تبوك، أرسله إلى دومة الجندل فهدم ودًا، الذي كان أول هذه المعبودات وكان أهمها وأكبرها.

والنبي ﷺ تكسير الأصنام غايةٌ من غايات بعثته وسنةٌ من سُننه عليه الصلاة والسلام، ففي «صحيح مسلم» من حديث عمرو بن عَبَسَة رضي الله عنه أنه لما تلطف حتى وصل إلى النبي ﷺ وهو متخفٍ في مكة مع أصحابه قال: مَا أَنْتَ ؟ قَالَ : «أَنَا نَبِيٌّ» ، قال : وَمَا النَّبِيُّ ؟ قَالَ: «رَسُولُ اللهِ» ، قال: اللهُ أَرْسَلَكَ ؟ قَالَ : «نَعَمْ» ، قال : فِيمَا أَرْسَلَكَ ؟ قَالَ : «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَتُكَسِّرَ الأَصْنَامَ وَأَنْ تَصِلَ الأَرْحَامَ» .

لأجل هذا بُعث نبينا ﷺ، وكانت هذه سنته عليه الصلاة والسلام، كانت السنة الفعلية، فهو قد تولى هذا بيده عليه الصلاة والسلام -كما قد علِمت ذلك- في عام الفتح، وكانت -أيضا- الأوامر المتتابعة منه عليه الصلاة والسلام لأصحابه؛ فكان يكسر الأصنام بأمره عليه الصلاة والسلام، فيُرسل الصحابة،

أرسل خالدًا -كما سمعت- فهدم ودًّا كذلك العُزى، كذلك أرسل عمرو بن العاص إلى سواع، وأرسل جرير بن عبد الله إلى ذي الخلَصة، وأرسل غير أولئك من الصحابة رضي الله عنهم جميعًا إلى هدم هذه الأصنام .

بل النبي ﷺ لا يستريح إلا إذا كُسرت الأصنام والأوثان، في هذا راحته عليه الصلاة والسلام، ألم تسمع إلى قوله ﷺ: «مَن يُريحني من ذي الخلصة؟» ماذا تجد تحت هذه الكلمة؟ إذن راحة النبي ﷺ بأن تُكسر هذه الأوثان والأصنام وهذه الأنصاب التي تُعبد من دون الله سبحانه وتعالى، فأرسل عليه الصلاة والسلام جرير بن عبد الله فهدمها ﷺ ورضي الله عن أصحابه.

إذن النبي ﷺ كان أحرص شيءٍ على هدم كل ما يُشرك به من دون الله عز وجل، بل في حديث أبي الهياج عن علي رضي الله عنه قال: «ألا أبعثك على ما بعثني به رسول الله ﷺ ؛ ألَّا تدع وثنًا إلا طمسته، ولا قبرًا مُشرفًا إلا سويته».

قال المصنف رحمه الله:

أرسله الله إلى أُناسٍ يتعبَّدون ويحجون ويتصدقون، ويذكرون الله، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله عز وجل ؛ يقولون: نُريد منهم التقرب إلى الله، ونُريد شفاعتهم عنده.

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بيانِ الحال التي كان عليها الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ من مشركي العرب، **وحقيقة ما كان عليه هؤلاء المشركون الذين بعث فيهم النبي ﷺ يتلخص في خمسة أمور:**

❁ **أولًا: أنَّ هؤلاء المشركين كانوا يعرفون الله ويعتقدون وجوده**، لم يكونوا ملاحدة، كانوا يُقرون بوجود الله عز وجل ويعرفونه، وهذا لا شك فيه ولا ريب، وكل ما جاء عنه في هذا الباب فإنه يدل على هذا.

❁ **ثانيًا: أنهم كانوا يُقرون أن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون** وهو الرازق وهو المُدبر وحده لا شريك له، واللهِ ما اعتقدوا أن شيئًا من آلهتهم التي يعبدونها شاركت الله عز وجل في خلق نملةٍ واحدة، فضلًا عن أن تكون شاركت الله عز وجل في خلق السماوات، وخلق الأرض، وخلق الشمس، وخلق الكواكب، وأنها شاركت الله عز وجل في إنزال الماء من السماء، وشاركت الله عز وجل في إجراء الأنهار، وشاركت الله عز وجل في جعل الرواسي والجبال؛ ما اعتقدوا هذا، اعتقدوا أنَّ هذا مما انفرد الله سبحانه وتعالى به، وسيأتي التدليل على هذا لاحقًا من كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونزيد بعون الله عز وجل بسطه.

❁ **ثالثًا: كانوا يتعبدون لله عز وجل بأنواع العبادات** كما سمعت في كلام المؤلف، وسنشرحه عن قريب، ما كانوا منكرين لعبادة الله وجاهلين عنها، هذا خطأ كبير أن يُظن في المشركين الذين كفرهم رسول الله ﷺ وقاتلهم كانوا لا يعبدون الله، ليس الأمر كذلك، بل كانوا يعبدون الله بأنواع العبادات.

❁ **الأمر الرابع: أنهم كانوا مع عبادتهم لله يُشركون به غيرَه**؛ يعبدون الله ويعبدون غيره، هذا هو البلاء والمحنة التي وقعوا فيها، كانوا يُشركون مع الله سبحانه وتعالى في العبادة؛ ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر:١٢]، كانوا يُصرِّحون -ليست القضية تُهمة يُتهمون بها-، كانوا يُصرحون بأنهم يشركون مع الله، بلسانهم يقولون هذا: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، إذن هم يعترفون بأنهم مُشركون، ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ﴾ [الأنعام:١٩]، هم يشهدون أن مع الله شركاء وآلهة يعبدونهم مع الله سبحانه وتعالى، وهذا هو مكمن الضلال الذي لأجله كانوا كُفارًا؛ أنهم أشركوا مع الله سبحانه وتعالى في عبادته.

❁ **الأمر الخامس والأخير: أنهم إنما أشركوا لسبب، هذا السبب هو: أنهم يطلبون شفاعة هذه الآلهة، وأن تُقربهم إلى الله**، ما أشركوا بهبل، واللات، والعزى، ومناة، وإيساف، ونائلة، وود، وسواع، و...إلى آخره، ما أشركوا -والله- بها إلا لهذه الغاية ولهذا الهدف؛ أن تكون هذه الآلهة شفعاء لهم عند الله عز وجل وتُقربهم إليه زُلفى، وسيأتي إن شاء الله الأدلة الناصعة الواضحة الجلية في هذا المقام.

إذن خلاصة حال هؤلاء المشركين تتلخص لك في هذه الأمور الخمسة فاستيقن بها:

❁ أولاً: كانوا يعرفون الله ويُقرون بوجوده.

❁ وثانيـًا: كانوا يعتقدون أنه وحده الذي خلق هذا الكون كله، وأنه وحده الذي يرزق ويُدبر أمره.

❁ وثالثًا: كانوا يتعبدون لله عز وجل.

❁ ورابعًا: أنهم كانوا مع عبادتهم لله يعبدون غيره، وهذا هو الشرك الذي وقعوا فيه.

❁ وخامسًا: أنهم ما أشركوا إلا لشيءٍ واحد، هو أنهم يطلبون شفاعة الآلهة وأن تُقربهم إلى الله سبحانه وتعالى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أرسله الله إلى أُناسٍ يتعبَّدون**)، كان في الناس بقية من دين الأنبياء من قبل، ولا سيَّما من دين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

ثم فصَّل شيئًا من هذه العبادات فقال: (**ويحجون**)، وهذا مستفيض، وارجع إن شئت عند تفسير قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة:١٩٩]، كانوا يقفون المواقف، كانوا يقفون بعرفات هؤلاء المشركون، إلا الحُمس -قريش ومن والاها- لا يخرجون من الحرم، نحن أهل الله فلا نخرج من حرم الله، لكنَّ بقية هؤلاء المشركين كانوا يقفون بعرفات، وكانوا يقفون بمزدلفة لكنهم ينفرون بعد شروق الشمس، وكانوا يبيتون بمنى، وكانوا يرمون الجمار، وكانوا يطوفون بالبيت، وكانوا يسعون بين الصفا

والمروة، وكانوا ينحرون لله عز وجل الهدايا؛ كانوا يحجون لله سبحانه وتعالى.

قال: (**ويتصدقون**)؛ يُنفقون الأموال ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى، ويُعتِقون، وينحرون، ويُطعمون الفقراء، والأخبار في هذا كثيرة جدًا؛ ودونك ما كان من العاص بن وائل كما عند أبي داود وأحمد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية -ونذره كان لله- أن ينحر مائةً من الإبل، وفي الرواية الأخرى: «أن يُعتق مائة رقبة»، يُريد هذا وجه الله، فكان من هشام بن العاص أن قام بحصته، أما عمرو رضي الله عنه فإنه سأل النبي ﷺ فقال: أما إنه لو كان مُسلمًا فتصدقت عنه وأعتقتَ عنه وحججتَ عنه بلغه ذلك» ، إذن كان القوم يتصدقون.

قال: (**ويذكرون الله**)؛ وذكر الله في ألسنتهم وأشعارهم ونثرهم كثير، ودونك ما جاء في كتب الأدب وكتب التاريخ وكتب التفسير من أخبار كثيرة فيها ذِكر الله عز وجل، وكانوا يُقسمون بالله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨] ، وكانوا يدعون الله، ولهم في هذا أشعار وأخبارٌ كثيرة، «اللهم إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك» كما قال عبد المطلب لما جاء أبرهة لهدم الكعبة، وكانوا -أيضًا- يُصلُّون لله سبحانه وتعالى، وفي «صحيح مسلم» أخبر أبو ذر رضي الله عنه أنه صلى قبل مبعث رسول الله ﷺ سنتين ، وفي الرواية الأخرى في مسلم: «ثلاث سنين»، ولما سُئل إلى أين كنت تتوجه؟ قال: «إلى حيث وجَّهني الله».

إذن القوم كانوا يُصلون، وكانوا يصومون أيضًا، في «صحيح مسلم» عن

عائشة رضي الله عنها قالت: «كان قريش في الجاهلية تصوم عاشوراء»، فكانوا يتعبدون لله عز وجل بالصوم. وكانوا ينذرون، وكانوا يطوفون، وكانوا ينحرون في أخبار كثيرة، وكانوا يعتكفون، وفي «صحيح البخاري» أن عمر رضي الله عنه نذر في الجاهلية أن يعتكف ليلةً في المسجد الحرام.

إذن القوم كانت عندهم عبادات متنوعة يتقربون بها إلى الله سبحانه وتعالى، ولكن هل هي عباداتٌ صحيحة؟ هل هي عباداتٌ حقيقية؟ الجواب: لا، ولا تنفعهم: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

هنا وقفة؛ قد يقول قائل: كيف الجمع بين ما ذكرت، وبين ما جاء في سورة الكافرون من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:١-٣]؛ ظاهر هذا أنهم كانوا لا يعبدون الذي يعبده النبي ﷺ، والنبي ﷺ كان يعبد الله، إذن كيف نفهمُ هذه الآية؟

الجواب: أن «ما» في قوله: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ إن كانت مصدرية، فالأمر واضح؛ فإن المعنى حينئذٍ: (وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ عبادتي)، وما عبادة النبي ﷺ؟ عبادةٌ مُخْلَصة لله سبحانه وتعالى، هذه التي أمر الله نبيه ﷺ أن يعبد الله عز وجل مُخلصًا له الدين، وهذا لم يكن المشركون يفعلونه، فصدق الله حينما قال: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

وإن كانت «ما» موصولة يعني: (ولا أنتم عابدون الذي أعبد)، فهذا حق؛

وذلك أن العبادةَ تُطلق بإطلاقين:

◉ **تُطلق باعتبار صورتها.**

◉ **وتُطلق باعتبار حقيقتها.**

فيكون النفي واردًا على حال، والإثبات واردًا على حال، العبادةُ تثبُت باعتبار صورتها، وهذا الذي أراده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا الذي جاء في مواضع في كتاب الله عز وجل، ومنها قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٥-٧٧]، هذا الاستثناء يدل على أن قومه كانوا يعبدون الله، إذن هو أثبت لهم عبادة الله، ولكن باعتبار صورة الفعل كانوا يعبدون الله سبحانه وتعالى. أما باعتبار الحقيقة فهُم ما عبدوا الله، وهذ الذي جاء في قوله : ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، لأن العبادةَ لا تكون عبادةً إلا بالتوحيد ؛ وهذه قاعدة من قواعد التوحيد المهمة: **العبادةُ لا تكون عبادةً إلا بالتوحيد**، متى ما لم تكن العبادة مع التوحيد -يعني: أن تكون عبادةً يُخلِّصُ فيها الإنسان لله عز وجل في جميع عباداته- فإن وجودها وعدمها سواء، لا قيمة لها، ولا قدر لها، ولا تنفع الإنسان شيئًا.

إذن نفي العبادة عن المشركين صحيحٌ من وجه، وإثبات العبادة للمشركين صحيح من وجه. والذي أراده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: (**يتعبدون**) أنهم يتعبدون من حيثُ صورة الفعل، من حيثُ صورة العبادة.

قال: (**ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله عز وجل**)؛ هنا تكمن المُشكلة، القوم اعتقدوا وقالوا: إنه لا يُمكن الوصول إلى الله

إلا بتوسُّطِ الوسائط، أوحى الشيطان إليهم أنكم لستم مؤهلين لأن تعبدوا الله عز وجل مباشرة، الله أعظم وأجل من أن تعبدوه مباشرة ؛ إذن لابد أن تتخذوا وسائط وسائل بينكم وبين الله سبحانه وتعالى؛ تعبدونهم وهم يُقربونكم إلى الله عز وجل. قضية التوسط هي أساس الشرك الذي وقع فيه هؤلاء المشركون، ويقولون نُريد منهم التقرب إلى الله، ونُريد شفاعتهم عنده، وهذا الموضوع يحتاج إلى بسط واستدلال.

قال المصنف رحمه الله:

أرسله الله إلى أُناسٍ يتعبَّدون ويحجون ويتصدقون، ويذكرون الله، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله عز وجل ؛ يقولون: نُريد منهم التقرب إلى الله، ونُريد شفاعتهم عنده.

❁ ❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

مضى معنا في الدرس الماضي الكلام عن حال المشركين وما الذي كانوا يعتقدون، ووصلنا إلى أنهم كانوا يُشركون مع الله عز وجل في العبادة، وأن هذا الشرك إنما أرادوا به حصول التقرب والشفاعة عند الله سبحانه وتعالى، والأدلة على هذا كثيرةٌ في كتاب الله سبحانه وتعالى، وهذا الموضوع من أجلى ما يكون في كتاب الله.

❁ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]، فدلَّ هذا على أنهم إنما عبدوهم لأجل حصول الشفاعة عند الله سبحانه وتعالى، وما المقصود بالشفاعة هنا؟ هل المقصود الشفاعة الأخروية؟ أو الشفاعة في أمور الدنيا؟ عامة المشركين كانوا -كما تعلمون- منكرين للآخرة، منكرين للبعث، وقلةٌ منهم كانوا مُثبتين للبعث، دلَّ على هذا جملة من أشعارهم ونثرهم، لكنَّ الغالب من حالهم إنكارُ البعث، وهذا ما جاء بيانه كثيرًا في كتاب الله سبحانه وتعالى، فإذا كان هذا المُشرك ممن يثبت الآخرة فلا شك أن الشفاعة هنا تتعلق بالدنيا والآخرة، أما عامتهم فالشفاعة إنما تتعلق بأمور الدنيا. وليس يخفاك أن الناس مولعون بتحقيق

مصالحهم ورغباتهم في الدنيا، فهم يزعمون أنهم إنْ عبدوا هؤلاء الصالحين والكواكب والملائكة... وإلى آخره، فإنها تشفع لهم عند الله سبحانه وتعالى في حصول حظوظهم في الدنيا؛ من حصول الرزق، ومن حصول النصر، ومن تيسير الأمور وما إلى ذلك، فالشفاعة إذن تدور على شأن الدنيا.

۞ أيضًا مما يدل على هذا الأمر -**وهو الدليل الثاني**-: قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] ؛ لاحظ -يا رعاك الله- أسلوب الحصر هاهنا، كأنهم يقولون: ما نعبدهم لشيءٍ البتة إلا لهذا الشيء، وهو أنهم يُقربوننا إلى الله زُلفى، والمقصود بكلمة (زُلفى) : يعني قُربى، هذه الكلمة اسمٌ أُقيم مقام المصدر ، كأنهم يقولون: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله قُربةً) ؛ فدل هذا على أن الغايةَ من عبادةِ هذه الآلهة، إنما هو حصولُ هذا التقريب من قِبل هؤلاء الآلهة، لما لهم من جاهٍ ووجاهةٍ ومكانةٍ عند الله سبحانه وتعالى.

۞ أيضًا من الأدلة على هذا -**وهو الدليل الثالث**- قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام:٩٤]، فهذه الآية صريحة على أنهم إنما اتخذوا الآلهة التي أشركوا بها مع الله عز وجل لأجل أن تكون شفعاء لهم عند الله سبحانه وتعالى، وتبيَّن لهم يوم القيامة أنَّ هذا إنما كان ظنًا قد ضلوا فيه وأخطؤوا سواء السبيل. فدل هذا على أن الشفاعة هي مقصودهم في تعبُّدهم، وليس أنهم كانوا يعتقدون أن مُلك السماوات والأرض بأيدي هذه الآلهة، أو أنها تُشارك الله سبحانه

وتعالى في تدبير هذا الكون، أو في خلق كل شيء، لا والله ما اعتقدوا هذا، ما اعتقدوا أنها تشارك الله في خلق نملة فضلًا عن أن تستقل بذلك عندهم.

۞ **الدليل الرابع**: قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر:٤٣]، الواقع أنَّ هؤلاء اتخذوا من دون الله شفعاء، وهؤلاء الشفعاء هم الذين توجهوا لهم بالعبادة وأشركوهم مع الله سبحانه وتعالى في القصد.

۞ ومن الأدلة على هذا أيضًا -**وهو الدليل الخامس**- ونستأنس به، وإن كان من كلام صاحب ياسين: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ﴾ [يس:٢٣] ، لا تغني عني شفاعتهم، إذن (أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) -والقصد حصول الشفاعة- الواقع أنهم لن يشفعوا، ولن تنفعني هذه الشفاعة منهم. إذن دل هذا على أن المشركين في سابق الزمن قبل بعثة النبي ﷺ كانت عقيدتهم عقيدة هؤلاء الذين بعثهم فيهم النبي ﷺ، ولم يزل الأمر في كل من أشرك بالله سبحانه وتعالى.

۞ **الدليل السادس**: قوله تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]. هذه الآية دليلٌ أيضًا على أن الذين كان المشركون يدعونهم ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزخرف:٨٦] ؛ الذين يدعونهم يُشركون مع الله سبحانه وتعالى في الدعاء والعبادة بهم هؤلاء لا يملكون الشفاعة، إذن كانوا يتخذونهم لأجل الشفاعة ، وهذا ظنٌ باطل ، لأنهم لا يملكون هذه الشفاعة.

۞ **الدليل السابع**: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الروم:١٢-١٣] ؛ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ إذن القوم إنما اتخذوا هؤلاء الشركاء لأجل حصول الشفاعة.

۞ **الدليل الثامن**: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف:٢٧-٢٨] ؛ إذن ما نصَرَهم الآلهة التي اتخذوها مع الله عز وجل لأجل أن تُقربهم عند الله سبحانه وتعالى، وتقريبهم عند الله يجعلهم -في ظنهم- ينصرونهم، الله عز وجل بيّن أن هذا لم ينفعهم ولم يحصل ؛ لم يحصل هذا التقريب الذي لأجله اتخذوا مع الله هذه الآلهة، ﴿ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾، اتخذوا هذه الآلهة لأجل أن تُقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا لم يحصل، ولم يحصل لهم نصرٌ ومكَّن الله عز وجل لنبيه ﷺ.

إذن هذه بعض الأدلة التي تدلك على أن المشركين حقًا وصدقًا إنما أشركوا مع الله سبحانه وتعالى لأجل طلبه، ولأجل الرغبة فيه، وهو حصول الشفاعة عند الله والتقريب عند الله سبحانه وتعالى من قِبل هؤلاء المشركين.

كيف طلبوا شفاعتهم وتقريبهم عند الله عز وجل زُلفى؟

نقول: هذا كان منهم بطريقين:

◉ **إما بسؤالهم المباشر**؛ يُسألون أن يكونوا شفعاء، وأن يُقربونهم إلى الله سبحانه وتعالى زُلفى.

◉ **وإما أن يكون بأن يتعبدوا لهم بأنواع التعبدات،** لأجل أن يرضى هؤلاء الآلهة عنهم، وبالتالي يتحقق ما يُريدونهم من كونهم يشفعون لهم عند الله عز وجل ويُقربونهم إليه زُلفى.

قال المصنف رحمه الله:

فبعث الله محمدًا ﷺ إليهم ليُجدد لهم دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، ويُخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله لا يصلح منه شيء لغيره؛ لا لملكٍ مُقرب، ولا لنبيٍ مُرسل، فضلًا عن غيرهما.

قال الشارح وفقه الله:

بعث الله عز وجل نبيه محمد ﷺ ليُجدد لهم دينهم؛ دين أبيهم إبراهيم، والله سبحانه وتعالى قد أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يتَّبع ملة إبراهيم حنيفًا ، كما أمر أمته عليه الصلاة والسلام أن يتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا، وهذه الملة هي الحنيفية، هي توحيد الله سبحانه وتعالى، فالتقرب والعبادة والدعاء لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى، كما أن الشفاعةَ إنما هي مِلكٌ لله عز وجل، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يملكها، وهو الذي يأذن بها لمن يشاء، وهو الذي يأمر بها من يشاء، فهي منه ابتداءً وانتهاءً ، ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] ، وسيأتي إن شاء الله في أثناء الكتاب تفصيل الكلام عن مسألة الشفاعة.

قال المصنف رحمه الله:

وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يُحيي ولا يُميت إلا هو، ولا يُدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السماوات السبع ومن فيهن والأرض ومن فيها كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره.

فإذا أردت الدليل على أنَّ هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون بهذا، فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١]، وقولَه: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]. وغيرَ ذلك من الآيات.

قال الشارح وفقه الله:

بيّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هاهنا أنَّ المشركين كانوا يعتقدون انفراد الله سبحانه وتعالى بالخلق والمُلك والتدبير والإحياء والإماتة، وأنَّ الآلهة التي عبدوها مع الله ليس لها من هذه شيء، وهذا ما سبق أن ذكرناه في الدرس الماضي وأجَّلنا التفصيل فيه إلى هذا الدرس، لأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ساق لك شيئًا من الأدلة على هذا الأمر، والأمر كما ذكر، فإنَّ المشركين كانوا على هذه العقيدة، والأدلة على

هذا كثيرة، **ويُمكن أن نُقسمها إلى مجموعات لكثرتها:**

من الأدلة على أن المشركين كانوا مُقرين بربوبية الله سبحانه وتعالى في الجملة:

❁ **أولًا: الأدلة التي فيها تصريحهم باعتقادهم أنَّ الله سبحانه وتعالى منفردٌ بالخلق والملك والتدبير والهداية والإحياء والإماتة... إلى آخره**؛ والأدلة على هذا كثيرة، منها ما سمعت، ومنها غير ذلك ،﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧] ، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩]، في آيات كثيرة، إذن هذا تصريحٌ منهم باعتقادهم أنَّه ما كان مُشكلًا عليهم اعتقاد أن الله عز وجل خلق هذا الكون، وخلق الجبال، وسيَّر البحار والأنهار والفجاج، وجعل الجبال رواسي إلى آخره، ما كان عندهم إشكال في هذا، بل كانوا مُقرين به بألسنتهم.

❁ **الدليل الثاني على ذلك: أنَّهم في الشدائد يتضرعون إلى الله عز وجل وحده**؛ وهذا جاء في مواضع في كتاب الله عز وجل؛ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان:٣٢]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧] في أدلةٍ كثيرة.

والسؤال: لماذا ما دعوا معبوداتهم التي يعبدونها مع الله؟ لماذا ما قالوا: يا هُبل، يا عُزَّى، يا سواع؟ لماذا ما فعلوا هذا؟! أكانوا يبغضونهم؟! الجواب: لا بالتأكيد، بل كانوا يحبونهم كحب الله. هل كانوا لا يعظمونهم؟ الجواب: بلى،

كانوا يعظمونهم. إذن لماذا ما كانوا يسألونهم في الشدائد؟ الجواب: لأنهم يعتقدون أنهم لن ينفعوهم، وأن الذي بيده ذلك إنما هو الذي بيده مُلك كل شيء؛ وهو الله سبحانه وتعالى، فالمقام مقام شدة، ويحتاجون إلى من يُنجِّيهم ومن يُسعفهم، وهذا لا يكون إلا لمن بيده القوة، ولمن بيده التدبير وهو الله سبحانه وتعالى، فلأجل ذلك ضلَّ عنهم ما كانوا يدعون وهم في الرخاء، وصاروا يلجؤون إلى الله سبحانه وتعالى وحده. إذن هذا دليل على أنهم ما كانوا يعتقدون الربوبية في آلهتهم ومعبوداتهم.

❁ **الدليل الثالث: إقرارهم بعجز آلهتهم**؛ تُلاحظ معي أن الأدلة السابقة؛ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان:٣٢] إلخ، **هذه الأدلة نستفيد منها وجهين للدلالة:**

◉ **الوجه الأول:** أنهم اعتقدوا انفراد الله عز وجل، ولذا دعوه، وهذا ما سبق بيانه.

◉ **ثانيًا:** كونهم يدعون الله ويتركون دعوة هؤلاء؛ هذا دليل على أنهم كانوا يعتقدون العجز في آلهتهم، والعاجز لا يكون ربًا، الرب الذي يملك ويُقدِّر ويخلق ويُحيي ويُميت ويرزق... إلى آخره، هذا لابد أن يكون قويًا، وهؤلاء باعترافهم وبلسان حالهم مقرون بأن الآلهة آلهةٌ عاجزة.

❁ **الدليل الرابع: أنَّهم يُقرِّرون أن هذه الآلهة لا تعدو أن تكون شُفعاء عند الله عز وجل**، ولو اعتقدوا فيها أكثر من ذلك لبيَّنوا؛ لأنَّهم يُحبون هذه الآلهة ويُعظِّمونها، فلو كان الأمر يتجاوز أو يزيد على كونها مجرد شفعاء عند الله عز

وجل لبيَّنوا ذلك وتكلموا، لكن القوم كما قد سمعت: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]، هذا الحد فقط هو أقصى درجة يصل إليها هؤلاء الشركاء، فلو كان ثمة شيءٌ أكبر لقالوه. إذن هذا دليل على أنهم ما اعتقدوا في آلهتهم الربوبية أو أنهم مشاركون لله سبحانه وتعالى في ربوبيته.

❁ **الدليل الخامس: أنهم كانوا يعتقدون أن هذه الآلهة مملوكةٌ لله لا تملك**؛ ومن هذه حاله لا يكون ربًا، الذي يكون مملوكًا غير مالك لا يكون ربًا، ولذا في «صحيح مسلم» من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه ذكر أن النبي ﷺ كان يسمعُ تلبية المشركين في الحج حينما يقولون: "لبيك لا شريك"، يقول ﷺ: «قد قد» يكفي إلى هذا القدر، وقفوا عند هذا القدر، لكنهم ما كانوا يقفون، فيزيدون على هذا فيقولون: «إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك».

◉ «ما» هنا إما أن تكون نافية ؛ تملكه وهو لا يملك.

◉ أو تكون موصولة ؛ تملكه والذي يملكه هذا المملوك.

إذن كل شيء مملوك لله سبحانه وتعالى، وقلت لك: إن من هذه حاله لا يكون ربًا ولا يصلح أن يكون ربًا.

❁ **الدليل السادس: أن الله سبحانه وتعالى أثبت للمشركين إيمانًا وشركًا** ؛ ألم تسمع قول الله عز وجل عنهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] ، فسر هذا ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف؛ كقتادة وعكرمة وغيرهما من أئمة السلف؛ أنهم كانوا يقولون إذا سُئلوا: من خلق

السماوات ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ يقولون: الله، وهم مشركون ؛ يعني في العبادة.

إذن القومُ كان عندهم إيمان يتعلق بالربوبية؛ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ﴾ ، إذن الإيمان حاصل، لكن مع هذا يقع منهم الشرك، وهو الشرك في الألوهية، إذن الربوبية ما كانوا يُشركون فيها مع الله سبحانه وتعالى.

❁ **الدليل السابع: أن تتبع كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ يخلُص منها الناظر إلى أنه ما جاء في القرآن أمر هؤلاء بأن يوحِّدوا الله عز وجل في الخلق وفي الرزق وفي التدبير** ؛ لا نجد خطاب هؤلاء "اعتقدوا أن الله هو الخالق وحده"، لكننا نجد في كتاب الله خطابهم وأمرهم بإفراد الله بالعبادة؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، نجد: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]؛ وأنتم تعلمون أن الله هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو خالق كل شيء. إذن هذا دليلٌ على أن القومَ مقرُّون بربوبية الله سبحانه وتعالى.

❁ **الدليل الثامن: أدلة القرآن التي احتجت عليهم في شأن الألوهية بإقرارهم بالربوبية**، وهذه من أوضح الأدلة، من نظر في طريقة القرآن يجدُ أنَّه يحتج على المشركين في شركهم بالله عز وجل في العبادة بكونهم يُقرون بكونه الخالق الرازق المدبر ، تجدُ مثلًا قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] ، كأنَّ قائلًا يقول: وما الدليل، ولماذا؟ قال -انظر الحجة والدليل على أنه يجب أن يُعبد الله وحده-: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢] ، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف: «وأنتم تعلمون أن الله هو الذي خلق تلك الأشياء» ؛ هذه عقيدةٌ تعلمونها، وتعتقدونها وتُقرون بها ، إذن عليكم أن تلتزموا لازم ذلك. الذي حصل من المشركين أنهم فصلوا بين اللازم والملزوم ، يلزمهم في اعتقادهم بربوبية الله سبحانه وتعالى أن يتوجهوا له بالعبادة وحده، وهذا ما فعلوه.

والذي يتأمل في كتاب الله يجد أن جُل أدلة الربوبية في القرآن إنما كانت على سبيل الاحتجاج على المشركين وإلزامهم، أقررتم بربوبية الله، إذن عليكم أن تعبدوه، تعتقدون أن الله خلقكم، إذن ما الذي يبقى بعد ذلك إلا أن تتوجهوا له بالعبادة، خلقكم وحده إذن عليكم أن تعبدوه وحده، رزقكم وحده إذن عليكم أن تعبدوه وحده. إذن هذه من الأدلة الواضحة الجلية على أن القوم كانوا مقرين بالربوبية.

❁ **الدليل التاسع: اعترافهم بالشرك في العبادةِ دون الربوبية،** وهذا ملحظٌ دقيق؛ تأمل مثلًا في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، لاحظ معي أن إثباتهم المشيئة لله عز وجل دليلٌ على أنهم يُقرون بالربوبية وأن التصرف والتدبير وأن التقدير إنما هو لله عز وجل، وكل هذا إيمانهم بالربوبية ، لكنهم في الشق الآخر مشركون باعترافهم ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، إذن كان شركهم ليس في الربوبية، لأنهم يثبتون مشيئة الله سبحانه وتعالى، وهذا فرعٌ من فروع الربوبية، لكنهم يُشركون في الشق الآخر وهو في الألوهية، فهذا دليلٌ على

أنهم كانوا مُقرين بالربوبية، ويعترفون أن شركهم لم يكن في هذا بل كان في شيء آخر وهو في عبادة الله سبحانه وتعالى.

❁ **الدليل العاشر: الأدلةُ التي جاء فيها الاستفهام التقريري للمشركين في شأن الربوبية**؛ وهذا كثيرٌ في كتاب الله سبحانه وتعالى، تجدُ مثلًا قول الله عز وجل: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [فاطر:٣] هذا استفهامٌ تقريري، تجد مثلًا في كتاب الله عز وجل: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان:١١]، تجد مثلًا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس:٣٥].

إذن: القاعدةُ في مثل هذه الاستفهامات والأسئلة التي يُتوجه بها إلى هؤلاء المشركين: أنها استفهاماتٌ تقريرية، وقد قرر العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في «أضواء البيان» في أوائل تفسير سورة الإسراء؛ أن استقراء القرآن دل على أن جميع الأسئلة التي فيها استفهامٌ في موضوع الربوبية للمشركين إنما هي استفهاماتٌ تقريرية، يُراد بها أن يُقروا ويُذعنوا، ثم يُرتَّبُ على هذا توبيخهم والإنكار عليهم، أنتم تقرون بهذه الأمور التي هي ربوبية الله سبحانه وتعالى بأنواعها، إذن إذا أقررتم بهذا فأنتم إذن ضالون منحرفون عن الصراط المستقيم في شأن عبادة الله سبحانه وتعالى كونكم تُشركون مع الله غيره.

إذن هذه عشرة كاملة من أنواع الأدلة التي تدل على أن المُشركين كانوا مقرين بربوبية الله سبحانه وتعالى في الجملة، ومن تأمل في النصوص أكثر وجدَ أدلةً أكثر.

وهنا أقف وقفة مع بعض الاستشكالات أو الشبهات التي يطرحها المخالفون للحق، وذلك أن المشركين من المعاصرين من القبوريين هم أحرص ما يكونون على أن يُثبتوا الشرك في الربوبية للمشركين الأولين، في مقابل هذا أن أهل السنة والتوحيد أحرص ما يكونون على بيان ما قدمت لك، وهو كونهم مُقرين في الجملة بالربوبية، وأن مثار الخلاف بينهم وبين النبي ﷺ كان في قضية الألوهية، كل فريقٍ يُريد بيان هذه الجملة، هذا الفريق يريد بيان هذه الجملة، والفريق الآخر يُريد بيان الجملة الأخرى، لماذا؟

أما بالنسبة للقبوريين، فإنهم يريدون تسويغ ما هم عليه من الشرك بالله عز وجل، فادعُ من شئت مع الله عز وجل ، واذبح لمن شئت، وانذُر لمن شئت، وافعل ما شئت من أفعال الشرك، بشرط ألا تعتقد أنَّ مع الله شريكًا في الخلق، وأنه ليس مع الله شريكٌ في الإحياء، وأنه ليس مع الله شريكٌ في الإماتة، متى ما فعلت هذا فافعل ما تشاء، ولا يُمكن أن توصم بوصم الشرك، هذا الذي لأجله يستميت القبوريون لإثباته.

أمَّا أهل السنة والتوحيد فإنهم يُريدون أن يُبينوا أن الإقرار بربوبية الله عز وجل وحده لا يكفي ولا ينفع، ما لم ينضم إليه توحيد الله عز وجل في عبادته، فمهما كان الإنسان مُحققًا لتوحيد الربوبية فقط فإنَّ هذا لا يُخرجه عن كونه مُشركًا بالله عز وجل؛ إذا كان يُشرك مع الله عز وجل غيره في العبادة . متى ما جمع بين الأمرين بين توحيد المعرفة والإثبات، وبين توحيد القصد والطلب، هاهنا يكون موحدًا، أما بطرفٍ واحد وهو الربوبية دون الألوهية فإنَّه لا يكون

موحدًا، ولاشك أن هذا هو الحق المبين الذي دلت عليه الأدلة التي لا تُحصى، ومنها ما سمعت، وهو بعض ما دلت عليه الأدلة.

مما يُشغِّب به هؤلاء القبوريون، وأنا يهمني كثيرًا أن تكون على بصيرةٍ يا طالب العلم. قلت وأُكرر ؛ لا يُمكن أن تكون راسخًا في هذا الباب إذا لم تكن مُحققًا مُدققًا في مسائل التوحيد وفي معرفة ما يُضاد ذلك، الكلام العام هذه الجُمل ربما تكون نافعةً كافية في الماضي، أما اليوم في عصر انتشار الشبهات والتشكيك، وسُرعة وصول الضلال إلى الناس، لا ينبغي الاكتفاء بهذه الجُمل، بل لابد من التحقيق، ولابد من الرسوخ.

مما يُشبِّه ويُلبِّس به هؤلاء القبوريون أنهم يقولون مثلًا: إن الأدلة التي يقول فيها المشركون إن الله عز وجل هو الذي يخلق وهو الذي يرزق وهو الذي يُدبر ... إلى آخره، هذه يقولونها لكنهم غير صادقين فيها، ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ هذا كلام يقولونه يُرضون المؤمنين بأفواههم وتأبى قلوبهم، يعني كذَبَة، هم قالوها ولكن هم كاذبون لم يكونوا صادقين، لم يكن هذا اعتقادهم في قلوبهم، وهذا ما نص عليه غير واحدٍ من الذين يُناصرون الشرك في هذا الزمان، وهذا لا شك أنه زعمٌ باطل، **ويدل على بطلانه أمور:**

❁ **أولًا**: أن الآيات صريحةٌ في إثبات أنَّ هذا اعتقادهم؛ لأنه كان يُرتَّب على ذلك الإلزامُ والتوبيخ، سمعت فيما قرأنا قبل قليل: (﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١]) يعني: ألا تتقون الله فتعبدونه وحده وأنتم تقرون بهذا؟ تأمل مثلًا فيما بعد ذلك: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ

﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ في أدلةٍ كثيرة تجد أن هذا هو حقًا كان اعتقادهم، إذن لا يُمكن بحال أن يكون هذا الذي ذكروا كان مُجرد كذب، ومجرد أنه إرضاء للمؤمنين بدون أن يكون هذا عقيدةً متقررةً في قلوبهم.

❁ **جوابٌ ثانٍ**: أن نقول لهم: اللهُ سبحانه وتعالى بين أن هذا عِلمٌ يعتقدونه، ألم يقل الله عز وجل -بعد أن بيَّنت لك آنفًا ما ذكر في سورة البقرة- قال: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]، أنتم تعلمون أن الله وحده هو الذي فعل هذه الأمور وهو الذي خلق وحده سبحانه وتعالى، إذن لا تجعلوا مع الله نِدًا في عبادته وأنتم تعلمون . إذن هذه قضيةٌ مُعتقدٌ بها عندهم لا شك في ذلك ولا ريب.

❁ **الأمر الثالث**: أن استقراء القرآن يدُلُّ على أن الكفار عمومًا إذا قالوا كلامًا كذبًا؛ فإن القرآن لا يسكت عن بيان ذلك، بل لابد من أن يوضح المقام وأن هذه مقالةٌ كاذبة، خُذ مثلًا: المشركون إذا وقفوا بين يدي الله عز وجل سيكون منهم من يكذب، ويظن أن هذا الكذب ينفع عند الله عز وجل، ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ماذا قال الله؟ ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢٤]. إذن القوم كانوا كذبةً في هذه المقالة، ما سُكت عن البيان. قال الله في حق المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ ماذا قال الله ؟ ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة:١٨]، إذن بيَّن الله أن هذه مقالةٌ كاذبة. ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ

لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١].

إذن متى ما كانت المقالةُ الصادرةُ من الكفار كذبًا فالله يُبين ذلك، لكننا لا نجد في آيات كثيرة -ولا في موضع واحد- لا نجد بيانًا أنهم كانوا كاذبين في قولهم: (الله) أو (لله)، إذن هذا دليلٌ على أن هذه حقًا كانت عقيدتهم.

❁ **الأمر الرابع**: أن نقول لهم: ما الذي يدعو المشركين أصلًا إلى أن يكذبوا في خطابهم للمسلمين؟ ولأي سببٍ يُداهنونهم؟ الكلام الآن عن المشركين لا المنافقين، وبهذا انفصل المشركون عن المنافقين ، هؤلاء كانوا صُرحاء، والمنافقون كانوا منافقين ، فلأي شيءٍ كانوا يُداهنون المسلمين في زعمكم ويكذبون؟ لأي شيء يُداهنونهم؟ لأي شيء يسلكون هذا المسلك؟ وهم كانوا يأنفون في الجملة من الكذب، وكان فيهم من الكِبر والخيلاء ما فيهم، إذن لا يوجد سبب أصلًا يدعوهم إلى أن يكذبوا، بل إذا كانوا يعتقدون شيئًا فإنهم يُصرحون به.

❁ **وهذا ما يجرنا إلى وجهٍ خامسٍ للرد**، وهو أن نقول: ما بالهم ما كذبوا إلا في هذه؟ عندنا مسألة الألوهية لماذا ما كذبوا وداهنوا؟ لما قال النبي ﷺ لهم: «قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا» وهم عرب يفهمون معنى هذه الجملة ماذا قالوا؟ ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] رفضوا، لماذا ما فعلوا هذا في مسألة البعث؟ لماذا ما داهنوا وقالوا صحيح الله يبعث من يموت؛ كذبًا مداهنةً إرضاءً للمؤمنين بأفواههم، لا نجد هذا، بل نجد أنهم أقسموا أغلظ الأيمان؛ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨] ، لماذا

لا نجد هذا في مسألة النبوة؟ ومسألة إنزال كتابٍ من الله عز وجل؟ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١]، لماذا ما داهنوا النبي ﷺ والمؤمنين فقالوا: نعم، فِعلًا هناك إنزال، والقرآن كلام الله الذي أنزله؟ فلماذا في هذه القضية بالذات كان منهم الكذب؟ إذن هذا دليل على أن هذه عقيدة مستقرة في قلوبهم.

من الشُّبه التي يذكرونها ويريدون بها التلبيس والتشغيب على الاستدلالات السابقة عند أهل السنة أنهم يقولون: إن الله سبحانه وتعالى أمر المشركين بالنظر في الآيات الكونية لأجل أن يوحدوا الله في الربوبية ، يعني في قول الله عز وجل مثلًا: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠] ؛ إنما جاء هذا الأمر وهذا التوجيه لأجل أن يُصلِحوا الخلل الذي في نفوسهم، حيث ما كانوا يوحِّدون الله سبحانه وتعالى في خلق هذه الأشياء ؛ هذا استدلال وجيه أو غير وجيه؟ هذا في الحقيقة من السخافة بمكان، بل هذا دليلٌ عليهم لا لهم، هذا الدليل مقلوبٌ عليهم، وهو من جملة ما يستدل به أهل السنة والتوحيد عليهم؛ فإن الأمر بالنظر في هذه الآيات الكونية إنما كان لأجل إقامة الحجة عليهم، انظروا إلى هذه الأشياء وأنتم تُسلِّمون وتُقرون بأنَّ الله خلقها، فكيف لا تجمعون مع هذا لازم ذلك؛ وهو توحيد الله في العبادة؟ إذن من جملة الأدلة التي ترد عليهم، وفيها إلزامٌ للمشركين بعبادة الله وحده.

شغَّبوا بشيءٍ ثالث: -ولعلي أكتفي بهذا القدر من شُبههم في هذا المقام-

فقالوا مثلًا: كان المشركون يعتقدون أن آلهتهم تملك التصرف والنفع والضُّر في هذا الكون، بدليل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ يعني يا نبينا ﴿بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر:٣٦] ؛ يعني المُشركون يُخوفون النبي ﷺ بآلهتهم أن تُصيبه بالضرر إذا عاب هذه الآلهة وعاب عبادتها، فهم يخوفون النبي ﷺ بها وأنها تملك نفعًا وضرًا ولذلك ربما تضره.

وهذا الاستدلال أيضًا استدلالٌ باطل، ويدل على ذلك: أن أهل السنة لا ينازعون في أن العابد -أي عابدٍ- لا يعبد معبوده إلا وهو يتوقع من قِبله نفعًا أو دفع ضر، وإلا ما عبده! لا يعبد عابدٌ معبوده إلا وهو يُريد نفعه، ويُريد أن يدفع عنه الضر، وإلا ما الذي يدعوه أصلًا إلى عبادته؟ ولكن هذا النفع والضر الذي كان المشركون يظنونه أو يعتقدونه في آلهتهم، إنما كان باعتبار التوسط والشفاعة عند الله، لا باعتبار المُلك والانفراد، انتبه لهذا ، نعم كانوا يعتقدون نفعًا وضرًا ولكن باعتبار كونها تشفع عند الله سبحانه وتعالى فيحصل الضرر أو يحصل النفع؛ وهذا هو أساس شركهم، هم مولعون بتحصيل مرغوباتهم، وكل إنسان مولعٌ بهذا، فهم يريدون تحصيل المنافع التي تصل إليهم من قِبل هذه الآلهة لكونها تشفع عند الله سبحانه وتعالى، لا على أنها تملك ذلك وتستقل به.

ومما يدلك على هذا السياق نفسه؛ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر:٣٦-٣٧] ماذا قال بعدها؟ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزمر:٣٨] ، لاحظ كيف أن هذه الآية جاءت بعد تقرير

مسألة الإخافة التي يريدون تخويف النبي ﷺ وأنها توصل ضررًا، بيَّن الله عز وجل أنهم يُقرون مع ما سبق أن الذي له المُلك وله الخلق إنما هو الله وحده لا شريك له، إذن ما كانوا يعتقدون في هذه الآلهة أنها تملك الضر والنفع لأن لها السيطرة ولأن لها التدبير ولأن لها المُلك في هذا الكون ، لم يكن ذلك، إنما يصل ما يزعمونه أنه يصل من خلال شفاعتهم وتوسطهم عند الله سبحانه وتعالى.

هذه بعضُ الشبه والتشغيبات التي يُشبه بها أولئك القبوريون.

ويحسنُ أن أختم كلامي عن موضوع عقيدة المشركين في مسألة الربوبية ببعض التنبيهات:

❁ **أولًا**: ينبغي أن نعلم أن ما يُقرره علماء أهل السنة والتوحيد من أن المشركين كانوا مُقرين بالربوبية ليس مدحًا لهم، بل هذا إزراءٌ عليهم وتوبيخٌ لهم، بعض أولئك الذين يُشغِّبون على أهل السنة ممن أَلَّفوا في مثل هذه المسائل، يزعم أن أهل السنة كانوا مادحين لهؤلاء المشركين، والقضية في الحقيقة بالعكس، كونهم مُقرين بربوبية الله ومع ذلك يُشركون معه في الألوهية، إثبات هذا فيه أعظم الذم لهؤلاء المشركين، ليس المقام مقام مدح، بل هذا فيه مبالغة في ذمهم، فليُنتبه إلى هذا.

❁ **التنبيه الثاني**: أن هذه المسألة -وغيرها من المسائل- ينبغي أن يُلاحظ فيها المنهج الصحيح في التلقي والاستدلال؛ وهو الجمع بين النصوص، وهذا في مقامنا هذا شيء ضروري، فانتبه ، وحذارِ أن يحصل عليك تلبيس. القوم

يمشون على طريقةِ أسلافهم ؛ يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، أدلة واضحة صريحة كثيرة كالشمس وضوحًا ونصاعةً ومع ذلك يُعرِضون عنها ويُشغبون بالاستدلال في غاية الضعف!! أما أهل السنة والجماعة فإنهم يجمعون بين النصوص ويؤلفون بينها؛ فمهما ورد عليك وارد واستشكلت استشكالًا فأعِد النظر وعُدْ إلى النصوص المُحكمة السابقة في هذا المقام، فإنه سوف يتضح لك الأمر.

❁ **التنبيه الثالث**: نحنُ حينما نتحدثُ في هذه المسألة، إنما نتحدث عن مشركي العرب؛ الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ، وتناوَلت حالهم أكثر الآيات المتعلقة بالتوحيد والشرك، فإن من أهل البدع والضلال من يُلبِس بذكر أحوالٍ أخرى ليست هي موضع بحثنا، يعني الكلام في شأن الفلاسفة، أو الكلام في شأن النصارى، أو الكلام في شأن الدهرية، أو نحو ذلك، هذا ليس موضوعنا وليس بحثنا، نحن نتكلم عن مشركي العرب الذين بُعث فيهم النبي ﷺ، نتكلم عن أبي جهل وأبي لهب وأُمية وأضراب هؤلاء ، فتنبه إلى هذا الأمر.

❁ **التنبيه الرابع -وهو مهم-: ما معنى قول أهل السنة: إن المشركين كانوا مُقرين بالربوبية؟**

من الناس من يفهم هذه المسألة فهمًا خاطئًا، فينبغي التنبه. أهل السنة حينما يقولون «إن المشركين كانوا مقرين بالربوبية»، وهذه -كما ذكرت لك- ليست مقالة محمد بن عبد الوهاب، بل ولا مقالة ابن تيمية، بل هذه مقالة أهل العلم من قديم الزمن وإلى عصرنا هذا، وأحد الباحثين النابهين -وفقه الله-

جمع جملةً من كلام أهل العلم الذين نصُّوا على هذا الأمر بحروفه أو بمعناه، فبلغ ما جمعه نحوًا من ثمانين عالِمًا من السلف والخلف كلهم نصوا على هذا الموضع؛ من شراح الحديث، ومن المفسرين، ومن المقررين والمصنفين للعقائد، ومن السلف المتقدمين، وهلم جرًّا إلى عصرنا هذا، كلهم يقرون هذه القاعدة، فتقريرها ليس شيئًا من اختراع محمد بن عبد الوهاب كما يزعمه أولئك.

أعود فأقول: أهل السنة إذا قرروا هذه المسألة فإنهم يريدون أن إقرار المشركين إنما هو إقرارٌ أغلبيٌ وإقرارٌ في الجملة ، ليس المقصود أن المشركين مقرون بالربوبية ؛أن هذا كان حال كل فردٍ فردٍ من المشركين، هذا لا يُمكن لا في هذه المسألة ولا في غيرها، ليس يخفاك أنه في نسبة المقالات يُلاحظُ أن النسبة أغلبية، في أي مقالةٍ تُنسب إلى أي فرقةٍ أو دين النسبة أغلبية. يعني إذا قلنا مثلًا: عقيدةُ النصارى كذا وكذا في المسألة الفلانية؛ هل هذا يعني بالضرورة أن هذه عقيدة كل فردٍ فرد في الشرق والغرب قديمًا وحديثًا من النصارى؟ لكن في الجملة في الغالب هذه عقيدتهم. إذا قلنا: الفرقة الفلانية -قدرية مرجئة جبرية من أهل الكلام إلى آخره- فالمراد أنَّ هذا حكمٌ أغلبي، وإلا فإن تصفح أحوال كل فردٍ فردٍ ينتمي إلى عقيدة أو فرقة، ولا سيما حينما نتكلم عن فرق وأديان ينضوي تحت لوائها أمةٌ عظيمة من الناس، من الذي يستطيع أن يتصفح أحوال كل فرد فرد فيعرف عقيدته.

ونبه تنبيهًا لطيفًا إلى هذا شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أوائل «منهاج السنة» في

الصحيفة بعد الثلاثين من المجلد الأول، نبه إلى أننا حينما نقول: "قالت الرافضة" فإن المراد قال بعضهم، ولا يُمكن أن يُريد قائلٌ في نسبة هذه المقالة أو غيرها في أي مقالةٍ من المقالات؛ أن كل شخصٍ ينتمي إلى هذه الفرقة يقول بذلك، وعلى هذا نزَّل قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة:٣٠] ، وهلم جرًّا في مقالاتٍ كثيرة لأرباب هذه الأديان أو الفِرق.

إذن حينما نقول «المشركون كانوا مُقرين بالربوبية» هذا في الغالب، وإلا فثمة شذوذ عن هذا الأصل، وهو واقع من العرب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، مَن كانوا مشركين في الربوبية حقًا، فالنصارى كانوا مشركين في الربوبية وبعض قبائل العرب كانت متنصرة، بعض قبائل العرب ذهبت إلى مقالة المجوس وهم مشركون في الربوبية، بل بعض العرب كانوا معطلة منكرين لله عز وجل أصلًا كالدهرية، أليس كذلك؟ إذن نحن نتكلم عن حكمٍ أغلبي، فلا ننزِّه المشركين وليس هذا قصدنا ، ليس القصد أن ننزه المشركين عن أن يكون فيهم من هو مُشرك بالله سبحانه وتعالى في الربوبية، إنما المقصود أن القوم في الغالب كانوا على هذا الاعتقاد كما بيّن ربنا سبحانه وتعالى في كتابه. هذا شيء.

الشيء الآخر: أنهم كانوا مقرين في الجملة؛ يعني في الأصول الكبار المتعلقة بالربوبية ما كان عندهم ترددٌ في إثبات انفراد الله عز وجل بذلك ؛ الخلق، الرَّزق، التدبير، الإحياء، الإماتة، الهداية، وأمثال هذه الأمور التي هي أصول مسائل الربوبية، القوم كانوا يُسلِّمون بأن الله سبحانه وتعالى مُنفردٌ بها،

ولذلك نقول: هذا منهم إقرارٌ في الجملة. بمعنى: أن إقرارهم بالربوبية ليس على سبيل التحقيق والكمال، لا أظن أن عاقلًا يظن أن إقرار المشركين بالربوبية كإقرار المسلمين بالربوبية، ما أظن أن أحدًا يوافق على هذا، لكنهم في الجملة يُقرون، وإلا فثمة نقصٌ، وثمة خللٌ، وثمة انحرافٌ حاصلٌ عندهم.

خُذ مثلًا على هذا: القوم ما قدروا الله حق قدره، حينما أنكروا بعض أفعال الله سبحانه وتعالى، وهذا نقصٌ في إقرارهم بالربوبية؛ كون الله عز وجل يبعث من يموت، كون الله يُرسل الرسل، كون الله يُنزل الكتب، هذه أفعالٌ لله عز وجل، والقومُ أنكروها، وهذا نقصٌ في إقرارهم بربوبية الله عز وجل، ولذا قال الله سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١]، إذن القوم كان عندهم خلل في هذا المقام.

ثانيًا: القوم كان عندهم شركٌ في بعض خصائص الربوبية، كان عندهم شيء من الخلل في هذا المقام، إذ كان منهم من يعتقد شيئًا من التأثير، أو حصول الخير أو الشر لغير الله سبحانه وتعالى، ولا يلزم أن يكون هذا من الآلهة أو الأصنام، ربما تكون أشياء أخرى، كما كان من المشركين في اعتقادهم بالأنواء وأنها التي تؤثر في نزول الأمطار، ولذلك كانوا يقولون: "مُطرنا بنوء كذا وكذا" ، إذن هذا يعتبر خللًا في توحيد الربوبية. تجد عندهم تعلقًا بالتمائم، يلبسون الخيط والحلقة، ويتبرَّكون؛ كما فعلوا بذات أنواط، كانوا يتطيّرون، وكل هذا فيه اعتقاد تأثير في هذا الكون لغير الله سبحانه وتعالى، فهو إشراكٌ في بعض خصائص الربوبية، وهذا لاشك أنه نقصٌ وخلل في إقرارهم بتوحيد الربوبية.

الأمر الثالث: أنهم لم يعطوا الربوبية حقها حينما اعتقدوا الشفاعة في آلهتهم؛ الشفاعة التي اعتقدوها في آلهتهم لا شك أن فيها تنقصًا من مقام ربوبية الله عز وجل، ولذا اشتد النكير عليهم في النصوص حينما يظنون في آلهتهم أنها تُدلي على الله وأنها تشفع عنده بلا إذن منه، لا شك أن هذا يتنافى وتعظيم الله سبحانه وتعالى في ربوبيته، ولذلك هذا من جملة الخلل الذي وقعوا فيه.

وثمة أمرٌ رابع: وهو أن القومَ ما التزموا بلازم إقرارهم بالربوبية، وهو توحيده في الألوهية، وهذا نقصٌ وخللٌ في إقرارهم بالربوبية. قلنا سابقًا: القوم فصلوا بين اللازم والملزوم، يلزم من الإقرار بالربوبية الإفرادُ بالعبادة، والقومُ ما فعلوا هذا، ولذا كان عندهم نقص وخلل في الربوبية.

إذا فهمت هذا ؛ فهمت الكلمة الحسنة التي قالها الإمام المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض رسائله قال: «وأما توحيد الربوبية فهو الأصل، ولا يغلطُ في الألوهية إلا من لم يعطه حقه». توحيد الربوبية هو الأصل ، فأول ما يستقر في القلب اعتقاد ربوبية الله، ثم ينبني على هذا توحيده في العبادة، قال: «وأما توحيد الربوبية فهو الأصل، ولا يغلط في الألوهية إلا من لم يعطه حقه» ؛ لابد من نقص وخلل عند كل من أشرك بالله سبحانه وتعالى في العبادة.

ومع كل ما سبق: فالقدر الذي أقروا به من الربوبية كافٍ في إلزامهم كما بين الله، في مسألة توحيد الألوهية؛ إلزامهم باعتقادهم في الربوبية -القدر الذي حققوه منه- كافٍ لحصول هذا الإلزام، ولذا جرت الآيات على هذا المعنى.

وهذا القدر أيضا -ما سلموا به من الربوبية- كافٍ في إثبات أن الشرك

العظيم الذي كان موضع النزاع بين النبي ﷺ وهؤلاء المشركين إنما كان في توحيد الألوهية ؛ وهذا ما يُريد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إثباته من خلال بعض كلامه في هذه الرسالة، وسيأتينا تقريرٌ لذلك إن شاء الله.

قال المصنف رحمه الله:

إذا تحققت أنهم مُقِرُّون بهذا، ولم يدخلوا في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ ، وعرفتَ أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يُسميه المشركون في زماننا «الاعتقاد»؛ كما كانوا يدعون الله سبحانه وتعالى ليلًا ونهارًا. ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقُربهم من الله ليشفعوا له، أو يدعو رجلًا صالحًا مثل اللات ، أو نبيًا مثل: عيسى.

قال الشارح وفقه الله:

لا يزال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسترسلًا في بيان أن **توحيد العبادة هو مَفْرِقُ الطُّرق بين أهل التوحيد والمشركين**؛ هذه قاعدة ينبغي أن تستقر في قلبك، هاهنا افترق الفريقان أهل التوحيد وأهل الشرك.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سار في تقرير هذه الجملة وما بعدها بِذكرِ مقدمات يعقبُها نتيجة، ذكر لنا مقدمات سيأتي بيانُ خلاصتها إن شاء الله، ثم نتج عن هذه المقدمات نتيجة سيأتي الكلام عنها إن شاء الله.

منها: (**أنَّه إذا تحققت أنَّهم مقرون بهذا**) يعني مُقرون بربوبية الله سبحانه وتعالى على ما مضى بيانه في الدرس الماضي، وهذا الإقرار ما نفعهم من جهةِ أنَّهم صاروا مسلمين، وصارت دماؤهم وأموالهم معصومة، الأمر لم يكن كذلك.

قال: (**وعرفتَ أنَّ التوحيد الذي جحدوه**) الذي هو توحيد العبادة أو توحيد الإلهية هذا هو الذي جحده القوم ، لم تكن مسألةُ النزاع في قضية التوحيد تتعلق

بالربوبية ؛ كلا، بل كانت تتعلق بالألوهية.

ثم يُبين لنا فيقول: (**الذي يُسميه المشركون في زماننا الاعتقاد**) ؛ يقول هؤلاء المشركون -وهذا كان في زمن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ- يقولون: "فلانٌ فيه عقيدة، أو يُعتقد فيه"، وهذا المُراد به: أنَّه يصلح لأن يُعتقد فيه أنه يُقرِّب إلى الله سبحانه وتعالى وأنَّه يشفع عند الله جل وعلا على ما كان عليه هؤلاء، وبالتالي يُعتَقدُ فيه الإلهية ويصلُح أن يُتقرب إليه بأنواع العبادة أو ببعض العبادة، المشركون في الشرك متفاوتون، فبعضهم أغلظُ شِركًا وأكثرُ شِركًا؛ فمنهم من يُجوِّز كل أنواع العبادات لغير الله سبحانه وتعالى، هؤلاء غُلاة المشركين من القبورية، ومنهم من يتحفَّظُ بعض التحفظ فيُجوِّز بعضه؛ فيُجوِّز -مثلًا- أن تستغيث وتدعو الولي ولا يُجوِّز أن تسجد له، والنتيجة على كل حال واحدة، فمن أشرك مع الله سبحانه وتعالى في عبادةٍ واحدة هو في الحُكم كالذي أشركَ في كل العبادات، ولسنا نجحدُ أنَّ الكفار بعضهم أغلظُ كُفرًا من بعض، هذا لا إشكال فيه وله أثرٌ في العقوبة، لكن من جهة الحُكم: الحكم واحد؛ فمن أشرك في عبادةٍ كالذي أشرك في كل عبادةٍ ولا فرق.

قال: (**كما كانوا يدعون الله سبحانه وتعالى ليلًا ونهارًا**) ؛ ليست المشكلة أنهم ما يثبتون وجود الله، ليست المشكلة أنهم لا يعتقدون أنه خالقٌ رازقٌ مُدبر، ليست المشكلة في أنهم أعرضوا عن عبادة الله، كل ذلك لم يكن مُشكلًا، المشكلة هي أنهم يتوجهون لله بالعبادة، ويجمعون غيره معه في عبادة الله . وهذا هو حقيقة الشرك، جمعُ غير الله مع الله فيما لا يجوز إلا له، هذه هي حقيقة

الشرك، ليست حقيقة الشرك هي إنكار وجود الله، ليست حقيقة الشرك ألا يعبدوا الله ، كلا! حقيقة الشرك الذي حصل من المشركين أنهم يجمعون غير الله مع الله فيما لا يجوز إلا له وحده سبحانه وتعالى، فالعبادةُ حقٌ خالصٌ لله عز وجل، والقوم ما قاموا بأداء هذا الحق؛ فكانوا يعبدون -يدعون، ويتصدقون، ويطوفون، ويسعون، ويحجون... إلى آخر ما تعلمناه- ولكنَّ هذا لم يكن كافيًا في كونهم مسلمين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقُربهم من الله ليشفعوا له**)؛ منهم من يعبد الملائكة نعم، عبادة الملائكة لأجل أن تُقربهم إلى الله زُلفى هذا واقعٌ كثيرًا في المتقدمين، بل لك أن تقول: إنَّ الملائكة أشرفُ معبوداتهم، الملائكة لهم الإجلالُ والتعظيمُ عند جميعِ المِلل، لا يختلف أحدٌ من الناس ممن يُثبت وجود الملائكة -أعني باستثناء الملاحدة الجاحدين المعطلين- كلُّ من يُثبت الملائكة فإنَّه يُجلِّهم ويحترمهم ويُعظمهم، وبعضهم يغلو أكثر من ذلك؛ فيعتقد فيهم التدبير، ويجعلُ لهم حصولَ كل حركةٍ أو سكون في هذا الكون، كما عليه طائفةٌ من الفلاسفة.

وممن غلا فيهم المشركون، فإنَّ كثيرًا من المشركين كانوا يعتقدون أنَّ الملائكة بناتُ الله -تعالى الله عن ذلك- ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٠]، ويزعمون -قبَّحهم الله- أنَّ الملائكة بناتُ الله من سروات الجن، يزعمون أنَّ الله سبحانه وجلَّ وعزَّ قد صاهر الجنَّ فولدت الملائكة، فصارت الملائكةُ بناتٍ لله -تعالى الله عن إفكهم علوًا كبيرًا- ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٠]، وهذا الزعم زعمٌ مُجردٌ عن أي علم أو دليل ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ ماذا قال الله؟ ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف:١٩] سبحان الله ! تخرُّصٌ بلا علم، ونسبةُ نقصٍ عظيمٍ إلى الله عز وجل، بل نسبة الولد والبنت لله تبارك وتعالى مسبَّةٌ عظيمة للخالق جل وعلا، فالقوم ما كانوا يتحاشون من هذا، وهذا ما جرت عليه عقيدةُ كثيرٍ من العرب؛ أن الملائكة بنات الله كما كانت تقولها قريش، وجُهينة، وبنو سلَمة، وبعضُ خزاعة، وغيرهم من قبائل العرب.

المقصود أنَّ هؤلاء عبدوا الملائكة وتوجهوا لها بالعبادة لأجل تحصيل الشفاعة والقُربى، قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ:٤٠] ؛ إذن كان من المشركين من يعبدُ الملائكة .

وقال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٦-٥٧]، مما قيل في تفسير الآية -وهذا جاء عن ابن مسعود ومجاهد وغيرهما من السلف - أنَّها نزلت في من يعبد الملائكة، والصواب: أنَّها أعم من ذلك في من يعبد الملائكة، وفي من يعبد عُزيرًا، وفي من يعبد عيسى، وغير هؤلاء من الصالحين.

المقصود: أنَّ الآية بينت أنَّ هؤلاء الذين تتوجهون إليهم يا معشر المشركين، ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ هؤلاء الذين تدعونهم الواقع أنَّهم يبتغون

إلى ربهم الوسيلة، هؤلاء المعبودون في حقيقة الحال عابدون لله، كيف تعبدون العابدين وتتركون المعبود سبحانه وتعالى؟! كيف تتوجهون بالعبادةِ إلى العابدين وتتركون العبادة الخالصة للمعبود الذي يعبُدُه هؤلاء المعبودون عندكم؟! فدل هذا على أن هذا غايةُ السفه، وغاية السخافة وضلال العقل من هؤلاء المشركين.

المقصود أن الملائكةَ عُبدت من دون الله سبحانه وتعالى، لم تكن القضية عبادة شجرٍ وحجرٍ وصنمٍ كما يُركز على هذا المُشركون المعاصرون؛ تُشرك إنْ توجهت بالعبادة إلى صنم، أما إذا توجهت إلى وليّ من الأولياء، إلى سيدٍ من السادة الأمر مختلف، وسيتكلم المؤلف عن هذا لاحقًا إن شاء الله.

بيّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الشرك لا يتعلق بعبادة الجمادات فحسب، بل حتى إذا عُبدت الملائكة فالشرك حاصل.

كذلك (**ويدعو رجلًا صالحًا مثل اللات**) ؛كما فسر ابن عباس قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم:١٩] كما في «صحيح البخاري»: أن اللات كان رجلًا صالحًا يلُتُّ السويقَ للحاج؛ أي: يخلط الطحين بالماء أو بالسمن أو بالزيت لأجل أن يُساغ أكله، فهو يصنع هذا الطعام ويتصدق به، وهذا رجلٌ صالح، فلمَّا مات عبدوا قبرَه، توجهوا إلى قبره، ثم توجهوا إلى الصخرة التي كان يجلس عليها فيلُتُّ عليها السويق، واللات كان مُعظمًا عند جميع المشركين من جميع العرب، وأكثرهم تعظيمًا له وإشراكًا به ثقيف ومن جاورها من أهل الطائف، وكان هذا اللات في الطائف، والصالحون الذين عُبدوا قديمًا

كثير، كما مر معنا في قصة وَد وسواع ويغوث ويعوق ونسر هؤلاء كانوا صالحين، وهلم جرا إلى يومنا هذا لم تزل الفتنة بعبادة الصالحين موجودة.

قال: (**أو نبيًا مثل عيسى**) عليه الصلاة والسلام، كل ذلك كان يقع من هؤلاء المشركين.

قال المصنف رحمه الله:

وعرفتَ أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشِّرك، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله كما قال تعالى: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] ، وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الرعد:١٤].

قال الشارح وفقه الله:

قال: (**وعرفتَ**) هذه مُقدمة أخرى (**أن رسول الله ﷺ قاتلهم**) قاتل هؤلاء المشركين (**على هذا الشرك**)؛ قاتلهم لأجل أن يتركوا هذا الشرك، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]، لا يتوجه متوجهٌ بالعبادة، لا يتدين أحدٌ بدين إلا وهو يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى به، قال ﷺ كما في «الصحيحين»: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»، هاهنا أُمِر النبي ﷺ أن يكفَّ عن مقاتلهم.

والشهادة وقول: لا إله إلا الله ليس المراد بذلك كما سيأتي مجرد أن يتلفظ بها، إنما شهادة أن لا إله إلا الله قولٌ يُصدِّقه اعتقاد ويتبعه عمل، شهادة أن لا إله إلا الله ليست لفظًا مُجردًا، إنما هي لفظٌ يُصدقه اعتقاد ويتبَعه عمل، أن يُتوجَّه بالعبادة لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له.

قال: (**ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله**)، كل أدلة الكتاب والسنة تدور على هذا المعنى؛ الأمر بعبادة الله عز وجل ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

وفي قصةِ هرقل مع أبي سفيان رضي الله عنه وكان إذ ذاك مشركًا،

والحديث عند البخاري سأل هرقل: «ماذا يأمركم؟» ؛ لاحظ كيف أن أبا سفيان وهو الرجل العاقل أعطى خلاصة لدعوة النبي ﷺ ، ما قال "قال لنا: أثبتوا وجود الله"! ، ما قال: "قال لنا: اعتقدوا أن الله خالقكم، اعتقدوا أن الله رازقكم، اعتقدوا أن الله مُدبر أمركم"! ، والله ما قال هذا، ماذا قال؟ قال: «يقول لنا: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا» ثم ذكر بعض مكارم الأخلاق.

الشاهد: أن الأساس والأصل واللُّب في دعوة النبي ﷺ إنما كانت تتمحور على قضية توحيد العبادة ، توحيد العبادة مَفْرِق الطُّرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كما قال تعالى: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]**) لاحظ كيف أن هذه الآية قطعت السبيل إلى الإشراك به سبحانه مُطلقًا في أي شريك، كل شريكٍ يُدّعى فإن عبادته باطلة منهيٌ عنها، لأنه قال: **﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾** ؛ (أحدًا) نكرةٌ في سياق النَّهي فتعُم، هل يُمكن لأحد أن يستثني من هذا شيئًا؟ لا والله، كل أحد حتى ولو كان نبيًا، حتى ولو كان وليًا، حتى ولو كان ملكًا، حتى ولو كان جنيًا، حتى ولو كان شمسًا، قمرًا، صنمًا، كل أحدٍ سوى الله عز وجل فإنه لا يجوز أن يُتقرب إليه، وأن يُتعبد له إلا ربنا سبحانه وتعالى.

قال: (**وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الرعد:١٤]**) ؛ الدَّعوة الحق إنما هي لله سبحانه وتعالى، وكل دعوةٍ لغيره فإنها دعوةٌ باطلة ، ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ [الرعد:١٤] كما في ختامها، فالدعوة الحق لله سبحانه وتعالى ، فلا يستحق أن يُدعى ويُعبد إلا هو

تبارك وتعالى.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ [الرعد:١٤] هذا مَثَلٌ عجيب، يعني: إضافةً إلى كون التوجه لغير الله عز وجل بالدعاء والعبادة ضلال؛ هو لا ينفع ولا يُفيد شيئًا، فهو إذن ضلالٌ في الدين، سفهٌ في العقل، لأي شيء يتوجه الإنسان بالدعاء والاستغاثة لغير الله عز وجل! والنتيجة أنه لن يُجاب، ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾، قال بعض السلف: يعني كالذي يمُد يده في داخل البئر، والماء في الأسفل، يمد يده إلى البئر لأجل أن يبلغ فاه، لا يأخذ حبلًا ولا يطلب رِشَاءً وإنما فقط يمُد يده، يصل إليه الماء؟ لو يجلس إلى يوم الدِّين ما يصل إليه الماء.

وقال بعض السلف: هو الذي يُشيرُ إلى الماء بلسانه ويده؛ الماء في البُحيرة أو في البركة أو في الحوض هناك، ويقول: يا ماء، يصل إلى فمه شيء؟ ما يصل إلى فمه شيء.

إذن هذا الذي يدعو غير الله سبحانه وتعالى ما اتخذ السبب الذي يوصله إلى مقصوده، السبب الذي يوصله إلى مقصوده: أن يدعو الله، هو يُريد تحقيق هذا المسؤول، هذا السؤال يُريد أن يتحقق، ما اتخذ الوسيلة الموصلة، وهو أن يُدعى الله، أما إن دُعي غيره، فإن هذا لا يفيد شيئًا.

المقصود: أن هذه الآية فيها التنبيه على ضلال الشرك بالله ووجوب عبادة الله وحده، وفيها بيان أن الشرك لا ينفع ولا يُحقق شيئًا، وإنما هو سفهٌ وضلال،

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١] ، هذه الآية نظيرةُ تلك الآية، يعني كلها تدل على أن الشرك بالله عز وجل لا يوصل إلى شيء، ولا يُحقق مقصودًا.

قال المصنف رحمه الله:

وتحققتَ أنَّ رسول الله قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادات كلها لله.

قال الشارح وفقه الله:

نعم، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]، العبادة كلها يجب أن تُصرف لله، ولا يجوز أن يُستثنى من هذا شيء.

العبادةُ حقٌّ خالصٌ لله عز وجل، استحقه علينا معشر العبيد من جهاتٍ كثيرة:

❁ **منها: أنه الرب الخالق، ونحنُ المربوبون المخلوقون**؛ فلكونه الرب الخالق وجب علينا أن نعبده، وهذا شيءٌ يُسلِّم به كل العقلاء لو أنصفوا، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، الدليل الموجِب لعبادة الله عز وجل كونُه الذي خلقنا وأوجدنا سبحانه وتعالى، إذن بمقتضى كونه الخالق وجب علينا أن نعبده.

يا لله العجب! أن يخلق الله ويُعبد غيرُهُ، أو يُشرك معه غيرُهُ، من يقبل بهذا؟ ومن يرضى بهذا؟ هل يرضى أحد أنَّ عبده المملوك يقومُ بخدمة غيره؟ هو الذي يشتريه ويكون مِلْكَ يديه ثم بعد ذلك يتوجه بالخدمة لغيره! هل هذا مقبول؟ إذا كنت لا تقبله فكيف تجعل شريكًا مع الله سبحانه وتعالى وأنت عبدٌ لله؟ والله عز وجل هو الخالق المالك لك من كل وجه، ولذا في حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه في الكلمات الخمس التي أمر الله عز وجل بها يحيى بن زكريا -

الحديث عند الترمذي وأحمد- قال: «أولهن: أن تعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا» أول كلمة أمرهم بها، والنبي ﷺ أمرنا بها، وزاد عليها في آخر الحديث: «أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، فَقَالَ : هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ ؟» ؛ من يرضى بهذا؟ لا أحدَ يرضى بهذا، وهذا من قياس الأولى في باب التنزيه.

وسبحان الله! لو لم يكن من حكمة في مشروعية الاسترقاق إلا هذا الوجه -وهو فهمُ حقيقة التوحيد- لكان في هذا حكمة بالغة، الله سبحانه وتعالى شرعَ الاسترقاق بوجهه الصحيح لِحكمٍ بالغة، ومنها هذا الوجه الذي يغفل عنه كثيرٌ من الناس، يتجلى للناس وجهٌ من أوجه حقيقة التوحيد وقُبح الشرك.

فالمقصود أن الله سبحانه وتعالى استحق علينا العبادةَ لكونه الخالق لنا، فكيف والعبادةُ هي الحكمة من خلقنا، يتأكد الأمر حينها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

❁ **ثم من وجهٍ آخر: استحق علينا العبادة لأنه سيدنا الذي أمرنا بعبادته، وليس للعبد مع سيده إلا الطاعة،** الله عز وجل هو سيدُنا ومولانا، ونحن عبيده، فلما أمَرنا بعبادته توجَّه علينا أن نعبده، واستحق علينا أن نكون عابدين له وحده لا شريك له.

❁ **الوجه الثالث: استحق الله علينا العبادة، لكونه المنعِم علينا، وشُكر النعمةِ واجبٌ عقلًا وشرعًا؛** لأنه هو الذي يرزق، ولأنه الذي يُنعِم، ولأنه الذي

يُعطي، استحق علينا أن نشكره فنتوجه له بالعبادة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ تأمل هذه الدلالة ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ الجواب: لا، إذن ﴿لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:٣]، رتب قضية التوحيد على كونه وحده الرازق وهم يعلمون ذلك. إذن كيف يكون الشكر لهذا المُنعِم سبحانه وتعالى وهم يعبدون غيره، لاشك أنَّ هذا إنكارٌ وجحدٌ لنعمةِ الله عز وجل، وليس هذا شُكرًا لها، وهذه حال المشركين: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣] ، هذه حال المشركين بخلاف من كان من أهل التوحيد.

❁ **الأمر الرابع: الله عز وجل استحق علينا العبادة لأن له الكمال المُطلق سبحانه وتعالى من كل وجه، والنفوس مجبولةٌ على حُب وتعظيم من له الكمال من كل وجه**، فلما كان الله عز وجل متصفًا بالكمال المطلق إذن تعين على العباد أن يتوجهوا له وحده لا شريك له بالعبادة، ولذا يقول سبحانه: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ انظر للحجة بعدها: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، هو الذي انفرد سبحانه وتعالى بالكمال المطلق، فليس له مثيل وليس له كفؤ وليس له ند، بل له الكمال المطلق، المُنزه من كل نقص وعيب، إذن يستحق أن تعبده وأن تصطبر لعبادته.

إذن هذه بعض الأوجه التي تدلك على أن الواجب على العباد أن يتوجهوا بالعبادة لله، وأن العبادة حقٌ خالصٌ لله سبحانه وتعالى ، ويبقى بعد هذا أن تُحقق معنى العبادة، لأن من المداخل التي يسلكها المشركون التشغيب والتلبيس في

معنى العبادة، وهذا ما سنتحدث عنه لاحقًا إن شاء الله تعالى في قادم الكتاب.

قال المصنف رحمه الله:

وعرفتَ أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام، وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم؛ عرفت حينئذٍ التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون، وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله.

قال الشارح وفقه الله:

وصلنا الآن إلى النتيجة، ومن آخر ما ذكر في المقدمات قال: (**وعرفتَ أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام، وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم**) وهاتان المسألتان مر الكلام فيهما غير مرة، فكانت الخلاصة أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قدَّم بمقدمات ثلاث أعقبها بنتيجة:**

❁ **أما المقدمة الأولى**: فهي أن تعرف المشركين، وحالهم الإقرار بوجود الله، وأنهم يعبدونه، وأنهم يُشركون معه في العبادة، وأنهم يُشركون في العبادة لأجل طلب الشفاعة والتقريب إلى الله.

❁ **المُقدمة الثانية**: أن النبي ﷺ إنما قاتلهم على توحيد العبادة، لا على توحيد الربوبية.

❁ **المقدمة الثالثة**: أن توحيد الربوبية الذي أقروا به ما نفعهم، ولا جعلهم مسلمين.

إذا عرفت هذه المقدمات الثلاث خلصت بعدها إلى النتيجة قال: (هذه

هي النتيجة) اكتب عندها **النتيجة**: (**عرفتَ حينئذٍ التوحيد الذي دعتْ إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون، وهذا التوحيد هو معنى قولنا: لا إله إلا الله**) هذه هي النتيجة، إذا عرفت معرفة قلبٍ ما تقدم خلصتَ إلى هذه النتيجة؛ ما هو التوحيد الذي دعتْ الأنبياء إليه ورأسهم في هذا نبينا محمدٌ ﷺ؟ إنه توحيد العبادة، وهو الذي دلت عليه مطابقةً كلمةُ التوحيد «لا إله إلا الله»، وهذه المعرفة غريبةٌ في الناس، والعارفون بهذه النتيجة غُرباء قليلون مع الأسف الشديد.

وإذا عرفت هذه النتيجة يتبعها معرفةٌ أخرى مهمة، إذا عرفت حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الأنبياء عرفتَ حينها حالَ وحُكم القبوريين الذين يدَّعون الإسلام ويُكررون صباح مساء شهادة أن لا إله إلا الله، والواقع أنهم ما فارقوا حال المشركين الأولين، بل ساروا على نهج أولئك حذو القذة بالقذة، وهذه هي النتيجة -في الحقيقة- الأهم.

وهذا الذي يُريد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يوصلك إليه من خلال هذه الرسالة كلها، يُريدك أن تصل إلى هذه النتيجة: هل القبوريون -إذا عرفت كل ما سبق- هم من أهل التوحيد؟ أم هم من أهل الشرك؟ إذا كنتَ ذا بصيرة ونوَّر الله عز وجل قلبك بالتجرد لقبول الحق، حينها ستعلم كيف هو الأمر، هل هؤلاء المشركون المعاصرون هم على ما كان عليه أهل التوحيد؟ كانوا على ما كان عليه أبو بكر وعمر وإخوانهما من الصحابة؟ أم كانوا على ملةِ عبد المطلب وأبي جهل وأبي لهب وأُمية بن خلف؟ ستُدرك ذلك إذا كنت ذا بصيرة وتجردت لقبول الحق.

قال: (**عرفتَ حينئذٍ التوحيد الذي دعتْ إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون، وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله**)، حقيقةٌ ناصعة في كتاب الله من أجلى المسائل وأوضحها في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، هذه المسألة؛ التوحيد الذي كرر النبي ﷺ الدعوة إليه وأعاد، حقيقة ناصعة لا لبس فيها، وهي حرفٌ واحد: أنَّه لا يجوز التعبد بكل أنواع العبادة إلا لله سبحانه وتعالى، وأنه يجب أن يُكفر بكل معبودٍ سواه، هذه الحقيقة وخلاصتها في هذا الدين وهذه الملة. هذه هي لا إله إلا الله، هذا الذي دعا إليه رسول الله ﷺ، هذه كلمة التوحيد التي انفصل الناس بها إلى سعيدٍ وطريد، تفرَّق أهل الجنة عن أهل النار بهذه الكلمة؛ لا عبادةَ إلا لله، وكل معبودٍ سوى الله فعبادته باطلة.

هذه الكلمة «لا إله إلا الله» عرف معناها المشركون، فأبوا قبولها، أن يُعبد الله ولا يُشرك به شيئًا، المستحق للعبادة هو الله، لا معبود حقٌ إلا الله، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، الله سبحانه وتعالى هو الذي لا يجوزُ أن يُعبد غيره، ﴿فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [يونس:١٠٤]، هذا هو التوحيد، هذه هي لا إله إلا الله، هذه الآيات تفسيرٌ لكلمة التوحيد، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٩]؛ إلهٌ واحد، معبودٌ واحد، لا يجوز أن يُتوجه بالعبادة لغيره وحده لا شريك له، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٠]، مُطلقًا عمومًا أيُّ أحدٍ فإنني لا أُشركه مع الله سبحانه وتعالى، قلَّ أو كبُر.

قال المصنف رحمه الله:

فإن الإله عندهم هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور، سواء ملكـًا، أو نبيـًا، أو وليـًا، أو شجرة، أو قبراً، أو جنيـًا. لم يريدوا أن الإله هو الخالق الرازق المدبر؛ فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قدَّمت لك، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا هذا بلفظ السيد. فأتاهم النبي يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي (لا إله إلا الله) والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها.

قال الشارح وفقه الله:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فإن الإله عندهم**) أي: عند المشركين، في مفهومهم ومعقولهم الإله هو (**الذي يُقصد لأجل هذه الأمور**)، يعني التي سبقت؛ الذبح، والدعاء، والنذر، والاستغاثة، يعني: العبادة، الذي يُقصدُ بالعبادة، الإله في إدراكهم فيما يعرفون من لغةِ العرب -وهم أهل هذه اللغة- كانوا يُدركون أنَّ معنى الإله: هو الذي يُقصدُ بالعبادة، (**سواءً كان مَلكًا، أو نبيًا، أو وليًا، أو شجرةً ،أو قبرًا، أو جنيًّا**)، وسواء كان كاملًا أو ناقصًا، وسواءً كانوا يعتقدون فيه الكمال أو النقص، كل من توجَّه المتوجه إليه بالعبادة فهو إلهٌ بالنسبة له، هو إلهٌ عنده، ولو كان يعتقده ناقصًا.

انتبه: بعض المتكلمين أخطأوا في هذا المقام، فالإله عندهم ليس مُطلق المعبود، إنما يقولون: الإله هو المعبود الذي يُعتقدُ فيه الكمال، وهذا غيرُ صحيح، بل كل من توجه بالعبادة إلى شيءٍ من الأشياء، فإنه يُعتبر إلهًا بالنسبة له، سواءً اعتقده كاملًا، أو اعتقده ناقصًا، سواءً اعتقده مالكًا، أو اعتقده مملوكًا،

فإن الأصنام التي كان يعبدها المشركون هل كانوا يعتقدون فيها الكمال؟ ما كانوا يعتقدون فيها الكمال: «لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»، مع أنها كانت آلهة عندهم، كانوا يعتقدونها آلهة، وكانوا يُسمونها آلهة، لما قال لهم النبي ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله» ماذا قالوا؟ -وسيأتي هذا بعد قليل-: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص:٥]، ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا﴾ [الصافات:٣٦]، وهم ما اعتقدوا فيها الكمال.

إذن الحق الذي لا ينبغي أن تُصرف عنه: أن الإله يعني المعبود فحسب، دونَ أن تُضيف قيودًا على هذا، وهذا الذي لا تعرف العرب في لغتها غيره، الإله: هو المعبود، ونقَل على هذا الإجماع أن الإله هو المعبود ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره»، (أَلَه يألَه إلهةً وأُلوهيةً) يعني عبدَ عبادةً، فتكون كلمةُ (إله) فِعَال بمعنى: مفعول، (إله) يعني: مألوه، يعني: معبود، فمتى ما عبدَ العابدُ أحدًا أو شيئًا فهو بالنسبة له إله، وهذا ما كانت تُدركه العرب وكانوا يفهمونه.

(**لم يريدوا أن الإله هو الخالق الرازق المدبر**)، لم يُريدوا متى؟ حينما امتنعوا عن قول: لا إله إلا الله، لم يُريدوا -أي المشركون- أنَّ الإله هو الخالق الرازق حينما استكبروا عن لا إله إلا الله، هم ما كانوا يُريدون أن الإله هو الخالق الرازق، ليس هذا هو الذي فهموه من لا إله إلا الله يعني لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله، الأمر لم يكن كذلك، هم أهل لغة ويفهمون أن (لا إله إلا الله) يعني: أن نعبد الله ولا نُشرك به شيئًا، وهم لا يقبلون هذا البتة. ولذا لم يُريدوا حين امتناعهم عن قول: لا إله إلا الله أن الإله هو الخالق الرازق المُدبر؛ فإنهم يعلمون

أن ذلك لله وحده -كما قدَّمت لك، ومرَّت بنا الأدلة على هذا- إنما يعنون بـ(الإله) ما يعني المشركون في زماننا هذا بلفظ (السيِّد).

يقول لنا المؤلف: الذي فَهمه المشركون سابقًا من كلمة (الإله) هو الذي يفهمه المعاصرون في زمني من كلمة (السيد)، وهذا كانوا يستعملونه فيما بينهم ويصطلحون عليه، يقولون: فلانٌ سيِّد، فلانٌ هو السيِّد، يعني يصلح أن يُعتقد فيه أنه يُقرِّب إلى الله سبحانه وتعالى، له وجاهة عند الله فنتوجه له بالعبادة، سيد يصلح أن تلتجئ إليه وأن تتقرب إليه ليرفع حاجتك عند الله، سيِّد يعني تُنادي باسمه عند الشدائد، وتذبح باسمه ولأجله، وتنذر باسمه، سيِّد يعتقدون فيه الإلهية.

ومثُل هذه الكلمة هي من قبيل الاصطلاحات التي تختلف باعتبار الأزمنة، وباعتبار الأمكنة، فرب زمانٍ لا يُستعمل فيه هذه الكلمة، وإنما تُستعمل كلمة أخرى، ورُب مكانٍ تُستعمل فيه هذه الكلمة، أو تُستعمل فيه كلمةٌ أخرى، كما هو حاصلٌ عند كثيرٍ اليوم، بدل كلمة (السيد) قد يقولون: (الولي)؛ فلانٌ (الولي)، أو فلان (الشيخ)، أو فلان (من أهل السِّر)، أنه يصلح للتوجه والتقرُّب إليه.

وهذه الجُملة من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيها فائدةٌ لنا يا معشر طلاب العلم، وهي: أنه ينبغي على من يدعو إلى التوحيد أن يعرف الحال والواقع، وأن يعرف الاصطلاحات التي يتعاطاها الناس، لأجل أن يفهم كلام العلماء ويُنزله منزلته، ولأجل أن يُفهِّم العامة؛ الدعوة إلى التوحيد ينبغي أن تكون بلغةٍ مفهومة، بلسانٍ

واضح، بأسلوبٍ ينزلُ إلى مستوى المدعوِّين، ما أحسنَ هذا الداعية الذي يدعو إلى التوحيد، فيتكلم باللغة التي يفهمها المدعو، وليس يتقعر أمامهم بلغةٍ عالية، ويُظهِر فصاحته أمام أُناسٍ ربما يفهمون بعض كلامه ولا يفهمون البعض الآخر، إنما انزل بأسلوبك؛ المقام أكبر من أن يُشار إليك، ويُقال: إنك خطيبٌ متمكن، تكلم يا أخي بلُغتهم، تكلم باللهجة العامية إذا كان المقام مقام بيان للتوحيد، حدِّثهم عن الدقائق التي تقعُ فيما بينهم أو تقعُ في الناس مما هو يُخالف التوحيد، هكذا ينبغي أن تكون الدعوةُ إلى التوحيد.

قال المصنف رحمه الله:

فأتاهم النبي يدعوهم إلى كلمة التوحيد؛ وهي (لا إله إلا الله) ، والمراد من هذه الكلمة معناها، لا مجرد لفظها. والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلق، والكفر بما يعبد من دونه، والبراءة منه، فإنه لما قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله»، قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَاب﴾.

قال الشارح وفقه الله:

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فأتاهم النبي يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله، والمراد من هذه الكلمة معناها لا مُجرد لفظها) ؛ هل المطلوب التلفظ بلا إله إلا الله؟ الجواب: نعم، وهذا من المعلوم بالاضطرار من دين الله عز وجل، والمسلمون مُجمِعون على أنَّ المُتمكن من النُّطق بشهادة أن لا إله إلا الله ثم أبى، فإنَّه لا يدخل في الإسلام مهما اعتقد، لابد من النُّطق: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»، ولكن هل هو نُطقٌ مُجرد؟ الجواب: لا وألف لا، إنما «لا إله إلا الله» يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المُراد من هذه الكلمة معناها لا مُجرد لفظها).

المراد أن هذه الكلمة لها معنى يجب أن يُعتقد مع التلفظ بها، تلفظٌ يصحبه معرفةٌ للمعنى مع اعتقاده والتزامه والقبول به والانقياد له، ولو كان مُجرد النطق بلا إله إلا الله كافٍ؛ لكان المنافقون من أهل الإسلام، وما كانوا في الدرك الأسفل من النار، أليسوا ممن يتلفظون بلا إله إلا الله؟ بلى والله، يتلفظون بلا إله

إلا الله، تنفعهم؟ لا تنفعهم، لأن كلمة (لا إله إلا الله) كانت كلمةً باللسان نعم، لكن لم يصحبها عقيدةٌ قلبية تقتضي القبول والانقياد والكف عما يُناقض هذه الكلمة.

إذن ليس عبثًا أن تأتي الأوامر في الكتاب والسنة حاثَّةً ومُبينةً أن الأمرَ مُتعلقٌ بالعلم قبل أيّ شيء، ليس عبثًا أن يأمرنا الله سبحانه وتعالى بالأمر بالعلم بلا إله إلا الله فيقول: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ [محمد:١٩]، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود:١٤]، أي: فاعلموا أيضًا أنه لا إله إلا الله. ليس عبثًا أن النبي ﷺ يُبين لنا أنَّ سبب دخول الجنة العلمُ بلا إله إلا الله، فيقول كما في صحيح مسلم: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، هذا قيد لابد منه في تحقق هذا الثواب، وهو دخول الجنة، الجنة لا يدخلها إلا نفسٌ مؤمنة، إذن لا يكون إيمانٌ ولا إسلام إلا بعد أن تعلمَ لا إله إلا الله وتعتقد هذا المعنى الذي دلَّت عليه.

قال: (**والكفار الجُهال يعلمون أنَّ مُراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلُّق**) يعني بالعبادة، (**والكُفر بما يُعبد من دونه والبراءةُ منه**)، وهذه هي حقيقةُ لا إله إلا الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧]، قال ﷺ كما عند مسلم: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»؛ إذن لابد من الجمعِ بين الإثبات والنفي، بين التجريد والتفريد، لابد من اعتقاد أن العبادة لله سبحانه وتعالى، وأن كل ما يُعبد من دونه فإن عبادته باطلة.

قال: (فإنه لما قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله»، قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾)، إي والله، ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾، أكانوا يفهمون أن (لا إله إلا الله) تعني: لا خالق إلا الله؟ ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا﴾ يعني: أئنا لتاركون ما نعتقده أنهم الخالقون بخالقٌ واحد؟ ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ﴾، أجعل الرازقين رازقًا واحدًا إن هذا لشيءٍ عُجاب؟ أكانت هذه عقيدتهم؟ لا، كانوا عربًا يفهمون أنهم إن قالوا لا إله إلا الله، فإنه لزمهم أن يلتزموا بلا إله إلا الله ولا ينقضونها، وهم كانوا يأنفون من التناقض، ولذلك أبوا أن يقولوا لا إله إلا الله، حتى مع ظهور الحجة الناصعة.

ولذا في «الصحيحين» في قصة النبي ﷺ مع عمِّه أبي طالب، في تلك اللحظات الأخيرة من حياة أبي طالب، يأتيه النبي ﷺ، يُحاول معه فيقول: «يا عماه، قل كلمة» انظر إلى تسهيل الأمر، ثم يُرغِّبه فيقول: «أُحاج لك بها عند الله»، كلمة هل هي ثقيلة على اللسان؟ صعب النطق بها تحتاج إلى جُهد؟ تستغرق وقتًا؟ ما يترتب عليها شيء، كلمة، ومن الذي يدعوه إلى هذا؟ الذي يدعوه إلى هذا من يُحبه أعظم محبة، لكن مع الأسف لم تكن محبةً لله، الذي يدعوه من يعلمُ صِدقه، ومع ذلك كان الرجل من أهل اللسان العربي فيفهم أن معنى لا إله إلا الله: (أن يبرأ من عبادة غير الله، وأن تكون العبادة لله)، ولذا أبو جهل يقول له: أترغب عن ملةِ عبد المطلب، إن قلتها: فإن هذا مُقتضاها، إن قلت: لا إله إلا الله أصبحت بريئًا من ملةِ عبد المطلب، فغلبت عليه الشِّقْوة؛

فكانت آخر كلمة قالها هو على ملة عبد المطلب.

إذن كان يفهم ما معنى (لا إله إلا الله) ، ليست كلمة مجردة عن المعنى، وإلا ما كان يُحزِن ابن أخيه وحبيبه، لو كانت مجرد كلمة مُجردة، كلمة جوفاء ما فيها شيء، كلام لغو ما تحتها أي معنى، ما الذي يضره أن ينطق بها فيُريح ويُفرح رسول الله ﷺ؟ ما يضره ذلك، لو كانت تعني تحقيق توحيد الربوبية، والله ما كان يتردد، ما كانت عنده مشكلة أبدًا في أن يُقر بأن الله خالقٌ رازقٌ مُدبر، لكن المشكلة كانت في الشيء الذي استولى على قلبه كما هو حال جميع المشركين، أن هذه المعبودات -اللات والعزى ومناة وبقية هذه المعبودات- هذه تستحق العبادة، فلا يُمكن أن نتخلى عنها، ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهـاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَاب﴾، هذا كله من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ إعادةٌ وتأكيد على هذا المعنى العظيم، وهو حريٌ لأن يُعاد فيه ويُكرر.

قال المصنف رحمه الله:

فإذا عرفتَ أن جُهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدَّعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرف جهال الكفار، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيءٍ من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معناها: لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر الأمر إلا الله، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله.

قال الشارح وفقه الله:

يقول: (**فإذا عرفتَ أن جُهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب**) إي والله إنه لعجب (**ممن يدَّعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفَ جُهال الكُفار**)، تجده جالسًا أمام الضريح، أمام ما يقولون إنه المشهد؛ قبرٌ مُزخرف، والناس تسجد وتدعو وتبكي، وربما تطوف، وهو جالس أمام هذا القبر مُستند إلى سارية، وقلبه يطْرب من هذا المنظر، وفي يده سُبحة طويلة فيها ألف حبة! يرميها على الأرض ويجترها، وهو يقول: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، أليس هذا عجبًا يا إخوتاه؟! والله إنه لعجب، يقولون: لا إله إلا الله عدد الأنفاس -ربما-، ولكنهم لا يفهمون منها ما فهمه أبو جهل وأبو لهب، وهم يزعمون أنهم مسلمون! هذا أمرٌ عجيب، ومُحزنٌ في نفس الوقت.

قال: (**بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيءٍ من المعاني**)، وهذا ما -ربما- نسمعه اليوم من بعض الناس، لا تُضخموا قضية (لا إله إلا الله)، وهذه قرأتها لبعض المنحرفين ممن يكتب ويُقرأ لهم، يقول: (لا إله

إلا الله) كلمةٌ لا معنى لها، هكذا فقط كلمة مُجرد أمارة أو شعار للمسلمين، لكن هل تحتها معنى يجب أن يُعتقد وأن يُلتزم به، وأن يُعمل به؟ لا.

قال: (**والحاذق منهم يظن أن معناها لا يخلقُ ولا يرزقُ إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا الله**) الحُذاق العلماء منهم ما شاء الله وصلوا إلى هذه الرتبة العظيمة من العلم!! أن لا إله إلا الله : لا خالق ولا رازق إلا الله!! سبحان الله! يُشار إليه بالإمامة والعلم، وهو يجهل الشيء الذي علمه أبو جهل وأبو لهب، غريب والله.

ولذلك انظر إلى حال المتكلمين، لا أقول إن هذا منهم جميعًا، لكن أقول إن هذا من كثير منهم، تجد أنهم يقولون: إن الإله هو القادر على الاختراع، ارجع إلى نهاية «الإقدام» للشهرستاني إمام من الأئمة الكبار عندهم، ارجع -مع الأسف- إلى البيهقي في كتابه «الاعتقاد»، ارجع إلى كتاب «أصول الدّين» للبغدادي، كيف تجد أنهم يقولون: إن الإله -الوصفُ الذي يختص الله عز وجل به وهو الإلهية والإله- تعني القدرة على الاختراع، والإله هو: القادر على الاختراع، وبالتالي: لا إله إلا الله يعني: لا قادر على الاختراع إلا الله، هذا الذي أبى أبو جهل وأبو لهب الإذعان له؟ -الاختراع الإيجاد من العدم- كانوا يأبون ذلك؟ كانوا يعتقدون أن أصنامهم هي القادرة على الاختراع؟ ولذا قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾؟ لأجل هذا استكبروا عن لا إله إلا الله؟

أو تجد بعضهم يقول: إن الإله هو المُستغني عن كل ما سواه، والمفتقر إليه كل ما عداه، ارجع إلى «أم البراهين السنوسية»، تعرفون كم معهد ومدرسة

في العالم الإسلامي تُدرس هذا المتن؟ تعرفون كم الأجيال التي تخرَّجت وهي تفهم أو تظن أن (لا إله إلا الله) تعني: أنه لا مُستغنيًا عما سواه، ولا مُفتقرًا إليه كل ما عداه إلا الله؟! أهذا هو معنى لا إله إلا الله؟ أهذا القدر فهمه أبو جهل وأبو لهب؟ والله كانوا أحسن حالًا. لا شك أن هذه التفسيرات ومثلُها؛ الذي يقول: إخراج اليقين الفاسد من القلب على الأشياء، وإدخال اليقين الصحيح على ذات الله أنه لا خالق إلا الله، ولا رازق ولا مُدبر إلا الله، ويَدْعون ويُبلِّغون هذا الكلام، يقولون: هذه الكلمة الطيبة معناها كذا وكذا ، مساكين، أهذه هي (لا إله إلا الله)؟

ولاشك يا إخوتاه أن هذا الذي قالوه بدعةٌ في اللغة، وبدعةٌ في الشرع، ومعنىً ما أنزل الله به من سلطان، لا جاء في قرآن ولا جاء في سنة، ولو أن النبي ﷺ لمَّا قام في الناس يقول: « قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا» والذي أُريده منكم من هذه الكلمة أن تقولوا: لا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا مُدبر إلا الله؛ بالله عليكم ما ظنكم أن يكون الجواب؟ نُعطيكها وعشرًا، نحن نقولها أصلًا قبل أن تأتينا، كتاب الله ينطق بهذا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، مرَّت بنا أدلة كثيرة في هذا المعنى، لو كان هذا المعنى الذي ذكروه حقًا لما كان هناك كبير خلاف بين النبي ﷺ والمُشركين ، ما كان هناك نزاع ولا كان هناك قتال ولا كان هناك شيء من هذا؛ لكن المسألة شيء وراء ذلك.

نعم الإله الحق هو الخالق الرازق المدبر، نعم الإله الحق هو القادر على

الاختراع، نعم الإله الحق هو المستغني عما سواه والمفتقر إليه كل ما عداه، ولكن! ليس هذا معنى لا إله إلا الله، يجب أن نُفرق بين المقامين.

قال: (**فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله**)؛ صدق، وله كلمة قريبة من هذه في مسائل «كتاب التوحيد» في باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] قال: (فقبَّح الله رجلًا أبو جهلٍ أعلمُ منه بأصل الإسلام) ، أيُّ علمٍ هذا الذي تزعمه يا من يقول بمثل هذه الأقاويل، وقد فاتك العلم بأصل الأصول، وأهم الأمور؛ وهو لا إله إلا الله، فاحمد الله يا أيها الموحد على ما رزقك الله به من هذا العلم، واحمد الله على أن حماك من تلك الأهواء.

والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

إذا عرفتَ ما ذكرتُ لك معرفة قلب، وعرفت الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:٤٨] ـ وعرفتَ دين الله الذي بعث به الرسل من أولهم إلى آخرهم، الذي لا يقبل الله من أحدٍ سواه ، وعرفتَ ما أصبحَ غالب الناس عليه من الجهل بهذا؛ أفادكَ فائدتين.

❁ ❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

فقد ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ -فيما سمعت- أربع مُقدمات، وأتبعها بنتيجة:

❁ **المقدمة الأولى:** (إذا عرفتَ ما ذكرتُ لك معرفة قلب) ؛ ما قدمه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أصولٌ وقواعدُ وفوائدُ في غاية الأهمية، وينصحك الشيخ -يا طالب العلم- أن تعتني بها غاية الاعتناء، وأن تأخذها بقوة، وألا تتناولها بأطراف أصابعك، إنما اعرفها معرفةَ قلبٍ، لابد أن تفهمها فهمًا جيدًا، أن تستقر معاني الكلمات السابقة في قلبك، وأن تكون مستيقنًا بها، فإذا كان حالك كذلك، وهذه **المقدمة الأولى.**

❁ (وعرفتَ الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:١١٦]) ؛ وهذا ما قدمه الشيخ فيما مضى ومر بنا وعرفنا ما هو الشرك، وأنَّه: جمعُ غير الله مع الله فيما لا يجوز إلا لله، وأن هذا ينفصل إلى ثلاثة أقسام: يكون شركًا في الربوبية، ويكون شركًا في الإلهية، ويكون شركًا في الأسماء والصفات، وعرفتَ الشرك الذي وقع فيه المشركون الأولون.

❁ (وعرفتَ -**ثالثًا**- دين الله الذي بعث به الرسل من أولهم إلى آخرهم

الذي لا يقبل من أحدٍ سواه) وهو التوحيد، وهذا ما مضى تفصيله في الكلام السابق في هذه الرسالة.

۞ **(وعرفتَ -رابعًا- ما أصبح غالب الناس فيه من الجهل بهذا)**؛ ولاشك أنَّ هذا الذي قدَّمه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما عرفنا- غريبٌ في الناس، قليلٌ منهم من أحاط به علمًا واستقر في فؤاده واقتنع به، وإلا فكثيرٌ من الناس وربما يكون موصوفًا بالعلم أو يحمل شهادات، أو يكون ممن يُشار إليه بالولاية ويُصدَّر ويتعمم، ولكنَّه جاهلٌ بأساس الملة وأصلَّ الدِّين، وما الذي كان عليه المشركون، وما الذي دعا إليه رسول الله ﷺ، فهذه المعرفة مع وضوحها وجلائها في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلا أنَّ القليل هم الذين اعتنوا بها.

كانت النتيجة بعد هذا أن **(أفادك ذلك فائدتين)**:

قال المصنف رحمه الله:

الأولى: الفرح بفضل الله وبرحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

والثانية: أفادك -أيضـًا- الخوف العظيم ؛ فإنَّك إذا عرفتَ أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه مازحا، وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذر بالجهل، وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله كما ظن الكفار، خصوصـًا إن ألهمك الله ما قصَّ عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم أنهم أتوه قائلين: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] ؛ فحينئذٍ يَعْظُم خوفك وحرصك على ما يخلصك من هذا وأمثاله.

قال الشارح وفقه الله:

إذا عرفت تلك المقدمات الأربع أفادك هذا فائدتين يا طالب العلم:

❁ **الفائدة الأولى**: الفرح بفضل الله ورحمته ونعمته؛ هذا من مقامات الإيمان، وأهل زيادة الإيمان هم الذين يُرزقون ذلك، ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]، فالاستبشار والسرور والفرحُ بفضل الله وبرحمته وبآياته وبنعمِهِ؛ لاشك أنَّ هذا من زيادة الإيمان، وهذا الذي بيَّنه ربنا سبحانه وتعالى فيما ذكر المؤلف؛ كما قال تعالى: (﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨])، هذا هو المحل اللائق بالفرح.

الفرحُ بالنعمة الدينية أحقُ وأولى من الفرحِ بالنعم الدنيوية، فمن رُزق هذه

النعمة -أعني نعمة التوحيد- ونعمة البصيرة في هذه الأمور التي التبست عند كثيرٍ من الناس - مع الأسف- إن رزقك الله ذلك؛ فعليك أن تفرح، إذا وفَّقك الله إلى التوحيد الذي جاءت به الرُّسل عليهم الصلاة والسلام فأيُّ نعمةٍ توازي هذه النعمة؟! التوحيد هو قُرةُ العيون، وسرور الصدر، ونعيم الروح، فإذا حَبَاكَ الله هذه النِّعمة، فكيف لا تفرح؟!

وتزداد قيمةُ النعمة إذا اختُص بها القليل دون الكثير، فمتى ما خصك الله عز وجل بهذه النعمة، فاعلم أنَّها نعمةٌ عظيمةٌ جدًا جليلةُ القدر حريةٌ بأن تفرح بها، وأهل الإيمان -كما قد سمعت- يفرحون بنعمة الله عز وجل ، فأهلُ الكتاب كما بين الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:٣٦]، هذه النعمة الدينية، وأهل الكتاب هنا:

- إما أن يكون من آمن من أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سلام رضي الله عنه،
- أو أن يكون المراد أصحاب رسول الله ﷺ،

على قولين لأهل التفسير، فهم يفرحون بهذه النعمة الدينية، وأعظمُ ذلك توحيد الله عز وجل، وكلما كُنتَ مُحبًا للتوحيد كان فرحُك به أكثر، فإن الفرح الذي يعرفه الناس حقيقته: الظفر بالمحبوب، فبقدر محبتك لهذا المحبوب يَعْظُم فرحُك بحصوله.

إذن كلما كنت مُحبًا مُعظِّمًا مُقدِّرًا لهذه النعمة، فإن فرحك بهذا التوحيد الذي وفقك الله إليه لا شك أنه سيكونُ فرحًا عظيمًا.

❁ **قال: (والثانية: أفادك أيضًا الخوف العظيم)** ؛ لاشك أن من فَهِم

التوحيد وفهِم الشرك، فسيمتلئ قلبه خوفًا، يخاف من زوال هذه النعمة، فإن هذه النعمة لا ضمانَ لبقائها، لسنا نقول كما يقول القبوريون "إن من دخل في الإسلام فإنه لا يخرج منه البتة مهما فعل" ؛ هذا القول مناقضٌ لدين الله ومُعارضٌ لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، الأمر ليس كذلك، من أسلم؛ من كان من أهل التوحيد، فإنه يُمكن أن يخرج منه، وليس بقاؤه عليه ضربة لازب، ربما إن فعل ناقضًا من نواقض التوحيد، فإنه يخرج من هذا التوحيد ويُسلبُ هذه النعمة، وهذا مما يُصيب القلب بالوجل والخوف، بقدر معرفتِك بقدر التوحيد وبهذه النعمة العظيمة، وبقدر معرفتك بخطر الشرك؛ فإن قلبك يمتلئ بالخوف.

وانظر إلى حال أهل التوحيد إمام الحنفاء أبو الأنبياء ماذا دعا ربه؟ ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦]، فالمقام مقام مخوف، لا سيما إذا تنبهت إلى ما بيَّنه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: (**فإنك إذا عرفتَ أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه مازحا**).

الكُفر عند أهل السنة والجماعة يكون:

- بالقولِ،
- وبالفعلِ،
- وبالاعتقادِ،
- وبالشك،

فلربما تتكلم -يا أيها الإنسان- بكلمة، وإذا بها تكون سبب مصرعك

وهلاكك والعياذ بالله.

ليس الكفر محصورًا بالتكذيب القلبي، كما تقوله المرجئة، هذا قولٌ باطل، بل يكفر الإنسان بالتكذيب أو بأي اعتقادٍ قلبي دلَّ الدليل على أنه كفر، كما أنه يكفر بكلمة يُخرجها من لسانه: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة:٧٤]، فالكفر قد يكون بكلمة، وقد يكون بفعلٍ ظاهر، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦]، هذه الآية في الكفر الظاهر لا في الكفر الباطن، والدليل قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ فالاستثناء هنا يدل على أن الكفر المذكور إنما هو كفرٌ ظاهر، لأنه لا إكراه على ما في القلب، فالآية تقول: من أتى بمكفِّرٍ ظاهر فإنه يكفر، إذا قال أو فعل ما هو كفرٌ فإنه كافرٌ بذلك ، باستثناء من أُكره فإنه لا يُحكم عليه بالكفر بهذا.

ولذا قد يتكلم بكلمةٍ ساخرًا مازحًا، يتكلم بكلام يقطع به الطريق، من قبيل ما يُسميه الناس اليوم (النُّكت)، (الفكاهات)؛ فيسخر بدين الله، بثوابه، بعقابه، بالأنبياء، بالملائكة، فيكفر والعياذ بالله، ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦] هذه قِيلت في أُناسٍ سخروا ، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦] ؛ إذن كان الإيمان موجودًا ثم كفرتم بعد إيمانكم على بحثٍ في هذه المسألة في تحقيق الإيمان الذي كانوا عليه، وقد فصَّلناه في دروس كتاب التوحيد.

فالمقصود أن كلمة يقولها الإنسان، وربما لا يظن أن تبلغ ما بلغت، في

«الصحيحين» عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا، يهوي بها أبعدَ ما بين المشرق والمغرب»، وعند «الترمذي» قال: «لا يظن أن تبلغ ما بلغتْ، يكتبُ الله بها عليه سخطه إلى يوم أن يلقاه».

ولذا انتبه: **فإن من قواعد التوحيد: أنه لا يلزمُ في الكفرِ قصدُ الكفر**، لا يلزم أن يتكلم أو أن يفعلَ وهو مُريدٌ للكفر؛ فإن هذا ليس بشرطٍ، بل أكثر الناس الذين ينتسبون إلى الإسلام لا يُريدون الكفر، بل حتى المشركون -كما سيأتي بعد قليل- كانوا يُشركون وفي ظنهم أنهم يتقربون إلى الله ، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا﴾ لأجل ماذا؟ لأجل أننا نُبغض الله؟ كانوا يُبغضون الله؟ كانوا يجحدونه؟ كانوا يُريدون إغضاب الله عز وجل؟ الجواب: لا، لأجل أن يُقربهم هؤلاء إلى الله زُلفى ، ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، فدل هذا على أنهم ما قصدوا أن يكونوا واقعين في سخط الله سبحانه وتعالى. إذن لا يلزمُ لمن يكفر أن يكون مُريدًا للكفر.

وفي الأحاديث التي مرَّت بك عبرة: «لا يُلقي لها بالًا»، «لا يظن أن تبلغ ما بلغت»، فكلمة يقولها الإنسان يسخر ويستهزئ ويتفكَّه بالكلام في الله أو رسوله ﷺ، أو ثوابه، أو عقابه، أو شرعه، أو سنته، فيقع فيما يقع، وهذا يُدرك قدره من يعرف التوحيد ومن تبصر في هذه الأمور، والمُعرِض الذي لا يُبالي لا يظن أن يبلغ كلامه ما بلغ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد يقولها)** يعني الكلمة التي تخرج من لسانه **(وهو جاهل،**

فلا يُعذرُ بالجهلِ)؛ إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يُريد بهذه الجملة أن يُقرر مسألة هل الجهل عُذر أو ليس بعذر، وليس محل بحثٍ هاهنا، ربما ظن بعض طلاب العلم هذا، المقام ليس مقام تقرير لهذه المسألة، ولذا هو يقول: **(قد يقولها وهو جاهلٌ فلا يُعذر بالجهل)**؛ لأنَّ الجهلَ ليس عُذرًا مُطلقًا، بمعنى: الجهلُ قد يكون جهلًا يُعذر به، وقد يكون جهلًا لا يُعذر به، باختلاف الحال، وباختلاف المسائل.

إذن قد يتكلم الإنسان بكلمة وهو جاهلٌ فيكفر، وهذا الجهل ليس عُذرًا له؛ كأن يكون مُعرضًا عن طلب الحق، ولذا كثيرٌ من الكفار هم جُهال، ولكن جهلهم ليس بعذرٍ؛ لأنهم معرضون عن طلب الحق مع التمكُّن منه، ولذا بيّن الله سبحانه وتعالى حال كثير من الناس؛ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤] ؛ «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ» إذن هم جُهال، ومع ذلك محكومٌ عليهم بالكفر؛ لِمَ؟ لأنَّهم مُعرضون عن طلب الحق.

إذن هذا أيضًا مما يُكسبك الخوف؛ أن الإنسان إذا قصَّر في طلب ما يلزمه وما يتعين عليه طلبُه من العلم، فوقعَ في بعض النواقض؛ قد لا يكون جهله بذلك عُذرًا. إذن هذا مما يُكسب الإنسان الخوف من الوقوع في الشرك، وأن يُسلَب نعمة التوحيد.

قال: **(وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله تعالى، كما كان يفعل الكفار)**؛ كما مر معنا هذا آنفًا، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، هم في زعمهم يُعظمون الله ويطلبون مرضاته، والواقع أنهم ما قدروا الله حق

قدره؛ حيثُ جعلوا لهم هؤلاء الأنداد، هم يقولون: نحنُ أقل وأحقر من أن نعبد الله مباشرة، نحن متلوِّثون متلطخون بالذنوب، إذن نعبده مباشرة؟! قدر الله أعظم من ذلك، لكن نعبد من يرفع أمورنا وحاجاتنا إليه، فإذا كان كذلك فإنه يرضى عنَّا، ولأجل ذلك فإنه يُعطينا، ويمنحُنا. وهذا لا شك أنه من الضلال المُبين، ومن عدم إقدار الله عز وجل، وفيه إساءةُ ظنٍ بالله عز وجل كما لا يخفاك.

(**خصوصًا إن ألهمك الله ما قصَّ عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم أنهم أتوه قائلين: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]**)؛ المؤلف يقول: انتبه لهذه المسألة، وهي: أنهم قد يقول الإنسان كلمة الكفر وهو يظن أنها تُقربه إلى الله، ومن أمثلة ذلك ما كان مِن قومِ موسى حينما قالوا: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ؛ فهُم ما أرادوا أن يُظهروا محادة الله عز وجل، إنما ظنوا أن هذا نافعٌ لهم، وأن هذا لا يُغضب الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك فقد اشتدَّ نكير نبي الله موسى -عليه الصلاة والسلام- عليهم.

المقصود: أنَّ قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع هؤلاء؛ فيها عبرة، الله جل وعلا يقول: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ [الأعراف:١٣٨] ، فكأن هذا قد أعجبَ هؤلاء أو بعضهم الذين كانوا مع موسى عليه الصلاة والسلام، فقالوا حينها لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ، قيل: في كتب التفسير إن هذه الأصنام كانت على صورة عجول، أو على صورة أبقار، فأعجبهم ذلك وظنوا أنه نافعٌ

لهم ويُقربهم إلى الله، فقال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وأي جهلٍ فوق هذا؟ سبحان الله العظيم! نبي الله بين ظهرانيهم، والعهدُ قريب، أراهم الله آيةً عجيبة، أهلك فرعون وقومه وهم ينظرون في تلك الآية العجيبة، ثم كانت النتيجة بعد هذا أن يطلبوا من موسى عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم إلهًا كما لهم آلهة، سبحان الله العظيم!!

وهذه الآية فيها ما يؤكد ما ذكرناه سابقًا؛ أن الله تعالى يستحق علينا العبادة شُكرًا لنعمه، قال: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:١٤٠]، هو يُنعم عليكم وأعطاكم النعم العظيمة، حتى إنه فضَّلكم على العالمين، ثم لا توحدونه! بل تُريدون إلهًا غيره، وتطلبون أن أجعل لكم إلهًا غيره!

وأي جهلٍ فوق هذا الجهل؛ وهم يطلبون من مخلوقٍ أن يجعل لهم إلهًا مخلوقًا! هذا عجيب! يطلبون من مخلوق أن يجعل لهم إلهًا مخلوقًا! يقولون: (﴿اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا﴾ [الأعراف:١٣٨]) سبحان الله! عجيبٌ أن يكون الإله مجعولًا يعني: مخلوق، مصنوع. والإله الحق هو الذي يَجعل وليس يُجعل، ولذلك نجد في القرآن كثيرًا: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة:٢٢]، ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل:٨١]، تجد أن كلمة (يجعل) كثيرة في القرآن، الله جاعلٌ وليس مجعولًا، لكن انظر إلى هذا الجهل المقيت! يطلبون إلهًا مجعولًا . وكل من يعبد غير الله فقد اتخذ إلهًا مجعولًا، أما أهل

التوحيد فإن إلههم جاعلٌ لا مجعول، والحمد لله على هذه النِّعمة، وعلى هذه البصيرة؛ أن الموحدين يعبدون إلهًا جاعلًا لا مجعولًا.

المقصودُ من هذا: أن تبصرك بمثل هذه الأخبار: يُكسبك الخوف من الله سبحانه وتعالى، وأن تُصاب بالوجل أن تُسلَب هذه النعمة؛ فتلك خسارة لا تعدلها خسارة، فإذا استقر هذا الفرح مع هذا الخوف، فإنك حينئذٍ سوف تبحث عن أسباب الخلاص من الوقوع في هذه الورطة التي لا نجاة منها إلا بتوفيق الله ورحمته.

قال: **(فحينئذٍ يعظم حرصك وخوفك على ما يُخلِّصك من هذا وأمثاله)** ؛

ومن أعظم الأسباب التي ينبغي أن تتخذها في هذا:

- أن تنطرح بين يدي الله عز وجل، وأن تصدق اللجأ، وأن تطلب بصدق ربَّك أن يحفظك، وأن يُثبتك، تدعو الله بصدق بقلبٍ صادق: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ادعُ الله: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨]، تعوَّذ بالله من الحور بعد الكور، كما كان يفعل نبيك ﷺ.

سلْ مُقلب القلوب أن يُثبت قلبك على دينه وعلى توحيده، سلْ مُصرف القلوب والأبصار أن يُصرِّف قلبك على طاعته، والله ليس الأمر لا بنسبك، ولا حسبك، ولا شهادتك، ولا طلبك للعلم، ولا دعوتك إلى الله، ولا بحولك ولا بقوتك، ولا بشيءٍ منك البتة، إنما هو تفضلٌ محض من الله سبحانه وتعالى؛ فالجأ إلى من بيده تثبيتك أن يُثبتك على هذا التوحيد، وإلا فالهالكون كُثُر، الساقطون كُثُر -والعياذ بالله- ارتكسوا، ونكصوا على أعقابهم، نسأل الله العافية

والسلامة.

۞ **وأيضا من الأسباب:** العلم، والبحث عن الأسباب الموقِعة في الشرك وعن الذرائع الموصلة إليه، «كان الناس يسألون عن الخير، وكنتُ أسأل رسول الله ﷺ عن الشر مخافةَ أن أقع فيه»، هكذا يقول حذيفة رضي الله عنه، فعليك أن تكون بصيرًا؛ عندك فقه، وعندك معرفة؛ حتى لا تقع في شيء يوردك هذه الموارد.

۞ **وأيضًا من الأسباب:** أن تنأى بنفسك عن التعرُّض للفتن ، لا تجعل قلبك أسفنجة تتلقف الشبهات وتعصف به الأهواء، لا سيما في زمن العولمة الذي نعيشه اليوم، من خلال وسائل التواصل، ووسائل الإعلام المعاصرة أصبحت الشبه قريبة، وأصبحت الضلالات ليس بينك وبينها إلا ضغطة زر -كما يُقال-.

حينما نقول: أن تعرف الشر، وأن تعرف ذرائع الشرك وما إلى هذا؛ أن تعرفه من خلال أهل الحق، من خلال كُتب أهل السنة، وليس أنك تغوص في كتب ومصنفات المشركين والمبتدعة، وتستمع إليهم، وتُرخي لهم سمعك وقلبك، وتقول: أنا أُريد أن أعرف الشر، الأمر ليس كذلك. تعرف الشر من خلال كتب أهل السنة، من خلال «كشف الشبهات» وأمثاله من كتب أهل السنة، علماء أهل السنة يُخلِّصون لك المسائل، ويُصفونها، ويُقدِّمونها لك بحيثُ تنتفع ولا تُصيبك اللوثة، لا تتضرر، لا تأتيك العدوى؛ الجرثومية الشركية -بإذن الله وتوفيقه-.

أما إذا عكفت على كتب المخالفين، وتقول: والله أنا أُريد أن أتفقه، وأنت ما صلُب عودُك ولا رسختَ في هذا الباب، فأنت والله تورد نفسك الموارد، وهذا دليل على ضعف قدر التوحيد في قلبك، لو كان التوحيد في نفسك ثمينًا ونفيسًا وله المنزلة العلية في نفسك ما تعاملت معه بهذه الطريقة ولا جعلته عُرضة لأن يزول. فحذارِ يا عبد الله، قد رأيتُ ورأى غيري من طلبة العلم ممن كان من أهل الذكاء والاجتهاد في الطلب مَن ارتد على عقبه -والعياذ بالله-، وأُحدثك حديث عِلْم، والسبب: أنه تساهل، وأحسنَ الظن بنفسِهِ، وربما أصابه شيءٌ من الغرور، فقال: أنا أقرأ ولا أتأثر، فعكفَ إما على كتب الفلاسفة، وإما على كتب ملاحدة، إما على كتب نصارى، إما على كتب المشركين، فامتلأ قلبه بالسموم، فذهب إلى طريقٍ آخر، ومن عرفَ أحوال الناس كانت له عبرة وعظة.

فكُن حذرًا يا عبد الله، إياك ثم إياك، الناس اليوم في غاية الخوف من فايروس غايته أن يقتل بدنًا، لكن المُصيبة العُظمى أن يذهب إيمانُك وتوحيدك، الموت إن ما جاء بهذا السبب سيأتي بسبب آخر، الموت حاصل، لكن انظر إلى الخوف والوجل الشديد عند الناس، لا يُريدون؛ ويُبعدون أشد الإبعاد عن أي شيء يُقربهم -ولو من بعيد- إلى احتمال وصول الخطر، وهذا لا بأس به، ولكن أين الحماية والاحتياط والحصانة دون الوقوع فيما يضر بدينك وتوحيدك يا أيها المسلم؟!.

قال المصنف رحمه الله:

وأعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يَبعث نبيًا بهذا التوحيد؛ إلا جعلَ له أعداءً، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ [الأنعام:١١٢] ، وقد يكون لأعداء التوحيد علومٌ كثيرة وكتبٌ وحججٌ، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣].

قال الشارح وفقه الله:

قوله: (وأعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يَبعث نبيًا بهذا التوحيد إلا جعلَ له أعداءً)؛ هذا من حكمة الله تبارك وتعالى ، وله الحكمة البالغة، الله لو شاء أن ينصر التوحيد وأن لا يجعل له أعداءً لفعل سبحانه وتعالى، ﴿ذلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]، من حكمة الله سبحانه وتعالى أن فتح لأهل الإيمان باب الجهاد في سبيله، عبودية نُصرة الحق بابٌ عظيم موصلٌ إلى محبة الله ورحمته وثوابه، وهذا إنما يكون إذا وُجد هؤلاء الأعداء، يتخلَّص أهل الإيمان الصادق من غيرهم من أهل الغِش والغبش.

حكمٌ كثيرة لله سبحانه وتعالى في أن قدَّر كونًا وجود هؤلاء الأعداء، وجود أعداء التوحيد، الذين يقعدون على طريق التوحيد ليُلَبِّسوا وليسعون في ضرر أهل التوحيد، قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، ولكل قومٍ وارث ، أعداء الأنبياء لهم وُرَّاث، والأنبياء لهم وُرَّاث، فلا يزال أعداء الأنبياء يتربصون

بأتباع الأنبياء، ويُعادونهم، ويقعدون على طريق دعوتهم، ولكن الله سبحانه وتعالى ناصرٌ دينه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١]، ما أحسنَ هذا الختام ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾؛ **فإن فِعل هؤلاء المجرمين يتلخص في أمرين:**

- **يتلخص في التلبيس وبث الشبه.**
- **أو في إيقاع الضرر.**

إما أنهم يُلبسون على الناس ويُبثون الشبه، وما يُصيبهم بالشك والحيرة، أو أن يكون سببًا في أن ينقلبوا عن الحق إلى الباطل.

أو أن يسعوا في إيقاع الضرر بهم، والله سبحانه وتعالى كافي أهل الإيمان والتوحيد، ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ [الفرقان:٣١]، فلا تضرُّك تلبيساتهم، وتشكيكاتهم، وشُبههم، ﴿وَنَصِيرًا﴾ فلا يُصيبهم ضررٌ من هؤلاء، وإن أُصيبوا بشيء، فإنما هو الأذى الشيء اليسير، ولكن الله سبحانه وتعالى يكفيهم ضرر هؤلاء.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذلك: (**وقد يكون لأعداء التوحيد علومٌ كثيرة وكتبٌ وحججٌ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾[غافر:٨٣]**)؛ انتبه! أعداء التوحيد ربما يكونون من أهل العلمِ والحُجج، لكن علومهم ليست من العلومِ الراجعة إلى العلم الموروث عن النبي ﷺ، والمقصود بهذا: أنهم يُعارضون التوحيد وهم فُقراء من علم التوحيد، وهو رأس العلوم الموروثة من لدن رسول الله ﷺ، هؤلاء لهم علوم، فرحوا بما عندهم من

العلم، وربما في المنتسبين للإسلام من عندهم علومٌ شرعية، عندهم علوم في اللغة، في البلاغة، وربما في المصطلح، في التفسير، في الفقه، لكن ليس عندهم العلمُ الذي هو أساس كل ذلك؛ وهو علم التوحيد، فلذلك هذه العلوم التي عندهم لا تُقدِّم ولا تؤخِّر، ولا تُؤثر شيئًا، إن كان الإنسان بصيرًا، حاذقًا، مُتعلِّمًا العلم الصحيح بالتوحيد، فإن هذه العلوم لا تضره ولا عبرة بها.

وهذا يجرنا إلى مسألة؛ وهي: هل العلم سببٌ للهداية، أو هو مقتضٍ للهداية -يعني موجب للهداية-؟ الصواب: أن العلمَ سبب، وليس موجبًا، بمعنى: أنه قد يتعلم الإنسان شيئًا من العلوم الشرعية، ولكنه مع هذا يضل؛ لأنه اتخذ سببًا للعلم، لكن الموجب للهداية، إنما هو أن يهديه الله تبارك وتعالى، وليس كل سببٍ موجبًا للأثر، إلا إذا شاء الله تبارك وتعالى، انتبه! معتقدنا في الأسباب أنها ليست موجبة، يعني ليس كل سببٍ مُقتضٍ لحصول الأثر بالضرورة، هذا الأمر ليس كذلك، إنما هو مُجرد سبب، أما كون الأثر حاصلًا مُترتبًا على هذا السبب، فهذا إلى الله سبحانه وتعالى.

إذن العلم الشرعي سببٌ للهداية، لكنه ليس مُقتضٍ ولا موجبًا لها، وإلا لو كان الأمر كذلك؛ لما ضل عالمٌ، والواقع أن من العلماء من ضل، وربما يكون له باع في علوم سوى علم التوحيد. فحينما تنظر سبحان الله في أحوال من سبق، ومن نُعاصره أيضًا ترى عجبًا!!

خُذْ مثلًا فخر الدين الرازي؛ له ذكاء وله باع في علوم التفسير، في العلوم العقلية، عنده مشاركة في غير ذلك من العلوم اللغوية ونحو ذلك، لكن مع هذا

تجد أنه يؤلف كتابًا اسمه «السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم»، جمع فيه خلاصةَ ما وقع من شرك الأولين والآخرين في النجوم والسحر وما إلى هذه العلوم، وهو الرازي الذي عنده ما عنده من الباع العلمي -طبعًا سوى عقيدة التوحيد، فهو من أجهل الناس بها- فهذا الكتاب مليء بالشركيات، وإن كان قد قيل: إنه قد رجع عنه، وتاب إلى الله منه.

تجد مثلًا تقي الدين السبكي يؤلف «شفاء السقاء في زيارة خير الأنام ﷺ»، ويُقرر فيه جواز الاستغاثة بالنبي ﷺ وهو في قبره، عنده علم ولا ما عنده علم؟ عنده مشاركات في الفقه، متمكن في الفقه الشافعي، وعنده علم باللغة، وعنده علم بالتفسير، وعنده علم بالحديث، ومع ذلك يؤلف كتابًا في تقرير الشرك، وهو الذي رد عليه ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الصارم المُنكي في الرد على السبكي».

وهكذا كُثُر سبحان الله العظيم! عندهم علوم ولكن هذا لم يكُنْ مقتضيًا للهداية، وأيُّ هدايةٍ إذا فُقِد التوحيد؟ فينبغي أن تفهم هذا جيدًا حتى تأخذ للأمر عُدته وأُهبته، أعداء الرسل وأعداء التوحيد عندهم علوم، إذن عليك أن تستعد، هذا الذي يُريد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يوصله إليه، ولأجل هذا تتهيأ لقبول ما سيأتيك في هذه الرسالة من كشف شُبَه المخالفين؛ حتى تكون مستعدًا، النبي ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب» لِمَ يُنبهه إلى هذا؟ لأجل أن يستعد، ويأخذ للأمر عُدته، إذن أعداء التوحيد عندهم علوم وعندهم تلبيسات، إذن عليك أن تكون طالبًا للعلم بصيرًا.

قال المصنف رحمه الله:

إذا عرفتَ ذلك، وعرفتَ أن الطريق إلى الله لا بد له من أعداء قاعدين عليه، أهل فصاحة وعلمٍ وحُجج، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحًا لك تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدَّمهم لربك عز وجل: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين﴾ [الأعراف:١٦،١٧]. ولكن إذا أقبلت على الله، وأصغيتَ إلى حجج الله وبيناته، فلا تخفْ ولا تحزن ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[النساء:٧٦].

❊ ❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

قال: (**إذا عرفتَ ذلك**) ثم زاد الأمر تأكيدًا، (**وعرفتَ أن الطريق إلى الله لا بد له من أعداءٍ قاعدين عليه أهل فصاحة**) عندهم لسان وعندهم أقلام، ولكن هذا لا يُقدم أو يؤخر في معيار العلم الصحيح، ربما يكون الإنسان عنده فصاحة، ولكن ما عنده إنما هو سجع كسجع الكهان، لا يُقدم ولا يؤخر.

قال: (**وعلمٍ**) والعلم قد يكون عِلمًا نافعًا، وقد يكون عِلمًا غير نافع، ولذا استعاذ النبي ﷺ من علمٍ لا ينفع، إذن من العلوم ما لا ينفع، إذن ليس العبرة بالعلم، العبرة بالعلم الصحيح، ثم بتوفيق الله عز وجل من قبل ومن بعد؛ أن تتعلم العلم الصحيح ثم تلجأ إلى الله أن يرزقك الهداية والتوفيق، لأننا كما ذكرنا لابد من سبب وهو (العلم) -لا مُطلقًا- بل العلم الصحيح، ولابد من توفيق لتحصل الهداية بهذا العلم النافع.

قال: **(وحُجج)** قد يحتج المخالف، وقد يحتج الكافر، وقد يحتج المشرك، وقد يحتج الملحد، وقد يحتج اليهودي والنصراني ، ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى:١٦]، إذن عندهم حجة، لكن ليس العبرة بالدليل، العبرة بصحة الاستدلال ؛ خُذها قاعدة: لا يخلو مُبطلٌ عن دليل ؛ كل مُبطلٍ فإن عنده دليلًا وحجةً يحتج بها، لكن هذا لا ينبغي أن يُقدم عندك يا أيها الموحد ولا أن يؤخِّر، لأنه ليس العبرة بالدليل، إنما بصحة الاستدلال.

فلا يهولنك ولا يُصيبك هذا بالضعف، إن بعض الناس أمام الفصاحة وكثرة الكتب والمؤلفات والحُجج والشبه التي تُثار يُصاب بشيء من الارتخاء بشيءٍ من الضعف، يقول: يا أخي على الأقل المسألة فيها خلاف، هؤلاء عندهم دليل وهؤلاء عندهم دليل، دعاء غير الله من الأموات والصالحين، يعني المسألة خلافية، ما الذي جعله وهو من أهل التوحيد، وربما سار على سَنن أهل التوحيد في التلقي والطلب، ولكنه يضعف أمام مؤلفات، وأمام أقوال، وأمام شُبه وتلبيسات؛ يُصيبه هذا بضعف، وهذا لا ينبغي أن يكون من الموحِّد، فكل شقاشقهم، وكل شبههم، وكل تلبيساتهم، ومع كثرتهم ومؤلفاتهم، فهذه لا ينبغي أن تُقدم ولا تؤخر عندك شيئًا يا طالب العلم، يا صاحب التوحيد؛ فإن العبرة بالحق الذي جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

إذن أعداء الله لا يُشترط أو لا يلزم أو لا تظن، أنهم عوام، جُهال، دراويش، فقط من الذين يهزون رؤوسهم وليس عندهم شيءٌ أكثر من هذا ،لا، انتبه! قد

تُصدم أو تُلاقي شخصًا من أعداء التوحيد، وعنده من هذه الفصاحة، وعنده من هذه المؤلفات، وعنده مما يُشار إليه من العلوم، ولكن هذا لا ينبغي أن يهولنك، ولكن عليك أن تستعد.

واليوم يُمكن أن نُضيف إلى ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ ربما يكون من أعداء التوحيد من عنده شهادات عُليا، ويُشار إليه بأنه من أهل المراتب الدينية والمناصب الشرعية، وتُضفى عليه ألقاب، وله موقع أو مواقع، وله حلقات تُذاع وتُنشر، وله حسابات في وسائل التواصل، كل هذا لا ينبغي أن يُقدِّم ولا أن يؤخر، الحق أكبر من هؤلاء، والحق أكبر من هذا كله، والحق هو ما وافق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إنه التوحيد، إنه منهج أهل السنة والجماعة.

قال: (فالواجب عليك أن تتعلم من دين الله ما يصير لك سلاحًا لك تقاتل به هؤلاء الشياطين) سبحان الله! أعداء يتربصون بك وبدينك وبالتوحيد الذي تدين الله به، ثم تركنُ إلى الكسل والدَّعة! ولا تُبالي ولا تهتم! ولا تتسلح بسلاح العلم! هذا دليلٌ على ضعف إقدارك للتوحيد، وإقدارك لهذه النعمة التي آتاك الله إياها، إذن ماذا تصنع؟ عليك أن تتسلح بسلاح لعلم، اعتن بعلم التوحيد، اهتم بعلم التوحيد.

قال: (الذين قال إمامهم ومقدمهم لربك عز وجل: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] ؛ المسألة جد، والحصار حصار شديد -كما يقولون- (﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧]).

ثم إن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُريد أن يبث الطمأنينة في القلوب، فيقول: (ولكن إذا أقبلت على الله وأصغيتَ إلى حجج الله وبيناته، فلا تخفْ ولا تحزن ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦])، نعم الذي يصدُق ويُخلص فليبشر بالخير: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[الليل:٥-٧] ، سينصرك الله عز وجل، الشيطان كيدُه ضعيف، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]، ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩]، سلطانه على من؟ الذين يُبايعونه، الذين يُصافحونه ويرتخون له، ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:١٠٠]. إذن هؤلاء هم الذين يتسلط عليهم الشيطان، أما من كان مؤمنًا بالله عز وجل متوكلًا عليه، فلا يضره كيد الشيطان، فإنه ضعيف.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والعامي من الموحدين يغلب ألفًا من علماء هؤلاء المشركين) ؛ ولكن ليس أي عامي، إنما عامي عنده بصيرة، ربما ما ارتقى إلى درجة أهل العلم ولكن عنده بصيرة، وعنده محبة للتوحيد، وعنده معرفة به، وعنده إشرافٌ على بعض أدلته؛ فمثل هذا يغلب ألفًا من علمائه، وليس من المشركين بل من علماء المشركين.

ومن لطيف ما ذكر الشيخ عبد الله أبا بطين رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهو من أئمة الدعوة- في كتابه «تأسيس التقديس» الذي رد به على شُبه داود بن جرجيس، ذكر قصة لطيفة وهي: أن أحد عوام الموحدين لقي رجلًا في مكة يُشار إليه بالعلم، فقال له هذا

الرجل المكي: أنتم لا تُقدِّرون الأولياء ولا تُعطونهم حقهم، ولذلك تزعمون أن دعاء الأموات شرك، مع أن الله قال في حق الشهداء: ﴿ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، فهم أحياء، نحن لا ندعو أمواتًا، نحن ندعوا أحياء ، فقال الموحِّد العامي : "تبصَّر إن كانت القراءة (أحياءٌ عند ربهم يَرزُقون) فأنا سوف أطلب منهم وأسألهم، وأما إن كانت القراءة: (يُرزَقون) فأنا أطلب من يَرزُقهم"، هذا عامي!! فما كان من هذا الذي يُشار إليه بالعلم إلا أن قال: ما أكثرَ كلامكم!! وسكت -ما عنده شيء- ، وذكر القصة بنحوها الشيخ عبد اللطيف في كتابه «تحفة الطالب والجليس في رد شبهات داود بن جرجيس».

والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

والعامي من الموحدين يغلب ألفًا من علماء هؤلاء المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]، فجندُ الله هم الغالبون بالحجة واللسان ، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان. وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح.

قال الشارح وفقه الله:

وقفنا في الدرس الماضي عند قوله: (**والعامي من الموحدين يغلب ألفًا من علماء هؤلاء المشركين**)؛ وهذا حق، فلا يهولنَّك ما عندهم من علومٍ كاسدة واستدلالات فاسدة، فإنَّها تزولُ أمام الأنوار الكاشفة للحق المُبين الذي جاء في كتاب الله وفي سنة سيد المرسلين ﷺ.

القوم ليس عندهم معقولٌ صريح، ولا منقولٌ صحيح، ليس عندهم نقلٌ مُصدَّق ولا بحثٌ مُحقق، إنما هو هذيانٌ مُزَوَّق، فإن اعتصمت بالله عز وجل وكنتَ على بينةٍ من أمرك وعلى يقينٍ من توحيدك، فإنَّك ولو كنتَ لستَ من الراسخين في العلم، فإنَّ ما معك -بتوفيق الله عز وجل- كافٍ في غلبة ما عند هؤلاء المشركين.

واستدل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالى: (**﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾**)؛ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

ثم قال: (**فجندُ الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أنهم الغالبون**

بالسيف والسنان)، جُند الله عز وجل أهل الحق والتوحيد والسنة ؛ هم الغالبون بالحجة واللسان دائمًا، وهم الغالبون بالسيف والسِّنان تارةً وتارة، والعاقبةُ لهم.

ومسألةُ الغلبة والنُّصرة لأهل الحق ربما يحصل فيها شيءٌ من الاشتباه عند بعض الناس، **وبيانُها فيما يأتي**:

الحق الذي لا شك فيه أنه لا تزال طائفةٌ من هذه الأمةِ على الحق ظاهرة، وعلى الحق منصورة، قال ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ» والحديث في «الصحيحين». وعند «الترمذي» و«ابن ماجه» و«أحمد»: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»؛ وهذا المعنى متواترٌ عن رسول الله ﷺ، رواه نحو من عشرين من أصحاب النبي ﷺ عنه.

ففي كل زمان لابد من وجودِ طائفةٍ من هذه الأمة ثبتوا على الحقِّ المحض والإسلام السالم عن الشوب، هم المقصودون بهذه الأحاديث التي ذكرتُ لك، وفي الآيات التي جاءت في هذا المعنى؛ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، (﴿**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾[الصافات:١٧٣]) ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾ [النور:٥٥] ، الخ ، **وهذه النُّصرة نوعان:**

❁ **النوع الأول: نُصرةٌ بالحجة واللسان**؛ وهذه نُصرةٌ دائمة، ولذا فالنبي ﷺ وأصحابه وهم في مكةَ ثلاث عشرة سنة كانوا منصورين بالحجة؛ حجتهم غالبة، وحجة أعدائهم داحضة.

❁ **النوع الثاني: النصرةُ بالسيف والسنان، وحصولُ التمكين في الأرض؛** وهذه تكون أحيانًا ولا يلزم أن تكون دائمة، الحربُ بين أهل الحق والباطل سِجال، فأهل الحق يُديلون ويُدال عليهم، لكن الغلبةُ للحق وأهله ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

إذن لابد أن تكون العاقبة لأهل الحق والتوحيد والسنة، من فهم هذا المعنى زالتْ عنه إشكالاتٌ كثيرة، واعلم يا رعاك الله أن لله حكمةً بالغة في أن ينتصر المُشركون على المسلمين أحيانًا، ومن تأمل في هذا ازداد إيمانُهُ ويقينه بحكمة الله عز وجل، وأُحيلك في تحقيق هذه المسألة إلى ما ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه العظيم «إغاثة اللهفان» في الجزء الثاني؛ حيثُ ذكر ما يزيد على عشرة أصول تتعلق بهذا الموضوع، وأبان عن حِكَمٍ جليلة تُلتمسُ لكون المُشركين ينتصرون على المسلمين أحيانًا.

ومع ما سبق أنبهك على أربعة أخطاء تقعُ من بعض الناس في هذا المقام:

❁ **أولًا: من ظنَّ أن الله عز وجل ينصر الكافرين على المؤمنين نُصرةً دائمةً مُستقرةً فقد أخطأ، بل قد ظنَّ بالله ظن السوء؛** من ظن أن الله يُذل أولياءه دائمًا وينصر أعداءه دائمًا فما ظنَّ به ما يليق بجلاله ورحمته وحكمته.

❁ **ثانيًا: من ظنَّ أن نُصرة المؤمنين إنما هي نُصرةٌ في الآخرة فحسب وليست في الدنيا فقد أخطأ،** فإنَّ الله سبحانه وتعالى ينصر المؤمنين في الدنيا وينصر المؤمنين في الآخرة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

❁ **ثالثًا: من ظنَّ أنَّ النَّصر على أعداء الله غير مشروطٍ فقد أخطأ**، وما أكثرَ من يُخطئ هذا الخطأ؛ النصر على أعداء الله مشروطٌ بشرطٍ عظيم، وهو: تحقيق الإيمان والتقوى والعمل الصالح: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[غافر:٥١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]، ﴿والعاقبةُ للمتقين﴾ [الأعراف:١٢٨]، ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النور:٥٥]، كثير من الناس لا يتنبه إلى هذا الأمر، لا يعلمُ أو يشك في هذا المقام فيُساوره ما يُساوره من ظنٍّ فاسد بأنَّ وعد الله قد يُخلف، وحاشا وكلا، إنَّما القضية باختصار: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]، ولك فيما جرى في أُحدٍ عبرة.

❁ **رابعًا: من ظنَّ أنَّ النَّصر الموعود به واقعٌ لجميع المؤمنين فقد أخطأ، الحق الذي لا شك فيه أنَّ الوعد هاهنا لأهل الإيمان راجعٌ إلى مجموعهم لا إلى جميعهم**؛ بمعنى: أنَّه ليس حاصلًا لكل فردٍ فرد ، قد يموت الإنسان ولمَّا يرى التمكين للحق وأهله، قد يُنشر بالمنشار من مِفرق رأسه إلى أخمص قدميه قبل أن يحصل التمكين والغلبة، لكنَّ الوعدَ حاصلٌ للطائفة المؤمنة، وإذا نظرت إلى الأفراد، فالأفراد منصورون ولا شك، لكن كلهم منصورون في الآخرة، ومنهم من يُنصر في الدنيا وفي الآخرة.

إذا فهمت هذا الموضوع بما فصَّلت لك تزول عنك بتوفيق الله إشكالات كثيرة قد تعترض في هذا الموضوع، والعلم عند الله.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وإنَّما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه

سلاح) ؛ هذه كلمة جميلة، وتنبيهات المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تنبيهاتٌ بديعة في هذا الكتاب، الخوف على الموحِّد الذي يسلك الطريق في هذه الحياة ولكنَّه لا يتسلح بالسلاح، قلنا قبل هذا المقطع في الدرس الفائت : إنَ أهل الشرك لهم عُدَّة ولهم أسلحة، وإن كانت داحضة لكنها يحصل بها النكاية للذي تجرد عن السلاح، أما الذي لبس درعًا ضافية وشدَّ يمينه بالسلاح القوي، فإن كل أسلحة هذه الفئة المارقة تتساقط أمام هذا الموحد الذي ثبت على الحق، المُشكلة هنا عدم التسلح، ليس هناك عناية بتحصيل العلم الصافي من منبعه الأصيل، **وتسلُّحك في هذا المقام يحصل بأمرين:**

❁ **الأمر الأول: بأن تعرف الحق الذي معك، وتعرف كيف تُثْبته وتنصره وتستدل عليه وتدعو إليه.**

❁ **والأمر الثاني: أن تعرف الباطل، وتعرف كيف تنقضه وتقدح فيه.**

هنا تكون مُسلَّحًا معك السلاح الذي تقف به، والأمر إلى توفيق الله سبحانه وتعالى أمام كل ماردٍ من عُتات هؤلاء المشركين. **والوصيةُ في هذا المقام : أن يعتني الإنسان بكتب علماء التوحيد**، فهذه قرَّبت لك البعيد، وسهَّلت لك اقتناء السلاح الذي ينفعُك في طريق هذه الفتن التي على جنبتيها -جنبتي الطريق- أُناسٌ قاعدون يبثون ويُلبِّسُون ويُشبِّهون، ومن أهم هذه الكتب كتب الإمامين الجليلين شيخ الإسلام وابن القيم، ولا سيما «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» ، و«الرد على البكري» ، و«الرد على الإخنائي»، هذه كتب مهمة في توحيد العبادة تنفعُك يا طالب العلم الموحِّد، وكتب ابن القيم، ولا سيما

الكتاب الجليل العظيم «إغاثة اللهفان» ، ثم كتب أئمة الدعوة وعلى رأسهم إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأوصيك بالعناية كثيرًا بـ«القواعد الأربع» ففيها خلاصة من فقهٍ نفيس قلَّ أن تجده في غير هذه الرسالة الوجيزة؛ احفظها وعلِّمها ، فهذه من أنفع الأشياء للعوام، ولطلبة العلم أيضًا، ثم كتب من درج على هذا السبيل بعد إمام الدعوة، ولا سيما كتب المجدد الثاني حفيد الإمام ألا وهو الإمام عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، وكتب ابنه عبد اللطيف بن عبد الرحمن، وكتب ابن سحمان، وغير هؤلاء من أئمة الدعوة، وأيضًا من كان على هذا السبيل من غير أئمة الدعوة النجدية؛ كالشيخ السهسواني في كتابه الجليل «صيانة الإنسان»، أو كتب الشيخ الحفظي كـ «درجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين»، وغيرها من كتب أئمة دعوة التوحيد في القديم والحديث.

هذه من الأمور التي ينبغي أن تتسلح بها يا طالب العلم الموحِّد.

قال المصنف رحمه الله:

وقد منَّ الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

قال الشارح وفقه الله:

ولا سيما في التوحيد، من أعظم ما بينه كتاب الله عز وجل حقه على عباده وهو توحيده.

قال المصنف رحمه الله:

فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان:٣٣]، قال بعض المفسرين: هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة.

قال الشارح وفقه الله:

قوله: (فلا يأتي صاحب باطل بحجة) ؛ والحجة قد تكون سمعية، وقد تكون عقلية.

والحُجج العقلية عند القوم هي سفسطة فيها ما يُخالف العقل الصريح ، حُججهم التي تُعارض الحق وتُناقضه حُججٌ من قبيل السفسطة العقلية.

والحُجج السمعية: إما أن تكون أدلةً مكذوبة من قبيل "حدثني قلبي عن ربي"، أو أحاديث موضوعة عن رسول الله ﷺ، أو رؤى ومنامات وما شاكل ذلك لا عبرة بها ولا قيمة للاحتجاج بها في هذه المطالب. وإما أن تكون أدلةً صحيحة، ولكنهم يضعونها على غير موضعها، ويتأولونها على غير تأويلها.

وأهل الضلال والشرك وعموم أهل البدع عندهم ولعٌ بحمل كتاب الله على مذاهبهم، لا تجد مُبطلًا إلا وهو ساعٍ في تطويع القرآن ليتوافق وهواه، فالقرآن تجده عند القدري كتاب مذهب القدر، والقرآن عند المُرجئ تجده كتاب إرجاء، والقرآن عند الجهمية كتاب تجُّهم ، وهلم جرا، ومن له خبرة بمقالات القوم يُدرك ذلك.

وأضربُ لك مثالًا: عبد الجبار الهمذاني المعتزلي ألَّف كتابًا مشهورًا اسمه «مُتشابه القرآن»، مرَّ فيه على آيات القرآن من الفاتحة وإلى آخر القرآن، لا يمرُّ بآيةٍ فيها ما يُمكن تطويعه وليُّ عُنقهِ إلا فعل ليتوافق مع مذهبه، ولا آية تُخالف ما عليه مذهبه القدري ومذهبه الجهمي -مذهب التعطيل- إلا وجدته يؤول ذلك؛ فتجد أن القرآن بناءً على هذا الكتاب ما هو إلا كتاب اعتزال على ما عليه المعتزلة.

وهكذا كل أصناف المُبطلين، لكن -والحمد والمنةُ لله عز وجل- في كتاب الله ما يُبطِل كل حجة كل مبطلٍ: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]، أعظم الحجج الحُجج التي في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، فإنها تجمع هذين الوصفين: ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ، والمطلوب في الكلام أن يكون حقًا، وأن يكون واضحًا مُفسَّرًا، مُبرهنًا، وهذه حُجج القرآن .

بل أهل العلم الراسخون لا يقولون فقط إن في القرآن ما يدل على بُطلان حُجج الضالين المُضلين، بل يقولون: إن كل حُجةٍ يحتج بها مُبطلٌ سواءً كانت سمعيةً أو عقلية، فالحُجة نفسُها يُمكن قلبُها على صاحبها؛ فتصير دليلًا عليه لا له. وقد التزمَ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ -كما تجده في المجلد السادس من «مجموع الفتاوى»- أنه لا يحتج مُبطل بدليل سمعي أو عقلي إلا قلَب الحُجة نفسها عليه، فجعلها دليلًا عليه وليس دليلًا له، ولاشك أن هذا من المقامات الرفيعة التي لا يصل إليها إلا الكُمَّل من أهل العلم الراسخين فيه. فالمقصود أن من

بصَّره الله عز وجل وجدَ أن في الوحي ما يكفي لإبطال حجة كل مُبطلٍ ، والعلم عند الله عز وجل.

أقول بعد كل ما سمعت : هذه مُقدمة حسنة، قدّم بها المؤلف بين يدي الشُّبه التي يسوقها ويكشفها مما سنمُر عليه بإذن الله عز وجل، فهي مُقدمة حسنة نافعة إيمانية يؤمَن مع استحضارها عدمُ تأثير الشُّبه التي سيأتي ذكرها بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

قال المصنف رحمه الله:

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جوابًا لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا.

❊ ❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

الآن بدأ المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في ذِكر الإجابات، وكشف الشبهات، وابتدأ هذا بجوابٍ مُجمل، أتبعه بسوق شُبه مع أجوبةٍ تفصيلية.

يقول رَحِمَهُ اللهُ: (**وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جوابًا لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا**) ولا يزالون إلى اليوم بعد مُضي أكثر من مائتي سنة يجترون الشُّبه السابقة نفسها، فما تجده في هذا الكتاب هو ما قد تسمعه أو تقرأه لهؤلاء المشركين القبوريين المعاصرين.

وعلى كل حال: **جِماعُ ما يحتج به هؤلاء المشركون القبوريون على ما هم عليه من الشرك والضلال يرجع إلى ما يأتي:**

❊ **أولًا: نقلٌ كاذب**؛ كأن يقول لك: "قال رسول الله ﷺ: «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور»"، بمنتهى الوقاحة يُنسب هذا الكلام إلى رسول الله ﷺ، وإنه والله لكذبٌ على رسول الله ﷺ.

❊ **الأمر الثاني: ألفاظٌ مُشتبهة في نصوصٍ صحيحة، يُحرِّفون فيها الكَلِم عن مواضعه، ويضعونه في غير موضعِهِ**؛ كأن يقول لك: "دليلنا أنَّ الله أمر بابتغاء الوسيلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]"، فيحرِف معنى الوسيلة إلى ما يتوافق وهواه، وقِس على هذا، وسيأتي ذِكر نُبذة

من هذه الألفاظ المُشتبهة فيما سيأتي إن شاء الله.

۞ **الأمر الثالث: احتجاجٌ بمن قوله ليس حُجة، ولا يجب اتباعه**؛ فيقول لك: "دليلُنا قول الإمام الفلاني والإمام الفلاني"، ولاحظ معي أنَّ ما ينقلونه قد يكون عن أئمةٍ لهم لسان صدقٍ في الأمة، وقد لا يكون، قد ينقلون عن أُناسٍ ليسوا من أهل الإمامة في الدِّين أصلًا ؛ هذا شيء.

وشيءٌ آخر: ما ينقلونه عن الأئمة منه ما يصح ومنه ما لا يصح، يعني منه ما تصح نسبته إليهم، ومنه ما لا تصح نسبته إليهم. ومهما يكن من شيء، فإنه وإن استُدل بأقوال أئمةٍ لهم لسان صدق والإسناد إليهم صحيح، فكلامهم ليس بحجة، كلام الأئمة يُحتج له وليس يُحتج به.

۞ **الأمر الرابع: أحوالٌ شيطانية أو ما يدَّعونه كراماتٍ لأوليائهم**، يقولون: "حصلت كرامة لفلان وفلان"، وهذه ليست حجة، ولا وجه لها، ولا قيمةَ لها في هذه المطالب.

۞ **الأمر الخامس: التجرُبة**. يقولون: "جرَّبنا وانتفعنا، جرب مُجربٌ أن يذهب إلى قبر الإمام الفلاني، فيستغيث به في مُهمة أو مُلمَّة، فما هو إلا قليل وجاءه الفرج" ، والتجربة ليست من الحجج الصحيحة، بل لا يجوز الاحتجاج بالتجربة، وما أنزل الله عز وجل على الناس سُلطانًا بالتجربة، فإنَّ هذه التجربة شيءٌ يرجع إلى القدر لا إلى الشرع، والله عز وجل هو المُقدِّرُ لكل شيء سبحانه وتعالى، فكل ما يقع من خيرٍ أو شرٍ ، أو إيمانٍ أو كفرٍ ، أو حقٍ أو باطل، أو سنة أو بدعة، كله بتقدير الله عز وجل فالقدرُ لا يُحتج به في هذه المسائل، والتجربة

مرجعها -كما ذكرت لك- إلى القدر، والله أمر باتباع ما أنزل: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣].

هذه في الجملة الأصول التي تتفرع عنها احتجاجات واستدلالات هؤلاء المشركين الذين يُلبِّسون بما يُلبسون به.

قال المصنف رحمه الله:

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جوابًا لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا، فنقول: وجواب أهل الباطل من طريقين: مُجمل، ومُفصل.

قال الشارح وفقه الله:

من مسالك أهل العلم التي قد يسلكونها أنهم يجعلون الأجوبة منقسمة إلى قسمين:

- مُجمل،
- ومُفصل.

من أمثلة هذا: ما كان من شيخ الإسلام ابن تيّمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العُجاب «درء تعارض العقل والنقل»، فإنه ناقشَ في هذا الكتاب القانون الكُليَّ للمبطلين، وأعظمُ من قرره الفخر الرازي ، وهو الذي انطلقوا منه إلى تقديم العقلِ على النقلِ عند توهم التعارض.

شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ابتدأ نقضه ونقدَه لهذا القانون الكُلي بجوابٍ مُجمل، جواب مُجمل في سطرين أتبعه بالجواب المُفصل الذي نثره في أربعةٍ وأربعين وجهًا استغرقت عشر مجلدات، والجواب المُجمل سطران! قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ من آمن إيمانًا يقينيًا مُحققًا بصدق رسول الله ﷺ يعلمُ أنَّ كل ما عارض قوله فهو حجةٌ داحضة» ، ثم ساق قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى:١٦] ، وكفى ؛ كل من يعلم أن كلام النبي ﷺ حقٌ وصدق فإنه يعلم أن كلَّ ما عارض ذلك فإنه باطل، ولو لم يفهم

تفاصيل بطلانه ، يكفي أن تعرف الحق لتعلمَ أنَّ ما ناقضه باطل. ثم انطلق بعد ذلك إلى الأجوبة التفصيلية في هذا الكتاب العظيم الذي «ما في الوجود له مثالٌ ثاني » كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «النونية».

على هذا السبيل درجَ إمامنا جزاه الله عنا خيرًا فبدأ بجوابٍ مُجمل وهو في غاية النفع وفي غاية الفائدة لمن فهمه وقدَره قدْره.

قارن قال: (مُجمل ومُفصل) ؛ إذن المُجمل هاهنا : ما قابل المُفصَّل وليس ما قابل المُبيَّن.

مُصطلح المُجمل يُطلق على وجهين:

◉ **يُطلق على وجهٍ يكون فيه مقابلًا للمُفَصَّل**؛ تقول: هذا وجهٌ مجمل، وهذه أوجهٌ مفصلة، تُجمِل الرد، تُجمل الكلام، تُجيب بجواب عام، ثم بعد ذلك تُفصِّل الأجوبة على كل شبهةٍ على حده.

◉ **وهناك اصطلاحٌ آخر -وهذا المعروف في كتب الأصوليين- وهو أن يكون المُجمل مُقابلًا للمُبيَّن**؛ مُجمل ومُبيَّن، مُجمل فيه إجمال يعني فيه شيء من الخفاء يحتاج إلى ما يُبينه من نصوصٍ أخرى، مُجمل يحتاج إلى مُبيِّنٍ، لكن هو يُريد المُجمل المُقابل للمفصَّل.

قال المصنف رحمه الله:

أمَّا المُجمل: فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها، وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ [آل عمران:٧].

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذورهم».

قال الشارح وفقه الله:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها**)؛ ومدْحُ العالم لكلامه إذا كان دافعه الحرص على المُتلقي فهذا مما يُمدح، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يُبين لك أهمية هذا الكلام، ويوصيك بأن تعتني به غاية الانتفاع؛ لأنه يعلم الفائدة الكبيرة التي تترتب عليه.

قال: (**وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ الخ**)؛ تكلمنا في دروس سابقة بالتفصيل عن هذه الآية العظيمة من سورة آل عمران، وعلِمنا ما يتعلق بمسألة الإحكام والتشابه، وأنَّ القرآن كله مُحكم، والقرآن كله مُتشابه، والقرآن منه مُحكمٌ ومنه مُتشابه، والكلام في هذا يطول، وعلِمنا أيضًا ما هو التأويل، وكيف نفهم التأويل بناءً على الوقف: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ ، أو ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، فالتأويل عند الوقف وهو قراءة، والوصل قراءة ، وكلاهما قراءةٌ سلفية.

قلنا: إنَّ التأويل هو: الكُنه والحقيقة للشيء الذي استأثر الله عز وجل بعلمِهِ من أمور الغيب، فهذه لا يعلمُ تأويلها -يعني كيفيتها وما تؤول إليه- إلا الله سبحانه وتعالى.

وأما على الوصل: وهو الذي نُريده هاهنا: التأويل هاهنا بمعنى: التفسير: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، فالله يعلمه، والراسخون في العلم يعلمونه، وإن كان علم الله عز وجل أعظمُ بما لا مقارنة فيه، لكن ثمةَ قدرٌ مُشترك، وثمة قدرٌ مُميز.

المقصود أنَّ هذه الآية تُبين لنا أنَّ النَّصوص من القرآن والسنة فيها مُحكمٌ ، والمُحكم هنا: الواضح البين، وصَف الله عز وجل الآيات المُحكمات بأنَّها أمُّ الكتاب، الأمُّ هنا بمعنى: الأصل الذي يتفرع عنه غيره ويرجع إليه ما سواه، ولذلك أم الكتاب: المُحكمات، فهي أكثره ومعظمه، كما تقول: أم القُرى بلدةٌ كبيرة وعظيمة، فأمُّ الكتاب: الآيات المُحكماتُ البينات.

وفيها -أعني النصوص- آياتٌ مُتشابهات؛ التشابه هنا بمعنى: الخفاء وغموض المعنى، يكونُ هناك شيء من الخفاء وغموض المعنى. وقررنا -فيما تذكرون- أنه لا يوجد تشابهٌ مُطلقٌ في القرآن والسنة، يعني: شيءٌ من الكلام خفيٌ خفاءً عامًا مُطبِقًا لجميع الناس في كل الأوقات، هذا لا يوجد إذا نظرنا إلى المعاني، نحن الآن نتكلم عن المعاني وليس الكُنه والحقيقة فيما استأثر الله عز وجل بعلمه، نحن نتكلم عن معاني الكلام ؛ لا يوجد شيءٌ خفيٌ على جميع النَّاس في كل حال وفي كل وقت، إنما هناك تشابهٌ نسبي ، بمعنى: من الناس من

يكون خفي عليه معنى بعض ما في القرآن أو السنة، وهذا الخفاء ليس ضربة لازم، بمعنى: أنَّه ليس شيئًا مُلازمًا له، لو سأل زال الاشتباه، لو قرأ زال الاشتباه، وتجد أن هذا خفي عليه، ولكن هذا العالِم ما خفي عليه. إذن التشابه الحاصل تشابهٌ نسبيٌ، وليس تشابهًا مُطلقًا.

إذن هذه الآيات التي تشتبه على بعض الناس قد يحصل فيها غموض:

❁ إما من جهة عدم معرفة القارئ للقرآن المعنى؛ ليس من أهل اللغة، وليس مُتبحرًا فيها.

❁ أو من جهة أن معنى الآية فيه إجمالٌ يحتاج إلى بيان، يُحتاج فيه أن يُنظر إلى دليل مُقيّد، أو دليل مُخصِّص، يحتاج إلى اجتهاد للجمع بين ما قد يظهر فيه إشكالات ، كما قد يحصل للعامي أو المبتدئ في بعض النصوص المتعلقة بالوعد والوعيد أو مباحث الآخرة، أو في بعض مسائل القدر أو نحو ذلك ، وارجع إلى ما جاء في «صحيح البخاري» من أسئلة نافع بن الأزرق لابن عباس رضي الله عنهما فإنك تجد أنَّ هناك أشياء خفيت عليه ؛هي بالنسبة له متشابه، فبيّنها ابن عباسٍ رضي الله تعالى عنهما له.

إذن نحن لا نقول: إن القرآن بيِّنٌ واضحٌ للجميع، لكنَّه بينٌ واضحٌ للمجموع؛ ليس بيِّنًا واضحًا للجميع، ليس كل أحدٍ من هذه الأمة يفهمه من الألف إلى الياء، من الناس عوام يقرأ يفهم شيئًا كثيرًا، لكن تمر عليه أشياء غامضة بالنسبة له، لكن يذهب فيبحث أو يسأل يجد الجواب ، يزول عنه الإشكال، لكن في مجموع الأمة لابد أن يكون فيهم من يكون عالمًا بكل ما فيه،

في مجموع الأمة القرآن واضحٌ مُبيَّن.

أهل البدع والزيغ والشرك والضلال هم الذين يُلبِّسُون على من لم ترسخ قدمه في العلم بمثل هذه المُتشابهات؛ يُحسنون اقتناصها والتلبيس بها بالنسبة للأغمار، فيجعلون أساس الاستدلال هو هذه المُشتبهات، ويُعرِضون عن المُحكمات البينات الواضحات الكثيرات التي هي أمُّ الكتاب! تجد أنهم يردون المُحكم إلى المُتشابه، والذي يجب ردُّ المُتشابه إلى المُحكم، فهذا ديدنهم وهذا شأنهم ، قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ يعني: ابتغاء إدخال اللبسِ على المؤمنين، ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ أي: يبتغون تأويله فيحملونه على أهوائهم-كما قدمت لك قبل قليل-، وهؤلاء هم الذين حذَّر النبي ﷺ من الإصغاء لهم، فقال كما في حديث عائشة رضي الله عنها في «الصحيحين»: «إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم».

إذن هذه حقيقة ينبغي أن تكون لك مُسلَّمة؛ ثمةَ مُتشابهاتٌ على بعض الناس، وثمةَ من يتتبَّعها ويُلبِّسُ بها، إذن المطلوب أن تحذر ، لأن هذا فعل أمرٍ، والأمر يدل على الوجوب، حذارِ من هؤلاء الملبِّسين، فإذا ابتليت قدرًا دون أن تُصغي إليهم وتحرص على الاستماع إليهم أو مصاحبتهم؛ ابتُليت بسماع شُبهة من الشبه التي يذكرونها ماذا تفعل؟ سيُنبهك المؤلف إلى الخلاص من هذه الشبكة.

قال المصنف رحمه الله:

مثالُ ذلك: إذا قال لك بعض المشركين: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] ، أو إن الشفاعة حق، أو إن الأنبياء لهم جاهٌ عند الله، أو ذكر كلامًا للنبي ﷺ يستدل به على شيءٍ من باطله، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره؛ فجوابه بقولك: إن الله ذكر أن الذين في قلوبهم زيغٌ يتركون المُحكم، ويتبعون المُتشابه ، وما ذكرته لك من أن الله ذكر أن المشركين يُقرون بالربوبية، وأنَّ كفرهم بتعلقهم على الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء مع قولهم: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨] هذا أمرٌ مُحكم بيّنٌ، لا يقدر أحدٌ أن يغير معناه.

قال الشارح وفقه الله:

قال الشيخ: (مثالُ ذلك: إذا قال لك بعض المشركين: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس:٦٢])، استحضر ما قلت لك سابقًا من أنَّ **مجرد الاستدلال لا يستلزم الإصابة**، فكلٌّ يستدل، لا يوجد مُبطل إلا وهو يستدل، فحذارِ من أن يُلبَّسَ عليك، أو أن تُصيبك الرهبة، والله فلان عنده دليل، يا أخي الملاحدة المنكرون لوجود الله يستدلون، المُشركون الذين كفَّرهم الله عز وجل يستدلون على شركهم، أليسوا يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس:٤٧]، يستدلون: ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾[البقرة:٢٧٥] ، كلُّ مبطلٍ يستدل، فلا يهولنك مجرد الاستدلال، **فالعبرة ليست بمجرد الاستدلال، العبرةُ بصحة الاستدلال.**

خُذ مثالًا: يقول لك المشرك: (﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] والشفاعة حق)، ثم ماذا؟ يُريد إذن هذا دليلٌ يُسوّغ أن نسأل وندعو ونطلب من الأموات؛ لأن لهم وصف الوَلاية، ولأن الشفاعة حق وهؤلاء مستحقون لها ويملكونها، لماذا لا نسألهم! تُلاحظ أنَّ هذه حجة داحضة لا تلازم بين هذا وبين الشرك، لا تلازم بين أن يكون الولي وليًا، وبين أن يُشرك به مع الله، لا تلازم بين ثبوت الشفاعة وكونها حقًا وبين أن يُشرك مع الله، لا تلازم بين الأمرين.

(أو أن الأنبياء لهم جاهٌ عند الله) ؛ طبعًا كلمة (الجاه عند الله) كلمة مجملة تحتاج إلى بيان، فلا تُقبل لا تُرد إلا بالتفصيل ، تُريد أن لهم مكانة ومنزلة نعم، تُريد أن لهم جاهًا بحيث أنهم يشفعون عند الله عز وجل بلا إذنه -كما يعتقدون- فلا، ليس لهم هذا الجاه ، «العبد عبدٌ والرَّب ربٌ»، فلابد من الفُرقان مهما علتْ رُتبة العبدِ فهو عبدٌ، والرَّب ربٌ عزيزٌ قديرٌ غنيٌ سبحانه وتعالى.

لله حقٌ لا يكون لغيره ولعبدِه حقٌ هما حقَّانِ
لا تجعلوا الحقين حقًا واحدًا من غير تعريفٍ ولا بُرهانِ

قال: (أو ذكر كلامًا للنبي ﷺ يستدل به على شيءٍ من باطله، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره) ؛ الفرضُ أنَّك لا تستطيع أن تُجيب لقلةِ علمك ، لا تدري كيف تُجيب عن هذا الإشكال، إذن ماذا تصنع؟ استمسك بهذا الجواب المُجمل فإنه نافعٌ ومُريح.

قال: (فجوابه بقولك: إنَّ الله ذكر أن الذين في قلوبهم زيغٌ يتركون المُحكم

ويتبعون المُتشابه، وما ذكرته لك من أن الله ذكر أن المشركين يُقرون بالربوبية، وأنَّه كفرهم بتعلقهم على الملائكة، أو الأنبياء، أو الأولياء)، يعني: يدعونهم ويتعبدون لهم، (**مع قولهم: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾** [يونس:١٨]**، هذا أمرٌ مُحكم بين لا يقدر أحدٌ أن يغير معناه)**؛ ما أحسنَ هذا الجواب وما أنفعه لمن لم يكن من أهل العلمِ العارفين بتفاصيلِ الردود على المخالفين.

الجواب المُجمل: عبارة عن أربع مُقدمات ونتيجة.

۞ **أولًا**: ثمةَ مُحكمات في الأدلةِ راسخاتٌ كالجبال، وهي التي عليها أنا وأهل التوحيد، أنا أتكلم على لسان من وردت عليه الشبه؛ يقول للمُبطل الذي يستدل عليه: ثمةَ محكماتٍ في الأدلة راسخاتٍ كالجبال؛ وهي التي أعتقدها، وهي التي عليها أهل التوحيد، وذلك مثلُ:

◉ أن العبادة يجب أن تكون لله، وأنَّ الدعاء يجب أن يكون لله: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة:٢٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، «إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

◉ ومن ذلك: أنَّ المشركين كانوا يُقرون بالربوبية: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

◉ ومن ذلك: أنَّ المشركين كان شركهم في العبادة؛ يعبدون غير الله، ومن ذلك: أنَّ شركهم سببه طلب الشفاعةِ والزُّلفى عند الله. هذه مُحكمات وأصولٌ راسخات.

۞ **الثاني**: ثمةَ مُتشابهاتٌ، وثمةَ من يُلبِّسُ بها، وهذا حالك يا أيها المُشرك وحالُ إخوانك، تتَّبعون المُتشابهات وتُلبِّسون بها على الناس، تجعلون الاستدلال بالمُتشابه وتردون المُحكم إليه، عكسوا القضية ، ومن ذلك هذه الشُّبه التي تقولها وتذكرها لي.

۞ **الأمر الثالث**: أن النصوص لا تتناقض ولا تتعارض، إنني على يقين أن الأدلةَ لا تعارض بينها، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، لا يُمكن أن تتعارض الأدلة؛ أن تأتي آية تُقرر التوحيد، وآية تُقرر الشرك، لا يُمكن أن تأتي آيةٌ أو حديثٌ ينهى عن دعاء غير الله، وآيةٌ أو حديث تُجيز أو تحُث على دعاء غير الله ؛ مُستحيل أن يحصل هذا التعارض. إذن أنا على يقين أنه لا يُمكن أن تتعارض.

۞ **رابعـًا**: أنه ليس بعد الحق إلا الضلال، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ﴾ [يونس:٣٢].

النتيجة: ما أنا عليه حقٌ، وما أنت عليه وما تسوقه من استدلال باطل.

إذن أولًا: ثمة مُحكماتٌ راسخات كثيرات؛ هي أم كتاب الله، هي التي بيَّنت التوحيد وأصَّلتْ قواعده وأركانه، هذه واضحة لا يُمكن لأحد أن يهزها، وهذا الذي أعتقده.

ثانيًا: أنا أعتقد أن هناك مُشتبهات، وهناك أُناس يتَّبعون ما تشابه منه، كما أخبر النبي ﷺ كحالك أنت يا أيها المُلبِّس المُشبِّه.

وأمرٌ ثالث وهو: النصوص لا يُمكن أن تتعارض متى ما كانت نصوصًا

صحيحة، والفرضُ هنا أنه يتكلم بنصوصٍ صحيحة، كأن يقول: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾، أو ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]، أو إن الشفاعة حق ؛ هذه أدلتها صحيحة.

الأمر الرابع: أنه ليس بعد الحق إلا الضلال؛ فمتى ما ثبت أنَّ هذا حقٌّ كان ما يُعارضه باطل.

النتيجة كلامك لا يهزُّ فيَّ شعرة، أنا على حق وأنت على باطل، وإنْ كنتُ لا أعلم تفصيل الرد على شُبهتك، **هذا هو الجواب المُجمل النافع.**

وأُنبهك على تنبيهات تتعلق بهذا الجواب:

❁ **أولًا**: هذا الجواب جوابٌ عامٌ ؛ بمعنى أنه ليس مقصورًا على مباحث الألوهية، أو على ما يُشبِّه أو يُلبس به القبوريون، بل هذا يُمكن أن يُنتفع به في كل بابٍ من أبواب الدِّين ، مهما لُبِسَ عليك بشيءٍ لا تعرف القدح أو النقض له فاعتصم بعد الله عز وجل بهذا الجواب المُجمل، أُورد عليك أشياء من المشتبهات تتعلق بالصحابة، انتبه هذه مُشتبهات، وعندنا أصول مُحكمات، هناك أشياء تتعلق بالقدر، أنت ما فهمتها وصعب عليك الجمع بين أشياء فيها ولُبِّس عليك من بعض الملبِّسين؛ اعتصم بالمحكمات ، اعتصم بأن الله عدلٌ لا يظلم، وأن له الحجة، وليس أنَّ عليه الحجة سبحانه وتعالى، وأن لله الحكمةَ البالغة، إلى غير ذلك من هذه الأصول المحكمة في باب الصفات في غير ذلك . إذن هذا جوابٌ عام نافع في كل الأبواب.

❁ **ثانيًا**: هذا الجواب من قَبيل الحجة اللازمة لا المتعدية؛ بمعنى: هذا

الجواب يصلح لك في خاصة نفسك من جهة التحصين والسلامة من عوادي الشبه الضارة؛ تدفع به عن نفسك غائلة تلبيس المُلبس، لكن ليس هذا الجواب من قبيل الحجة المتعدية التي تتعلق بالدعوة إلى الله، وإفحام المُبطلين، وقلبِ الأدلة عليهم وما إلى ذلك، لا، هي حجة لازمة لك، ولذلك أكثر من ينتفع بها العوام والمُبتدئون من طلبة العلم، هم أحوج ما يكونون إلى هذا الجواب المُجمل، وشأن التحصين شأنٌ مُهم ؛ لا تستهن به.

❁ **التنبيه الثالث**: أنَّه لا يلزمُ في معرفةِ بُطلان القولِ الباطلِ ما ينقضه على وجه التفصيل، إنَّما يكفي معرفةُ أنه مُعارِضٌ للحق؛ بمعنى: معرفتُك للحق كافيةٌ في معرفة بُطلان ما خالفه، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ﴾ [يونس:٣٢]، **بمعنى: الباطل يُعرف من طريقين:**

◉ **من خلال معرفةِ القادح الناقض الذي يُبطل الباطل**، فيتجلى لك أنه قولٌ باطل؛ تعرف أنَّ الإسناد ضعيف، وفي الإسناد كذا وكذا ، تعرِف أنَّ معنى هذا الكلام ليس ما ذكرته في معنى الوسيلة، إنما الصواب كيت وكيت، أنت الآن عندك علمٌ بالقادح في القول الباطل، فتجلَّى لك أنَّ القول باطل ، عرفتَ بطلانه هنا لأنك عرفت القادح فيه.

◉ **وهناك طريقٌ أخرى: وهي أن تعرف الحق**؛ إذن كل ما ناقض الحق باطل، وهذا هو الذي يُلجأ إليه أو نحتاج في مثل هذا الجواب؟ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ﴾ [يونس:٣٢]، أنت أتيتني بشيء أنا لا أعرف جواب تفصيله هو عندي مُشتبه ولا مُشكلة في أن يبقى مُشتبهًا، لكنني أقطع أنه باطل، والدليل أنه

مُعارِضٌ للحق، ولا يُمكن أن يكون شيءٌ يُعارض الحق إلا وهو باطل.

إذن انتبه إلى هذين الطريقين في معرفة بطلان القول الباطل.

❁ **الأمر الرابع من المُهمات**: إحكام المُحكمات وضبط الأصول؛ لأن الإنسان لا يُحسن مثل هذا الجواب المُجمل إلا وهو -أولًا- عارفٌ ، ثم مُستقينٌ بالأصول المُحكمة ، وإلا لا يُمكن أن يُجيب بهذا الجواب. إذن لابد من أن تكون حافظًا لها مُستحضرًا لها؛ وهذا يُرشدك إلى أهمية المختصرات في العقيدة، لأنها تجمع لك أصول الأبواب، فتكون منها على ذُكْرٍ.

إذن من المُهم التنبه إلى هذا، ولذلك انظر معنى قول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

◉ (**أن الله ذكر أن المشركين يُقرون بالربوبية**) هذا أصل وأساس مُهم.

◉ أنَّ كفرهم لم يكن لأنهم يعتقدون أن خالقًا مع الله خلق السماوات والأرض، إنما لأنهم تعلقوا بغير الله ، عبدوا غير الله، دعوا غير الله؛ هذا أصل.

◉ أن شركهم كان لأصلِ طلب الزلفى والشفاعة ؛ هذا أصل.

◉ أن الله نهى نهيًا عامًا جازمًا، وكذا رسوله ﷺ عن عبادة غيره، وعن دعاء غيره، وأمر بدعائه وحده، وأمر بعبادته وحده؛ هذا أصل.

إذن لابد من أن تضبط الأصول وتهتم بها، حتى لا تدخل عليك الدواخل يا طالب العلم.

ولذا حينما قلنا قبل قليل: إن هذا الجواب ينفع العامي والمُبتدئ، هذا لا يعني أن يركنَ إلى الجهل ولا يهتم بطلب العلم، طالب العلم عليه أن يجتهد، أنت تنتفع بهذا الجواب، ولكن أحسنُ منه أن تعرف الجواب المُفصل عن

الشُبه، نعم لن تستطيع أن تُحيط علمًا بكل شبهة، لكن من الجيد أن يكون عندك إشراف على معرفةِ كثير من الأجوبة، أو نقض كثير من الشُبه التي يُلبِّس بها المبطلون.

قال المصنف رحمه الله:

وما ذكرت -أيها المُشرك- من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه، ولكن أقطعُ أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يُخالف كلام الله عز وجل.

قال الشارح وفقه الله:

وأضف أيضًا: (وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال)، هذه إضافة مُفيدة تُبين لك ما أراد الشيخ.

قال المصنف رحمه الله:

وهذا جوابٌ جيدٌ سديد، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله، ولا تستهون به، فإنه كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥] .

قال الشارح وفقه الله:

هذا جوابٌ سديد، لكن لا يفهمه إلا من وفقه الله، وكان مُستيقنًا بالمحكمات.

المُشكلة هنا: إنَّ من النَّاس من لا ينتفع بهذا الجواب؛ لأنه ليس عنده يقين بالمحكمات البينات، مثل هذا تخور قواه ، يسقط عند أدنى شُبهة؛ لأنه ما عنده يقين بالمحكمات.

إذن من كان على علمٍ بها واستيقان بها، ليس عنده شك أو ريب فيها، فهذا يُبشر أنه بتوفيق الله عز وجل سينتفع كثيرًا بهذا الجواب، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥] .

والله تعالى أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

وأمَّا الجواب المُفصَّل: فإنَّ أعداء الله لهم اعتراضاتٌ كثيرةٌ على دين الرُّسل يصدون بها الناس عنه، منها قولهم: نحن لا نُشرك بالله، بل نشهدُ أنَّه لا يخلق، ولا يرزق، ولا ينفع، ولا يضر، ولا يُحيي، ولا يُميت، ولا يُدبر الأمر؛ إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلًا عن عبد القادر أو غيرِهِ، ولكنْ أنا مُذنب، والصالحون لهم جاهٌ عند الله، وأطلبُ من الله بهم.

فجاوبه بما تقدَّم؛ وهو: أنَّ الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مُقرون بما ذكرتَ لي أيها المُبطل، ومُقرون أنَّ أوثانهم لا تُدبِّر شيئًا، وإنَّما أرادوا ممن قصدوا الجاه والشفاعة، واقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضِّحه.

قال الشارح وفقه الله:

ابتدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِذكر الأجوبة المُفصَّلة على شُبهات المُشركين القبوريين الذين كانوا في زمن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ. **وابتدأ الشُبهة الأولى ومضمونها: حصرُ الشرك في الشرك في الربوبية**، يعني: لا شِركَ إلا في الربوبية؛ وعليه: فمهما عَبَدَ الإنسان غير الله عز وجل فإنَّه لا يكون مُشركًا، إذا كان موحِّدًا في ربوبية الله سبحانه وتعالى.

وقبلَ أن نسترسل في ذِكر الجواب، نقف مع الشُّبهة نفسها، **وعندنا هاهنا مسألتان:**

الأولى : حينما يقول المشرك: نحن لا نُشرك بالله، تجد أنه يحصر مفهوم

الشرك في الشِّرك في الربوبية، لماذا يقول نحن لا نُشرك بالله؟ الجواب: لأنه يقول: نحن نشهدُ أنه لا يخلق، ولا يرزق، ولا ينفع، ولا يضر.. إلى آخره إلا الله. إذن الشرك مقصورٌ على باب الربوبية، ولا شك أنَّ هذا باطل، بل الشرك في الربوبية شركٌ، والشركُ في الألوهية شركٌ أيضًا، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦]، ويقول: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]. ويقول الله عز وجل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، فالإيمان الموصوف هاهنا: إنما هو الإيمان بربوبية الله، وأما الشرك: فهو الشرك في الألوهية، كما بيَّن هذا حَبْرُ الأمة ابن عباس رضي الله عنهما، فتنبه إلى هذه المغالطة التي يُلبس بها هؤلاء المشركون.

وفي الغالب مفتاح الردِّ على شُبهة المُبطل: تكون في التأمُّل في مُقدماتِ ما يسوق من حُججٍ وشُبهات، دقِّق النظر في مُقدماتِ المُبطل تجدُ مفتاح الردِّ عليه، وحذارِ من أن تنطليَ عليك تلك المقدمات، فإنَّك إنْ سهوتَ فسلَّمت بها فإنَّه سوف يتسلط عليك، وتكون أسيرًا في المُناظرةِ بين يديه.

الأمر الثاني: الألفاظُ لا تُغيِّر من الحقائق شيئًا، فمهما قال المُشرك: نحن لا نُشرك، هذه الجُملة، وهذه الألفاظ لا تُقدم ولا تؤخر، العبرةُ بالحقائق وليس بالألفاظ، ولنا أن نقول أيضًا: إنَّ العبرة بالحقائق وليس بالعقائد أيضًا، العبرة ليست بالألفاظ ولا بالعقائد ولا بالظنون، العبرةُ بالحقائق؛ فلو كان يعتقد في نفسه أنه لا يُشرك بالله، هل هذا يُغير من حقيقة كونه واقعًا في الشرك شيئًا؟

الجواب: لا يُغير ذلك. فأهل الكتاب كانوا يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، يتلفظون بهذا ويعتقدونه في نفوسهم، فهل هذا يجعلُ ما ذكروه واعتقدوه حقًا؟ الحقيقة ليست كذلك، ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة:١٣٥]، كانوا يعتقدون ويتلفظون بأن الهداية محصورة في أن تكون يهوديًا أو نصرانيًا، هل هذا يُغني من الحق شيئًا؟ الجواب: لا ، ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة:١٣٥] هي الهداية.

فمهما اعتقد الإنسان، ومهما تكلم بما يُخالف الحقيقة، فلا عبرةَ بكلامِهِ ولا عبرةَ باعتقاده، فكلٌ يعتقدُ أنَّه مُحِق، حتى أخبث خلق الله وأعظمُهم كُفرًا؛ وهم الملاحدة المنكرون لوجود الله عز وجل بالكلية، هؤلاء يعتقدون أنَّهم مُحقون أم مُبطلون؟ يعتقدون أنهم مُحقون، يرون أنَّ هذا هو الصواب، كثيرٌ منهم على هذه الحقيقة، ومع ذلك -لا أقول كلهم لكن أقول- كثيرٌ منهم على هذه الحقيقة فعلًا، هو يعتقد أنَّه مُصيب، وأنَّ وجود الإله مُجردُ وهم يتوهمه هؤلاء المُؤلِّهة، وهذا لا يُغني من الحق شيئًا، ولا يُقدم ولا يُؤخر، فالعبرةُ بالحقيقة.

فإذا قال القبوري المُشرك: نحن لا نُشرك بالله، ونحن موحدون لله، وهكذا ينصون في كتبهم، يقولون: "نحن موحدون، ونحن من أهل التوحيد"، ومهما تكلموا ومهما رفعوا من هذه الشعارات فالحقائق هي الغالبة، وهي التي عليها المعوَّل، وهي القاضية على كل هذه الألفاظ والعقائد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لكنْ أنا مُذنب، والصالحون لهم جاهٌ عند الله، وأطلبُ من الله

بهم)؛ قول هذا المُشرك ليس مُتعلقًا بمسألة التوسل ، انتبه: هذه المقولة ليست متعلقة بالتوسل، التوسلُ يختلف عن الدعاء والاستغاثة، التوسل بالشيء هو: السؤال به، والاستغاثة والدعاء هو: سؤال الشيء، ففرقٌ بين سؤال الشيء والسؤال به، فكون الإنسان يقول: "يا الله بجاه نبيك أعطني"، نقول: هذا من التوسُّل البدعي، ولا يصل إلى حدِّ الشرك، لكن أن يقول: يا رسول الله أعطني؛ هذا هو الدعاء، وهذا هو الشرك.

إذن حينما قال هذا المُشرك: (**وأطلبُ من الله بهم**) هو لا يُريد التوسل، هو يريد الاستغاثة، ولكن مُراده هنا مسألة الوساطة، ومسألة الوسيلة، ومسألة التقرُّب، بمعنى: أنا أسأل النَّبي أو الولي وهو يسألُ الله؛ فعاد الأمرُ إلى أنَّي أنا السائل في الحقيقة؛ لأنَّه إنَّما سأل لي، فلما سألته أنا أُريد ما عند الله ولكن بواسطته، فأسأله وهو يُسأل الله، فعاد الأمر إلى أني أسأل الله بهم؛ هذا هو التأويل أو هذه هي الفلسفة التي يزعمون، فهو سائلٌ لله لكن من طريقهم.

ويوردون هنا شُبهة تجدها في كتب المتأخرين منهم، وهي أنهم يقولون: إننا إذا استغثنا بغير الله عز وجل فهذه الاستغاثة من قبيل المجاز العقلي؛ فالمُستغاث به حقيقةً هو الله، والمُستغاث به مجازًا هو النبي أو الولي. إذن جعلوا الاستغاثة بغير الله عز وجل من قبيل المجاز، وما هي الحقيقة هاهنا؟ الاستغاثة بالله سبحانه وتعالى، يعني: حينما تستغيث بنبيٍ أو وليٍ فحقيقة الحال أنت مُستغيثٌ بالله، أما تلفُّظك بهذا اللفظ؛ هذا مُجردُ مجاز.

إسنادُ الاستغاثة لغير الله عز وجل مجاز باعتبار الوساطة، باعتبار الشفاعة،

لملاحظة هذا الأمر: أُسندت الاستغاثة إلى النبي أو الولي مجازًا، وهذا تجده مثلًا عند أحمد زيني دحلان في كتابه: «الدرر السنية في الردِّ على الوهابية»، تجده عند المالكي في كتابه: «مفاهيم يجب أن تُصحح»، تجده عند كثير من هؤلاء؛ يجعلون المجاز مخرجًا لهم، يخرجون من ألفاظهم الكفرية والشركية بشبهة المجاز، يقول: هذه مجاز، وكلام ليس على حقيقته.

والمجاز ربما يتعلق به كل مبطل، كلُّ صاحب مقالة فإنه ربما يجد في المجاز مخرجًا فيما يقول أو فيما لا يُريد أن يتقبل من أدلة النصوص، والمشركون -كما سمعت- تعلقوا بمسألة المجاز. وقد وجدتُ أن غيرهم أيضًا قد تعلقوا بهذه الشبهة، وجدتُ أنَّ من اليهود من يزعم أن مقالاتهم التي وقعوا فيها في سَبٍّ عظيم لله عز وجل وانتقاصٍ له، كما في التلمود وغيره، يقولون: "هذه الكلمات لا يُراد بها الحقيقة، هذه من قبيل المجاز"، وجدتُ أن القاديانية -وهي فرقةٌ لا تمُتُّ إلى الإسلام بصلة- يزعمون أنَّ من مقالاتهم المتعلقة بالنبوة وغيرها هذه ما هي إلا مجاز، القوم ضلالهم في أبواب شتى في الإلهيات، -القوم مُشبِّهة- وفي النبوة، وفي العبادات، وفي كل شيء، أُناس لا صلة لهم بالإسلام، ولا صلة للإسلام بهم.

الشاهد: أنَّك تجد أنَّ هؤلاء ودونهم من أهل الكلام وغيرهم من يتعلق بشبهة المجاز، لأجل تمرير ما يُريد تمريره من الباطل، أو دفعِ الشناعةِ عنه، أو غير ذلك من الأسباب، وموضوعُ المجاز موضوعٌ طويل، ويحتاج طالب العلم إلى أن يُحسِنَ فهمه في ضوء كلام أهل السنة، ولا ينبغي أن يهوله كثرةُ كلام

المُتكلمين الذين أكثروا من الخوض في هذا الباب، بل ينبغي أن يدرسه وفق قواعد أهل السنة والجماعة.

على كل حال: **الردُّ على ما ذكر هذا المُشرك وما قد يُذكر من هذه الشبهة؛ شبهة المجاز، من وجوه:**

❁ **أولًا**: قصدُ التسبب الذي زعمه هذا المُشرك من أنه يستغيث بغير الله لأجل أن يستغيث هذا الذي سأله بالله؛ هذا القصد هو عينه الذي كان عليه المشركون الأولون الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم وأبوا من قول «لا إله إلا الله» ومن الدخول في الإسلام، هذا عينُ ما كانوا يذهبون إليه، كانوا يُريدون من هذه المعبودات التي يتقربون إليها أن تُقربهم إلى الله، وأن تكون واسطة بينهم وبين الله عز وجل، فما زدتم يا أيها المشركون المتأخرون على ما كان عليه المتقدمون، وقد مضت الأدلةُ مُفصلةً في دروس ماضية على هذا الأمر. إذن قَصْدُ هذا التوسط والتقريب الذي تزعموه؛ هو حقيقةُ ما كان عليه المشركون، فأنتم تسيرون سيرهم حذو القذة بالقذة.

❁ **الأمر الثاني أن نقول لهم**: ومن قال لكم إنَّ هؤلاء الأولياء أو الأنبياء سببٌ للغوث؛ هذه دعوى لا دليل عليها، وليس ثمة دليل على أنَّ الله عز وجل جعل هؤلاء الأولياء والأنبياء سببًا لغوثكم، فأصل المبدأ غيرُ صحيح ولا يُسلَّم.

❁ **الأمر الثالث**: أنّ طرد ما ذكروا في مسألة المجاز يقتضي ألا يُشرك مشركٌ ، طرد ما ذكروا ألا يكون المشركون الأولون مُشركين؛ لأننا يُمكن أن نقول: إنَّهم إنَّما كانوا يستعملون المجاز العقلي حينما يتعبَّدون ويسألون

ويستغيثون باللات والعزى ومناة وهُبل... إلى آخره، هذا كان على سبيل المجاز، ولا أدري لو كانوا في الزمن المتأخر لربما وضعوا في آذانهم أنه يُمكن أن تتذرعوا بمسألة المجاز؛ فلا تكونوا كافرين ولا يُشنع عليكم.

فإذا طردنا ما ذكروا؛ ينبغي إلغاء باب الردة بالكلية من كتب الفقه، فإنه يُمكن لكل من قال كلمة الكفر أن يدَّعي فيها المجاز ، حتى ولو سبَّ الله -تعالى الله-، أو سبَّ رسوله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يُعجزه أن يدَّعي أن كلامه مجازيٌ لا حقيقي، وأي فسادٍ للدِّين أعظم من هذا الفساد؟!

❁ **الأمر الرابع**: أن نقول: إن الحق -الذي لا شك فيه- أنَّ الكلام بسياقِهِ حقيقة؛ كل كلامٍ إذا لوحظ فيه سياقه وتركيبه فإنَّه حقيقةٌ في محلِّه، ولا يُقبل العدول عن ذلك إلا بدليل، فهؤلاء توجهوا بخالص حق الله عز وجل إلى غيرِهِ؛ فاستغاثوا بغير الله، وذبحوا لغير الله، ونذروا لغير الله، وطافوا لغير الله... إلى آخر ما هنالك، وكلُّ هذا لا يجوز العدول عن هذه الحقيقة فيه، فما ذكروه لا يُقدم شيئًا ولا يُؤخر.

❁ **الأمر الخامس**: أن نقول: إنَّ هذا الذي ذكروا مُخالفٌ لواقعهم ولا شك، من سبر حال هؤلاء القبوريين علِم أنَّ المسألة أكبرُ من مُجردِ أنَّ القلوب معلقةٌ بالله ولكن هؤلاء مُجرد وسائط؛ هذا في حد ذاته شركٌ بالله، لكن حال هؤلاء أغرقوا في الضلال والوقوع في بحار الشرك، فقلوبهم -ولاشك- مُعلقة بهؤلاء الذين يستغيثون بهم؛ لا بالله، ليست مُعلقة بالله، وإلا لو لم يكن الأمر كذلك؛ لما هتفوا باسم هذا المُستغاث به من البُعد، هو في المشرِق ويستغيث

بوليه الذي في المغرب! ما فعل هذا إلا أنه يعتقد أنَّ له سمعًا شاملًا، وعِلمًا مُحيطًا، وقدرةً فوق قُدرة البشر لا تكون إلا لله، بحيث أنه يُجيبه، ويوصل إليه الخير أو يدفع عنه الضرر مع هذا البُعد الشاسع، لو كانت قلوبهم ليست مُعلقةً بهؤلاء المستغاث بهم؛ ما جعلوا لهم الدُّنيا والآخرة:

فإنَّ من جودك الدُّنيا وضرَّتها ومن علومك علم اللوح والقلمِ

لو كانت قلوبهم ليست مُعلَّقة بهؤلاء الذين جعلوهم آلهة مع الله؛ ما قالوا: إنه يُستغاث بالنبي في كلِّ ما يُستغاث به لله، ما قالوا هذا لو كانت قلوبهم غير مُعلقةٍ بهؤلاء المعبودين.

وقد ذكرتُ لكم في مرةٍ سابقة أنَّ الألوسي في «تفسيره» ذكر قصة حصلت له في صغره، وهي: أن أحد هؤلاء المعمميين القبوريين قال له: إذا نزلَت بك النازلة فإياك أن تستغيث بالله، فإن الله لا يُهمُّه أمرُك، ولا يُبالي بما نزل بك، ولكن عليك بالأولياء فإنهم يُسارعون إلى إغاثتك وتلبية حاجتك.

وذكر في تفسيره قصةً أخرى، وهي: أنه سمع مرةً شخصًا نزلت به مُلمةٌ فصار يهتف باسم أحد الأولياء -سبحان الله!! حالهم أشنع من حال المشركين الأولين- فقلت له: لماذا لا تستغيث بالله؟ يقول: فغضب وسكت ومضى، ثم بلغني أنه قال: فلانٌ لا يُقدِّر الأولياء؛ لأنه يأمره بأن يدعو الله وحده.

المقصود: أن ما يذكره هؤلاء عارٍ عن الحقيقة لمن نظر في حالهم ، لو كانت قلوبهم مُعلقة بالله حقًا، وكانت غير معلقةٍ بالأولياء ما تحرَّجوا من الحلف بهؤلاء الأولياء كذبًا، ويتساهلون في الحلف بالله صِدقًا!! إلى غير ذلك من

أحوالهم التي تدل على أنَّ هذه مُجرد دعوى، على أنها كانت واقعة أو غير واقعة، فمجرد التوجه لغير الله بالعبادة -مهما كان القصدُ- فإنَّه شركٌ بالله سبحانه وتعالى.

وعلى كل حال: إذا تأمل الإنسان سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يُدركُ أنَّ ما يقع فيه هؤلاء هو أشنعُ ضلال وأعظمُ ذنب، إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يشتد غضبه على من يقول له: (ما شاء الله وشئت)، هو سوَّى بمجرد اللفظ، فعطف بالواو (ما شاء الله وشئتَ)، فماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم؟ «أجعلتني لله ندًا؟ قل ما شاء الله وحده».

فكيف إذا نظرتَ إلى حال هؤلاء، وما يفعلونه ، وما تجأر به حناجرهم، وما تجتهد فيه جوارحهم؛ من التوجه بالعبادة لغير الله سبحانه وتعالى، شتان والله بين هذا وهذا! إذا كان مُجرد قول (ما شاء الله وشئت) فيه اتخاذ ندٍ مع الله عز وجل! إذن ماذا يُقال: عما يفعل هؤلاء المشركون؟! والله المستعان.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فجاوبه بما تقدَّم: وهو أنَّ الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مُقرون بما ذكرتَ لي أيها المُبطل، ومُقرون أن أوثانهم لا تُدبر شيئًا، وإنما أرادوا ممن قصدوا الجاه والشفاعة، واقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضِّحه**).

قلْ لهم أنت يا هذا تحكي مقالتهم سواءً بسواء ، فإنْ كان ما ذكرتَ عُذرًا؛ فينبغي أن يكون عُذرًا لهم، وإن لم يكُنْ لهم عُذرًا؛ فلا ينبغي أن يكون عُذرًا لكم.

ثم (**اقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضِّحه**)؛ إذن لابد أن تتسلح بالدليل.

«العلمُ معرفةُ الهدى بدليلِهِ»؛ معرفةُ الله، ومعرفة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومعرفةُ دين الإسلام بالأدلة، هذا هو العلم، إذن لابد من أن تُعْنَى بالأدلة، ولابد أن تحرص على حفظ الأدلة، فهي من أعظم الأسلحة التي تُعينك في مناظرة هؤلاء، أو في دعوتهم، أو في السعي في هدايتهم، أو في دحرهم؛ لمن كان من المتمردين منهم.

احرص على حفظ الأدلة؛ فإذا تلوت كتاب الله عز وجل فاجعل هذه المسألة -مسألة التوحيد والشرك- اجعلها في ذهنك ولا تكن من الغافلين، كلما وقفت على وجه ونظرت في كلام أهل العلم فيه سجِّله عندك واكتبه في مُذكرة خاصة، فتخرج بعد هذا بفوائد عظيمة. وكذلك الأمر إذا قرأت في سنة النبي صلى الله عليه وسلم تجد لطائف عظيمة جدًا تنفعك في دعوتك، فيها الدعوة إلى تجريد التوحيد، وفيها النَّهي عن دقائق لا تُمثل -إذا ما قُورنت بالفظائع التي

يقع فيها المُشركون- لا تُمثل إلا شيئًا يسيرًا، ومع ذلك يحرصُ النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم أمته تجريد التوحيد لله.

إذن اقرأ على هذا ما بيَّن الله عز وجل، ومن ذلك:

◉ أن تقرأ عليه الأدلة التي تدل على أن المشركين الأولين كانوا مُقرين بأن الله هو الخالق الرازق المُدبر... إلى آخره، والأدلة في هذا مضت.

◉ واقرأ عليه أيضًا الأدلة التي تدل على أنهم ما كانوا يعتقدون أنَّ أصنامهم تخلُق، وترزق، وتملك، بل إنَّها كانت مملوكة: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك».

◉ واقرأ عليه الأدلة التي تدل على أنهم إنما قصدوا التقريب إلى الله، والشفاعة عنده، كل هذا مضى على وجه التفصيل.

قال المصنف رحمه الله:

فإن قال: إن هؤلاء الآيات نزلتْ فيمن يعبُدُ الأصنام، كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام، أم كيفَ تجعلونَ الأنبياء أصنامًا؟ فجاوبه بما تقدم، فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله، وأنهم ما أرادوا مما قصدوا إلا القُرب والشفاعة، ولكن أراد أن يُفرِّق بين فِعلهم وفعله بما ذكر؛ فاذكُرْ له أن الكفار منهم من يدعو الصالحين والأصنام، ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم [(١)]: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧]، ويدعون عيسى ابن مريم وأمه، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:٧٥]. واذكر له قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤٠-٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ

---

(١) كأنَّ الذي في الحاشية هو الأقرب [في حاشية متن كشف الشبهات، بتحقيق الشيخ دغش العجمي]، في (ميم)، أو في (البقية)، لأنه يقول: (من يدعو الصالحين والأصنام)، ثم (من يدعو الأولياء)، طيب الأولياء هم الصالحون، كأنه -والله أعلم- (منهم من يدعو الأصنام) ليصلح بعد ذلك ذِكر الأولياء، أو: (ومنهم من يدعو الأصنام، ومنهم من يدعو الصالحين ومنهم من يدعو الأولياء) مستقيم الآن، لكن: الصالحين، الأصنام، الأولياء، الترتيب هنا غير متسق، والأمر سهل على كل حال.

قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة:١١٦]، فقل له: هل عرفتَ أن الله كفَّر من قصد الأصنام، وكفَّر أيضًا من قصد الصالحين، وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الشُّبهة الثانية، ومضمون هذه الشُّبهة: حصرُ الشرك في عبادة الأصنام فقط، هذا ما تدور عليه هذه الشبهة.

قال: (فإن قال: إن هؤلاء الآيات نزلتْ فيمن يعبُدُ الأصنام، كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام، أم كيفَ تجعلونَ الأنبياء أصنامًا؟)؛ أُريد أن أقف مع هذه الجملة ثلاث وقفات:

❁ الأولى: من مسالك المشركين: دعواهم أن الموحِّدين ينتقصون الأولياء والأنبياء؛ فمهما قام الموحِّدُ بالدعوة فقال: "لا يجوز أن تدعو وليًا أو نبيًا"، قالوا: أنت تنتقص الأنبياء، وهذا الذي يدور عليه كلامُ هذا المُشرك، (كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام، أم كيفَ تجعلونَ الأنبياء أصنامًا؟).

ولا شك أنَّ هذه حُجة عاطفية، هذه ليست حجة برهانية، هذه حجة عاطفية يُضحك بها على عقول السُّذَّج والأغمار، فإنه إذا ضُخِّم هذا الموضوع في أذهانهم فإنهم يقولون: فِعلًا كيف ينتقصون الأنبياء، وكيف ينتقصون الأولياء؟ الأولياء لهم قدر، والأنبياء لهم قدر، وهؤلاء ينتقصونهم! إذن لا يُسمع لهم، ولا يُلتفت إليهم. أما أهل العقول الراجحة فإن مثل هذه التشغيبات لا ينبغي أن يكون لها وزنٌ عندهم، في مقام الحجاج مثل هذا الكلام لا يُقدم ولا

يُؤخر.

۞ **الأمر الثاني**: اعجب -يا من بصَّرك الله- لحال القوم!! كيف أنهم ثارت حميتهم وغاروا على حق الأنبياء والأولياء الذين يدعونهم ويستغيثون بهم، كيف تتعدَّون عليهم وتسلبونهم حقهم؟ فيا لله العجب! أين غَيْرَتُهم على حق الله؟ أين غضبهم على انتقاص ربنا سبحانه وتعالى حينما جمعوا غيره معه في خالص حقه؟ ألا يدلك هذا على أنهم يُحبون معبوداتهم كحب الله -بل أشد-، فاقوا حال كثير من المتقدمين والله، فشركهم أشنع من شرك الأولين.

۞ **وأمرٌ ثالث أن نقول**: إنَّ قولهم هذا عجب! القوم ما وفَّروا شيئًا لم يُعبَد؛ يعني أنتم تتورعون عن التعلق بالأحجار؟ ألستم تروون في كتبكم حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أحسن أحدكم ظنَّه بحجر لنفعه»!! إذن في الحقيقة هم حتى الأحجار يتعلقون بها، لا يُوفرون شيئًا، يعتقدون النفع والضُّر في السياج الحديدي أو الجُدران التي تُحيط بقبر الولي، التُّراب الذي يكون عليه أو على هذه الجُدُر؛ يعتقدون فيها النفع والضر، فعجبٌ حالهم، هم في الحقيقة والله لا تركوا حيًا، ولا تركوا ميتًا، ولا تركوا حجرًا، ولا تركوا غيره؛ إلا وتوجهوا إليه بالعبادة، أو تعلقت قلوبهم به، أو اعتقدوا فيه النفع والضُّر.

هذه مُقدمات ثلاث بين يدي هذه الشبهة.

والجواب: عن هذه الشبهة من ثلاثة أوجه:

۞ **أولًا: بم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو جوابٌ بالمنع**، فنقول: لا نُسلم لهم أن الشرك منحصرٌ في عبادة الأصنام، فلا فرقَ بين الأصنام وغيرها في هذا المقام.

وتفصيل القول في هذا الجواب يُعرفُ بمقدمتين ونتيجة:

◉ **المقدمة الأولى:** أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم بُعث إلى قومٍ متفرقين في معبوداتهم ، وهذا أمرٌ لا سبيل إلى إنكاره، وقد ساق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملةً من الأدلة؛ بُعث النبي صلى الله عليه وسلم وفي النَّاس من يعبدُ الأنبياء، وفي النَّاس من يعبدُ الأولياء، وفي النَّاس من يعبدُ الأصنام، وفي الناس من يعبدُ الملائكة، وفي الناس من يعبد الجن، وفي الناس من يعبد الكواكب؛ الشمس، والقمر، والشِعْرَى، وفي الناس من يعبد حيواناتٍ كالخيل وغيرها، بعض العرب كانوا يعبدونها، إذن لم تكن المعبودات محصورةً في الأصنام، هذه مغالطة، بل النبي صلى الله عليه وسلم بُعث إلى قومٍ يعبدون معبوداتٍ شتى، وسيأتي الدليل على هذا فيما ساق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

◉ **المقدمة الثانية:** لم يُفرِّق النبي صلى الله عليه وسلم بين معبودٍ ومعبودٍ في الحُكم؛ الحُكم بالكفر وما يترتب عليه لم يُفرق فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالمعلومِ بالضرورةِ من حاله عليه الصلاة والسلام، فما كان يقصُر الحكم بالكفر على من يعبد الأصنام، أمَّا الذين يعبدون الجن، أو الذين يعبدون الملائكة، أو الذين يعبدون الشمس والقمر، كان يدع الحكم عليهم بالكفر، ما كان هذا من النبي صلى الله عليه وسلم.

إذن النتيجة: مناطُ الحُكم بالكفرِ هو التوجه بالعبادة لغير الله، فمهما كان المعبود فصلاحه، أو فساده، أو حياته، أو موته، أو كونه جمادًا، أو كونه غير جماد، هذا كله لا أثر فيه في الحُكم، الكلُّ في هذا المقام سواء.

إذن يُمكن أن نستخلص من هذا قاعدة: **علةُ الشرك التشريك؛ فلا فرق بين شريك وشريك.** فمهما توجه الإنسان إلى شيء، فإنه يكون مُشركًا بالله سبحانه وتعالى، ولا فرق حينئذٍ بين شيء وشيء.

ومما يدلك على هذا: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد»، هذا الدليل حُجة قوية في دفع شُبهتهم، لو لم يكن في الباب إلا هي لكفى والله، ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم؟ «اللهم لا تجعلْ قبري»، والسؤال: قبره صنمٌ؟ لا والله، لا يقول عاقلٌ بهذا، ومع ذلك لو عُبِدَ لكان وثنًا. وإذا كان هذا في حق قبره صلى الله عليه وسلم، فلأن يكون هذا حُكْمَ كل قبرٍ يُعبد من باب أولى. إذن زعمهم حصرَ الشرك في عبادة الأصنام هذا زعمٌ غير صحيح.

۞ **الجواب الثاني أن نقول:** سلمنا جدلاً أنَّهم ما عبدوا إلا الأصنام، فقد علِمنا سابقًا أنَّ الأصنامَ مقصودةٌ لغيرها لا لذاتها، عُبدت لغيرها لا لذاتها - غالبًا - ، وفي هذا يقول أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُلخصًا هذا المعنى في الجزء السابع عشر، في صحيفة أربعمائة وستين من «مجموع الفتاوى»، يقول: «وإلا فنفس الأصنام الجمادية لم تُعبد لذاتها، بل لأسبابٍ اقتضت ذلك» اهـ.

وقد علمت في مضى: أنَّ مبدأ عبادة الأصنام كان لأجل التعلق بالصالحين؛ ود وسواع... وإلى آخره، وقلنا: إن هؤلاء المشركون اتخذوا الأصنام لأجل أن تكون نائبةً مناب الصالح المعبود وقائمةً مَقامه، يريدون أن يستحضروا هذا الذي يتوجهون إليه بالعبادة، ويريدونه أن يكون مُقرِّبًا وشافعًا لهم عند الله عز

وجل؛ فيصنعون له صنمًا، إما باعتبار أن هذا يُرضيه، أو باعتبار أن روحانيات هذا المعبود تَحُلُّ في هذا الصنم، فبالتالي ترفع الحاجات إلى الله عز وجل، أو لأنهم إذا عكفوا بقلوبهم على هذا الصنم توجهت قلوبهم بالكلية إليه فإنه تفيض عليهم من الخيرات والرحمات التي تنالُ أولئك الصالحين لقُرب أرواحهم من الله عز وجل، كما يحصل ممن يقرُب من أعوان الملِك يناله حظٌ ونصيب مما ينال هؤلاء المقربين من الخيرات التي يتفضل بها على أعوانِه.

فنقول: عبادة الأصنام إنما أُريد بها التوجه إلى من صُنعت له؛ ولذا اتخذوا أصنامًا لأجل الصالحين، اتخذوا أصنامًا لأجل الكواكب؛ للشمس، للقمر، للزهرة، لغير ذلك، وتوجهوا بالعبادة لقصدِها. إذن هذه الأصنام مرادةٌ لغيرها لا لذاتها.

ومما يُقرِبُّ لك فهم هذا المعنى: قول أبي رجاء العُطاردي -وهو أحد التابعين، وأسلم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه ما رآه- يقول: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا أخيرَ منه ألقينا ذاك وعبدنا هذا»؛ هذا يدلك على أن الأحجار لو كانت مقصودةً لذاتها -ربما يكون هذا في بعض الأحجار دون بعض- لكن المقصود: أن هذا المعنى كان حاضرًا في أذهانهم، نفس الحجر لذاته غير مقصود، وإلا ما ألقوه، إنما هو يقوم مقام المعبود المقصود أصالةً، فتنبه إلى هذه المسألة.

والمقصود: أن الأمر إذا كان كذلك؛ فإن قضية الشرك عادت الآن إلى التعلق بما صُنعت الأصنام له، لا لذاتها، رجعت إلى ما تقصدونه أنتم؛ وهو:

التوجه إلى الأولياء والأنبياء الذين لهم قبور ومشاهد وغُرف مبنية تتوجهون إليها وقِباب وإلى غير ذلك، الذي افترق هو الشكل فقط، كان الشكل صنمًا أو صخرةً أو شجرةً، وأصبحت الآن قبرًا، الفرق في الشكل فقط.

۞ **الجواب الثالث**: أن يقال: إن الأدلة جاءت مُطلقةً في الأمر بعبادة الله عز وجل، ولم تُقيَّد بشيء، ولم يُستثنَ منها شيء، كما جاءت الأدلة بالنهي العام الذي لم يُخصّ ولم يستثنَ منه شيء في النهي عن عبادة غير الله عز وجل، تجدُّ أنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦]، كلمة (شيئًا) هنا: نكرةٌ في سياق النهي، فتفيد العموم.

ويقول جل وعلا: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، وكلمة (أحدًا): تشمل الولي ، وتشمل النبي، وتشمل الصنم، وتشمل الكوكب، تشمل الشيطان، وتشملُ كل شيء، جاء النهي هاهنا عاما ؛ لأنَّها نكرةٌ في سياق النهي.

تجدُ أن الله تعالى يقول: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢]، بأي شيء اتخذتم نِدًا مع الله سبحانه وتعالى فأعطيتموه حق الله؟ اتخذتم أندادًا، وهذا النهي جاء عامًا، فلم يُستثنَ ندٌ عن ند.

إذن هذه أدلةٌ تدلك على أنَّ النهي عامٌ عن عبادة كل شيء، حتى ولو جاء في بعض الأدلة النهي عن عبادة الأصنام فأنت خبيرٌ بأنَّ ذِكر بعضِ أفراد العام لا يُفيد التخصيص، وهذا أمرٌ واضحٌ في أصول الفقه، كونه يأتي دليلٌ عام ويُذكر فردٌ بعد ذلك من أفراد هذا العام؛ هذا لا يُفيد التخصيص.

إذن الخلاصة: أن من قدَر الله حق قدرِه، وعظَّمه حق تعظيمه؛ عَلِمَ أن العبادة حقُّه سبحانه وتعالى، قال صلى الله عليه وسلم: «وحقُّ العباد على الله أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا»، حقٌّ أحقه الله لنفسه على عباده . إذن إذا كان ذلك كذلك، واستحضرتَ عظمةَ الله سبحانه وتعالى، فحينها يزولُ من قلبك أيُّ تعظيم، ويُصبحُ -في هذا المقام- لا فرق بين صالحٍ وطالح، أو وليٍ أو حجر، فإن كل ما سوى الله يتلاشى عند تجريد توحيده، هذه كلمة حسنة ذكرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في «رده على البكري»؛ «كل ما سوى الله يتلاشى عند تجريد توحيده»، المقام الآن مقام بيان حق الله ومقام توحيده، إذا كان ذلك كذلك؛ فأيُّ التفاتٍ بعد ذلك إلى قدر هذا المعبود ولو كان له المنزلة والمكانة! لكنه في هذا المقام لا فرق بين معبودٍ ومعبود. والله أعلم.

نعود إلى ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (**فجاوبه بما تقدم، فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله، وأنهم ما أرادوا مما قصدوا إلا القُرب والشفاعة، ولكن أراد أن يُفرق بين فِعلهم وفعله بما ذكر، فاذكُرْ له أن الكفار منهم من يدعو الصالحين والأصنام**)؛ هذا بيان للجواب: وهو أنه قد بُعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى قومٍ متفرقين في المعبودات فلم يُفرِّق بينهم في الحكم.

(**منهم من يدعو الصالحين والأصنام**) ؛ الأصنام معروفة، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم:١٩-٢٠]، فاللات: كانت صخرة عُبدت؛ لأنَّها: إمَّا أنَّها بجوار قبر الرجل الذي كان يلُتُّ السويق، أو لأنه كان

يجلس عليها، وإلا فكان التعلق أولًا بقبره.

والعُزَّى: شجرات -كما علمنا- ولها بيت.

ومَناة: صخرة، أو صنم، على خلافٍ بين أهل العلم.

وقيل : بعض أهل العلم رأى أن هذه الآية ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ يُراد بها: ليس الأصنام، وإنما ملائكة زعموا أنها بناتٌ لله سبحانه وتعالى فعبدوهم، ومال إلى هذا الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في «شرحه على كتاب التوحيد»، لأن السياق يُشعر به: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى﴾ [النجم:٢١].

ولكن على كل حال: أثرُ ابن عباس -فيما يبدو والله تعالى أعلم- قاطعٌ في المسألة، وهو أنَّه الرجل الذي كان يلُت السويق، والعلم عند الله عز وجل.

قوله: (ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧])؛ الصحابة رضي الله عنهم وكذلك التابعون من بعدهم وتابعو التابعين فسروا هذه الآية بمن يعبد عيسى، أو عُزيرًا، أو الملائكة، أو جنًا أسلموا، والأقرب -والله أعلم- العموم ، كما بيَّن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأن السلف كانوا يفسرون بذكر مثالٍ من الأمثلة، وإلا فالآية عامة تشمل من يدعوا نبيًا أو ويدعو وليًا، كالجن الذين أسلموا.

ويدل على هذا من سياق الآية قوله تعالى: (﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾) هذه لا يُمكن أن تُقال في حق الأصنام، هذا الوصف لا يُقال في حق الأصنام، فدل هذا على أن المقصود بهذا غيرُهم؛ الأنبياء، والملائكة،

والجن، وغير ذلك.

وقوله: (ويدعون عيسى ابن مريم وأمه، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:٧٥]) ؛ وأيضًا الآية التي بعد هذه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة:١١٦]، هذه أيضا في عبادة عيسى عليه الصلاة والسلام.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (واذكر له قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤٠-٤١]) ؛ هذه الآية فيها إثبات أنَّ من المشركين من كان يعبد الملائكة. وأما قوله تعالى هنا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ المراد بذلك: أنَّهم أطاعوا الجن الذين زيَّنوا لهم عبادة الملائكة، فكانوا في الحقيقةِ عابدين لهؤلاء الجن المُزينين لعبادةِ الملائكة.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة:١١٦])، وغير ذلك من الأدلة ، منها قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠-٢١] ؛ هذه الآية ليست في الأصنام قطعًا، هذه الآية في الأولياء، في الصالحين، بدليل أنه قال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾؛ وأنت خبيرٌ بأن هذا الاسم الموصول (الذين) إنما هو يُستعمل في حق جمع المُذكر العاقل، والأصنام ليست كذلك، وأيضًا هذه الآية

في من يُبعث، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: لا يدرون ولا يعرفون ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، إذن هم يُبعثون، لكن لا يشعرون أيّان يُبعثون، وما البعث؟ إحياء الله الموتى، وهل الأصنام يُقال في حقهم يُبعثون؟ موتى ويُحييهم الله عز وجل؟! إذن هذه في البشر، في الناس، في الصالحين، وليست في الأصنام. إذن لم يكن شرك المشركين الأولين محصورًا في عبادة الأصنام.

وكذلك كانوا يعبدون غير ذلك؛ كانوا يعبدون الشمس، والقمر، والكواكب: ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت:٣٧]، ﴿وَأَنَّه هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ [النجم:٤٩] ؛ الشِعرى: كوكب كان بعض العرب يعبده. إذن ما كانوا يحصرون عبادتهم في الأصنام، بل كانوا يعبدون غيرها مما ذُكر.

قوله: (**فقل له: هل عرفتَ أن الله كفَّر من قصدَ الأصنام، وكفَّر أيضًا من قصد الصالحين، وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم**) .

أسأل الله عز وجل لي ولكم العافية والسلامة من هذه الأهواء.

والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

فإنْ قال: الكفار يُريدون منهم، وأنا أشهدُ أن الله هو النافع الضار، المُدبر لجميع الأمور، لا أُريد إلا منه، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء، ولكنْ أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم؟

فالجواب: أن هذا قول الكفار سواءً بسواء.

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ اللهُ إلى الجواب عن الشبهة الثالثة ؛ ومضمون هذه الشبهة: أنَّ التوجه بالعبادةِ لغير الله قصدًا للشفاعة ليس بشرك؛ هذا هو مضمون هذه الشبهة.

وأنتَ إذا تأملتَها؛ وجدتَ أنَّها قريبةٌ من الشُّبهة الأولى، بين هذه وتلك شبهٌ ظاهر، فقد يكون -والعلم عند الله عز وجل- أنَّ المؤلف رحمه الله كررها ولاحَظ اختلاف التعبير، فإنَّ المشركين قد يُعبِّرون بما عُبِّر به سابقًا، وقد يُعبِّرون بألفاظٍ أخرى؛ كالتي بين أيدينا.

وقد يُقال: إن بين الشبهتين فرقًا.

فالشبهة الأولى: مضمونها انتفاءُ الشرك، مع الإقرارِ بتوحيد الربوبية، أو كما عبَّرنا: الرد على من زعم أنَّ الشرك محصورٌ في الربوبية ، وجرى ذِكرُ الشفاعة وطلب القُربى تبعًا لهذا المقصود، وإلا فالأصل أو المقصود من هذه الشبهة هو الأمر الأول.

أمَّا في الشبهة التي بين أيدينا؛ فالموضوع يتعلَّق بالردِّ على من زعم أن

الدعاء والعبادةَ، التوجه بذلك لغير الله سبحانه وتعالى؛ إذا كان بقصد الشفاعة فإنه ليس بشرك.

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على لسان هذا المُشرك ، وأسلوب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التأليف لهذه الرسالة أسلوبٌ حسن، فإنه جعل الكتاب على طريقة المحاورة، ليكون هذا أقربَ للتفهيم، فإن قال: (فقُل)، فإن قال: (فيُقال).

ذكر أن المُشرك ربما يقول: (**الكفار يُريدون منهم، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار، المُدبر لجميع الأمور، لا أُريد إلا منه، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء، لكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم**)؛ هذا هو الذي مر بنا سابقًا، وعرفنا أنَّ المشركين الأولين ما أرادوا إلا إياه، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، هذه مقالة المشركين الأولين، وسُقنا -إن كنتم تذكرون- جملةً من الأدلة التي تدل على أن هذا كان معتقد القوم.

ولاحظ معي أنَّ قصدَ الشفاعة من الأولياء والأموات الذين يدعونهم من دون الله سبحانه وتعالى، وأنَّهم يسألونهم لأجل أن يكونوا وسيلةً وواسطة إلى الله عز وجل؛ فيرفعون إليه الطلبات، ويكونون شفعاء عند الله لهذا الداعي والسائل؛ أنَّ هذا في أصلِهِ زعمٌ غيرُ صحيح، وبالتالي فهي دعوى كاسدة، والعمل بها لا شك أنَّها سعيٌ فاسد، وسعيٌ باطل، **ويتبين هذا بأربعة أمور**:

❁ **الأمر الأول**: أنَّ الأموات في غفلةٍ عمن يدعوهم ويسألهم الشفاعة، فلا يعلمون حالهم، فكيف يكونون شفعاء لهم؟ قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ

يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦].

❁ **الأمر الثاني**: أنَّ هؤلاء الأموات لا يتصرفون تصرُّف الشفعاء؛ كون هؤلاء يزعمون أنهم شفعاء عند الله سبحانه وتعالى، فيشفعون وهم أموات عند الله جل وعلا، هذا ليس بصحيح، بل هذا سؤالٌ لشيءٍ لا يملكونه، فالشفاعةُ غير حاصلةٌ منهم أصلًا، والنبي ﷺ قد بيّن بكلامٍ مُحكم أنَّ الإنسان بموته ينقطع عملُهُ وتنقطع تصرُّفاته، «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ»، وهذا بكل تأكيد ليس من هذه الثلاثة أمور التي بيّنها النبي ﷺ.

إذن الأموات لا يتصرفون تصرُّف الشفعاء، والله سبحانه وتعالى قد بيّن بُطلان هذا الظن فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٣-٤٤]؛ فدل هذا على أنَّ سؤالهم سؤالٌ لشيءٍ لا يقع منهم، بل لا يملكونه، وبالتالي كان سؤالًا باطلًا. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ [الزخرف:٨٦]، فأنت تسأل الميت شيئًا لا يملكه ولا يقع منه أصلًا.

❁ **الأمر الثالث**: أنَّ الموتى لا يسمعون الأحياء أصلًا؛ باستثناء المواضع المعدودة التي جاء الدليل عليها، ككونهم يسمعون قرع نعال المشيِّعين لهم، وما عدا ذلك فالأصلُ هو قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل:٨٠]، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢]، وهذا الذي فهمه أصحاب النبي ﷺ ورضي الله تعالى عنهم في شأن سماع الموتى؛ هذا الذي

فهمه عمر رضي الله عنه، وهذا الذي فهمته عائشة رضي الله عنها كما جاء في صحيح البخاري وغيره. إذن الموتى لا يسمعون، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، إذن ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ انتهى الأمر، وبالتالي صار طلب الشفاعة منهم وسؤالهم ودعاؤهم وهم في قبورهم؛ عملًا باطلًا لا يصح بحال.

۞ **الأمر الرابع**: أنَّ الشرع لم يدل قط على أنَّ الموتى يشفعون لمن استغاث بهم، هذه مجرد دعوى يدَّعونها، وما أتوا عليها بدليل، كون الميت إذا دُعي وطُلبت منه الشفاعة فإنه يُجيب السائل إلى سؤله فيشفع عند الله سبحانه وتعالى هذا شيءٌ عارٍ عن الدليل، وما هي إلا دعوى يدَّعونها. ولاحظ أنهم يتكلمون في شأن الحياة البرزخية، وهذه لا يُقال فيها بما يُقال في الحياة الدنيا، هم يتكلمون في حياةٍ أخرى، ما وصلوها ولا بلغوها، ولا جاءتهم آثارةٍ من علم في هذا الشأن فيها، وبالتالي فإنهم يتكلمون بغير علم، وهذا حال جميع أصناف المشركين؛ أنهم يتكلمون بلا دليل ولا برهان، ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣٥]، هذا استفهام إنكار كما بيَّن أهل التفسير ، الله ما أنزلَ على هؤلاء المشركين سُلطانًا -يعني حُجةً وبرهانًا- تدلُّ على هذه الدعاوى الشركية التي يدّعونها، فما ثَم إلا التخرُّص والظنّ واتباع الهوى.

إذن دعوى التوسط ودعوى الشفاعة ودعوى التقريب التي يدَّعيها هؤلاء

المشركون، لا شك أنَّها دعوةٌ فاسدةٌ في أصلها، وهذه لا تنفعهم ، ولا تدفع عنهم وصف الشرك.

نعود إلى ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقالة هؤلاء القوم أو في حكاية قولهم؛ قال: (الكفار يُريدون منهم)، أقول: الصواب -يا هذا- أن الكفار يُريدون منهم ما تُريدون أنتم من أوليائكم، هذه هي الحقيقة، إذا قال المُشرك: الكُفار يُريدون منهم، فإننا نقول: نعم، هم يريدون منهم الشيء الذي تُريدونه أنتم من أوليائكم ومعبوديكم سواءً بسواء.

قال: (وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار المُدبر لجميع الأمور)؛ ونحن نقول: وهذا ما قد قالوه قبلكم فلم ينفعهم؛ قالوا هذه المقالة فحُكم عليهم بالكفر، واستُحلَّت دماءهم وأموالهم، وما نفعتهم هذه الدعاوى بشيء.

قال: (لا أُريد إلا منه)؛ يعني لا أُريد إلا من الله، وهذه جملة تُناقض الذي جاء بعدها، عجيب! كيف تقول يا هذا (لا أُريد إلا منه) ، ثم تقول: (لكن أقصدهم)؟! لو كنتَ لا تُريدُ إلا من الله سبحانه وتعالى لقصدته، لأسلمتَ له وجهك وجوارحك، ألا ترى أن الله يكفيك، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[الزمر:٣٦]، إذن ما حاجتك أن تذهب إلى غيره فتسأله؟ وهل هذا إلا دليل على أنك كاذبٌ في قولك إنك لا تُريد إلا من الله؟ لا والله كذبت، لو كنت لا تُريد إلا من الله لتوجهت إليه وحده. ما الذي يمنعُك من ذلك؟ والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ [البقرة:١٨٦]، ماذا تجدون في كتاب الله بأيِّ قراءةٍ من القراءات؟ (وإذا سألك عبادي عني فقُل لهم ابحثوا عن شفيع يشفع

عندي ويرفع إليَّ حاجاتكم)؛ أتجدون هذا في كتاب الله؟ أو ماذا تجدون؟ تجدون: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

أوجدتم في سنة رسول الله ﷺ ما تدَّعون؟ أوجدتم النبي ﷺ يقول: (إذا سألت فاذهب إلى الميت في قبره وسلْه على سبيل التسبُّب ليرفع الأمر إلى الله فيحصل إيجاده من الله)؟!، أهذا قاله رسول الله ﷺ؟ لا وربِّ السماء، نجد النبي ﷺ يقول: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ»، نجد الرسول ﷺ يقول: «مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»؛ هذا الذي نجده في سنة رسول الله ﷺ، وهذا الذي نجده في كتاب الله، وهذا الذي نرى عليه حالكم يا أيها المشركون، وأنكم تقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم، وما تُكذِّبه أعمالكم.

قال: (**وأنا أشهدُ أن الله هو النافع، الضار، المُدبر لجميع الأمور، لا أُريد إلا منه، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء**)؛ نقول: وهذا -يا هذا- هو الذي كان يعتقده المشركون الأولون: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ماذا سيقولون؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون:٨٤] ، فكل هذا الكون وما فيه، التصرف فيه لله، ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ [يونس:٣١]، مقالة المشركين سواءً بسواء، هل نفعتهم؟ ما نفعتهم.

قال: (**ولكنْ أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم**)؛ هي نفس المقالة، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ﴾ في نصوص كثيرة ، ما خرجت المقالة عن المقالة، ما قاله المتأخرون من المشركين هو ما قاله المتقدمون سواءً بسواء.

إذن دعواكم أنَّ من توجه بالعبادة لغير الله زاعمًا أنه إنما يقصد الشفاعة، زاعمًا أنه يدعو هذا الولي من دون الله سبحانه وتعالى، وهذا الشفيع من دون الله ، ليكون منه التسبب وأمَّا الإيجاد فمن الله، نقول: هذه هي دعوى المشركين الأولين، الاختلاف فقط في التعبير لا أقل ولا أكثر.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فالجواب: أن هذا قول الكفار سابقًا سواءً بسواء**)، تماما،هذه كلمةُ حق.

الفرق كما ذكرتُ لك في التعبير، أولئك يقولون: هذا يُقرب إلى الله زُلفى، هذه شفاعة، والمتأخرون يقولون: هذا تسبُّب، هذا توسُّل، هذا توسُّط، هذا طلب شفاعة فقط، هذا هو الفرق بين المقالتين.

قال المصنف رحمه الله:

فاقرأ عليه قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨].

قال الشارح وفقه الله:

يقول: (**فاقرأ عليه قولهم**) يعني [قول] المشركين الذي بيَّنه الله سبحانه وتعالى في كتابه: (﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾)، ولاحظ هاهنا الحصر، فإن فيه دلالةً مهمة، فـ(النفي) و(إلا) ؛ هذان يدلان على الحصر والقصرِ، كأن القوم يقولون: ما نعبدهم لشيءٍ البتة إلا لهذا الشيء؛ ما نعبدهم لشيء البتة إلا لأجل أن يقربونا إلى الله عز وجل زُلفى.

والسؤال: لو كانوا يعتقدون في آلهتهم شيئًا أعلى من ذلك- الآن التدبير والاستقلال بالتأثير، هذا الذي يزعمه المشركون اليوم وقريبًا أنَّ الأولين كانوا عليه، يقولون: لا، هم كانوا يعتقدون أن آلهتهم تستقل بالتدبير والتأثير- أيُّهما أعلى: الاستقلال بالتأثير والتدبير، أم مُجرد شفاعة؟ لا شك أنه الاستقلال بالتأثير والتدبير.

سؤال ثانٍ: أكان القومُ يُحبون هذه الآلهة؟ كانوا يُعظمونها؟ كانوا يُريدون رفعتها وعلوِّها؟ الجواب: بالتأكيد، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، أبو سفيان رضي الله عنه يوم أُحد ماذا قال؟ وكان إذ ذاك على الشرك: «اعلُ هُبل»، هو يُريد العلو والرفعة لهذه الآلهة.

لو كانوا يعتقدون شيئًا أكثر من هذا وأرفع في آلهتهم لقالوه، أليس كذلك؟

لكن القوم ما زادوا على أن قالوا: هم مُجرد مُقربين إلى الله عز وجل، يشفعون الحوائج إلى الله، لأجل أن يتفضل الله عز وجل علينا فيرحمنا، لِمَا لهم من جاه ومكانةٍ عند الله لا أقل ولا أكثر، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣].

إذن هذا الذي قالوه؛ هو نفس الذي قاله المشركون المتأخرون الذين يزعمون أنهم مسلمون، وهم محادُّون لله ولرسول الله ﷺ، ومُضادون لدين الإسلام، وناقضون مرتكبون لناقضِ شهادة أن لا إله إلا الله؛ فهم واقعون في الشرك الذي وقع فيه المتقدمون، بل والله إنهم أشدُّ شركًا في الجملة -كما سيأتي-.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨])، المقالةُ نفسها.

قال المصنف رحمه الله:

واعلَمْ أنَّ هذه الشُّبه الثلاث هي أكبر ما عندهم؛ فإذا عرفت أن الله وضحها في كتابه، وفهمتها فهمًا جيدًا، فما بعدها أيسرُ منها.

قال الشارح وفقه الله:

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه الشُّبه الثلاثة الأولى والثانية والثالثة، هذه أكبر ما عندهم وأكثر ما يذكرونه، وهو منتشر حتى على ألسنة العوام منهم، ناهيك عن شيوخ الضلالة منهم، ولكن إذا ضبطت هذه المسألة واستحضرت المحكمات والأصول بأدلتها مما ذُكر لك سابقًا، فإن ما بعدها أيسرُ منها، وكثيرٌ مما سيأتي سوفَ يُحتاج فيه إلى ما سبق، فضبط هذه الشبه الثلاث -أعني من جهة الجواب والتفنيد- هذا من الأمر المهم لك يا طالب العلم.

خلاصة هذا الوجه الذي ذكره، وهو الذي نُريد أن نستخلصه من كل ما سبق:

❁ أولًا: أنَّ الذريعة المذكورةَ من هؤلاء المشركين المتأخرين؛ هي الذريعةُ المذكورةُ من أهل الجاهلية سواءً بسواء، الحجة هي الحجة، ما زادت ولا نقصت، وكل ما يُدَّعى بخلاف هذا كذبٌ مخالفٌ للواقع، وكتاب الله عز وجل يُكذِّبُ ما يذكرون.

❁ الأمر الثاني: أنَّ المشركين لم يعتقدوا في آلهتهم الاستقلال بالتأثير والتدبير كما يزعمه هؤلاء المتأخرون، بل هذا كذبٌ صريح ، ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ

فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٨-٨٩].

❁ الأمر الثالث: أنَّ عبادة غير الله مع الله مع عدمِ اعتقاد الاستقلال بالتأثير لا تُبرئ من الشرك، وهذا من مواطن المفاصلة بيننا وبين المشركين، فإنَّهم يزعمون أنَّ من اعتقد أن من يدعوه لا يستقل بالتأثير والتدبير فإن هذا يُبرئه من الشرك، ونحن نقول: كلا، فاعتقدتَ التأثير، أو لم تعتقد التأثير سيَّان إذا توجهت بالعبادةِ لغير الله، وإن كان بعض الشرك أغلظُ من بعض -نحن لا نُنكر هذا- لكنَّ وصف الشرك لازمٌ لكل من توجه بالعبادة لغير الله، مهما اعتقد في معبوده أنه مستقل بالتأثير دون الله أو أنه لا يؤثر إنما هو سبب، والذي يستقل بالتأثير هو الله، نقول: لا فرق بين هذه وهذه في الحُكم بالشرك والكفر.

❁ الأمر الرابع: أنَّ الموتى ليسوا أسبابًا في قضاء الحوائج ، وهذا ما سبق التنبيه عليه قريبًا.

❁ الأمر الخامس: إجماعُ الصحابة رضي الله تعالى عنهم على بطلان هذا المسلك؛ وهو: الزعم بأنَّ هؤلاء الموتى يُطلب منهم على سبيل التسبب، مع اعتقاد أنَّ الإيجادَ والخلقَ والرَّزقَ من الله؛ نقول: هذا المسلك مسلكٌ باطل بإجماع الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم رضي الله عنهم كانوا أبعد الناس عنه، مهما صعُبت الأمور، في أحلك الأحوال ما كان منهم أحد قط يتوجه إلى ما يتوجه إليه هؤلاء المدعوّون، فهذا دليل على أن هؤلاء -إن كانوا يعقلون- يسلكون طريقًا خاطئًا.

أرأيتم لمَّا أصاب المدينةَ القحطُ -والقصة في «صحيح البخاري»- ماذا

قال عمر رضي الله عنه؟ «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا ، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا »، والتوسل بعم نبيه ﷺ أراد به توسله بالدعاء، وليس التوسل بالجاه؛ فلو أراد التوسل بالجاه لتوجه إلى النبي ﷺ.

المقصود: أين عمر وأين إخوانه من الصحابة رضي الله عنهم من التوسل وطلب الشفاعة من النبي ﷺ ليشفعوا لهم عند الله في إنزال المطر، على قصد التسبب فقط؟ لماذا عدل عمر رضي الله عنه والصحابة معه عن هذا ورسول الله ﷺ مدفونٌ بين ظهرانيهم؟ ألا يدل هذا على أن هذا طريقٌ مسدود؟ طريقٌ خاطئ، هم يسلكون طريقًا خاطئًا، طلبُ الحاجات لا يكون بسؤال الأموات، لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل التسبب؛ كلُّ ذلك باطلٌ من القول.

❁ **الأمر السادس:** دعوى المشرك التي سمعتها؛ أنَّه يقول: "لا أُريد إلا منه، لكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم" ، نقول: لو كانوا ما قصدوا إلا هذا لكان هذا كافيًا في الحُكم عليهم بالشرك ، أفعالهم أفعالٌ شركية، لكننا نقول: إنَّ واقع المشركين المتأخرين في زمن المؤلف وما قبله وما بعده إلى اليوم، يدل على أنَّ الأمر أشنعُ من هذا وأسوأ بكثير، ما عاد الأمر على هذه الدعوى، وهذا المُشرك الذي يتفوَّه بهذا الكلام؛ يتفوه بشيء خلاف الواقع.

يعني: أنتم ما تعتقدون إلا أن هؤلاء مُجرد شفعاء يرفعون الحاجات! وإلا فالله عندكم هو النافع الضار المُعطي المانع فقط؟ هذا كذب مخالف للواقع، وارجع إلى تقريرات الذين يُقررون مثل هذا الكلام في كتبهم، كيف تجد أن الأمر على خلاف ذلك.

النبهاني الذي ألف الكتاب القبيح: «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق» ﷺ، كتاب حشد فيه من الشُّبه الشيء الكثير، يُقرر مثل هذا الكلام، المسألة مسألة تسبب، والمسألة مسألة توسط، وإلا فنحن نعتقد أن الله هو الذي بيده الأمر كله، وأن هؤلاء الموتى من الأنبياء والأولياء لا يملكون شيئًا البتة ، لكن ارجع إلى كتابه: «جامع كرامات الأولياء» ماذا تجد؟ تجد الشرك الذي والله يتقاصر عنده شرك أبي جهل وأبي لهب، بل والله لا مقارنة.

وقبله تجد عند الشعراني، وفي أثناء ذلك وبعده وإلى اليوم؛ أشياء والله ما أدري ماذا أقول، هي مُضحكة وهي مُبكية وهي مؤسفة في نفس الوقت، لمَّا تجد أنهم يقولون: "لا يُدقُّ وتَدٌ في القاهرة إلا بإذن السيد أحمد البدوي"، هؤلاء ما أرادوا إلا الشفاعة؟!!

لمَّا يحكي الشعراني عما يُسمى بشمس الدين -وهو عدو الدين- الحنفي، أنه يقول لما مرض في آخر حياته قال: "إذا أصابتكم مُلمةٌ من الملمات، فتعالوا إلى قبري فاسألوني، فإنَّه ليس بيني وبينكم إلا ذراعٌ من تُراب، ومن كان يحجبه عن أصحابه وإخوانه ذراعٌ من تُراب فليس برجل" . ويحكي عنه -هذا النبهاني يحكي عنه- يقول: إنه كان في كل يوم يحتاجون هو وتلاميذه أن يقطعوا النيل من طرفه إلى طرفه، فكانوا يمشون على الماء، لكن كان يُنبههم قال: وأنتم تمشون قولوا: "يا حنفي.. يا حنفي.. يا حنفي" ، فأحدُّ التلاميذ قال: يا الله مرة من المرات؛ وإذا به يغرَق، يقول: "فأنقذه الشيخ، وأنَّبه على أنه قال: يا الله، كيف تقول: يا الله؟!" إي والله! لولا أني أقرأ هذا الشيء في كتبهم والله ما ذكرته،

بل والله هذا لا شيء أمام أشياء أشنع وأشنع!!

الشعراني يحكي عن إبراهيم الخوَّاص -أحد أوليائهم- يقول: إبريقه يقضي الحاجات ، إبريقه -الذي يتوضأ به و.. - يقضي الحاجات، فكيف به هو؟!

يحكي عنه: أنه مرةً كان يتوضأ ويصب عليه خادمه الماء، يقول: وإذا به ينزِع إحدى نعليه، ويرمي بها، يقول: العجيب ما كان هناك نافذة في المكان الذي كانوا فيه، ومع ذلك فذهبت حتى وصلت الشام، وهو في مصر!! فضربت رجلًا فصرعته، وكان جاثمًا على صدر رجلٍ ومعه سكين يُريد أن يذبحه، فصاح يا سيدي إبراهيم الخوَّاص، يقول: وقال لخادمه: احتفظ بالنعلة الثانية فإنها ستأتيك، يقول: بعد مدة جاء الرجل بالنعل!

أهذا الذي تقرؤونه وتطربون له، وربما كبَّرتم: الله أكبر، انظر الوَلاية، وانظر الكرامة، أهذا مجرد فقط مجرد طلب شفاعة؟ مُجرد طلب تسبب وتوسُّط عند الله عز وجل؟! بل والله إنهم فاقوا عليهم ولا شك؛ من جهة سوء الظن بالله، ومن جهة التوجه أثناء المهمات والمُلمات لغير الله، أشد ما يكونون شركًا في وقت المهمات والملمات، بخلاف حال المشركين الأولين، ينسون آلهتهم ولا يدعون إلا الله كما مر بنا غير مرة، أما هم لا والله!

ذكر محمد رشيد رضا في «تفسيره» قصة وهي: أنَّ قومًا كانوا في البحر، فهاج بهم البحرُ حتى كادت السفينة أن تغرَق، فصار كل واحدٍ يدعو معبوده، هذا يقول: "يا سيدي البدوي"، وهذا يقول: "يا سيدي الرفاعي" وهذا يقول: "يا

سيدي الدسوقي" ؛ كل واحد يدعو واحدًا، فقال عندها أحد الموحدين وكان معهم: يا رب أغرق، يا رب أغرق، فما عاد أحدٌ يعرفُك.

كانوا يُحسنون الظن بالله؟! قلوبهم لا تعرف إلا الله؟! لا والله، والله إنهم كذبة، يُحسنون الظن بآلهتهم أكثر مما يُحسنونه بالله، وينتظرون كشف الكروب، وإزالة الغموم من آلهتهم أكثر مما ينتظرونه من الله.

محمد رشيد رضا أيضا في «تفسيره» ذكر: أنه سمع امرأةً أصابها هلعٌ شديد فكانت تصيح: "يا متبولي.. يا متبولي.. يا متبولي" ، يقول: فتركتها حتى سكنتْ، ثم قلت لها: لماذا لا تدعين الله، وتدعين المتبولي؟ قالت: (المتبولي ما يستناش) يعني: ما ينتظر، ولا يُهمِل، يُجيب مباشرة.

والنُّعْمي في «معارج الألباب» -وهذا كتابٌ عظيم في تقرير التوحيد- ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ امرأة كُفَّ بصرُها؛ فأتت إلى أحد الأولياء عند قبره فقالت له: "أما الله ففعل ما ترى، وما بقي إلا حسَبُك" ؛ هذا الذي ظنوه بالله.

إذن الأمر والله -يا إخوتاه- أشد وأشنع، فاحمدوا الله على نعمة التوحيد ، هذا التوحيد الذي تعتقده، والذي ينشرح صدرُك لأدلته وآياته، والله إنَّه تشمئز منه ومن الحديث فيه قلوب هؤلاء المشركين.

ذكر الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «منهاج التأسيس»: أن جماعةً من الموحدين كانوا في مصر- والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جلس في مصر مدة- يقول: اجتمعوا في بيت فدعا رجلًا يُنسب إلى العلم يسكن قريبًا منه فسأله: كم عدد الذين يُدبرون هذا الكون؟ فقال له: سبعة، وعدَّ له أربعة يسكنون مصرًا -

يعني من أصحاب القبور في مصر- ، يقول: فقال صاحب البيت لإخوانه: "إنما دعوته لأجل أن تحمدوا الله على النعمة التي أنتم فيها" .

فاحمدوا الله على نعمة التوحيد، وسلوه الثبات، ونعوذ به سبحانه من الحَوْر بعد الكَوْر.

والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

فإن قال: أنا لا أعبُدُ إلا الله، وهذا الالتجاءُ إليهم، ودعاؤهم ليس بعبادةٍ.

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الشبهة الرابعة وكشفها.

مضمون هذه الشُّبهة: الدعاءُ ليس عبادة.

وقبلَ أن نبدأ في شرح ما كتب المؤلف -جزاه الله عنَّا خيرًا- **أُحبُّ أن أُقدِّمَ بمقدمتين تتعلقان بشبهتين يُلبِسُ بهما القبوريون في هذا المقام:**

الشُّبْهَةُ الأولى: شبهةٌ عامةٌ تتعلقُ بالعبادةِ عمومًا.

والشُّبْهَةُ الثانية: شبهةٌ خاصةٌ تتعلقُ بالدعاءِ خاصةً.

وهاتان الشُّبْهَتَان من الركائز التي يعتمد عليها القبوريون في إضلال النَّاس، فلابدَّ من أن تضبطها -أعني تفهمها وأن تضبطَ الرد عليها- جيدًا يا طالب العلم.

الشُّبهة الأولى: تتعلق بمعنى: العبادة؛ يقول القوم: "إنَّ العبادةَ هي التوجه بالطاعة مع اعتقاد استقلال التأثير والتدبير في المتوجَّه له". بعبارةٌ أخرى: العبادةُ -هكذا يقولون- هي: الخضوعُ مع اعتقادِ الربوبية ؛ وعليه: فمن توجَّه بعبادةٍ لغير الله عَزَّوَجَلَّ وهو لا يعتقدُ الربوبية- لا يعتقد الاستقلال بالتأثيرِ والتدبير دون الله عَزَّوَجَلَّ- فإنَّ هذا لا يكون شركًا أكبر؛ قد يكون معصية، قد يكون أمرًا جائزًا، أمَّا أن يكون شركًا مُخرجًا من الإسلام فإنَّه لا يكون، عبادة مجردة -طاعة مُجردة- عن هذا الاعتقاد هذا لا يكون شركًا، متى يكون شركًا؟ إذا اجتمع

الأمران.

وقبل أن أُجيب على هذه الشبهة أقول: من نظرَ في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، واستقرأ آياته وتأمل في دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ورأس أولئك الأنبياء الكرام: نبينا محمدٌ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يجدُ أنهم عليهم الصلاة والسلام يُطلقون الأمر بعبادة الله دون مزيد شرحٍ وتفصيلٍ لمعنى العبادة؛ إلى أي شيءٌ يُشير هذا؟ -تجد: (اعبدوا الله، اعبدوا الله، اعبدوا الله)- يشير إلى أنَّ معناها في غاية الوضوح، لا يستعصي فهمُها عند الناس، العبادةُ معروفة.

وبالتالي: هل هذا القيد الذي ذكروه قيدٌ صحيح؟ الجواب: الأمر ليس كذلك، هذا الذي ذكروا غير صحيح، العبادةُ عند السلف الصالح -وهذا الذي تدلُّ عليه موارد هذه الكلمة في الكتاب والسنة- أنَّ العبادة إذا أردنا تعريفها بمعنى التعبُّد؛ فإنها تعني: الخضوعَ للمعبود مع الطاعةِ له، وإن شئت فقل: الطاعة بغاية الخضوع.

أما باعتبار المُتعبَّد به: فإنَّ العبادة هي: كلِّ ما أمرَ الله عز وجل به أمرَ إيجابٍ أو استحباب، وإن شئت فقل -وهو لا يخرج عن تعريف شيخ الإسلام المشهور- وهو: «اسمٌ جامعٌ لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة». أو كما نقل ابن مُفلحٍ رحمه الله في كتابه «الفروع»، ونقله عنه كثيرٌ من أهل العلم: «أنَّه ما أُمر به شرعًا من غير اطرادٍ عُرفي ولا اقتضاءٍ عقلي».

وهذه التعريفات تدور في فلكٍ واحد.

إذن هذه هي العبادة، وما المطلوب فيها في النُّصوص؟ المطلوب كما هو

أوضح من نور الشمس أن تكون عبادةً اجتمع فيها شرطُ الإخلاص، لابد فيها من عبادةٍ يُخلِص فيها العبدُ لله، والعبادة إنَّما تُعرف من طريق الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، فهذه هي المتابعة، ولابد أن يكون العبدُ فيها مُخلصًا لله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥]، ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر:١٤]. ولذلك جاء النَّهي عن الشرك في العبادة: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ هذه هي العبادة، ثم قال: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]، والنُّصوص في هذا لا تُحصى كثرةً، ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦] وهلم جرا.

إذن هذه هي العبادة، وهذا الذي أوجبه الله فيها، وهو الذي لا يقبلُ غيرَه؛ أن تكون العبادة مُخْلَصَة، أن يعبد العبدُ المعبود سبحانه مُخلصًا له في عبادته جل وعلا.

بعد هذا نعود إلى ما ذكره القوم؛ لماذا سلكوا هذا المسلك؟ لماذا قيَّدوا العبادة بهذا القيد؟ مهما فعلت من أنواع العبادات وتوجهت وقصدتَ غير الله، فإنَّك لا تكون مُشركًا إلا بهذا القيد؛ أن تعتقد الربوبية فيمن توجهت إليه.

الجواب كما هو واضح -وهذه تكلمنا عنها إن كنتم تذكرون سابقًا- أنَّهم أرادوا أن يتخلصوا من وصمة الشرك، قلوبهم مريضة، استولى عليها الهوى وحُبُّ الشرك، وزاحمت عبادةُ غير الله عبادةَ الله في قلوبهم، فما يُريدون الانفكاك عن ذلك. والنُّصوصُ متواردة متواترة بالأمر بالعبادة، إذن لابد من أن نجد

مَخْلَصًا ومخرجًا من هذا، فنقول: هذا هو القيد، ونحن لا نفعل هذا؛ نحن لا نعبدُ، لا ندعو، لا نذبح، لا نطوف، ونتوجه بهذا لغير الله بقصدِ أنَّ هذا المتوجه له مُنفردٌ بالربوبية؛ كلا، بل أنا أتوجه له والقصدُ أنَّه سبب، والإيجاد والتأثير من الله، هو مُجرد سبب، وهذه المسألة التي تكلمنا عنها في الدرس الماضي.

ما الذي نتج من هذا التوجه؟ نتج عن هذا أربعة أشياء:

❁ **أولًا**: أنَّهم وصفوا العبادة بما ذكرتُ لك؛ فهذا قيدٌ أصيل في معنى العبادة، لا عبادة إلا مع اعتقاد الاستقلال بالتأثير.

❁ **الأمر الثاني**: أنَّه لا يقع الشرك إلا ممن وقعت منه هذه العبادة بهذا القيّد.

❁ **الأمر الثالث**: أنَّهم أنكروا التفريق بين توحيدي الربوبية والألوهية، فقالوا: هما شيءٌ واحد، أو أنَّ توحيد الألوهية داخلٌ في توحيد الربوبية. وهذا التقسيم -الذي يُقسِّمه من يزعمونهم الوهابية- هذا شيءٌ مخترعٌ من عند أنفسهم.

❁ **والنتيجة الرابعة بعد ذلك هي**: أنَّهم زعموا أنَّ هذا الذي وصفوه هو معتقد المشركين الذين جاء تكفيرهم في الكتاب والسنة، فالمشركون ما كفروا لكونهم عبدوا غير الله، وإنَّما لكونهم عبدوا غير الله مع اعتقاد الربوبية في الآلهة التي عبدوها .

وكل ما ذكروا باطل؛ **أمَّا من جهة التعريف**، فهذا الذي ذكروا غيرُ صحيح ولا دليل عليه، بل هو بدعةٌ لُغوية وبدعةٌ شرعية؛ فلا يوجد في لغة العرب أن

العبادة بهذا المعنى، إنَّما العبادة في لغة العرب: الخضوع والذّل؛ بعيرٌ مُعبَّد، طريقٌ مُعبَّد، يعني: مُذلل، قد وطأته الأقدام -بالنسبة للطريق-.

وكذلك في الشرع؛ هذا الذي ذكروا لا دليل عليه البتة، بل كلُّ ما تدل عليه النَّصوص هو: أن من توجَّه بالطاعة التي أمر الله عَزَّوَجَلَّ بها لله فإنَّه يكون عابدًا له، ومن توجه بهذه الطاعة التي أمر الله بها أو رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لغير الله فإنَّه يكون مُشركًا، ولا دليل على ما ذكروا.

وزعْمُهُم أنَّ الشرك إنَّما هو ما وصفوا، بالتالي: فمهما فعل الإنسان فإنَّه لا يكون مُشركًا، مهما دعا، واستغاث، وذبح... إلى آخره، هذا لا يكون شركًا بالله سبحانه وتعالى إذا كان يعتقد أنَّ غير الله سبحانه وتعالى لا يستقل بالتأثير؛ وهذا مخالفٌ لإجماع المسلمين، فالمسلمون مُجمعون على أنَّ من عَبَدَ غير الله مع اعتقاد التأثير أو مع عدم اعتقاد التأثير فإنَّه يكون مُشركًا بالله سبحانه وتعالى.

ونحن نُلزمهم فنقول: ماذا تقولون يا هؤلاء في رجلٍ يَدَّعي الإسلام، ثمَّ لمَّا رأى صنم بُوذا -والبوذيون يصنعون أصنامًا ضخمة تمتد إلى أمتار شاهقة- فركع له، ثم خرَّ ساجدًا وأطال السجود، ثُمَّ رفع رأسه واجتهدْ اجتهادًا عظيمًا في سؤاله ودعائهِ، وهو في أثناء هذا التفت إلينا فقال: انتبهوا أنا لا أعتقد فيه إلا أنه سبب، وإلا فالله مُستقلٌ بالتأثير، أنا مسلم وأعتقد أنَّ الإيجاد وحصول المراد من الله، وهذا مُجرد سبب، ثم رجع وأكمل دعاءه!! نقول لهؤلاء: ماذا تقولون؟ أتقولون إنَّه مسلم؟ أو تقولون إنه كافر؟

إن قالوا: هو مسلم؛ فقد أتوا بما يُعلمُ بالاضطرار من دين الله أنَّه ضلالٌ

مبين، أتظنون مسلمًا مهما بلغ من الجهل والعامية يتردد في أنَّ هذا كفرٌ بُواح؟ شخصٌ يفعل هذا الفعل لبوذا ويقصده بما ذكرتُ لك، لكن قال لنا: يا جماعة ترى أنا أفعل هذا لمجرد التسبب. هذا من المعلوم بالضرورة، ولا أظنُّ أحدًا منهم يجرؤ على أن يتفوه به، فإنَّ القولَ بأنَّ هذا لا يُخرج من دين الله؛ في غاية البشاعة والشناعة.

إذن سيقولون هو: مُشركٌ كافر، فنقول: بأي سببٍ كفر؟ إن قلتم: بمجرد أنَّه عبدَ غير الله؛ فقد انتقض قولكم. وإنْ قلتم بالتأثير؛ الرجل ما اعتقد التأثير، إنَّما توجَّه بالعبادةِ فحسب، فإذا انصعتم للحق وتجردتم وقلتم إنَّه يكفر -ولا أظن عاقلًا يفعل إلا هذا- فإنَّ قولهم سوف ينتقض، وبالتالي الشيء الذي ذكروه لا شك أنَّه باطل.

وأمَّا زعمهم أن هذا هو الذي كان من المشركين، فكفار قريش كفروا لأنهم اعتقدوا في اللات والعزى ومناة أنها تُشارك الله عَزَّوَجَلَّ في الربوبية، وهذه المسألة قد تكلمنا عنها كثيرًا، وبيَّنَّا بطلان هذا الزعم، وأن القوم ما اعتقدوا هذا في آلهتهم، وأشرنا عدة إشارات في هذا الباب، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨].

وسبحان الله! كيف يعتقدون الاستقلال بالتأثير والتدبير وهم يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، كيف يفعلون هذا والأمر عندهم مُتعلقٌ بالله عَزَّوَجَلَّ ومشيئته؟ كيف يعتقدون الاستقلال بالتأثير والتدبير وهم يقولون: «لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما مَلك»؟

هذا لا يتأتى، ولا يُمكن قبول مثل هذا القول. إذن هذا القول باطلٌ لا شك فيه.

وأمَّا زعمهم أنَّه لا فرق بين الربوبية والألوهية؛ فهذا القول ترده صرائح النُّصوص، فالتوحيد ينقسم إلى : توحيد الربوبية، وإلى توحيد الألوهية، وإلى توحيد الأسماء والصفات، والإلزام الذي ألزمناه في المثال السابق يُنتفع به في الردِّ عليهم في هذا الموضع، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١]، لاحظ أنه قال: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾، وعلى قولهم: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * رب النَّاسِ) ، تكرار نفس الكلمة.

ولا شك أن الفرق بين الربوبية والألوهية، وبين الرب والإله؛ ظاهرٌ في النصوص وفي لغة العرب، فإن الإله هو المعبود، والإلهةُ والألوهيةُ هي العبادة:

لله دَرُّ الغانيات المُدَّهِ سبَّحن واسترجعن من تألُّهِ

يعني: تعبُّدي، فالإلهية هي العبادة، والإله: هو المعبود.

أما الرب: فإنه المالك، السيد، المُتصرِّف، المُصلح ، القائم على الشيء، وقد يكون -على قولٍ ستأتي الإشارة إليه- أعم من الإله، فيدخل فيه معنى المعبود أيضًا؛ فهو إما أنه مُخالفٌ لمعنى الإله، أو أنه أعمُّ من معنى الإله، على ما سيأتي بيانُهُ إن شاء الله.

ومن نظر في النصوص وجدَ أن هذا هو المعنى الحق الذي لا شك فيه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:٤٣]، ابن عباس رضي الله عنه يقول في هذه الآية: «كان الرجل في الجاهلية يجد حجرًا

أبيض فيعبده، فإذا وجدَ حجرًا آخر أحسنَ منه ألقاه، وأخذ الآخر فعبده»؛ أترى أنَّ هذا المُشرك الذي التقط الحجر ثم رماه كان يعتقد فيه الاستقلال بالتأثير والتدبير؟ يرميه هكذا وهو يعتقد استقلاله بالتأثير والتدبير؟! لا شك أن هذا لا يُمكنُ القول به.

ودونك ما قصَّ الله سبحانه وتعالى علينا في قصةِ قوم موسى؛ لمَّا اتخذوا العِجل إلهًا، ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه:٨٨]، جعلوه إلهًا لكونهم اعتقدوا فيه أنه مستحقٌ للعبادة فعبدوه، ولم يعتقدوا فيه أكثر من هذا، بدليل ما جاء بعدها: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ [طه:٨٩]، فهذه الآيةُ دليلٌ على أنهم ما اعتقدوا هذا؛ لأنَّ الله يعيدهم إلى الشيء الذين يعلمونه ويرونه؛ ﴿أَفَلا يَرَوْنَ﴾ ، إذن هم كانوا يعلمون أنَّه لا ينفع ولا يضر، فكيف يكون هذا هو معنى الإله؟! وهو الذي يكون فيه الربوبية، وإلا فإنه لا يكون إلهًا، هذا لا يُمكن أن يتأتى، والأدلة على كل حال في هذا كثيرة.

إذن اتضح لنا بإيجازٍ أنَّ هذا التعريف الذي ذكروا وهذا المسلك الذي زعموا أنَّه غير صحيح.

القوم لهم شُبه متعلقة بهذا الموضوع، أقتصر منها على شبهةٍ واحدة لشهرتها:

قالوا: الدليل على أنَّ الربوبية هي الألوهية، والألوهية هي الربوبية، وأن الرب هو الإله، والإله هو الرب؛ الدليل على ذلك: أنَّ الميت في قبرِهِ يسأل من الملكين المُنكر والنكير بسؤالٍ هو: مَنْ ربُّك؟ ولو كان ما تزعمونه -يا معشر

الوهابية- هو أن الإله شيء والرب شيء، وأن المطلوب هو توحيد الألوهية، وأن توحيد الربوبية وحده لا يكفي، لكان ينبغي أن يكون السؤال: (من إلهك)؟ هذه شبهة منتشرة دوَّنوها في كتبهم كثيرًا.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

۞ **أولًا**: نحن لا نُنازع -بل ولا مسلم يُنازع- في أنَّه يجب اعتقاد أن الله هو الرب وحده؛ هل أحد ينازع هذا؟ وهل هذه المسألة لا قيمة لها ؟ أم هي مسألة عظيمة من أصول الاعتقاد؟ هذه مسألة عظيمة؛ يجب أن يعتقد الإنسان أن الله ربه، ومن اعتقد خلاف هذا فقد كفر.

فكون السؤال في القبر تعلق بالربوبية؛ نقول: لله عَزَّوَجَلَّ الحكمة في ذلك، وما شأن هذا بموضوعنا؟ بمعنى: أتريدون أنْ تقولوا إنَّ مجرد السؤال في القبر عن الربِّ يُلغي أهمية عبادة الله وحده؟ أهذا الذي تريدون أن تصلوا إليه؟! بأي وجه من أوجه الدلالة؟ هذا موضوع، وهذا موضوع آخر. وإلا فيلزمكم -إن كان ولابد أنه إذا لم يأت السؤال في الحياة البرزخية عن الألوهية؛ فالألوهيةُ غير مطلوبة- إذن يلزمكم ألا تكون الربوبية مطلوبة أيضًا في اليوم الآخر، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَنْ تَزُولَ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ»؛ أترون التنصيص على الربوبية؟ في سؤال عن الرب هنا؟ لا، إذن يلزمهم على قاعدتهم ألا تكون الربوبية مطلوبة. فإن قالوا: لا، هذا سؤال ما له علاقة بوجوب الربوبية، فنقول: وكذلك السؤال في القبر عن الرب

ليس له علاقة بمسألة وجوب الألوهية، فهذا شأنٌ وهذا شأنٌ.

۞ **الجواب الثاني**: أن نقول: إن معنى الحديث (من ربُّك الذي تعبده)؛ فيكون السؤال جامعًا بين الربوبية والألوهية، والدليل: الجمعُ بين الأدلة؛

◉ فإنَّ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد بيّن في الحديث الآخر أنَّ السؤال يكون بلفظ: «ما كنتَ تعبُد» وهذا في «سنن أبي داود» و«مسند الإمام أحمد» بإسنادٍ صحيح، سؤال المَلك لم يكن (من ربُّك)، كان: (ما كنت تعبُد؟) ؛ وهذا عن الألوهية.

◉ وخذ ثانيا: في «صحيح البخاري» من حديث البراء مختصرًا، أنَّ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]» ؛ «شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ »ومعنى لا إله إلا الله: لا معبود حقٌ إلا الله، إذن الشهادةُ تدل بالمطابقةِ على الألوهية.

ويؤكد هذا أيضًا: أن الكافر يعرف ربه، ولذا إذا ضل عن الجواب -ونعوذ بالله من الخذلان- فقال: «هاه هاه لا أدري» يقول بعدها: «رب لا تُقم الساعة»- في الحديث نفسه حديث البراء- مع أنه لما سئل: (من ربُّك) ماذا قال؟ قال: (هاه هاه لا أدري)، ضل وأضله الله بسبب سوء عمله في الدنيا؛ ما أجاب.

إذن هذا كله يدلك على أن قوله إذا أنصفتَ وتفقهت فجمعتَ بين النصوص وجدتَ أن معنى (من ربُّك؟) يعني: من ربك الذي تعبد.

۞ **الوجه الثالث**: أن نقول: إنَّ الرب هاهنا يجوزُ أن يكون معناه المعبود،

يُمكن (من ربك؟) يعني: من معبودك ، **وذلك من وجهين:**

◉ **أولًا:** أن من أهل العلم من نصَّ على أن من معاني الرب: المعبود؛ وهذا نص عليه القرطبي رحمه الله في «تفسيره»، ونصَّ عليه من اللُّغويين وأهل الاصطلاحات: الكفْوي في كتابه: «الكُليات»، ونص عليه من علماء التوحيد: الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمه الله في «منهاج التأسيس والتقديس»، وهو أن في موضوع اللغة، ومِنْ وضْعِ اللغة أن الرب كما يُطلق على السيد وعلى المالك وعلى المُتصرِّف وعلى الخالق؛ يُطلق أيضًا على المعبود ، واستشهد له القرطبي رحمه الله بقول الشاعر:

أربٌّ تبول الثُعلُبانِ برأسِهِ لقد ضلَّ من بالت عليه الثعالبُ

وما اعتقد الذي عبَد هذا الصنم أن هذا هو الخالق المُدبر المستقل بالتأثير.

وهذا له وجهٌ من جهة المعنى ؛ وهو أنَّ من أجلى معاني الرب: المالك، والله سبحانه وتعالى له المُلك المُطلق؛ فهو الذي يملك السماوات والأرضَ وما بينهما، ويشمل هذا ما يكتسبه العبادُ. إذن الله عز وجل هو الذي يملك جوارحك كما يملك ذاتك، ويملك ما تفعل؛ فوجب بمقتضى كونه الملِك المالك الذي له الملك المُطلق أن تكون العبادة له. فصار المعبود متفرعًا عن معنى المالك، وهذا بسطه القرطبي رحمه الله في كلام موجز في موضع جيد في تفسيره رحمه الله .

إذن: يجوز ويُمكن أن يكون معنى (من ربُّك؟): من معبودك، واستحضر

في ذهنك ما ذكرته لك من شواهد وقرائن في الوجه الثاني ؛ هذا مما يؤيد هذا المعنى.

وقلت لك: يجوز أن يكون الرب في هذا الموضع بمعنى المعبود من وجهين؛ هذا الأول.

◉ **والثاني**: أن كلمة الرب والإله في النصوص يصح أنْ يتواردا ؛ بمعنى: أن يُطلق الرب والمراد الإله، ويُطلق الإله والمراد الرب، **وذلك لسببين**:

❖ **الأول**: اتحاد المَاصَدَق ؛ المَاصَدَق في اصطلاح المناطقة هو: ما يصدق عليه اللفظ، أو كما يقولون المعنى الخارجي؛ المعنى الداخلي هو: المفهوم، والمعنى الخارجي هو: الماصدق، ويُسمى أيضًا: المصداق ، بمعنى: الإنسان مفهومه معروف، يقولون حيوانٌ ناطق، ما هو الماصدق له؟ زيد، وعمرو، وأنا، وأنت، هذه الأفراد الخارجية هي الماصدق أو المصداق لكلمة إنسان. ففي الواقع والحقيقة: الإله والرب شيء واحد ، الإله حقًا هو الله، ومن هو الرب حقًا؟ الله، فإذا عبَّرت بالرب أو الإله فكلاهما صحيح باعتبار اتحاد الماصدق، فالماصدق هنا واحد في الرب والإله ؛ لأنَّ الرب حقًا هو الله، والإله حقًا هو الله. وبالتالي: فتوارد هاتين الكلمتين في النصوص بمعنى تُطلق الكلمة ويُراد معنى الكلمة الأخرى لا حرج فيه، لهذا السبب.

❖ **والسبب الآخر هو**: المعنى اللزومي؛ فهو وإن كان المعنى المُطابق لكلمة الرب ما علمت، والمعنى المطابق لكلمة الإله ما علمت؛ فإنه من جهةِ المعنى اللازم يصح أن تُطلق إحدى الكلمتين على الأخرى ، بمعنى: الإله

الحق لا يكون إلا ربًا ، والرب حقًا هو الإله، هو المستحق لأنْ يُعبد، لا يستحق العبادة إلا ربٌ له الكمال المُطلق؛ وهو الله سبحانه وتعالى، فمن جهة المعنى اللزومي؛ يصح إطلاق إحدى الكلمتين والمرادُ الأخرى في النصوص. ويبقى النظر بعد ذلك في كل نصٍ بحسبه، والعبرةُ في هذا: النَّظرُ إلى القرائن المتعلقة بالنص من جهة سياقه، من جهة سِباقه، ونحو ذلك، يُعرف ما معنى الإله في هذا النص، وما معنى الرب في هذا النص، ففي بعض المواضع لابد أن يكون المعنى هنا هو المعنى المُطابق ولا يُمكن أن نحمله على المعنى اللزومي، وفي بعض المواضع يصح ذلك، فكل نص يُنظر إليه بحسبه، لكن بنظرٍ عام: يصح أن تتوارد الكلمتان؛ معنى كل واحدة في موضع الكلمة الأخرى، إما باعتبار: اتحاد الماصدق، وإما باعتبار: المعنى اللازم أو المعنى اللزومي.

إذن يصح أن نقول: إن (من ربك) يعني: من معبودك، أو من إلهك.

۞ **الجواب الرابع أن نقول:** سلَّمنا جدلًا أنَّ السؤال في القبر هو دليلٌ على الشيء الواجب اللازم من أنواع التوحيد، وسلَّمنا جدلًا أيضا أنَّ (من ربك) تعني السؤال عن الرب فقط، فإننا نقول: والحديث يدل على السؤال عن الألوهيةِ في قوله: (ما دينُك؟)، وفي قوله: (من نبيُّك؟) لماذا؟ لأنَّ السؤالَ بـ(ما دينك) ما جوابه؟ الإسلام، وما الإسلام؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وما معنى (لا إله إلا الله)؟ إذن عُدنا إلى الألوهية؛ فصار قوله (ما دينُك؟) يتضمن السؤال عن الألوهية.

وقل مثل هذا في: السؤال عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإن النبي محمدًا

صلى الله عليه وسلم جاء بدين الله، من شهد أن محمدًا رسول الله هو الذي استسلم في مقام الطاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فعبَد الله وِفْقَ ما بيَّن رسوله صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم إنما جاء بتوحيد العبادة، فهذا أساسُ ولُبُّ وأول وآخر دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فصار السؤال (من نبيُّك؟) مُتضمنًا للألوهية، وإلا فأخبرني: أيقول أحدٌ إنَّ الذي يقول بلسانه«أشهد أن محمدًا رسول الله» ثم لا يوحِّد الله بالعبادة، أيقول مُنصفٌ إنه قد حقق شهادة أن محمدًا رسول الله، وهو يعبد غير الله؟ أو أنَّ هذا عين المحادة والعصيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟! بل هذا قادح لشهادة أن محمدًا رسول الله.

فتبين بهذا: أنَّ هذا الاستدلال الذي ذكروا استدلالٌ غير صحيح، ويُمكن لو تأمل الإنسان أن يجد أوجهًا أخرى للردِّ على هذا الاستدلال.

وشُبههم الأخرى المتعلقة بهذا الموضوع لا تخرج -يا إخوتاه- عن هذا النسق، فأنت إذا نظرت فيما يستدلون به تجد أنَّهم إنما يتَّبعون المتشابهات، ويُعرضون عن المحكمات. يا لله العجب! أدلة دلالتها في غاية الوضوح يدَعونها جانبًا، ويتمسكون بهذا الدليل الذي فيه نوع اشتباه!! فيصدق في هؤلاء قوله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ».

عندنا الشبهة الثانية وهي: زعمهم أنَّ الدعاء ليس عبادة، وهذا يُكررونه كثيرًا، والمؤلف رحمه الله ابتدأ به فقال: (**فإن قال: أنا لا أعبد إلا الله، وهذا**

الالتجاء إليهم ودعاؤهم ليس بعبادة)؛ إذن القوم يُخرجون الدعاء من مفهوم العبادة، الدعاء ليس عبادة، طيب ما هي العبادة؟ العبادة: السجود، والعبادة: الركوع، والصلاة، والصيام ممكن، أمَّا أن تقول إن الدعاء عبادة هذا غير صحيح، طيب وإذا أخرجنا الدعاء من العبادة ما النتيجة؟ ماذا يُريدون؟ أنَّ من دعا غير الله ليس بمشرك؛ لأنَّه ما عبَد غير الله، نعم هو دعا غير الله، لكنَّه ما عبدَ غير الله، وهذه شُبهة أيضا منتشرة ومدوَّنة في كتبهم ويُكررونها كثيرًا.

وهذا أيضًا من التلبيس المفضوح، وكلامهم في غاية السقوط، بل الدعاء عبادة، بل هو أفضل أنواع العبادة، والشرك في الدعاء أكثر شرك المشركين وأعظم شرك المشركين، بل هو أصلُّ شرك العالم -كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وإذا لم يكن دعاء غير الله شركًا فليس على وجه الأرض شرك، والنصوص الآمرة بدعاء الله وحده الناهية عن دعاء غيره التي تصِف دعاء غيره بأنه شركٌ أكثر من الأدلة التي تأمر بالسجود لله وحده والتي تنهى عن السجود لغيره. فتأمل في النصوص تجد صدق ما ذكرتُ لك.

إذن كلامهم ظاهر البطلان، مخالفٌ لإجماع العلماء أنَّ الدعاء عبادة وأن دعاء غير الله شرك، **ويدل على بطلان ما ذكروا أدلةٌ كثيرة:**

❁ **منها**: الأدلة التي نصَّت على أنَّ الدعاء عبادة؛ ومن ذلك قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم:٤٨]، قال بعدها: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[مريم:٤٩] ؛ في الأول قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾ ثم عبَّر عن

الدعاء بحقيقته ومعناه فقال: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ ، فهذا نصٌ صريح على أن الدعاء عبادة.

◉ **ومن ذلك قوله تعالى:** ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]؛ فعبَّر عن الدعاء بالعبادة، لأنه أجلى وأوضح ما يدخل في معنى العبادة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الحجُّ عرفة».

◉ وعندنا في هذا أيضًا قولٌ صحيحٌ صريحٌ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو قوله: «الدعاء هو العبادة»، ثم تلا -كما يقول النعمان بن بشير رضي الله عنهما راوي الحديث- قال: ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر:٦٠]، وهذا أيضا دليلٌ من القرآن ثالث ، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي ﴾.. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ فعبَّر عن الدعاء بالعبادة.

أتجدون لفظًا أصرح من هذا اللفظ؟ «الدعاء هو العبادة»، وما معنى قوله «الدعاء هو العبادة»؟ يعني أفضل أنواع العبادة، وهذا ما بيَّنه ابن عباس رضي الله عنه كما عند الحاكم بإسنادٍ حسن، قال: «أفضل العبادةِ هو الدعاء»، ثم تلا تلك الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الى آخرها ، فدل هذا النص الصحيح والحديث الذي أسلفت لك حديثٌ صحيح، أخرجه: أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والنسائي في «الكبرى»، وأحمد، وصححه الترمذي،

والنووي، والسخاوي، وقال ابن حجر: «إسناده جيد»؛ فهو حديثٌ ثابتٌ لا شك فيه، وفيه التصريح بما لا يوجد دليل أصرح منه على أن الدعاء عبادة، ثم استدل صلى الله عليه وسلم على هذا بالآية التي سمعت.

❁ **ونرد عليهم أيضًا بالأدلة التي تدل على أنَّ دعاء غير الله شرك**، والوجه الأول كافٍ، لأننا نقول: الدعاء عبادة، والقاعدة المتفق عليها: أنَّ الشيء إذا كان عبادة كان صرفه لغير الله شركًا، هذه قاعدة متفقٌ عليها بين المسلمين، فليس الشركُ إلا أن يُعبد غير الله، ما يُراد بالشرك في باب توحيد الألوهية إلا هذا.

ننتقل إلى أدلةٍ أيضًا صريحة في أن دعاء غير الله شركٌ؛ ومن ذلك:

◉ قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، إذن من دعا غير الله فقد أشرك.

◉ **ومن ذلك قوله تعالى**: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]، إذن الذي يدعو غير الله كافر.

◉ **ومن ذلك أيضًا** قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:١٠٦]، والشرك ظلمٌ، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

◉ وكيف إذا أضفت إلى هذا أدلةً أخرى، كقوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج:١٢]، ولاحظ معي

سبحان الله هنا ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ﴾ هذه تنطبق على من ؟ على الأصنام فحسب ؟! على كل من سِوى الله؛ كل من سوى الله تنطبق عليه هذه الآية وينطبق عليه هذا الوصف؛ الأصنام، والأشجار، والأحجار، والأنبياء، والأولياء، والصالحون، والحيوانات، والملائكة، وكلُّ شيء. ألم تسمع إلى قوله صلى الله عليه وسلم: « وَاعْلَمْ » لاحظ الأمر هنا فعل أمر يقتضي الوجوب «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ » وليس أن نبيًا، أو أن وليًا، بل قال: (الأمة)، كل الأمة «لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ »، إذن كل أحدٍ ينطبق عليه هذا الأمر.

ولذلك اسمع ما يقول نبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [يونس:٤٩]،في الآية الأخرى ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ [الأعراف:١٨٨]، إذا كان لا يملك لنفسه فكيف بغيره!! فكيف إذا ضممت إليها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١]؛ إذا كان هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف بمن دونه؟ هذا حق أو هزل؟ نقول لهؤلاء -لأنهم يقولون: كيف تجعلون الأصنام وهي لا تملك نفعًا ولا ضرًا كالأنبياء والأولياء؟ هؤلاء يملكون النفع والضر- طيب هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ ، إما أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم صادقًا في هذه الكلمة، وهو الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام، وإما أن يكون غير ذلك.

إن قلتم: إنه يملك؛ إذن أنتم كذَّبتم الله؛ لأنكم كذَّبتم القرآن وكذَّبتم رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن قالوا: هذا على سبيل التواضع، نقول: هل يجوز الكذب في التواضع؟ ولا سيما من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لو كان هذا من غير ما أوحاه الله؛ والله ما قاله، إذا أوحي للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه يتكلم ، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣-٤]، والله إن هذا وحي، ولذا لمَّا أوحي إليه أنه سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم ما كتم هذا وقال أتواضع، قال: « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ».

إذن إما أن يكون هذا حقًا؛ فيسقط كل ما تقولونه، أو يكون خلاف ذلك؛ فيفتضح كفركم، أنتم بين هذين.

إذن كل من دعا ما لا يملك ضرًا ولا نفعًا فقد ضلَّ ضلالًا بعيدًا ، فكيف إذا أضفت إلى هذا النصوص الناهية عن الدعاء مطلقًا؛ ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ ﴾ [الجن:١٨] الأصنام؟ الأشجار؟ الأحجار ؟ أو قال: (أَحَدًا)؟! ، و(أَحَدًا) هنا تفيد العموم؛ لأنها نكرة في سياق النهي فتعم، إذن يدخل كل أحد؛ حتى النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز دعاؤه، وحتى البدوي، وحتى عبد القادر، وحتى العمودي، وحتى أبو العباس المُرسي، كل من سوى الله سبحانه وتعالى. والنبي صلى الله عليه وسلم لما قال: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ» ما استثنى من هذا أحدًا، ما قال: إذا سألت فاسأل الله إلا الأنبياء، أو الأولياء!!

إذن هذه أدلةٌ على بطلان قول القوم ، وقد ذكرت لكم -إن كنتم، أو كان

منكم من حضر في شرح كتاب التوحيد- ذكرنا عشرة أنواع من الأدلة تدل على أنَّ الدعاء عبادة، وأن دعاء غير الله منهيٌ عنه بل هو شرك، عشرة أنواع تحت كل نوع ما شاء الله من أفراد النصوص.

إذن هذا الذي ذكروه قولٌ باطل، ضلالٌ مبين، بل الدعاء عبادة، ودعاء غير الله شركٌ بالله، بل هذا أكثر ما وقع فيه المشركون، ولو لم يكن شركًا ليس على وجه الأرض شرك.

والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لاَ أَعْبُدُ إِلاَّ اللهَ، وَهَذَا الالْتِجَاءُ إِلَيْهِمْ وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ، فَقُلْ لَهُ: هَلْ أَنْتَ تُقِرُّ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلاَصَ الْعِبَادَةِ؟ فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ. فَقُلْ لَهُ: بَيِّنْ لِي هَذَا الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَهُوَ إِخْلاَصُ الْعِبَادَةِ للهِ وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَعْرِفُ الْعِبَادَةَ، وَلاَ أَنْوَاعَهَا، فَبَيِّنْهَا بِقَوْلِكَ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

قال الشارح وفقه الله:

كُنَّا قد وقفنا في آخر درس قبل أن نسْتأنف من جديد عند هذه الجملة، وناقشنا -إن كنتُم تذْكرون- شُبهتَين للمشركين؛ الأولى: عامَّة تتعلَّق بالعبادة، والثانية: خاصَّة تتعلَّق بالدعاء. وقلنا: إنَّ القومَ لهم مسْلَكٌ في وصْفِ الدعاء، وفي وصْف العبادة.

لا خلاف بين المُنتسبين إلى هذا الدين في وجوب أن تكون العبادة لله وحده، إنَّما الخلاف في مَاهيَّة العبادة، ما هي هذه العبادة؟ هذا هو معترَكُ النِّزال بين أهل السُّنة والتوحيد ومُخالفيهم.

ونحن قد عرفنا سابقًا أنَّ معنى العبادة واضحٌ جَليٌّ لغةً وشرعًا، ولذا ما جاء الإطْنابُ في بيانه في دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وما ذاك إلا لوضوحه، معرفةُ العبادة تتيسر إذا كنتَ تُدرك أنَّ الله ﷻ ما أمرَنا إلا بها ، بلْ ما خلقنا إلا لأجلها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وما أُرسِلَتِ الرُّسل إلَّا لبيانها والحث عليه.

إذن من فَهِمَ المقدمة أدرك النتيجة؛ إذن كل ما أمرَنا الله ﷻ به أمْرَ إيجاب أو استحباب فهو عبادة، قال الله ﷻ في الحديث القدسي: «**وَمَا تقرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إليَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّه**»، إذن ما أمرَ الله عز وجل به أمْر إيجاب أو استحباب هو العبادة، فإذا أردتَ أن تعرف هذا الفعل عبادة أم لا؟ الأمر يسير، أمرَ الله به؟ حثَّ عليه؟ أرشد إليه؟ دلَّ الأُمَّة عليه؟ إذن هو عبادة يتقرب بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

القبوريّون حتى تتحقق مآربُهم وأهواءهم لهم في هذا المقام مسْلكان:

۞ **المسلكُ الأول**: تقييد العبادة بقيْدٍ ما أنزل الله به من سلطان، نحن قد اتفقنا على أنَّ العبادة حق الله، ويجب أن تُؤدَّى لله وحده، فمن أدَّى العبادة لغيره فقد أشرك، ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة:٥]، ﴿**وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ [النساء:٣٦].

إذن هم يريدون أن يتخلَّصوا ويهربوا من الإلْزام الذي يُلزمون به إذا ثبت أنَّ كيتَ وكيتَ عبادة، إذن كيف نصنع؟ نُخْرِجْ هذا من كونه عبادة فنقول: إنَّ أداء العبادة مع اعتقاد الرُّبوبية في المُتوجَّه إليه هو العبادة ؛ وبالتالي من فعل هذا وتوجَّه لغير الله ﷻ لا يكون عابدًا إلَّا بوجود هذا القيد. وهذا ما ناقشْناه سابقًا، وذكرنا أوجه الردّ عليه.

وأُضيف إلى ما ذكرتُه سابقًا وجهًا واضحًا يُعينُك على فَهْمِ المقصود بيُسْر، وهو: أن اعتقاد الرُّبوبية في أحدٍ سِوى الله ﷻ هذا شركٌ بحدِّ ذاته؛ ولو لم يتوجَّه الإنسان بالعبادة.

أُعيد: مجرَّد أن يعتقد الإنسان في أحدٍ سوى الله ﷻ أنَّ له ربوبية وخلْقًا ورَزْقًا وتأثيرًا في هذا الكون باسْتقلال أو بمشاركة لله ﷻ؛ نقول هذا شرك، ولو كان جالسًا لا يتحرك، لا يسجد، لا يركع، لا يصلي، لا يدعو هذا الذي اعتقد فيه ذلك.

أنتم حينما تقولون: الشرك هو التوجُّه بالعبادة مع اعتقاد الرُّبوبية، صار هذا الوصف الذي هو أداء العبادة لغْوًا لا أثرَ له في الحكم! معَ أنَّنا نجد أن الأدلة قد نهتْ عن التوجُّه بالعبادات كالدعاء وغيره لغير الله، فنجد أنَّ الحكم تعلَّق بعبادة تُصرف لغير الله، على قاعدتهم هذا الكلام لغْوٌ لا حاجة إليه؛ لأنَّ مناطَ الحكم إنَّما هو اعتقاد الرُّبوبية، فأنت إذا اعقدتَ الرُّبوبية في أحد فعبدته أو لم تعبدْه مع ذلك ماذا تصبح؟ تصبح مشركًا.

إذن وجود العبادة هنا لا يقدِّم ولا يؤخِّر، وهذا خُلْفٌ؛ فالأدلة حذرت وأنذرت وبيَّنت أنَّ صرْف هذه العبادة نفسَه شرك، وعلى قولكم يصبح هذا الكلام لغْوًا، وهذا ممَّا يبيِّن لك أنَّ هذا القيد غير صحيح. ويكفينا حال المشركين، يا لله العجب! يقولون بألْسنتهم: ﴿**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام:١٤٨] وهم يعتقدون أنَّ هُبَل واللَّات وعُزَّى أنَّ هذه تشارك الله ﷻ في الخلق والرَّزْق والتدبير، أيقولون فقط فقط ما في غير إنها شفيعة لنا، ﴿**وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ**﴾ وهم يعتقدون فيها أعظم من ذلك؟! ألَا يحبُّونها! ألَا يعظمونها! ألَا يريدون لها العُلو! أما قالوا: (اعْلُ هُبَل)؟

إذن لماذا ما فخَّموا أمرها وذكروا ما يعقدونه فيها، وما اقتصروا على مجرد أن تكون شفيعة إلى الله ﷻ، تقرِّب إليه زُلْفَى، فهي تشارك الله في الخلق والرزق والتدبير!.

۞ **أمَّا المسلك الثاني: فهو التصرُّف في أفراد العبادة بإضْفاء وصفها على أفرادٍ، وإلْغاء الوصف عن أفراد؛ بمعنى:** أنَّهم يقولون: هذه عبادة، هذه ليست عبادة، العبادة فقط أفراد معينة، هكذا تحكُّمًا من عند أنفسهم، تسأله ما العبادة؟ يقول لك: العبادة السجود، الركوع، الصلاة، الصيام فقط، وربَّما أضافوا أشياء أخرى، طيب الدعاء؟ لا، هذا الدعاء أصلًا ليس عبادة، ما هو داخل أصلًا في العبادة؛ وبالتالي فمن دعا غير الله ما أشرك؛ لأنَّ الشرك صرْف العبادة لغير الله، والدعاء أصلًا ليس عبادة، وهذا أيضًا ما ناقشْناه سابقًا وأثبتنا أنَّ الدعاء عبادة، والأدلة دلَّت على أنَّ التوجُّه بالدعاء لغير الله شرك.

وهاهنا قاعدة نافعة تعينك في مقام الحِجَاج مع هؤلاء المشركين أو المدافعين عنهم، وقد كثُرُوا في هذه الأيام -لا كثَّرهم الله- يلْبسون لباس السُّنة والحديث ولكنهم أضْحوا من كبار المدافعين والملبِّسين عنهم وعن أفعالهم؛ يقول لك: أنا ما أفعل ما يفعلون لكن هذا ليس بشرك، ويتلاعب بالأدلة، ويوجِّهُها على وفْقِ هواه، ويتمسكُ بدليل فيه نوعُ اشْتباه، ويُعرضُ عن أدلة بالعشرات مُحكَمة واضحة كالشمس، وهذا كما تعلمون من مسالك أهل الأهواء.

المقصود؛ هذه القاعدة تقول: القول في بعض العبادة كالقول في البعض الآخر. بمعنى: إذا كان ثبوت العبادة عندكم بدليل؛ فإنَّ الدليل أو ما هو من جنسه دلَّ على ما نفيتُم، فإما أن تثبتوا الجميع، وإما أن تنفوا الجميع. وإذا أمكن إنكار بعض الأفراد بحُجَّةٍ تزعمونها فإن الحُجَّة نفسها يمكن أن نسلطها على ما تزعمون أنَّه عبادة؛ فإما نفْي الجميع، وإمَّا إثبات الجميع. بمعنى: القوم يقولون: السجود عبادة؛ من سجد لقبرٍ لصنمٍ -طبعًا ليسوا كلهم لكن يتورَّع عن السجود يقول: لا أنت ما تصل إلى حدِّ السجود- السجود عبادة، الذي يسجد للقبر وللشمس ولبُوذَا هذا أشرك، لكن الذي يدعو ما أشرك؛ لأن السجود عبادة، والدعاء ليس عبادة. لماذا حكمْتَ، وبماذا حكمْتَ أن السجود عبادة؟

قال: كيف! الله يأمر به: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا**﴾ [الحج:٧٧] أصبح عبادة، نقول: أحْسنت، ولكن نظير هذا الاستدلال ثبتَ في الدعاء: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ [الأعراف:٥٥]، طيب هذا فعْل أمْر وهذا فعْل أمْر، يعني باؤُك تجرُّ وباؤُنا لا تجر!! مهْما أتيت بدليل على أن السجود عبادة لله فإنه نظيره أو أقوى منه دلالة يدل على أن الدعاء عبادة، ومهْما أتيت بدليل على أنَّ السجودَ لغير الله شرك فنظيرُ هذا الدليل أو أقوى منه وأكثر منه يدلُّ على أن دعاء غير الله شرك.

لقد نظرتُ فوجدتُ أكثر من أربعين آية في كتاب الله ﷻ تنهى عن دعاء غيره وتذمُّه، وتحكم عليه بالشرك، وأكثرَ من عشرين آية في كتاب الله تأمر بدعاء الله ﷻ وحده، وتحثُّ عليه، وتمدح فاعله. ائتِ بنصف، ائتِ بربع هذا العدد من

الأدلة في شأْن السجود؛ ولن يستطيع. إذن: القول في بعض العبادة كالقول في البعض الآخر.

نعود إلى ما ذكر المؤلف رحمه الله؛ قال: (فَإِنْ قَالَ) ، علِمْنا سابقًا أنَّ المؤلف رحمه الله جرَى في هذه الرسالة على طريقة الحوار (فَإِنْ قَالَ قُلْ لَهُ .. فَإِنْ قَالَ قُلْ لَهُ) هذا لا شكَّ أنه أسهل في التعليم، وأقرب لإدراك المراد.

قال: (فَإِنْ قَالَ: أَنَا لاَ أَعْبُدُ إِلاَّ اللهَ، وَهَذَا الالْتِجَاءُ إِلَيْهِمْ وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ)؛ طبعًا قلنا سابقًا: مضْمون هذه الشُّبهة: أن الدعاء ليس عبادة، وسيأتي بعد شُبهة ستأتينا إن شاء الله لاحقًا بعد هذه تتعلَّق بالشفاعة ، بعدها أن هذا الدعاء ليس بشرك، الآن يقول: ليس عبادة، سيأتي أنَّ دعاء غيره ليس بشرك.

هُنا سلَكَ المؤلف رحمه الله في النقاش مسْلك التنزُّل مع الخصْم، والانتقال معه من المتَّفق عليه إلى المختَلف فيه، وهذا من حُسْن مسالكِ الدعوة، ومن جميل طرائقِ الحِجَاج؛ أنَّك تسلك هذا المسْلك، تتنزَّل مع الخصْم، تتكلم معه بهدوء وتأخذ المتَّفق عليه بينك وبينه وتجعله وسيلة للانتقال إلى المختَلف فيه، فهكذا سلَكَ المؤلف رحمه الله فيما بين أيدينا.

قال: (فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تُقِرُّ أَنَ اللهَ فَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلاَصَ الْعِبَادَةِ؟)؛ وهذا كما قلنا: كل المنتسِبين إلى هذه المِلَّة وجملتهم يقرُّون به، فسيقول لك: نعم، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر:١٤]، أدلة كثيرة تدلُّ على هذا .

(فَقُلْ لَهُ: بَيِّنْ لِي هَذَا الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَهُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ)؛ الله ﷻ لا يأمر العباد بمجهول لا يمكن الوصول إلى علْمه، وهذه مُسَلَّمة، يأمرنا الله بالعبادة وهي من جُملة الطَّلاسِم والكلام الذي ليس له أيُّ مفهوم هذا غير وارد، إذن الله أمر بالعبادة؟ نعم، وأمر بالإخلاص فيها؟ الجواب: نعم، طيب ما هي ؟ وهذا مهمٌّ جدًا أن تبدأ معه من هذه النقطة؛ لأنك إن وصلتَ معه إليها اعْلم أنك ظفرْتَ بتوفيق الله، إذا وصل معك إلى هذه النقطة فالأمر بعد ذلك يسير.

طبعًا الشيخ يقول: (فَإِنَّهُ لاَ يَعْرِفُ الْعِبَادَةَ، وَلاَ أَنْوَاعَهَا)؛ وهذا الغالب على أفرادهم، الغالب على أفراد هؤلاء القبوريّين وعوامهم أنهم جُهَّالٌ لا يعلمون، إن أتيتَ له بمثْل هذا المسلك سيقف أمامك ساكت لا يدري، فعلًا أيش معنى عبادة؟!

لكن ربَّما تجد صنفًا ثانيًا يقول لك ما ذكرْناه سابقًا، يكون عنده شيءٌ من الاطِّلاع، أو ربما يكون من علمائهم، فيبدأ يناقشك يقول لك: لا، العبادة محصورة في أفراد معينة من العبادة. فهذا تنتقل معه إلى النِّقاش الذي ذكرْناه آنفًا. أو ربما يأتيك ثالثٌ فيقول: العبادة إنما هي التي تقترن باعتقاد الرُّبوبية في المعْبود، لابدَّ، ما يصلح أن يعبد أحدٌ أحدًا إلَّا وهو يعتقد فيه الرُّبوبية.

وقفتُ على كلام لبعضهم وهو من كبارِهم ، هذا قَبل ستين أو سبعين سَنة ألَّف في هذا الباب وقدَّم له بعض كُبرائهم، يقول: لابدَّ أن تكون العبادة هكذا، لماذا؟ قال: لأنه لو كان الأمر على خلافه لكَانَ حُمْقًا وضلالًا، ما شاء الله !!

يعني كيف يعبد شيئًا ما يعتقد فيه الرُّبوبية؟ غباء! أنتَ محامي عن المشركين؟!

يعني هو يقول: ما يتأتَّى من مشركِي العرب أنهم يعبدون ما لا يعتقدون فيه الرُّبوبية لأنَّ هذا حُمْق وضلال. يا لله العجب! طيب هذا هو واقعهم، أَلم يخبر الله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠] ، إذن القوم ماذا؟ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[الأعراف:١٩٧]، فلِأَي شيء أنت تسْتكبر هذا الأمر، وهذا ما حكَى الله عنهم في مواضع كثيرة من النُّصوص.

إذن لربما تُواجه شخصًا يكون درجته في استيعاب شُبَهِهم أكثر من ذلك، لكن الشيخ كما ذكرنا، الشيخ وضع الكتاب ليستفيد منه كلُّ أحد؛ يستفيد منه طالب العلم، ويستفيد منه أيضًا العامِّي، ففَهْمُ التوحيد قضية مسْتولية على قلْب الإمام المجدِّد رحمه الله، ولذا فهو يريد أنَّ الجميع يستفيد من ذلك؛ يفهم التوحيد كما ينبغي، ويعرف كيف يحاجِج مخالِفيه.

قال: (فَبَيِّنْهَا بِقَوْلِكَ: قَالَ اللهُ تَعَالَى﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥]) ؛ يعني بيِّن لهم أن الدعاء عبادة.

وبالمناسبة إذا أثبتَّ لهؤلاء أن الدعاء عبادة سلَّم لك بعد ذلك بكلِّ شيء، يعني هي العقبة الكَؤود عندهم هي كون الدعاء عبادة، وأنَّ دعاء غير الله شرك، إذا وصلتَ معه إلى إِقناعه بهذا فما دونه أسهل ؛ أن تثبت له أن الذبح لغير الله، أو أن النذر لغير الله، أو أن السجود لغير الله شرك، هذا سيكون أسْهل، وتبقى أيًّا سوف يُسلِّم لك.

قال المصنف رحمه الله:

إِذَا عَلِمْتَ بِهَذَا هَلْ هُوَ عِبَادَةٌ للهِ؟ فَلَابُدَّ أَنْ يَقُوْلَ: نَعَم، وَالدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ.

قال الشارح وفقه الله:

(الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادِةِ) جاء في حديث أنس رضي الله عنه عند الترمذي وفيه ضعْف، لكن اللَّفظ الثابت والأَوضح في الدلالة والأقوى في بيان المقصود هو ما ثبت عند الترمذي أيضًا وأبي داوود وأحمد من حديث النُّعمان رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ قال: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»، وأيُّ لفظ أصْرح من هذا؟ فالدعاء اجتمع فيه المسْلك العام السابق وهو كلُّ ما أمر الله به أمر إيجاب أو اسْتحباب -والأدلة في هذا كثيرة- واجتمع فيه هذا المسْلك وهو نادرٌ جدًا في النُّصوص، أن يُنصَّ على فرْدٍ من أفراد العبادة في أنَّه عبادة؛ هذا قليلٌ جدًا في النُّصوص أن تجد هذا، تجد مثلًا عند الترمذي قوله ﷺ: «**إِنَّ حُسْنِ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَةِ**» هذا قليل.

ومن حكمة الله أنْ قال النبي ﷺ هذا الكلام في الدعاء، ومن عجيب حالهم: أنَّهم أتوا إلى هذا الذي توارد عليه المسْلك العام وهذا المسْلك الخاص ثمَّ أنكروا كون الدعاء عبادة، عجيب! يعني ليتَهم ناقشوا بشيءٍ آخر سوى الدعاء، لكنهم أتوا إلى الذي جاء فيه الدليل الواضح الصريح الذي لا شكَّ فيه، «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»، إذن ليس عبادة بلْ هو عبادة وفي درجة رفيعة في العبادة؛ هو أفضل العبادة، فإنَّ هذا هو المفهوم من هذا السياق. إذن يُبيِّن لهم بالدليل الحكم.

قال المصنف رحمه الله:

فَلَابُدَّ أَنْ يَقُوْلَ: نَعَم، وَالدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادِةِ.

قال الشارح وفقه الله:

والرِّفق بالمَدْعُو وإن كان بعيدًا عن جادَّة الحق وسيلة إلى هدايته، ولا تظنُّوا -يا إخوتاه- أنَّ كل من كان من شاكلة هؤلاء أهل الخُرافة أنه مُتمرِّدٌ ومعاند ومهْما أتتْه الحُجَّة فإنه يعرض عنها؛ هذا ليس بلازم، بلْ ربما وجدتَّ منهم طائفة -بلْ ربما وجدتَّ كثيرًا منهم- لو تبيَّنت له الحُجَّة لسلَّم بها، والشواهدُ على هذا كثيرة، أنَّه يكون ضالًا غارقًا في الخُرافة واقعًا في حمْأة الشرك ولكن إذا تبين له الحق فإنَّه يَرجع. فلا يكُنْ عند دُعاة التوحيد حاجزٌ نفسيٌّ بينهم وبين الآخرين، بين هؤلاء بحيث يقول: "لا فائدة ولا ثمَرة ولا .. يا أخي لا تكلِّف نفسك، هؤلاء لا يرجعون"، لا والله، بأي حُجَّة وبأي دليل أنت تتكلَّم، القلوب بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والقادر على أن يفتح مغاليقها هو القادر على كلِّ شيءٍ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإذا ترَّفقْتَ وتلطَّفْتَ وبيّنت الحق بالحُجَّة بأُسْلوب حَسَن فلربما وجدتَّ منهم فِئامًا تُقبِل، وتفوز أنت بفضْل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وثوابه.

قال المصنف رحمه الله:

فَقُلْ لَهُ: إِذَا أَقْرَرْتَ أَنَّهَا عِبَادَةٌ، وَدَعَوْتَ اللهَ لَيلًا وَنَهَارًا خَوْفًا وَطَمَعًا، ثُمَّ دَعَوْتَ فِي تِلْكَ الحَاجَةِ نَبِيًّا أَوْ غَيْرَهُ، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي عِبَادَةِ اللهِ غَيْرَهُ؟ فَلَابُدَّ أَن يَقُوْلَ نَعَم، إِذَا قَالَ اللهُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢] وَأَطَعْتَ اللهَ وَنَحَرْتَ لَهُ، هَلْ هَذَا عِبَادَةٌ؟ فَلَابُدَّ أَن يَقُوْلَ نَعَم.

قال الشارح وفقه الله:

عرفنا سابقًا مسالك القوم في مسألة الدعاء، والمؤلف رحمه الله يقول: إذا بيّنتَ له هذا (**هَلْ أَشْرَكْتَ؟**) يقول: (**فَلَابُدَّ أَن يَقُوْلَ نَعَم**)؛ هذا هو المسْلك الذي جهْلُه جهْلٌ بسِيط، يُنكِر ابتداءً أن يكون الدعاء عبادة، فإذا بينت له بالدَّليل سلّم، لكن هناك صنفٌ آخر وهو الذي -كما ذكرتُ لك- يقول: لا، أنا لو دعوتُ دُون اعتقادِ الرُّبوبية في المَدْعُو فإنَّني لا أكون مُشْركًا. والردُّ على هذا بما سبق، وترجعْ في هذا إلى الدرس الماضي إن كنتَ ما حضرْتَه.

وأقول: يكفينا من هذا دليلٌ في كتاب الله واضح؛ انظرْ إلى ما حَكَى الله ﷻ عن إبراهيمَ عليه السلام حينما حاجَّ قومَه في شأْن معبوداتِهم، فقال لهم: ﴿**قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ*أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ**﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٣]؛ الآن إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام يسْتجلِي من هؤلاء المشركين حالَهم، ويسألهم عن اعتقادهم في الذين يدعونهم: ﴿**هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ**﴾؟ إذن المسألة في الدعاء. لو كانوا يعتقدون الرُّبوبية والتأثير في الكون والخلْق والرِّزْق والتدبير؛

أَكَانوا يقولون: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٤] وانتهى الأمر، فقط ما عندنا إلَّا هذا.

لو كانوا يعتقدون أكثر من هذا فيها لِمَ ما ذكروه؟ وليس لإبراهيمَ عليه السلام في ذلك الوقت قوّة بحيث ينافقونَه ويضْطرُّون إلى الكذب عليه، وتهْوين المسألة، هل هناك داعٍ إلى هذا؟ ما في داعي إلى هذا، إذن هم يتكلَّمُون بما يعتقدون، فما اعتقدوا تأثيرًا ولا غَيرَه، إنما القضية قضية تقْليد، ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، هل وجدتُم في كتاب الله أنَّ إبراهيمَ عليه السلام هاهنا برَّأَهُم من وصْمة الشرك؟ لا إذا كان الأمر كذلك فدعاؤُكم ليس شركًا، وجدتم هذا؟!

لو كان –الدعاء– دعاء غير الله ليس شركًا إلَّا بهذا القيد الذي ذكرُوه لكان لهم عُذْرٌ ومندوحة، لكن هذا ما غيَّر في الحكم عليهم؛ فمن دعا غير الله باعتقاد الرُّبوبية والتأثير أو بدون ذلك فإنَّه مشرك، هذا ما تنطق به آياتُ القرآن. إذن كلامهم الذي ذكروا كلامٌ غير صحيحٍ، ولا دليل عليه.

ربَّما يكون هناك شخصٌ ثالث ، في مسألة الدعاء خاصة بعضهم بلْ كثيرٌ منهم يقول: الدعاء الشركي هو دعاء المشركين، ودعاء المشركين إنَّما تعلَّق بالأصنام والأشجار والأحجار؛ إذن الدعاء شركٌ إذا كان المَدْعُو صنمًا.

أُعيد: يقول الدعاء الشركي هو الذي كان عليه المشركون، ثمَّ يقول: والمشركون إنَّما أشركوا لأنَّهم دعوا الأصنام، أمَّا نحن ما ندعو الأصنام، لا لا؛ أستغفر الله، الذي يدعو الصنم كفرَ وأشرك وضلَّ ضلالًا بعيدًا، لكن نحن ندعو أولياء، نحن ندعوا أنبياء، نحن ندعوا ملائكة، ما ندعوا أصنام، إذن الحكم هنا

مختلف، الآن يتصرَّفُون في داخل العبادة، في داخل الدعاء، هذا شرك وهذا ليس بشرك.

هذه الشُّبهة -يا إخوتاه- شُبهةٌ رائجة وكثيرة ومنتشرة، والحقُّ الذي لا شكَّ فيه أنَّه لا فرْق بين دعاء صنم وشجر وحجر، أو دعاء نبي أو وليٍّ أو مَلَكَ أو جنّي، كلُّ هذا حكْمه واحد.

والردُّ على قول هذا القائل من وجوه:

۞ **أولًا**: أنَّه لا دليل على هذا من الشرع والعُرْف واللُّغة، ما عندنا دليلٌ وكلامُك عارٍ عن الدليل حينما تقول إنَّ الدعاء الشركي فقط هو هذا.

۞ **ثانيًا**: ما أصلُ عبادة الأصنام؟ تذْكرون الذي تكلَّمنا عنه سابقًا وتكرَّر الكلام فيه، قلنا: هذه الأصنام في حقيقتها ترْجع إلى شيئين:

◉ صُوِّرَتْ على معْبودات سماوية.

◉ وصُوِّرَتْ ثانيًا على معْبودات أرْضية هي الأشخاص الصالحين الذين ماتوا .. الخ، فهذه الأصنام ليستْ مقصودة لذاتها، وهذا شرحْناه بالتفصيل سابقًا.

إذن؛ الذي يتوجَّه إلى الأصل كان مشركًا، الذي يدعو هذا الأصل الذي لأجله أُقِيمَ الصنم لا شكَّ أنَّه سيكون مشركًا كما لو دعا الصنم.

۞ **ثالثًا**: هل مشركو العرب ما عبدوا إلَّا الأصنام؟ درسْنا هذا في أول الرسالة، قلنا إنَّ النبي ﷺ خرجَ على قومٍ مختلفين في معبوداتهم، أَمَا كان منهم من يعبد الملائكة؟ أَمَا كان منهم من يدعو الجنَّ ويتعوذُ بهم؟ هل اسْتثنى النبي

ﷺ هؤلاء وقال: لا، دعاء الأصنام والذين يدعون الأصنام لهم حُكْم، والذين يدعون غير الأصنام لهم حُكْمٌ آخر، أو سوَّى في الحكْم ولم يفرِّق؟ سوَّى في الحكْم ولم يفرِّق، إذن كلامكم كلامٌ غير صحيح.

۞ **الجواب الرابع أن نقول**: النَّهي عن دعاء غير الله ﷻ جاء في النُّصوص على ضَرْبين.

أقولها باختصار وأفصِّلها -إن شاء الله- غدًا بإذْن الله.

أقول: **من نظرَ في النُّصوص وجدَ أنَّ النهي عن دعاء غير الله ﷻ جاء على ضَرْبين:**

- إمَّا أن يكون نهيًا عامًا دون أن يُخصَّ بشيءٍ.
- وإمَّا أن يُعلَّقَ بوصْف.

أمَّا أن يكون هذا النهي تعلَّق بالأصنام فقط؛ هذا غير موجود في القرآن، ولا موجود في السُّنة، وارْجعُوا ، تجد إمَّا نهي عام: **﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾** [الجن:١٨] وهل عاقلٌ يقول: إنَّ كلمة «أحدًا» هنا تعني الأصنام فحَسْب؟ لو ما عنده أيّ فقهٍ في اللُّغة، لو كان لا يفهم إلَّا أقلّ القليل منها، هل يقول «أحدًا» تساوي الأصنام، كأنَّه قال: (فلا تدعو مع الله الأصنام)، هل أحدٌ يقول بهذا؟ لا أحد يقول بهذا.

إذن هذا هو المسْلك الأول، ونتكلَّم عنه وعن المسْلك الثاني بالتفصيل -إن شاء الله- في اللّقاء القادم.

قال المصنف رحمه الله:

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لاَ أَعْبُدُ إِلاَّ اللهَ، وَهَذَا الالْتِجَاءُ إِلَيْهِمْ وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ. فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تُقِرُّ أَنَ اللهَ فَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلاَصَ الْعِبَادَةِ؟

فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ ، فَقُلْ لَهُ: بَيِّنْ لِي هَذَا الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَهُوَ إِخْلاَصُ الْعِبَادَةِ لله وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَعْرِفُ الْعِبَادَةَ، وَلاَ أَنْوَاعَهَا. فَبَيِّنْهَا بِقَوْلِكَ: قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

إِذَا عَلِمْتَ بِهَذَا: هَلْ هُوَ عِبَادَةٌ للهِ؟ فَلاَبُدَّ أن يَقُولَ: نَعَمْ، وَالدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ؛ فَقُلْ لَهُ: إِذَا أَقْرَرْتَ أَنَّهَا عِبَادَةٌ، وَدَعَوْتَ اللهَ لَيْلًا وَنَهَارًا خَوْفًا وَطَمَعًا، ثُمَّ دَعَوْتَ فِي تِلْكَ الْحَاجَةِ نَبِيًّا أَوْ غَيْرَهُ، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي عِبَادَةِ اللهِ غَيْرَهُ؟ فَلاَبُدَّ أن يَقُولَ: نَعَمْ.

قال الشارح وفقه الله:

وقفْنا في درسنا الماضي عند مواقف القبوريّين في عبادة الدعاء، وقلنا إنَّ مِنهم مَن يُنكر كون الدعاء عبادةً . ومِنهم مَن يقرِن كون الدعاء عبادة بشرط؛ وهو اعتقاد الخالقية والتأثير في هذا الكون ، يعني اعتقاد الرُّبوبيَّة. ومِنهم مَن يقصر الدعاء الشركي على دعاء الأصنام.

قلنا: إنَّ الرد على هذا من وُجوهٍ، ذكرْنا أربعة وُجوهٍ، ووقفْنا عند الوجه الرابع وهو: أنَّ صريح القرآن يدلُّ على بطلان ما ذكروا؛ لأنَّ النَّهْي عن الشرك في الدعاء أو **النَّهْي عن دعاء غير الله ﷻ جاء في كتاب الله ﷻ على ضرْبين:**

الضرْبُ الأول: أن يكون نهْيًا عامًّا ؛ فلا يُدعَى أحدٌ البَتَّة، وعرفْنا شواهدَ

على هذا ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٠]، و ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] ؛ وكلمة «أَحَدًا» هاهنا نكرة في سياق النَّهي فتَعُمّ ؛ وعليه فكلُّ أحدٍ لا يجوزُ دعاؤه، أتَرَوْن الأنبياء داخلين في قوله ﴿أَحَدًا﴾؟ أتَرَوْن الأولياء داخلين في قوله ﴿أَحَدًا﴾؟ أتَرَوْن الملائكة والجِنَّ داخلين في قوله ﴿أَحَدًا﴾؟ إذن لا يجوز دعاء أحدٍ البَتَّة.

والأحوال في الدعاء أربع:

الأُوْلى: إمَّا أن يكون دعاءً لميتٍ غير حي، سواء كان في شأنٍ يقدرُ عليه لو كان حيًّا أو لا.

الثانية: أن يكون الدعاء لحيٍّ ولكنه غائب.

الثالثة: أن يكون الدعاء لحيٍّ حاضرٍ في شأْنٍ خارج عن قُدرة جنس البشر، إنما هو شأنٌ يختصُّ الله سبحانه وتعالى بالقدرة عليه.

الرابعة: هي أن يكون الدعاء لحيٍّ حاضرٍ في شأْنٍ هو في قُدرة جنس البشر.

فالحالات الثلاث الأُوْلى هذه هي التي تعلَّق بها النهي بل الحكْم بالشرك، ويبقى الوجه الرابع هو المُسْتثنى، والاسْتثناء إنَّما كان للنصِّ والإجماع؛ أمَّا النَّصُ فأدلَّة كثيرة لا تُحصَى إلَّا بمشقَّة تدلُّ على أنَّه يجوز أن يسأل وأن يطلبَ وأن يسْتغيث بحيٍّ حاضرٍ في شأْنٍ يقدر عليه، وهذا ما انعقد عليه إجماع أهل العلم، وأمَّا ما عدا ذلك فإنَّنا نبقى على الأصل، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

الضرْبُ الثاني الذي جاء في النُّصوص: تعْليق النهي عن الدعاء بوصْف؛

فيشمل كلَّ مَن اتصفَ به، وقد ذكرتُ لكم أنَّه ما جاء في القرآن قط النَّهي عن دعاء الأصنام مع كثْرة الأدلَّة التي جاءت في النَّهي عن دعاء غير الله، لكنَّنا لا نجد تعليق هذا النهي على دعاء الأصنام، إنَّما نجد في جُلِّ هذه الأدلَّة -إذا اسْتثنينا الأدلَّة التي دلَّت على النَّهي عن دعاء كلِّ أحدٍ- يبقى أنَّها عُلِّقَت بأوصاف؛ **من تلك الأوصاف:**

❁ **أولًا**: النهي عن دعاء مَن لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا كشْف الضر؛ وهذا في الحقيقة يؤول -مثْله مثلُ بقية الأَوجه التي سأتكلَّم عنها- إلى العموم، كلُّ ما سأذْكرُه يؤول إلى العموم، لماذا؟ لأنَّ هذه الأوصاف تنطبق على كلِّ أحدٍ من المخلوقين. خُذْ هذا الأول .

أقول: يُعلَّقُ النهي عن دعاء من لا ينفع ولا يضر ولا يكشف ضرًا ، وهذا تجده كثيرًا في كتاب الله ﷻ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦]، خُذْ مثلًا قول الله ﷻ: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾ [يونس:١٠٦]؛ ﴿وَلا تَدْعُ﴾، والمسألة في الدعاء ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾، وقلْ مثْل ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر:٣٨] .

والسؤال: هذا الوصْف ينطبق على الأصنام فحسْب، أو يَعُمُّ غيرها أيضًا؟ هل الآية جاءت في الأصنام فقط، هذا الوصف ما ينطبق إلَّا على الأصنام؟

سؤال: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإمامُهم وسيِّدُهم محمدٌ ﷺ، فهو سيدُ وَلَدِ آدم ﷺ أَلَيسَ أخبر الله ﷻ عنه بأنَّه لا يملك ضرًا ولا رَشَدًا لجميعِ الناس، ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١]، هذا وهو رسولُ الله ﷺ! فمَن دُونه من باب أَوْلَى، أليسَ كذلك؟

خُذْ مثلًا: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الأعراف:١٨٨]؛ فمَن بيدِه ويملك النفع والضر إنَّما هو الله سبحانه وتعالى، فكلُّ شيءٍ بيدِه تباركَ وتعالى، والعبادُ لا ينفعون ولا يضرُّون بذواتِهم، فإذا كان عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا فكيف بغَيرِه؟! وهذا ما صرَّحتْ به الآية السابقة، فإذا كان هذا في حقِّ نبينا محمد ﷺ فكيف بحقِّ بقية الأنبياء ومَن دونهم من الأولياء؟!!

إذن هذا وصْفٌ ينطبق على كلِّ أحد سِوى الله تباركَ وتعالى؛ وعليه فقد كذبوا حينما زعمُوا أنَّ النَّهي عن الدعاء إنَّما تعلَّق بالنهي عن دعاء الأصنام.

۞ **نجد وصفًا ثانيًا** في القرآن؛ وهو النَّهي عن دعاء عبادٍ أمْثالنا، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٤]؛ والسؤال: أَهَذا ينطبق على الأصنام فحسْب؟ طبعًا جمهور المفسِّرين على أنَّ الآية نزَلَت في الأصنام، وطائفة من المفسِّرين ذهبوا إلى أنَّها نازِلَةٌ فيمَن كان يدعو الملائكة؛ وعلى هذا أو هذا فالعبرة بعُموم اللَّفظ لا بخُصوص السَّبب. يعني: كون الحكم تعلَّق بوصْفٍ فكلُّ مَن اتصف به فإنَّه يشمله هذا الحكم، ﴿**عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ**﴾.

إذن هذا الدعاء دعاءٌ باطل، أنتم تدعون غير الله ﷻ دعاءً باطلًا -والخِطاب مُوجَّهٌ للمشركين- لأنَّكم تدْعون عبادًا أمثالكم.

والسؤال: هل الأنبياء والأولياء ينطبق عليهم هذا الوصْف أو لا؟ ماذا قال الله ﷻ عن نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [فصلت:٦] ، فمن حيث الخلق النَّبي ﷺ بشرٌ مثلُ البشر، وإن كان أشرف البشر ﷺ.

فإذا كان هذا الوصف متحقِّقًا في الأصنام باعتبار اجتماعنا وإيَّاها في كونِنا مخلوقين جميعًا -فالمثْلية من هذه الجهة- فلأَن يكون الحكم معلَّقًا بمن وجْهُ التماثل معه أقرب من بابٍ أوْلى، إذن كلُّ من دعا عبدًا مخلوقًا لله ﷻ فإنَّه قد وقع في الدعاء المنهي عنه، إذن كذبوا حينما قالوا إنَّ الدعاء المنهي عنه متعلِّق بدعاء الأصنام فحسْب.

❁ **خُذْ وجهًا ثالثًا وهو**: تعليق النَّهي عن الدعاء بمن لا يملِك، من الذي يملِك كل شيء، وله كلُّ شيء في السماوات والأرض؟ أليسَ هو الله جلَّ في علاه؟ إذن كلُّ من عداه لا يملِك على الحقيقة، الذي يملِك على الحقيقة إنَّما هو الله سبحانه وتعالى. ولذا تأمَّل في قول الله ﷻ: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ ثمَّ قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣]، العربُ تعبِّرُ عن الشيء التَّافه بالقطْمير والفَتِيل والنَّقِير؛ القطْمير: القشْرة التي تكون على ظهْر النَّواة ، فهذا الشيء الحقير التَّافه لا يملِكه الذين تدعونهم من دونه، هكذا يخبرنا الله ﷻ. **والسؤال**: هذا الوصف ينطبق على مَن؟ على كلِّ أحدٍ سواه جلَّ في علاه.

كذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ [سبأ:٢٢] ؛ لا مِلْك ولا حتى مشاركة، شراكة، شَرِكة، ما في شيء. إذن هذا دليلٌ على أنَّ دعاء من لا يملِك من الدعاء المباح أو الدعاء الممنوع؟ من الدعاء الممنوع، وهذا يشمل كلَّ أحد، فكذبوا حينما قالوا إنَّ الدعاء المنهي عنه إنَّما هو دعاءُ الأصنام.

۞ **خُذْ وجهًا رابعًا وهو**: أنَّك تجدُ أنَّ القرآن يُخبرُ عن أنَّ الدعاء المنهي عنه هو دعاء مَن لا يخلق بلْ هو مخلوق؛ مَن ليس عنده قُدرةٌ على الخلق فإنَّ دعاءه دعاءٌ باطل، وعلى هذا أدلَّةٌ في كتاب الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل:٢٠]، هم غيرُ خالقين بلْ هم مخْلوقُون إذن كيف يُدْعَون؟!

وقل مثْل هذا في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج:٧٣] ؛ حتى الذباب هذه الحشرة الصغيرة فإنَّ كل المَدْعُوِّينَ لا يملِكون القدرة على خلْقها.

وقلْ مثل هذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ [الأحقاف:٤] ؛ هذا الوصف ينطبق على الأصنام فحسْب؟ يشمل كلَّ أحد، ورأس الخلْق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أَتَرون عندهم قدرة على الخلق؟ لا، باتفاق بيننا وبين مخالِفينَا أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يخلقون، إلَّا شِرْذِمَة غالية منهم ربَّما وقعُوا في هذا الغُلو فأثبتوا

الخلق، وقالوا: إنَّ النبي ﷺ يقدر على كلِّ ما يقدر عليه الله، ولكن هذا ليس مقالةً فاشية عندهم، يعترفون أنَّ الخلْق لله ﷻ عامَّتهم .

الله ﷻ نهى وذمَّ دعاء من لا يخلق؛ إذن هذا يشمل الأنبياء والأولياء والملائكة والجِنّ وكل أحد، فإذا دعا داعٍ البَدَوِي، أو الشيخ عبد القادر، أو نفيسة، أو زينب، أو العيدروس، أو نبينا محمدًا ﷺ واسْتغاث بواحدٍ من هؤلاء فإنَّنا نقول له: دعاؤك دعاءٌ صحيح، إن أَرَيتَنَا ماذا خلقوا من الأرض، إن كانوا خلقوا شيئًا ولو ذُبابًا فإنَّ دعاءك دعاءٌ صحيحٌ، ونحن نسلِّم لك، لكن إن كان لا خلْق لهؤلاء ولا قُدرة لهم على ذلك فعليك أن تتوجَّه بالدعاء لله الذي يخلق سبحانه وتعالى.

۞ **خُذْ وجهًا خامسًا وهو**: تعليق ذلك بالأموات، وهذا خاص بدعاء الأموات؛ وقد علمْتَ فيما سبق قبل قليل وفيما مضى أيضًا أنَّ من صور الدعاء الشركي دعاء الأموات، ويدلُّ على هذا: قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر:١٤] ، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢]، ﴿لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤].

ويمكن أن يدخل أيضًا في هذا الوجه قول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل:٢٠] ثمَّ قال: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل:٢١] ، عامَّة المفسِّرين على أنَّ الأموات هاهنا هم الأصنام، وأنَّ الميت والحي -وهذا إن كنتم تذكرون في درس «التَّدْمُرِيَّة»- علمْنا أنَّ التقابل

بين الموت والحياة من تقابل النقيضين، فكلُّ من ليس حيًا فإنَّه ميت، ويُطلق عليه في اللُّغة أنَّه ميت.

الله ﷻ هنا علَّق الحكم بذمِّ دعاء غيره بدعاء الأموات، وقلنا إن هذا ينطبق على الأصنام، ولكن ألَا ترونَ أنَّه يشملُ الوصف الأموات الذين هم أقرب إلى الأذْهان في الحكم بهذا الوصف، وهم الذين في قبورهم، وعن قريب سنكون مثلهم؟ يعني إذا قرأت في القرآن عامَّة ما تجد ذكْر الأموات إنَّما يُراد به سُكَّان القبور الذين رحلوا إلى الدار الآخرة، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾ [فاطر:٢٢] ، فالأموات أولئك. فاللَّفظُ إذا نظرْنا إلى معناه فإنَّه يشمل هذا وهذا، فالمقصود هو دعاءُ مَن ليسَ حيًا، الذمُّ هاهنا في دعاء مَن ليس حيًا، وهذا إذا انطبق على الأصنام بهذا الوجه الذي ذكرتُه لكم -وربما كثيرٌ من الناس لا يتصوّره جيدًا- فلأَن ينطبق على المعنى الأقرب إلى الأذْهان هذا من باب أَوْلَى، فيكون هذا شاهدًا أيضًا على ذمِّ دعاء الأموات.

❁ **خُذْ وجهًا سادسًا**: النَّهي عن دعاء وذمّ دعاء مَن لا يقضي شيئًا، تأمَّل قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ [غافر:٢٠] .

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ هذه النظرات المُختَلَسة إلى ما حرَّم الله ﷻ وما ينبني عليها من همٍّ، هذا شيءٌ يعْلمه الله وحده جلَّ في علاه، فمن نظر نظرًا محُرَّمًا وهمَّ في صدره بمواقَعة حرامٍ فالله يعلمُه، والذي وقع في نفسه وصدره خوفٌ من الله ﷻ فحجزَ نفسه عمَّا حرَّم الله ﷻ الله يعلمُه، ثمَّ

عقَّب على هذا بأن بيَّن جلَّ في علاه أنَّ الله يقضي بالحقِّ، والقضاء هاهنا كما فسَّره ابنُ عباس رضي الله عنهما وجماعةٌ من السَّلف بأنَّه الجزاء على الحسنة بالحسنة، والجزاء على السيئة بالسيئة، فيُجازِي هذا الذي وقع في محرمٍ متعلِّق بما سبق في الآية، أو من حجزَ نفسه عن ذلك؛ فالله ﷻ هو الذي يقضي فيه فيُجازِيه بما يشاء سبحانه وتعالى.

وهذا الوصف -أعني هذا القضاء- إنَّما هو شيء يختصُّ به الله سبحانه وتعالى، ثمَّ بيَّن أنَّ الذي يدعون من دونه جلَّ في علاه -وهذا هو حال المشركين الذين تكاثَرَتِ النُّصوص بذمِّهم من هذه الجهة من جهة دعاء غيره جلَّ وعلا- أنهم لا يقضون بشيءٍ. **والسؤال:** أَتعرفون أحدًا من المخلوقين يقضي في هذه الأمور فيُجازِي على الحسنات والسيئات؟ لا والله .

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ ؛ وهذا لا يختص بالأصنام، الأنبياء والله لا يقضون بشيء، والأولياء والله لا يقضون بشيء، إذن دعاؤهم دعاءٌ مذْمومٌ من جنس ما يفعله مَن ذمَّهم الله ﷻ من المشركين الأوَّلين، وهذا هو المطلوب؛ أن نصل إلى نفْي الفارق بين حال المشركين الأولين وحال المشركين المتأخِّرين، ونحن نعلم أنَّ حال المشركين المتأخِّرين أسوأ وأرْدأ من جهات متعدِّدة.

۞ **خُذْ وصفًا سابعًا وهو:** ذمُّ دعاء من لا يملك الشفاعة؛ قال الله ﷻ: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ [الزخرف:٨٦]، وهذا وصفٌ ينطبق على كلِّ أحدٍ سوى الله ﷻ؛ لأنَّ الذي يملك الشفاعة الله ﷻ بنصِّ القرآن ﴿قُلْ

لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] . إذن هذا لا يختص بالأصنام والأوثان والأشجار والأحجار كما يزعم أولئك.

فتبيَّن لنا وصحّ عندنا: أنَّ النهي عن دعاء غير الله ﷻ يعمُّ دعاء كلِّ أحدٍ من المخلوقين، فعادَت هذه الأوصاف أكثرها إلى الأول وهو العموم، كأنَّها جاءت تفسيرًا لقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

هذا كلُّه أردْنا فيه توضيح قول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «**فَلَابُدَّ أن يَقُولَ: نَعَمْ**» ؛ إذا بيّنا له أنَّ الدعاء أمرَ الله ﷻ به، فمن دعا غير الله ﷻ فيكون مشركًا.

قلتُ لكم: إنَّ عامَّتهم جُهَّال ما عندهم بصِيرة ولا عندهم حُجَجٌ، فمثل هذه المناقشة التي أوردَها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ستُلْجِئُ هذا المناظَر إلى أن يُسلِّم فيقول: نعم، خلاص تنتهي المناقشة. لكن قد تُبتَلى، واليوم نحن في زمن الإنترنت، يعني ربَّما في القديم ما تتوفَّر كُتُب القُبوريّين بين العامَّة، لا يتيسر ذلك لكثير منهم، لكن اليوم الوضْع مختلف؛ اليوم هناك كُتُب محمَّلة، هناك موضوعات منثورة، هناك تغريدات سريعة يقرأها الإنسان في أحرف معدودة وإذا بها تُشوِّش عليه، وهناك مقاطع صوتية، هناك مقاطع مرْئيّة في الجوال يرسلونها فتوقد الشُّبه، ولذلك ليس أمرًا مستغرَبًا اليوم أن تجد طفلًا صغيرًا - وهذا حصل معي- كان يناقشني في مسائل دقيقة جدًا وغَريبة، طفل ما يدرك البَدَهِيّات في العلم، ولكن كان يناقش في نقطة دقيقة جدًا وغاية البطلان، وينافح، من أين وصلَ إليها؟! هذه الأجهزة بيد الأطفال، والباب مفتوح، فيعُبُّون عَبًّا منها؛ الشُّبه والإشكالات، تجد الشخص أمامَك محتار مُشوَّش، من كثرة هذه

الشُّبه التي تُلقَى في كلِّ شيء، فالوضع اليوم شوي مختلف، يحتاج منك يا أيُّها الداعية إلى التوحيد أن تكون أكثر اسْتعدادًا وتسلُّحًا بالعلم ، بكيفية مناظرة هؤلاء.

قال المصنف رحمه الله:

إِذَا قَالَ اللهُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]، وَأَطَعْتَ اللهَ وَنَحَرْتَ لَهُ، هَلْ هَذَا عِبَادَةٌ؟

فَلَابُدَّ أَن يَقُوْلَ: نَعَم.

قال الشارح وفقه الله:

الآن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يبيِّن لنا كيفية مناظرة هذا الذي يُشرك بالله عَزَّوَجَلَّ في عبادتَين: قولِية وفعْلية؛ الدعاء والذبح، وهما من أكثر ما يقع من القُبوريّين.

قال: «إِذَا قَالَ اللهُ»؛ انتقل معه إلى نقطة ثانية، خلاص سلَّم الآن لمسألة الدعاء، دعْني أنتقل معك إلى عبادة فعْلية عملية.

قال: «إِذَا قَالَ اللهُ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]، وَأَطَعْتَ اللهَ وَنَحَرْتَ لَهُ، هَلْ هَذَا عِبَادَةٌ؟ فَلَابُدَّ أَن يَقُوْلَ: نَعَم» ؛ وهذا هو الحق أنَّ الذبح عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]. **ووجْهُ الدلالة على كون الذبح والنحر عبادة من الآية من ثلاثة أوْجه:**

❁ **أولًا**: من جِهة الأمر، وقد علِمْنا أنَّ كل ما أمرَ الله به شرعًا فهو عبادة.

❁ **وثانيًا**: التخصيص في قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾ فدلَّ هذا على أنَّ الذبح والنحر ممَّا يُتقرَّبُ به إلى الله عَزَّوَجَلَّ اختصاصًا، هو حقٌّ له.

❁ **ثالثًا**: قَرْنُ الذبح والنحر بالصلاة؛ الصلاة التي هي أشرف العبادات وثاني أركان الإسلام قُرِنَ بها هذا النحر، فدلَّ هذا على أنَّ النحر والذبح عبادة لله عَزَّوَجَلَّ.

وقلْ مثل هذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]، والنُّسُك كما قال ابن عباس وجماعةٌ من السَّلف- وهو الحق-: إنَّ النُّسك إنَّما هو الذبح ؛ ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[البقرة:١٩٦] ؛ ماذا فسَّر النبي ﷺ النُّسك هنا في مسألة الفدية؟ بالذبح، فدلَّ هذا على أنَّ النُّسُك هو الذبح.

والذبح عبادةٌ أَثِيرةٌ عند أهل التوحيد، وعبادةٌ أَثِيرةٌ عند المشركين؛ عبادة لها قدْرٌ وشرْفٌ عند أهل التوحيد يتقرَّبُون بها إلى الله سبحانه وتعالى، ففيها تعظيمٌ لله، وفيها تقرُّبٌ إليه بما يحب، وفيها إنفاقٌ في سبيل الله، وفيها حُسْنُ ظنٍّ بالله. وكذلك الأمر بالنسبة للمشركين؛ فإنَّ من أكثر أفراد شركِهم قديمًا وحديثًا: الذبحُ لطواغيتهم وآلهتهم في القديم والحديث، فالشرك يَرونَ أنَّه ممَّا يقرِّبهم إلى هذه المعبودات، وأنهم إن ذبحوا له رضيَت عنهم وقرَّبتْهم إلى الله زُلْفَى وشفَعَت عند الله، وهي أيضًا عبادةٌ تدلُّ على التعظيم، وهذا ما يتُوقون إليه، كما أنَّ ذلك قد يفعلونه على سبيل الرَّهْبة، قد يكون تعظيمًا، وقد يكون رغبة، وقد يكون رهْبة؛ لدفْع شر وضر مَن يعتقدون فيه أنه يملك الضر يذبحون له، كما كانوا يذبحون للجن لأجل ألَّا تؤذيَهم، فهذا كلُّه من الشرك الذي كان يقع قديمًا، ولا يزال يقعُ إلى هذا اليوم، من المشركين الذين شابهُوا الأولين، صاروا يذبحون لأهل القبور وللجن، وهذا معروف من حالهم.

قال المصنف رحمه الله:

إِذَا قَالَ اللهُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]، وَأَطَعْتَ اللهَ وَنَحَرْتَ لَهُ، هَلْ هَذَا عِبَادَة؟ فَلَابُدَّ أَن يَقُوْلَ: نَعَم.

قال الشارح وفقه الله:

لا شكَّ أنه عبادة، «فَلَابُدَّ أَن يَقُوْلَ: نَعَم» ؛ لا شكَّ أن هذه العبادة يتحقَّق بها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ، فإذا ذبحتَ لله بـ «اسم الله» جمعتَ الأمرين، ذبحتَ لله حقَّقت ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وإذا ذبحتَ بـ «اسم الله» وأَهْلَلْتَ باسمه مسْتعينًا به سبحانه وتعالى فأنت حقَّقت ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وهذه عبادة أهل التوحيد؛ أنهم يذبحون لله باسم الله.

وأمَّا المشركون فإمَّا أن يذبحوا باسم الله لغير الله، وإمَّا أن يذبحوا لله باسم غيره ، وإمَّا أن يذبحوا لغير الله باسم غيره؛ وكلُّ ذلك ضلالٌ في ضلالٍ، وظُلمات بعضها فوق بعض

فمن ذبح لله باسم غيره فقد أشرك في الاسْتعانة.

ومن ذبح لغير الله -ولو ذكر اسم الله- فقد أشرك في العبادة.

ومن جمعَ السَّوأَتين فذبح باسم غير الله لغير الله فهذا جمعَ السَّوْأَةَ كلها.

قال المصنف رحمه الله:

فقل له: فَإِذَا نَحرْتَ لِمَخْلُوْقٍ نَبيٍّ أَوْ جِنِّيٍّ أَوْ غَيْرِهِما، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي هَذِهِ العَبَادَةِ غَيْرَ اللهِ؟

فَلَابُدَّ أَن يَقُوْلَ: نَعَم.

❋ ❋ ❋ ❋

قال الشارح وفقه الله:

وعندنا قاعدة متَّفقٌ عليها هاهنا: إذا ثبت أنَّ هذا الفعل عبادة كان صرْفها لغير الله شرك، كلما ثبت أنه عبادة فصرْفه لغير الله شرْكٌ، ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦].

قال المصنف رحمه الله:

فَقُلْ لَهُ أَيضـًا: المُشْرِكُوْنَ الذِيْنَ نَزَلَ فِيهِمُ القُرْآنُ هَلْ كَانُوْا يَعْبُدُوْنَ المَلَائِكَةَ وَالصَّالِحِيْنَ وَاللَّاتَّ وَغَيْرَ ذَلِكَ؟ فَلَابُدَّ أَن يَقُوْلَ: نَعَم.

❋ ❋ ❋ ❋

قال الشارح وفقه الله:

ومرَّ بها الأدلة على ذلك.

قال المصنف رحمه الله:

فَقُلْ لَهُ: وَهَلْ كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَّا فِي الدُّعَاءِ وَالذَّبْحِ وَالالْتِجَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

قال الشارح وفقه الله:

الالْتجاء في مجاري كلام علمائنا علماء التوحيد:

- إمَّا أن يُرادَ به الدعاء، وهذا أكثر.
- وإمَّا أن يراد به الاسْتعاذة.

ويُعرفُ ذلك من خلال قرينة، قرينة السياق أو نحو ذلك.

قال المصنف رحمه الله:

وَإِلَّا فَهُمْ مُقِرُّوْنَ أَنَّهُمْ عبيده، تَحْتَ قَهْرِ اللهِ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الذِي يُدِبَر الأمر، ولكن دَعَوْهُمْ والْتَجَؤُوا إليهم لِلجاهِ والشَّفاعَةِ، وهذا ظاهِرٌ جِدًّا.

قال الشارح وفقه الله:

وهذا ما مرَّ بها سابقًا من حال المشركين ، وأنهم كانوا يعتقدون أنَّ الخلْق والرزق والتدبير والملك والهداية والإضلال والإحياء والإماتة أنَّ ذلك كله بيد الله سبحانه وتعالى.

فوصل المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بقارئ هذا الكتاب إلى المقصود؛ وهو: إلْجاؤه الخصْمَ إلى التسْليم بأنَّ الأفعال التي يقوم بها القُبوريّون اليوم من جنس ما كان يقوم به المشركون الأولون. وعليه فتبيَّن ضلالُ هذه الحال ووجوب التوبة إلى الله سبحانه وتعالى منها.

وهذا مسْلَكٌ مهمٌّ في الدعوة إلى التوحيد والتحذير من ضِدِّه -يا إخوتاه- وهو: بيان نفْي الفارق بين حال المشركين الأولين وحال المشركين المتأخِّرين، وهذا نافعٌ جدًا في الدعوة إلى التوحيد وبيان حقيقته. ومن وُفِّقَ لسُلوك هذا المسْلك فإنه سيتبيَّن له نفْعه؛ أنه مسْلكٌ نافع جدًا في تجْلية حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في أعين العامة، فيفهموا ماذا أراد الله، وماذا أراد رسولُه ﷺ في هذا المقام العظيم.

والله عَزَّ وَجَلَّ أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

فَإِنْ قَالَ: أَتُنْكِرُ شَفَاعَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَتَبَرَّأُ مِنْهَا؟

فَقُلْ لاَ أُنْكِرُهَا، وَلاَ أَتَبَرَّأُ مِنْهَا ؛ بَلْ هُوَ ﷺالشَّافِعُ الْمُشَفَّعُ، وَأَرْجُو شَفَاعَتَهُ، وَلكِنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا للهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿قُل لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤].

قال الشارح وفقه الله:

عطفَ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُالكلام عن الشفاعة عَقِيبَ كلامه عن العبادة والشرك فيها، وسببُ ذلك ظاهرٌ؛ فإنَّ قاعدة الشرك الأساسية هي: أنَّ المشركين قد تعلَّقت قلوبُهم بالشفاعة، فأعظمُ شركِ المشركين قديمًا وحديثًا راجعٌ إلى اتخاذهم الشفعاء، القوم اعتقدوا أنَّه لا يحصل مرْغوبٌ، ولا يُدفَعُ مرهُوبٌ إلَّا باتخاذ واسطةٍ بينه وبين الله عَجَّلَ، فقدْر الله عندهم قدْرُ ملِكٍ من الملوك أو سلطان من السلاطين الذين لا تنجح المقاصدُ عندهم إلَّا إذا توسط لدَيهم شافعٌ يقبلون شفاعته؛ هذا هو أساس شرك المشركين، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ :

فالشّركُ تعظيمٌ بجهْلٍ ... مِن قياسِ الرَّب بالأُمراءِ والسُّلْطانِ
ظَنُّوا بأنَّ البابَ لا يُغْشَى ... بدونِ توسُّط الشفعاءِ والأعْوانِ

وبئس القياس، فالبَون شاسعٌ - وربِّ السماء - بين الرب الملك العظيم سبحانه، وبين ملوك الدنيا الفقراء الضعفاء المحتاجين، ملوكُ الدنيا لم يسعوا النَّاس رحمةً وعلْمًا؛ فلذا هم بأمسِّ الحاجة إلى مَن يُعْلِمُهم بما يجهلون من

حال الرَّعية، وإلى من يُنبِّهُهُم إلى عواقب الأمور، وإلى من يُعَطِّفُ قلوبَهم على رعيَّتهم، وأشياء أخرى من هذا القَبِيل. أمَّا الله جلَّ في علاه فإنَّه قد وسع كل شيء رحمةً وعلْمًا؛ فهو العليم بأحوال عباده، الحكيم الذي له في كل ما يقدِّرُ فيهم حكمةٌ بالغة، والذي رحمتُه وسعَت كلَّ شيء، فما حاجتُه وهو الغني بذاته إلى هؤلاء الشفعاء.

إذن تنبَّه - يا رعاكَ الله - إلى هذا الأمر الذي قد اسْتولَى وتمكَّن من قلوب هؤلاء المشركين في القديم والحديث، إنها لحُجَّتُهم قديمًا وهي حُجَّتُهم حديثًا، فلا يزالون يردِّدُونها، يقولون: إنَّ من له جاهٌ عند الملِك حصولُ المقصِد والحاجة تكون أرْجى بتوسطه بهذا الذي له جاهٌ وحظْوة وله إدْلالٌ عند صاحب الأمر، فلذا نحن نقصُدهم وهم يرفعون الحوائج والرغبات، نسألهم وهم يسألون الله، وهذا أقرب وأنجح في تحصيل المقصود. إنهم يسِيرون حذْو القُذَّة بالقُذَّة سَير المشركين الأولين - ولا فرْق - ؛ الحُجَّة نفسها، والسِيرة نفسها.

إذن تنبَّه - يا رعاكَ الله - إلى هذا الأمر وهو: أنَّ أعظم أسباب شرك المشركين قديمًا وحديثًا تعلقهم بالشفاعة.

وممَّا يقربُ فهْم ذلك لك: أن تنظر في حالهم كيف أنَّهم إذا وردوا يوم القيامة ورأوا تلك الأهوال العظيمة وما هو ينتظرهم فإنَّهم مباشرة يسألون عن هذا

الشيء الذي تعلَّقت قلوبهم به: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف:٥٣] مباشرة ذهْنُهم الْتفت إلى هذا الشيء الذي استولَى على قلوبهم.

كذلك يندبُون حظَّهم وقد كُبْكِبُوا في النار - عياذًا بالله - فيقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء:١٠٠] هذه هي القضية التي كانت المسْتولية عليهم في الدنيا التعلُّق بالشفاعة، وظنُّوا ظنًا فاسدًا أنَّهم يعظمُون الله، وأنهم أحقر من أن يرفعوا حوائجهم إلى الله؛ وهذا تعظيمٌ فاسد، صاحَبه سوء ظنٍّ بالله ﷻ، ظنُّوا به ظنَّ السَّوء، ظنُّوا به غير الحق، وصدَقَ الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر:٦٧]، لو قدروا الله حقَّ قدْره لعظَّموه حقَّ تعظيمه، فاعتقدوا أنَّه القدير، الرحيم، العليم، المُجيب، السميع، البصير سبحانه وتعالى، توجهوا إليه وحده، وسألوه وحده، لو عظموه حقَّ تعظيمه لصدَّقوا كلامه وكلام رسوله ﷺ، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، ما قال الله: الْتمسُوا من يشفع لكم عندي حتى تحصلوا على مقاصدكم. إذن هذا شيء مهمٌّ لابدَّ من فهْمه ابتداءً، لماذا ترْكيز القوم على موضوع الشفاعة؟

وحتى تفهم هذا الموضوع الفهم الصحيح؛ فإني أُنبِّهُك إلى أنه منضبطٌ بثلاثة ضوابط، إن فهمتَها واسْتوعبتَها جيدًا فأبشر بأنك - بتوفيق الله - وصلْت إلى فهم الموضوع الفهم الصحيح، وتزول عنك - بتوفيقه سبحانه - كلُّ شُبهة تتعلَّق به.

۞ **الضابط الأول: فرْقٌ بين الشفاعة الدنيوية والشفاعة الأخروية**، انتبهْ لهذا فإنَّه فُرْقانٌ عظيم في هذا الباب بين الحقّ والباطل، فرْقٌ، وإنَّه لفرْقٌ شاسع بين الشفاعة الدنيوية التي يعرفها النَّاس ويتعارفونها فيما بينهم ويطلبونها فيما بينهم، وبين والشفاعة الأخروية التي تكون بين يدَي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، والقوم خلَطُوا بينهما، فضلُّوا كثيرًا.

وأنتَ إذا تأمَّلت في آيات القرآن في شأن الشفاعة وجدتَ أن الشفاعة تارةً تُنفَى نفيًا مطلقًا، ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وتجد تارةً إثباتَ أنَّ الشفاعة كلها لله، ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]، وتارةً تجدُ نفْي الشفاعة إلَّا بإذنه، وتارةً تجد نفْي الشفاعة إلَّا فيمن رضيَ اللهُ عنه. إذا لاحظْتَ هذه المسالك في بيان موضوع الشفاعة يتلخَّص لك أنَّ الشفاعة الدنيوية المعروفة في النَّاس منفية في الآخرة، والثابت في الآخرة شفاعةٌ ملْكٌ لله تباركَ وتعالى، لا تكون إلَّا بإذنه فيمن رضيَ عنه. هذه خلاصة الموضوع.

وأعودُ فأقول: فرْقٌ بين الشفاعة الدنيوية المنفية، والشفاعة الأخروية التي هي ثابتة يوم القيامة. **والفُروق يُمكن أن نعيدها إلى ثمانية فروق**:

۞ **الفرق الأول**: الشفاعة الدنيوية التي يعرفها الناس والتي يطلبها الناس؛ الشافع فيها مُحَركٌ مؤثر ، بلْ ربَّما كان بمنزلة الآمِر المُكرِه، الشفاعة التي تكون

في الدنيا وهي التي عرفْنا أنها الوساطة في قضاء الحوائج؛ الشافعُ فيها يُحرِّكُ قلْبَ المشفوع عنده لأجل أن يُرضِّيَه وهو كارِه، أو أن يعطِّفه وهو مُبغض، أو أن يجعله موافقًا وهو رافض، إلى آخر ما هنالِك، فهو يُؤَثِرُ في المشفوع عنده، ويجعله يغيّر رأيَه فيعطف أو يرحم مسجونًا أو معاقَبًا، أو يمنح منحةً أو وظيفة أو ما شاكل ذلك؛ فصار هذا الشافع هو الذي حرَّك المشفوع عنده فأثَّر عليه، بلْ ربَّما - كما ذكرتُ لك - كان بمنزلة الآمِر المُكْرِه إذا كان له حظْوةٌ عظيمة عند المشفوع عنده، وله عليه إدْلالٌ كبير، وله عليه سلطان؛ كابنه الذي يحبه جدًا، أو كزوجِه، أو كصديقِه الحميم، أو ما شاكل ذلك، فإنَّ الأمر ربما يقرُب إلى درجة أن يكون آمِرًا مُكرِهًا، والمشفوع عنده يخضع ويرْضخ لطلبِه؛ فيوافق.

أوَ يظنُّ مسلمٌ هذا الظنّ في الله ﷻ؟! أن الله ﷻ كان جاهلًا بعواقِب الأمور - وحاشاهُ وجلَّ ربُّنا وعزَّ - ثم جاء الشافع فأعلَمَه بما كان يجهل من عواقِب الأمور! أو أَبَانَ له الحكمة في شيء أراد غيره! أيظنُّ أحدٌ هذا في الله ﷻ ؟ في الله الذي لا مُكرِه له، في الله الذي هو عليم بكل شيء، في الله الذي هو قائم على كل نفس بما كسَبَت، في الله الذي يريد وما أراده كونًا فإنَّه كائنٌ لا محالة، هل يظنُّ أحدٌ هذا في الله ﷻ؟! إذن شتَّان بين الظنّ الذي ظنُّوا أن الشفاعة في الآخرة من جنس الشفاعة التي تكون في الدنيا.

۞ **الفرق الثاني**: وهو أنَّ الشفاعة الدنيوية يُحدِثُ الشافع في علْم المشفوع

عنده ما لم يكن يعلم، كما أبَنْتُ هذا آنفًا، ويَزيدُ هذا الفرق الأمر بيانًا ؛ أنه يُعلمه بأشياء كانت غائبة عنه، أنت تعاقِب شخصًا بريئًا لا يستحق فأنا أتوسط عندك في العفو عنه، فهو يُحدِثُ في علْم المشفوع عنده شيئًا ما كان يعلمه. وهذا لا يجوز أن يُعتقدَ في الله تباركَ وتعالى ، بلْ من اعتقده في الله كفرَ، فالله بكل شيء عليم، وعلْمُه جلَّ وعلا واسعٌ شامل لكلِّ شيء، ما كان وما هو كائنٌ وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

۞ **الفرق الثالث**: أنَّ الشفاعة الدنيوية حصول المقصود بها إنما يكون بمشاركةٍ بين الشافع والمشفوع عنده، قال تعالى: ﴿**وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ**﴾ [الأنعام:٩٤] ؛ شركاء في حصول المقصود، هذا لا يكون في الآخرة، أمَّا في الدنيا فيكون، حصولُ المقصود من الشفاعة -الغاية التي شُفِعَ فيها- لا تحصل في الشفاعة المعروفة بين الناس إلَّا إذا تشارك الشافع والمشفوع عنده، فاجتمع الأمران:

- شفاعةٌ وتأثيرٌ من الشافع.
- وفِعْلٌ من المشفوع عنده.

فحصل المقصود بهذه المشاركة، والله وِتْرٌ لا يُشفَع، الله واحدٌ أحد لا شريك له، لا يُشاركُه أحدٌ في شيء من الأشياء قط.

إذن: من ظنَّ ثُبوت شفاعةٍ من جنس الشفاعة التي اعتقدها المشركون يوم القيامة فقط ظنَّ بالله ظنَّ السَّوء، هذا هو ظنُّ الجاهلية الذي أوْردهم التَّلَف، ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت:٢٣] ، إي والله أرْداهُم هذا الظنّ الذي ظنُّوه في الله تباركَ وتعالى.

❁ **الفرق الرابع**: قَبول المشفوع عنده للشفاعة الدنيوية راجعٌ إمَّا إلى:

◉ رغْبة.

◉ وإمَّا إلى رهْبة.

◉ وإمَّا إلى حاجة.

الشفاعة التي تكون في الدنيا ويعرفها الناس وجاء نفْيها في كتاب الله ﷻ شفاعةٌ يقبلها المشفوع عنده؛ إما لرغبة يريد أن يكسبَ محبَّة من شفع عنده لأنه يزْداد بهذا حظْوةً عنده، أو على الأقل يرغب في الأجر إن كان صالحًا، لابدَّ أنه يرغب في شيء يريد تحصيل شيء لم يكن حاصلًا، أو يريد تحصيل شيء موجود فيريد الزيادة منه، أو رهْبة يخاف أنَّه إن ردَّ الشافع انفضَّ عنه وتكدَّر خاطره أو تغير ولاؤُه.

الشفاعة التي يتعارفها الناس اليوم غالبًا تدور بين شفاعة محبة، وشفاعة وجاهَة، أن يشفعَ حبيبٌ عند مُحبِّه، أو أن يشفع وجيهٌ عند صاحب شأنٍ؛ كأمير

ورئيس الجُند وما شاكل ذلك، فهو يخشى أنه إن ردَّه يتغير عليه أو أن ينفضَّ من بقائه عنده، أو لحاجة هو يحتاجه ويريد أن يلبِّي له هذا لأن له حاجة عنده، اعملْ لي وأعملُ لك، اصنعْ لي وأصنعُ لك، لَبِّ وألبِّي لك، وهكذا أحوال الناس، أمورهم تقوم غالبًا على سبيل المُعاوضَة، فهو يحتاج فيقبل بناءً على هذه الحاجة، وحتى لو لم يقبل، وحتى لو ردَّه فإنه يبقى متكدِّر الخاطر، منغَّصًا في حاله إن ردَّ شفاعة شخصٍ يحبه أو يحتاجه أو ما شاكل ذلك.

وإنِّي لأسألُكُم: أَيُظنُّ هذا في الله أنه يقبل شفاعة الشافعين يوم القيامة لرغبة منه أو رهْبة أو حاجة؟! نعوذ بالله من هذا الظنّ، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الصافات:١٨٠] ، الله هو الغني بذاته، يسْتحيل إلَّا أن يكون غنيًا، غنيٌّ بذاتِه تباركَ وتعالى، له الغِنى المُطلق عن كل أحد وعن كل شيء، سبحانه وتعالى. إذن فرْقٌ بين الشفاعة التي اعتقدها المشركون وأنَّها تكون لشفعائهم، والشفاعة التي أثبتها الله ﷻ وستكون يوم القيامة، فرْقٌ شاسِع.

۞ **الفرق الخامس**: في الشفاعة الدنيوية اعتماد المشفوع له غالبًا على الشافع لا المشفوع عنده، في الشفاعة الدنيوية اعتماد وتعلُّق الشافع والرجاء الذي يكون عنده إنما يتعلق غالبًا بالشافع وليس بالمشفوع عنده، ولذلك يتلطَّف ويقول الأمر معلَّق بك لابدَّ أن تجتهد لي في حصول مقصودي. ولذا مِمَّا

يدلك على هذا: ما ذكرتُه لك آنفًا أنَّ قلوب القوم متعلقة بالشفاعة والشفعاء، حتى قال قائلهم:

إن لَم تكن في مَعادِي آخِذًا بيدِي   فضْلًا، وإلَّا فَقُلْ: يا زَلَّة القَدَمِ

القضية معلقة بماذا؟ بشافع يشفع، فيأخذ بيده. والذي لا يرْتاب فيه مسلم: أنَّ الرجاء والتوكل والاعتماد والتفويض يجب وجوبًا أن يتعلَّق بالله، أن يتعلَّق بالمشفوع عنده سبحانه وتعالى، بخلاف حال الشفاعة التي تكون في الدنيا.

۞ **الفرق السادس**: الشفاعة الدنيوية لا يفتقر الشافع فيها إلى المشفوع عنده لا إذْنًا ولا أمْرًا. حتى يشفع الشافعُ في الدنيا؛ فإنَّه لا يفتقر ولا يحتاج أن يأخذ إذْنًا من المشفوع عنده، إنَّما يهْجم عليه هُجومًا، شاءَ أم أَبَى، حتى ولو على كُرْهٍ منه، حتى لو كان صاحب الشأن وصاحب الأمر والقرار لا يريد أن يكلمه أحدٌ في شأن فلان، لا يريد، انتهى الأمر عنده وهو عازمٌ على الإيقاع به، تجد أن هذا الشافع يشفع عنده ولو لم يُردْ، ولو كَرِهَ.

وهل يَظنُّ مسلمٌ أن هذا يكون في الشفاعة الأُخْروية التي يشفع فيها الشفعاء عند ربِّنا جلَّ في علاه؟! ولذا يقول سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، انظرْ إلى هذا الاسْتفهام الإنكاري المَشوبِ بالتحدِّي، مَن يجرؤ على أن يشفع عند الله دون أن يأذن الله إذْنًا كونيًا وإذْنًا شرعيًا، فيأذن الله ويشاءُ الشفاعة، ولو لم يكن هذا واللهِ لا تكون، ويأذن إذْنًا شرعيًا فيأمر بالشفاعة

ويقول للشافع: اشفع، «واشْفعْ تُشفَّع» كما في «الصحيحين»، فشأْنُ الله أعظم ممَّا ظنَّه المشركون، شأْنُ الله أعظم من أن يشفع أحدٌ عند الله دون أن يأذن سبحانه وتعالى، ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود:١٠٥] ، واللهِ ما أحدٌ يجرؤُ على أن يتكلَّم بين يدَي الله ﷻ إلَّا بعد إذْنه تباركَ وتعالى. إذن شتَّان بين الشفاعة الدنيوية التي ظنَّها المشركون، والشفاعة الأخروية التي أثْبَتَها الله سبحانه وتعالى.

❁ **الفرق السابع**: الشفاعة الدنيوية لا تسْتلزم رضا المشفوع عنده عن المشفوع له؛ ولذا يُشفعُ عند أهل الدنيا في كل أحد، فيمَن يَرضى عنه، أو من لا يَرضى عنه المشفوع عنده، فإنه ليس بشرط، أمَّا شأْن الله فأعظم، قال تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:٢٨] ، من رضيَ الله عنه وأراد رحمتَه هو الذي يأذن الشفاعة فيه، وما سِواه فلا.

❁ **الفرق الثامن**: الشفاعة الدنيوية يُهملُ فيها كثيرًا اتخاذُ الأسباب المُوصِلة إلى تحصيل المقصود اعتمادًا عليها؛ في أمور الدنيا إن كان يطمح إلى منصب أو إلى وظيفة أو إلى دراسة وهو يعلم أن عنده شفاعة- أو كما يقولون اليوم: عنده واسطة قوية- فإنه لا يهتم كثيرًا بالاسْتعداد والمثابرة وتحصيل السَّبب؛ لأن عنده كما يقولون: عنده حرْف الواو، عنده واسطة.

أما الشفاعة في الآخرة فإن حصولها لأحدٍ يسْتلزم تحقيقَه العبودية، لا الخروج من رِبْقة العبودية؛ وهذا من المزَالق التي انزلق فيها المشركون، فإن التساهل بيِّنٌ في الْتزامهم بالشرع بلْ واضحٌ تحلُّلهم من رِبْقة العبودية، ووقوعهم في ضدّها وهو الشرك بالله ﷻ؛ لأنهم واثقون تمام الثقة أن الشفاعة تبلِّغُهم مأمْنًا وتحصِّل مرْغوبهم، لماذا التعب!

أمَّا الموحِّدُون فإنهم اعتقدوا أن سبب تحصيل الشفاعة إنما هو تحقيق العبودية وتخليصها وإفْراد الله ﷻ بها، ولذا لمَّا سأل أبو هريرةَ رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ، فقال: «مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» ، هل وقفتُم في شيءٍ من الروايات أن النبي ﷺ قال له: "هو الذي فوَّض الأمر إليَّ، وسألَني إيَّاها، وتوجَّه إليَّ في شأْنها"، وقفتُم على شيءٍ من هذا؟! ما الذي قاله ﷺ ؟! «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصَةً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ» ، التوحيد: إخلاص الدين لله وحدَه لا شريكَ له، وهذا الحديث في «صحيح البخاري»، وفي قَرِينه «صحيح مسلم» قوله ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَتِي لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا».

إذن الشفاعة الأُخْروية لابدَّ فيها من حصول سببها وهو تحقيق العبودية لله ﷻ؛ حتى يفوز الإنسان بِرضا الله فيكون مُؤَهَّلًا للشفاعة، والله لا يَرضى إلَّا

توحيده وإلَّا اتباع نبيِّه ﷺ.

إذن هـذه - يـا إخوتـاه - هـي الفُـروق التـي يتجلَّـى بهـا الفـرق بـين المُثبَـت والمنفِي، وهذه مسألة في غاية الأهمّية، انـزعْ مـن قلبِك أيَّ ظـنٍّ مـن أن الشـفاعة التي تكون يـوم القيامـة للنبي ﷺ أو للأنبيـاء أو للملائكـة أو للمـؤمنين أنهـا تُشْبِهُ الشفاعة التي يعرفها الناس اليوم، الأمر لـيس كـذلك البَتَّة، بـين المَقـامَين شـيءٌ عظيم من الفرق، ولـذا نفى الله ﷻ هـذه الشـفاعة المظْنونـة، بـلْ لا تكـاد تجـد أن الشفاعة الأُخْروية تَرِدُ إلَّا اسْتثناءً؛ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾؛ وهـذا لأجـل أن يُنـزعَ مـن القلـوب أيُّ اشْـتباه بـين الشفاعتَين، فالشفاعة الأُخْروية فيها تعظيم لله، والشفاعة التي ظنَّها المشـركون- وظنُّهم ظنٌّ باطل- توهَّمُوا أن هناك شفعاء، والواقع أنه لا شفعاء، بمـا ظنُّـوا واللهِ ما في شفاعة ولا شُفعاء، والشأن في هذا كالشأْن في الآلهة ؛ اتخـذوا آلهـة والواقـع أنه لا آلِهة حقًّا معَ الله، كذلك لا شفعاء كما ظنَّ هؤلاء، ولا يكون شيء مـن هـذا البَتَّة ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ ، إذن هـذا أساسٌ مَتينٌ لفهْم هذا الموضوع.

❁ **الضابط الثاني: الشفاعة مِلْكٌ لله،** ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ ، هذا أساسٌ مَتينٌ يجب أن تعتقدَه - يا عبد الله - ، الشفاعة مِلْكٌ لله، فهو يأذن بها إذا شاء لمن

شاء في الوقت الذي يشاء، فيمَن شاء، فالأمر منه وإليه تباركَ وتعالى. حقيقة الشفاعة- يا إخوة- : أنَّ الأمر فيها ابتداءً وانتهاءً راجعٌ لله ﷻ، حقيقة الأمر لخَّصَهُ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «إغاثة اللّهْفان» وبالمناسبة عقدَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فصلًا في هذا الكتاب في بيان الشفاعة، كلامُه فيه من أحسن الكلام بلْ لعلَّك لا تجد مَن جلَّى هذا الموضوع وأوْضحَه كما ينبغي كما فعلَه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الفصل من كتابه «إغاثة اللّهْفان»، أنا أُؤَكِّدُ عليك إن كنتَ تريد فهْم هذا الموضوع على وجْهِهِ أن تقرأ هذا الفصل.

أقول - يا إخوة -: ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في حقيقة الأمر في الشفاعة: «أنَّ الله سبحانه وتعالى يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده»، أو كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النُّونية:

سَبَقَتْ شفاعتُه إليهِ ... فهوَ مشْفوعٌ إليهِ وشافعٌ ذُو شانِ

فالكلُّ منْه بدَا ومرْجعُه إليهِ ... وحدَه ما منْ إلهٍ ثانِ

الأمر ابتداءً وانتهاءً إلى الله تباركَ وتعالى.

تأمَّل - يا رعاكَ الله - الله ﷻهو الذي أهَّل الشافع لأجل أن يشفع، والله ﷻ هو الذي حرك الشافع لأجل أن يشفع، والله ﷻ هو الذي أذِنَ له أن يشفع، والله هو الذي أمرَه أن يشفع، والله هو الذي خلقَ فعْلَه، والله هو الذي أهَّل المشفوع له لأَن يكون أهلًا للشفاعة، والله هو الذي تفضَّل بقبول الشفاعة؛ أليسَ هذا الكلام حقٌّ وصدق؟ ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾، الأمر منه وإليه تباركَ وتعالى؛

إذن لا ينبغي أبدًا أن تتعلَّق القلوب بغيره.

يا مَن يطلب الشفاعة ويرجوها سَلْهَا وارجُهَا لَدَى من هو المالك لها وحده لا شريك له، إنَّه الله سبحانه وتعالى، ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾، هذه الآية وحدها كافيةٌ في نزْع جُذور الشرك في باب الشفاعة من القلب، من أعطاها حقَّها من التأمُّل والتدبر كفتْه عن كثير من الكلام، ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾.

قد يقول قائلٌ: وما الفائدة من الشفاعة إذن! إذا كان الأمر ابتداءً وانتهاءً إليه سبحانه؟

الجواب أن قول: ثمَّة فائدتان:

❁ **الأُولى**: أن الشفاعة سببٌ جعلَه الله لرحمة عباده، وله في ذلك الحكمة سبحانه وتعالى.

❁ **الثانية**: إكْرامٌ من الله ﷻ للشافع.

فلِذَا أقامَ الشَّافِعِين كرامةً لَهُمُ ... ورحمَةَ صاحبِ الإحْسانِ

هذان الأمران كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

فلِذَا أقامَ الشَّافِعِين كرامةً لَهُمُ ... ورحمَةَ صاحبِ الإحْسانِ

المُوحِّد الذي ارتضى الله سبحانه وتعالى عملَه.

❁ **الضابط الثالث: فرْقٌ بين الشفيع من دونه، والشفيع بإذْنه**؛ هذا أيضًا يُبيِّنُ لك الفرق بين ما اعتقده الموحِّدون وما اعتقده المشركون، فرْقٌ بين الشفيع من

دونه والشفيع بإذْنه.

المشركون اعتقدوا الشفيع من دونه، والموحِّدون اعتقدوا أن الشفيع يكون من بعد إذْنه سبحانه وتعالى، قال الله جلَّ وعلا عن المشركين: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ﴾ [الزمر:٤٣] «أَم» للإضْراب، تُفيد معنى: «بلْ»، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ﴾ «من دون الله»، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ [السجدة:٤] «من دون» يعني: غير، وهذه مرَّت بنا كثيرًا، «من دونه» يعني غيره، اتخذوا شفيعًا من دون الله سبحانه وتعالى. أمَّا أهل التوحيد فاعتقدوا ما بيَّن الله ﷻ؛ أن الشفيع يكون بإذْنه؛ ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ ، ما يوجد البَتَّة، لا يكون أبدًا أن شفيعًا يشفع إلَّا من بعد إذْن الله ﷻ .

ما الفرق بينهما؟ الفرق بينهما هو الفرق بين الشريك والعبد، هو الفرق بين محرِّكٍ ومُحَرَّك؛ الذي اعتقده المشركون قديمًا وحديثًا: الشفيع من دونه، اعتقدوا أنَّ الشافع هو الذي حرَّك المشفوع عنده ليفعل. والمؤمنون اعتقدوا أنَّ الله تعالى هو الذي حرَّك الشفيع ليشفع، أَرَأيتَ الفرق؟ فرْقٌ بين شريك وعبدٍ مأمور.

قلْنا: إنَّ الشفاعة التي نفاها الله، الشفاعة الدنيوية، الشفاعة التي اعتقدها المشركون في شفعائهم ؛ هذه الشفاعة حقيقتها مُشاركةٌ بين الشفيع والمشفوع عنده في حصول المقصود، هذا بشفاعته، وهذه بفعْله، بأمْره، بقراره.

إذن: الشفيع من دونه شريك، والله لا شريك له، ولذا تكرَّر في القرآن نفْي الشفيع من دونه، أمَّا الثابت ما بيَّنه الله في القرآن، ما اعتقده المسلمون: أن ثَمَّة شفيعًا أو شفعاء ولكن من بعد إذْنه، فالله هو الذي يحركهم للشفاعة، هو الذي يشاءُ أن يشفعوا، هو الذي يأذن لهم بالشفاعة ، بلْ هو الذي يأمرهم أن يشفعوا، والشافع لا يملك إلَّا أن يطيع، المسألة مسألة أمْر؛ ولذا نبينا ﷺ كما ثبت في «الصحيحين» من حديث أنس ومن حديث أبي سعيد رضي الله تعالى عنهما؛ لمَّا ذكر النبي ﷺ ما يكون من الأمور يوم القيامة من أمورٍ عظيمة أَقِفُ عند موضوع الشفاعة، الشفاعة العُظمى في فصْل القضاء حينما يعود الأمر إلى النبي ﷺ فيسأله الناس، ماذا قال ﷺ؟ ما الذي يكون؟ انظر ؛ مجموع الأحاديث يدلُّ على الآتي: أولًا: أن النبي ﷺينطلق فيستأذن على ربِّه، لا يتقدَّم بين يدَيه بإدْلاله ومشيئته.

لله حَقٌّ لا يكونُ لغيرِه ولِعبدِه حَقٌّ هما حَقَّانِ

الله ﷻ له حقٌّ، ولنبيه ﷺ حقٌّ، فإيَّاك والخلْط بين الأمرين؛ إذن يسْتأذن، ثمَّ إذا رأى الله ﷻفإنَّه يقوم مقامًا طويلًا يحمدُ الله فيه محامد يفتحها الله عليه في ذاك الحين، ثمَّ يخرُّ لله ساجدًا سجودًا طويلًا يحمده فيه -في هذا السجود- بمحامد يفتحها الله عليه حينَها، ثمَّ يقول الله ﷻله: «يا محمد، ارْفعْ رأسَك، وقُلْ يُسمَع، وسَلْ تُعطَى، واشْفعْ تُشفَّع»، فيقوم النبي ﷺ ويحمدُ الله بمحامد يفتحها الله

عليه، ثمَّ يشفع.

أَرَأَيتَ الفرْق بين الشفاعة الدنيوية والشفاعة الأُخروية؟ أَرَأَيتَ الفرْق بين الشفاعة التي اعتقدها المشركون ونفاها الله ﷻ، والتي اعتقدها الموحِّدون وأثبتها الله ﷻ، الفرْق بين الشفيع من دونه والشفيع من بعد إذْنه.

إذن هناك فرْقٌ شاسِعٌ بين المقامَين؛ فالقلوب يجب أن تتعلَّق بالله لا بأحدٍ من الشفعاء، والطلب والسؤال في شأن الشفاعة يجب أن يتوجَّه به العبد إلى الله سبحانه وتعالى.

وممَّا يدلُّك على هذا زيادة: أن الله ﷻ يحدُّ له -ﷺ- حدًّا لكي يُخرجَهُم من النار، ثمَّ لمَّا يريد أن يشفع شفاعة ثانية ما يأتي أيضًا ويهجم على الشفاعة مباشرة، ما الذي يحصل؟ يعود فيحمد ويسجد ويحمد، ثم يقوم فيَحمد، ثمَّ يُقال له: «يا محمد ارْفعْ رأسَك، وقُلْ يُسمع، وسَلْ تُعطى، واشفع تُشفَّع»، فيشفع، أربع مرات يتكرَّر الأمر، أربع مرات!! والقوم يقولون: "الشفاعة مِلْكٌ لرسول الله ﷺ، فيشفع عليه الصلاة والسلام لأنه مالكٌ لها"، أَهذا يكون الفعْل مالك للشفاعة؟ أو أن الله هو المالك للشفاعة، والنبي ﷺ مأذونٌ له بها؟ بلْ مأمورٌ أن يشفع، وهو لا يملك إلَّا أن يستجيب عليه الصلاة والسلام، عبدٌ مُطيع لربِّه.

إذن: لتكُنْ هذه الأصول والضوابط منكم على ذُكْر:

❁ **أولًا**: فرْق بين الشفاعة الدنيوية والشفاعة الأخروية.

❁ **ثانيًا**: الشفاعة ملْكٌ لله ﷻ.

❁ **ثالثًا**: فرْقٌ بين الشفيع من دونه والشفيع من بعد إذْنه.

وللحديث تَتِمَّة إن شاء الله.

والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

فَإِنْ قَالَ: أَتُنْكِرُ شَفَاعَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَتَبَرَّأُ مِنْهَا؟

فَقُلْ: لاَ أُنْكِرُهَا، وَلاَ أَتبرَّأُ مِنهَا؛ بَلْ هُوَ ﷺ الشَّافِعُ الْمُشَفَّعُ، وَأَرْجُو شَفَاعَتَهُ، لكِنِ الشَّفَاعَةُ كُلَّهَا للهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤].

وَلاَ تَكُونُ إِلاَّ بَعْدَ إِذْنِ اللهِ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وَهُوَ لاَ يَرْضى إِلاَّ التَّوْحِيدَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

قال الشارح وفقه الله:

مرَّ بنا الكلام عن الشفاعة الثابتة التي أثبتها الله ﷻ في كتابه وأثبتها نبيّه ﷺ في سُنَّتِه، وعرفْنا الشفاعة الشركية التي هي في حقيقتها تنقُّصٌ من عَظَمَةِ الإلهية، وهضْمٌ لحقِّ الربوبية، وفيها سوء ظنٍّ وأدبٍ مع الله جلَّ في علاه.

والمؤلفُ رَحِمَهُ اللَّهُ يحكي عن المخالف قولَه: «فَإِنْ قَالَ: أَتُنْكِرُ شَفَاعَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَتَبَرَّأُ مِنْهَا؟» هذا ديدَنُهم وهذه طريقتُهم؛ أنَّهم متى أعْيتْهم الحُجَّة لجئوا إلى أسلوب الترْهيب هذا، فيشنِّعُون مثل هذه الشناَعة على الموحِّدين ويقولون: أنتم تنكرون الشفاعة، أنتم تنتقصون من الأولياء والصالحين، إلى غير ذلك؛ وهذا من أساليبهم؛ وقلنا: إنَّ من أساليبهم التي يسْلكونَها في الترْويج للباطل

والتزْهيد في الحق أنَّهم ينسِبون أهل الحق إلى مقالاتٍ شَنيعة ويصفونهم بأوصاف مُقذِعة؛ تنفيرًا للأغْمار والجُهَّال عن جادَّة الحق والسُّنة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَقُلْ: لاَ أُنْكِرُهَا، وَلاَ أَتَبَرَّأُ مِنْهَا»؛ لا شكَّ أنَّ من أنكر شفاعة رسول الله ﷺ فإنَّه مكذِّبٌ لله ومُكذِّبٌ لرسوله ﷺ، فيكون كافرًا بهذا.

فنحن نقول: إنَّنا لا ننكر الشفاعة بلْ نكفِّر من أنكرها، ونحن - إن شاء الله - معشر أهل التوحيد أحقُّ بها وأهلُها برحمة الله ﷻ، لأنَّ الإنسان كلما كان إلى التوحيد أقرب كان إلى نَيلِ الشفاعة أقرب، فنحنُ نُثبتها للنبي ﷺ ولغيره من الشفعاء أيضًا.

وأصناف الشفعاء ثلاثة:

❁ **الأنبياء.**

❁ **والملائكة.**

❁ **والمؤمنون.**

وتحت المؤمنين توجدُ أفراد دلَّت الأدلة عليهم من الشهداء والأفراط، إلى آخر ما هنالِك، وإن كان نبيّنا محمد ﷺ له الحظُّ الأعظم منها، كما أن له الأوَّليَّة فيها؛ ففي «صحيح مسلم» قال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ» فأهل السُّنة والجماعة يُثبتُون

هذا لرسولِنا الشفيع ﷺ، لكنَّها شفاعةٌ مقيَّدة -كما قد علمْنا- بإذْن الله ورِضاه.

قال: «بَلْ هُوَ ﷺ الشَّافِعُ الْمُشَفَّعُ» يشفع ويُشَفِّعُه الله ﷻ؛ أي: يقبل شفاعتَه، هذا معنى قوله: «الْمُشَفَّعُ».

«وَأَرْجُو شَفَاعَتَهُ، لكِنِ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا للهِ» -ويجوز «لكِنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا للهِ»- كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾»؛ وعلِمْنا أنَّ هذه الآية أُمُّ الباب، وأهمُّ دليل يوضِّح الحق ويوضِّح الباطل أيضًا، هي كافية للرَّدِ على مَقالة المشركين.

فالشفاعة مِلْكٌ لله ﷻ، فـ«اللام» هاهنا «﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾» هذه لام المِلْك، فالشفاعة كلها لله ﷻ، ولاحِظ ما فيها من الأسلوب الذي يدل على الحصْر والقصْر، وقد علِمْنا أن تقديم الخبر يفيد الحصْر، والأصل في هذا الكلام: (قل الشفاعة لله)، لكن تقديم الخبر يفيد الحصْر، ويُضافُ إلى هذا قوله «﴿جَمِيعًا﴾» فهذا زادَ الأمر تأكيدًا، والشفاعة كلها و«أَلِف لام» في الشفاعة تفيد العموم، الألف واللام هاهنا تفيد العموم، فدلَّ هذا على أنها مِلْكٌ لله تباركَ وتعالى، كما أنَّ له الخلق والرِّزْق والتدبير فكذلك له الشفاعة، ويسْتحيل أن يكون لغيره مِلْكٌ فيها، لا يملكها أحدٌ، يسْتحيل أن يكون لله ﷻ شريكٌ فيها؛ من نبي أو وليٍّ أو مَلَك، كما أنه يسْتحيل أن يكون لله ﷻ شريكٌ في الخلق والرزق والتدبير.

وقد يقول قائل: وماذا أنت قائلٌ في قول الله ﷻ: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]؟

الجواب أن يُقالَ: إنَّ هذه الآية لا تخالف ما سبق؛ فإنَّ الصحيح فيها كما قرَّره جماعة من أهل التحقيق؛ كابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: أنَّ الاسْتثناء هاهنا منقطع، فلا يملك أحدٌ الشفاعة البَتَّة، لكن الذين يشهدون بالحق وهم يعلمون هؤلاء تنفعهم الشفاعة، فهو استثناء منقطع، والاسْتثناء المنقطع كثيرٌ في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام:٨٠] يعني إلَّا أن يشاء ربي شيئًا فإنه يكون، وليس الأمر راجعًا إلى خوف الخليل عليه الصلاة والسلام من آلهة المشركين.

المقصود أن هذه الآية: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ على وِزَانِ قول الله ﷻ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ﴾ [سبأ: ٢٢- ٢٣] ، لاحِظ أنَّ الآية تتكلَّم عن الانتفاع، ثم اسْتثنى الله سبحانه وتعالى من ذلك مَن أذِنَ له ورضيَ قوله، فالآية الأُوْلَى تُفهَمُ كما تُفهم هذه الآية، سواء بسواء.

وأحيلُكَ إلى موضعٍ نافعٍ محرَّر في توضيح هذا المقام لشيخ الإسلام ابن

تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في المجلد الرابع عشر من «مجموع الفتاوى»؛ فإنه قد أفاضَ الكلام عن هذه الآية وبيَّن بالدلائل الواضحة أنَّ الاسْتثناء هاهنا منقطع، ويؤيد هذا: النظر في استعمال القرآن المطَّرِد، فكلّما ذُكِرَ الشفيع من دون الله كان النُّفْي نفيًا مطلقًا غير مقيد؛ فإذن المِلك هاهنا مَنفيٌّ نفيًا مطلقًا، وأمَّا الاسْتثناء فمنقطع، والمعنى: أن من شهد بالحقّ وهم يعلمون تنفعهم الشفاعة التي يملكها الله ويأذن فيها.

وعلى القول الثاني -وهو إنَّ الاسْتثناء متصل- فلا إشكال أيضًا، فليس مقصود أهل العلم الذين قالوا بهذا أنَّ الذين يشهدون بالحق وهم يعلمون يشاركون الله عَجَّلَ في مِلْكِ الشفاعة، حاشَا وكلَّا، وإنَّما المقصود أن الله عَجَّلَ يُمَلِّكُهم إيَّاها تمليكًا مقيَّدًا، فعادَ الأمر إلى ما ذكرنا، فمعنى التمليك هاهنا هو معنى الإذن، سواء بسواء، معنى التمليك على القول بأنَّ الاسْتثناء متصل إنما هو الإذْن في الوقت الذي يشاؤه سبحانه وتعالى.

فسواء قلْنا بالأول أو قلنا بالثاني فالنتيجة واحدة؛ الشفاعة ملْكٌ لله، ولا أحد يشارك الله عَجَّلَ فيها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ إِذْنِ اللهِ): ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]).

وعلمْنا أنَّ الإذْن كونيٌّ هاهنا وشرعي.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلاَ يَشْفَعُ فِي أَحَدٍ إِلاَّ بَعْدَ أنْ يَأْذَنَ اللهُ فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:٢٨]). «يَأْذَنَ اللهُ فِيهِ» يعني يكون مرْضيًا عند الله ﷻ، ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] فهذا هو المقصود «﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَهُوَ لاَ يَرْضى إِلاَّ التَّوْحِيدَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥]) لا شكَّ، فالله لا يَرضى إلَّا التوحيد، ولا يَرضى إلَّا عن أهل التوحيد، ولا يأذن بالشفاعة إلَّا في أهل التوحيد، قال ﷺ كما في «صحيح مسلم»: «فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»، كما قال ﷺ في حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه عند «البخاري» قال: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ».

قال المصنف رحمه الله:

فَإِذَا كَانَتِ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا لِلَّهِ، وَلاَ تَكُونُ إلاَّ بَعْدَ إِذْنِهِ ، وَلاَ يَشْفَعُ النَّبِيُّ ﷺ وَلاَ غَيْرُهُ فِي أحدٍ حَتَّى يَأْذَنَ اللهُ فِيهِ، وَلاَ يَأْذَنُ اللهُ إلاَّ لأَهْلِ التَّوْحِيدِ ؛ تَبَيَّنَ أنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لِلَّه، وَأطْلُبُهَا مِنْهُ. فَأَقُولُ: اللَّهُمَّ لاَ تَحْرِمْنِي شَفَاعَته، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ، وَأمْثَالُ هَذَا.

قال الشارح وفقه الله:

يلخِّصُ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هاهنا المقام، وتلخيصُه فيه إلْجاءٌ للمخالف للتسْليم بالحق، إذا أقَرَرْتَ بهذا وبهذا وبهذا تبيَّن الحق، وأنَّ الشفاعة لله؛ فتُطلبُ ممَّن يملكُها.

ونَيلُ الشفاعة له سببان:

❀ **السبب الأول**: سؤال الله عَزَّ وَجَلَّ إيَّاها، كما ذكر المؤلفرَحِمَهُ اللَّهُ ، وكما أطبقت الأُمَّة على مشروعية هذا ؛ أن يسأل العبدُ ربَّه الشفاعة، فيقول كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ : «اللَّهُمَّ لاَ تَحْرِمْنِي شَفَاعَته، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ، وَأمْثَالُ هَذَا»، بأي عبارة أو جملة يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ سائلًا هذه الشفاعة.

❀ **السبب الثاني**: فِعْل ما دلَّ الدليل على أنه مقتضٍ لنَيلِ الشفاعة.

◉ **ومن هذا بلْ أعظم هذا** : تحقيق التوحيد، كما سلفَ فيما سمعت.

◉ **ومن هذا أيضًا**: قول الدعاء الوارد بعد الأذان؛ «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ

فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ» ، النبي ﷺ أخبر كما في «صحيح البخاري» أن من قال هذا «حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ، وجاء في «مسلم» نظيرُ هذا، قال: «فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ» . فهذا سببٌ دُونكَ يا مَن ترجو وتطلب الشفاعة احرصْ عليه.

◉ **كذلك ممَّا جاء في هذا الباب**: سُكْنَى المدينة، والصبر على لأْوائها وشدَّتها، ويدل على هذا: قول النبي ﷺ فيما خرَّج الإمام مسلم في «صحيحه»: «لَا يَصْبِرُ أَحَدٌ عَلَى لَأْوَاءِ الْمَدِينَةِ وَشِدَّتِهَا إِلَّا كُنْتُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا» ، وعند «الترمذي» قال ﷺ: «مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا، فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا» ، فهنيئًا لكم يا أهل مدينة رسول الله ﷺ.

إذن؛ هذا وأمثاله ممَّا دلَّ الدليل على أنه من أسباب نَيل الشفاعة، وما ذكر النبي ﷺ هذا إلَّا ترغيبًا للمسلمين أن يطلبوا الشفاعة وأن يرجوهَا، وأن يحرصوا عليها، وأن يجتهدوا في الأعمال التي يُوصلِهُم الله سبحانه وتعالى بها إليها.

وأُنبِّهُ هاهنا إلى مسألة وهي: أنَّ من أهل العلم وربما يكون من شواذّ الأقوال ما قال بعضهم: إنَّه يُكرَهُ أن يسأل العبدُ الله الشفاعة، وهذا قد نقله النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الأذكار» عن ابن النَّحاس عن رجلٍ وصفه بأنَّه من العلماء

الأُدبَاء، اسمه: أبو بكر محمد بن يحيى، قال: إنه - يعني ابن النَّحاس ينقل، والنَّووي ينقل عن ابن النَّحاس - ابن النَّحاس ينقل عن هذا الرجل أنَّه كرِهَ أن يقول الإنسان: اللهمَّ أسألُك شفاعة نبيّك- قال: لأنَّ الشفاعة إنما تكون فيمَن اسْتوجب النار، فكأنَّ هذا الإنسان يحكم على نفسه بأنَّه مسْتوجبٌ للنار. وهذا لا ينبغي، وهذه مَقالةٌ خاطئةٌ لا شكَّ فيها، وهي زلَّة لا ينبغي المتابعة عليها.

وقد أجابَ عن هذه المَقالة القاضي عِياض فيما نقلَه النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكتاب في «الأذكار» وأيضًا في موضعٍ من «شرحِه على صحيح مسلم».

ويمكن أن نجيب عن هذه المَقالة من عِدَّة أوجه:

❁ **أولًا**: أن هذا مخالفٌ لسُنَّة النبي ﷺ ؛ فإن النبي عليه الصلاة والسلام ما ذكر الأحاديث التي فيها ثوابٌ بنَيلِ شفاعة النبي ﷺ إلَّا لأجل أن نحرص عليها وأن تسْموا نفوسُنا إليها، أَيَحُثُّنا النبي ﷺ على شيءٍ لا ينبغي طلبُه؟! لا يكون، وقد سمعتَ طرفًا من هذه الأخبار قبل قليل: «من فعلَ كذا حلَّتْ له الشفاعة» إذن عليكم أن تحرصوا على هذا حتى تنالوا هذا الأمر، وهذا يقول: لا ما ينبغي أن يسأل الإنسان الشفاعة! .

❁ **ثانيًا**: أنَّ هذا مخالفٌ لحالِ أصحاب رسول الله ﷺ؛ فإنهم كانوا حريصين على الشفاعة، وقد سمعتَ فيما مضى سؤال أبي هريرةَ رضي الله عنه رسول الله ﷺ: من أسعد الناسِ بشفاعتِك؟ هذا دليل على أنهم كانوا يحرصون

على موضوع الشفاعة. وفي الباب أدلة أخرى.

❁ **ثالثًا**: لازمُ هذا القول ألَّا يسأل الإنسانُ اللهَ تعالى المغفرة والعِتْق من النَّار، فما قلتَه يا هذا في مسألة أو في سؤال الشفاعة لازمٌ لك أيضًا في هذا، وهلْ يقول مسلم بكَراهية سؤال الله المغفرة والإجارة من النار؟! .

❁ **رابعًا**: من ذا الذي يُزكِّي نفسه فيقول: إنَّه أبعدُ شيءٍ عن الوقوع في مساخِط الله ﷻ وعذابه؟ ألَا يخافُ كلُّ مسلم ولو كان من الأتْقياء الصالحين من أن يَمَسَّه عذاب الله ﷻ يوم القيامة! فكيف إذا كان يعلمُ من نفسه التقصير بفعْل المحرمات والتقصير في فعْل الواجبات! فكيف يقول الإنسان إنَّه لا حاجة له إلى هذا لأنه بعيدٌ تمام البُعْد عن العذاب؟! .

❁ **خامسًا**: سلَّمْنا جدلًا بصحَّة ما قال من هذه الجهة، ولكنَّ شفاعة النبي ﷺ أعَمُّ من هذا، نعم شفاعة النبي ﷺ تكون لمن دخل النار أن يُخرَجَ منها، وأيضًا تكون لمن اسْتوجبَ النار أن لَّا يدخلها، كما تكون أيضًا لغيرهم؛ تكون لأهل الجنة أن يدخلوها، فلا يمكن ولا يكون أن تُفتَح أبوابُ الجنة قبل أن يشفع محمدٌ ﷺ؛ لأنَّ هذا ما نطقَتْ به الأحاديث، كذلك يشفع ﷺ في دخول الجنة لمن لا حساب عليه من المؤمنين، ويذكر كثيرٌ من أهل العلم شفاعات أخرى؛ كرفْع درجات أهل الجنة فيها. **المقصودُ**: أنَّ الشفاعة لا تقتصر على

الإخْراج من النار، أو في عدم دخولها.

والله ﷻ أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

فإِنْ قالَ: النَّبِيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ، وَأنَا أطْلُبُهُ مِمَّا أعْطَاهُ اللهُ . فَالْجَوَابُ: أَنَّ اللهَ أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا فَقَالَ: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللهَ أنْ يُشَفِّعَهُ فيكَ فَأَطِعْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨].

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ذكْر شُبهَة ، لعلَّها أهمُّ شُبه القوم في الدعاء الشركي في طلَب الشفاعة، فإنَّ القوم يقولون: ما الضَّير في أن نسألَ النبي ﷺ وهو في قبرِه ما أعطاه الله ﷻ إيَّاه وهو الشفاعة؟ أنتم تسلِّمُون بأنَّ النبي ﷺ سيشفع يوم القيامة؛ إذن ما الضَّير أن نسألَه شيئًا أُعْطِيهِ من لدُنْ ربه الآن؟ نسأله وهو في قبره عليه الصلاة والسلام ما المشكلة؟ أيُّ إشكال في هذا الأمر؟!

والجواب عن هذا من عِدَّة وجوه:

۞ **الوجه الأول**: ماذا تريد من بقولك "النبي ﷺ أُعطِيَ الشفاعة" ؟ أَتريدُ أنَّ الله ﷻ مَلَّكه إيَّاها تملِيكًا مطلقًا فصار يشفع فيمَن يشاء في الوقت الذي يشاء؟ أو أنك تريد أن الله ﷻ يأذن له فيها في الوقت الذي يشاء فيمَن يشاء يوم القيامة؟

إن كنتَ تريد الأول فهذا لا شكَّ أنه باطل ويردّه قول الله ﷻ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾.

أما أن يكون قد أُعطيَها أو أُذِنَ له فيها في وقت معيَّن وهو يوم القيامة بإذْنٍ من الله سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه الذي يحدُّ الحدَّ الذي يُخرجهم من النَّار بسبب هذه الشفاعة، ثمَّ إذا أراد أن يشفع شفاعةً ثانية يَحُدُّ الله له أيضًا حدًّا، وهكذا في المرة الثالثة حتى يأْتيه في المرة الرابعة فيشفع إلى الله سبحانه وتعالى في كل من قال (لا إله إلا الله) ، فيقول الله ﷻ حينها: «وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي وَجِبْرِيَائِي لَأُخْرِجَنَّ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ» ؛ فهذا ليس إعطاءً مطلقًا.

ولا شكَّ أنَّ القوم يريدون الأول، بلْ هذا ما كانوا ينصُّون عليه نصًّا في كُتُبهم: أنَّها مِلْكٌ للنبي ﷺ بعد أن مَلَّكه الله إيَّاها؛ وهذا لاشكَّ أنَّه باطل كما قد علمْنا.

۞ **الوجه الثاني**: أنَّ النبي ﷺ أُعطِيَ أشياء أخرى؛ فهل تلْتزمون سؤال النبي ﷺ كلَّ شيء أعطاه الله إيَّاه؟ **بمعنى**: أعطى الله ﷻ نبيَّه ﷺ الحوض في عرصات القيامة، أَيقولُ عاقلٌ إنه يُسأَلُ الآن ﷺ وهو في البَرْزخ أن يسقيَنا من الحوض؟ أَهذا شيءٌ يملكه الآن ﷺ حتى نسأله إيَّاه؟ أعطاه الله ﷻ الكوثر - نهْرٌ في الجنة - أيقول عاقلٌ: إنَّنا نسأل النبي ﷺ الآن أن يُسقيَنا من الكوثر؟ هذا لا يقوله عاقل.

بل الأصل الذي أصَّلُوه غير صحيح، ليس كلُّ من ملَّكه الله ﷻ شيئًا - إذا

سلَّمنا بمسألة التمليك في موضوع الشفاعة - ليس كلُّ من مُلِّكَ شيئًا صحَّ سؤاله هذا الذي ملَّكَه الله إيَّاه، فالملازمة التي يذكرون غير صحيحة، الله ﷻ أعطى نبيَّه ﷺ منزلةً عظيمة في الجنة، إذا دخلها فَلَهُ منزلة عظيمة، وله من أنواع الثواب والنعيم ما ليس لغيره، أَتقولون: إن النبي ﷺ يُسأل في قبره ذاك الذي يُعطيه الله ﷻ إيَّاه إذا دخل الجنة؟! هل في الخروج عن العقل والشرع كهذا القول؟.

۞ **الوجه الثالث**: هذا الذي ذكروا مخالفٌ لسُنَّة النبي ﷺ، مخالفٌ لسُنَّة الرؤوف الرحيم الحريص على هذه الأُمَّة، ما بالُ النبي ﷺ لا يذكر لنا ولو مرة في حياته أن نطلبَه وهو في قبره الشفاعة، فنقول: يا رسول الله اشفعْ لنا عند الله! ما بالُ النبي ﷺ إذا أراد أن يحثَّ أُمَّتَه على فعْل ما ينالون به الشفاعة يرشدُهم إلى أعمال وأقوال ليس منها قط هذا الذي تزْعمون؛ أن يأتي الإنسان إلى قبره، أو حتى بعيدًا عنه، فيقول: يا رسول الله، أسألُك الشفاعة، اشفعْ لي عند الله. أَتَشُكُّون في حرْص النبي ﷺ على هذه الأُمَّة وشفَقَتِه ورأْفَتِه بها؟ إذن هذا دليلٌ على أن هذا الذي يقولون غير مشروع.

۞ **الوجه الرابع**: أن هذا مخالفٌ لإجماع الصحابة رضي الله عنهم فمَن بعدهم؛ لا يُعرف في الأُمَّة قط قبل انتشار الشرك فيها في حدود القرن الرابع مثل هذا الأمر، مرَّت القرون التي هي الغُرَّة في هذه الأُمَّة ولها وصْف الخيرية فيها لا

يعرفون مثل هذا السؤال ولا الطلب، فيأتون إلى القبر أو بعيدًا عنه فيقولون: يا رسول الله اشفعْ لنا عند الله، وقد علمْنا حرصهم على الشفاعة، لكنهم ما فعلوا، وقبر رسول الله ﷺ بين أَظْهُرِهِم في حُجْرة عائشة رضي الله عنها في المدينة ليس بعيدًا عنهم؛ فلماذا ما ثبت في أثرٍ واحد فقط أن أبا بكر أو عمر أو السابقين أو اللَّاحِقِين أتَوا إلى قبره ﷺ فسألوه ذلك؟! ما ذاك إلَّا لأنَّه أمرٌ منكر لا يُوصِل إلى المقصود.

❁ **الوجه الخامس**: أنَّ الحجر الأسود ثبتَ عند «الترمذي» عن النبي ﷺ أنه يشهد على من اسْتلمَه بحقّ، أيقول قائل: بِما أن هذا قد ثبت فلَنا أن نسأل الحجر الأسود الشفاعة، نأتي إلى عند الحجر فنقول: يا أيُّها الحجر الأسود نسألك الشفاعة!! لا شكَّ أن هذا لا يقوله عاقل، فليس ثُبوت الشفاعة مسْتلزمًا لجواز سؤالها.

❁ **الوجه السادس**: مَضَتِ السُّنة على أن سؤال الشفاعة إنما يُشرعُ في وقتِها وحينها وأَوانِها؛ ولذا متى يسأل الناسَ رسول الله ﷺ أن يشفع لهم في فصْل القضاء؟ في الوقت المناسب لهذا؛ حينما يشتدُّ الكرْب بالناس فإنهم يذهبون إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ، إذن لا يحصل الأمر قبل ذلك. كذلك الشفاعة مثلًا في دخول الجنة متى تكون؟ في أَوانِها، ومن

لَطِيفِ ما قال بعض مشايخنا: «الشفاعة تُطلَبُ في أَوانِها، ومن استعجلَ الشيء قبل أَوانِه عُوقِبَ بحرْمانه» ، فهؤلاء اليوم يسألونها في البرْزخ، وهذا ليس أَوانُها.

❁ **الوجه السابع**: أن القوم يعتقدون أن النبي ﷺ يشفع اليوم وهو في قبره عند الله سبحانه وتعالى فيمَن يسأله ذلك؛ وهذا مخالفٌ للحديث الذي سمعتَه قبل قليل، وهو ما أخْرجَ مسلم في الصحيح من قوله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ» متى هذا؟ سِياق الحديث واتفاق العلماء يدلُّ على أن المقصود «أَوَّلُ شَافِعٍ» متى؟ يوم القيامة، فإذا قالوا "إنه مُنْذُ كونه في القبر عليه الصلاة والسلام وإلى يوم القيامة وهو لا يزال يشفع" لم يصدقْ قولُه: «وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ» لأنَّ الشفاعة تكون مسْبوقة قبل ذلك في البرْزخ!

المقصود: أنه لا دليل على أن النبي ﷺ يشفع في قبرِه، ولا دليل على جواز سؤاله الشفاعة فيه في قبرِه؛ هذا كلُّه لا شكَّ أنه من إِحداث هؤلاء.

ولْتكُنْ على ذُكْرٍ أن المسألة في شأن الشفاعة بالنسبة لهؤلاء أكبر، فإن القوم اعتقدوا -بغضِّ النظر عن هذه المسألة الجُزئية وهي السؤال للنبي ﷺ وهو في قبره، بغضِّ النظر عن هذه الجزئية، دعُونَا نرجع إلى الأصل- القوم اعتقدوا الشفاعة وظنُّوا الشفاعة الشركية وليس الشفاعة الثابتة، حالُهم كحالِ المشركين

الأولين سواء بسواء، اتخذوا من دون الله شفعاء، فعقيدتهم وما في نفسِهم أنَّ النبي ﷺ له حظْوةٌ عند الله، وله إِدلالٌ على الله، وله تأثيرٌ على الله؛ وبالتالي إنه يشفع عند الله ﷻ، والله يجيبه في شفاعته ولابدَّ، وهذا هو الذي قلنا: إنَّه حال المشركين الأولين، هذا الذي اعتقده المشركون في آلهتهم، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾. فلا تنسَ ما ذكرناه في الدرس الماضي من الفروق بين الشفاعة المنفية؛ وهي الشفاعة التي يتعارفُها الناس وهي الشفاعة التي اعتقدها أولئك في آلهتِهم، وبين الشفاعة الثابتة التي ستكون والتي أثبتها الله ﷻ في كتابه، وأثبتها رسوله ﷺ.

فالقوم من سَبَرَ حالهم، ونظر في مؤلفاتهم يُدرك تمامًا أنَّهم لا يتحدَّثون عن الشفاعة التي هي مِلك لله ﷻ والتي حقيقتها أنَّ الأمر فيها ابتداءً وانتهاءً يرجعُ إلى الله ﷻ، والله ما عرفوا هذا ولا أرادوه، إنَّما أرادوا شيئًا آخر؛ ولذا قلوبهم متعلقة بالشافع دون المشفوع عنده، ولذا وقعوا في الشرك ، ولذا صاروا يتقرَّبون إلى الأنبياء والأولياء بأنواع القُرب ومنها الدعاء؛ لأجل تحصيل الشفاعة، ويا للهِ العجب كيف أن قلوبهم كيف تعلَّقت تعلُّقًا عظيمًا بالشفاعة ففعلوا السبب الذي يمنعهم منها، وأيُّ خِذْلان كهذا الخِذْلان! .

ونأتي الآن إلى مسألة والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشار إليها وهي: **حكْم دعاء الميت**

الشفاعة، يعني كونه يُطلب ويُسأل الشفاعة. هذه المسألة يُقالُ فيها:

❁ **أولًا**: اتفق أهل العلم على أنَّ هذا الفعل مُحدَثٌ وبدعة ما أنزل الله بها من سلطان، سؤال الأموات الشفاعة، سؤال النبي ﷺ أو غيره من الأولياء أو الأنبياء لا شكَّ أنه بدعة شنيعة، ما فعلَها أصحاب النبي ﷺ ولا مَن بعدهم من السلف الصالح.

❁ **ثانيًا**: اتفقوا أيضًا على أن سؤال الميت الشفاعة بعيدًا عن قبره أنَّ هذا شركٌ أكبر، لا يختلفون في هذا البتَّة، كما يفعله كثير من الناس في المشارق والمغارب؛ "يا رسول الله الشفاعة".

❁ **ثالثًا**: وهو سؤال الميت الشفاعة عند قبره. والصحيح والحقُّ فيها: أن هذا السؤال شركٌ أكبر، وذلك من وجوه:

◉ **الوجه الأول**: أن هذا دعاء، وقد دلَّ الدليل على أن الدعاء عبادة، ومضى الكلام في هذا كثيرًا؛ فمَن صرف العبادة لغير الله ﷻ فقد أشرك، كما مرَّ بنا غير مرَّة أن دعاء الأموات شرك، لا ينبغي أن يُختلفَ في هذا، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥- ٦]، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ

بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، فدُعاء الميت مطلقًا بأي شيء لا شكَّ أنه شرك أكبر.

◉ **الوجه الثاني**: أنَّ سؤال الميت الشفاعة سؤالٌ لشيء لا يملكه، إنَّما هو مِلْكٌ خالص لله سبحانه وتعالى، وسؤال ما لا يملكه إلَّا الله لاشكَّ أنَّه شرك.

◉ **الوجه الثالث**: أنَّ هذا الفعل هو من جنس فعْل المشركين الأولين وغيرهم من النصارى الذين كانوا يتخذون شفعاء يسألونَهم الشفاعة، كما علِمْنا كانت النصارى ولا تزال تقول: "يا والِدَةَ الإله اشْفعي لنا عند الإله"، وهذا من الشرك بالضَّرورة عند أهل الإسلام ، فلا فرْق بين هذه الصورة وتلك.

◉ **الوجه الرابع**: أنَّ من قال بجواز هذا الدعاء يلزمه أن يقول بجواز سؤال الملائكة الشفاعة؛ لأنَّ الملائكة قد ثبت بالنَّص أنهم يشفعون يوم القيامة. إذن من قال يجوز أن تأتي إلى القبر فتدعو يلزمه أن يسأل فيقول: "يا جبريل، يا ميكائيل، يا إسْرافيل ويا أيُّها الملائكة أسألكم الشفاعة" ، وهذا من الشرك الأكبر بالاتفاق، بلْ هذا من أصول الشرك، كما بيَّنه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الجواب الصحيح» ، فمن قال بصحة هذا لزِم منه أن يقول بصحة هذا، فإذا كان الثاني باطلًا فالأول باطل ، إذا كان الثاني شركًا فالأول شرك.

◉ **الوجه الخامس**: أنَّه لا فرْق على الصحيح بين القُرب والبُعْد من القبر، فإذا كان سؤال الشفاعة للبعيد شركًا فما الذي يجعله عند القبر ليس بشرك؟!

الحقيقة أنه لا فرق، وأنَّ الميت لا يسمع إلَّا في حدود ما اسْتُثْنِي ، وهذا ليس منها، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢]، ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل:٨٠]؛ فما الدليل على أن الميت يسمع هذا الدعاء؟ ثم ما الدليل على اسْتثناء هذه الصورة من الدعاء الشركي؟ لا شكَّ أن هذا من أراد أن يقول به فإنه يحتاج إلى حُجَّة قوية واضحة، الموضوع ليس موضوعًا سهلًا يتناوله الإنسان باجتهاد وبقياس عقلي، المقام مقامٌ عظيمٌ، المسألة متعلِّقة بأمرٍ غيبي، فليس للإنسان أن يتكلم فيه بالحدْس والاجتهاد والأقيسة التي ما أنزل الله بها من سلطان، ينبغي على الإنسان أن يتنبَّه إلى هذا الأمر، وأنَّ هذا من الأمور العظيمة المنتشرة.

وقد يقول قائل: إنَّ القول بأن هذا الفعل بدعة وليس شركًا قال به بعضُ الأئمَّة الكبار؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ. بعضُ الناس رأيتُه يقول هو بدعة وليس بشرك، والدليل أن شيخ الإسلام قال كذا وكذا!!

ونقول: شيخ الإسلام حبيبٌ إلينا ، إلَّا أن الحق أحبُّ إلينا منْه، وكلام شيخ الإسلام يُستدلُّ له وليس يُستدلُّ به، فإذا قال شيخ الإسلام هذا أَنَترُك الحق الواضح لأجل مَقالته! هذا إذا سلَّمنا أن شيخ الإسلام يقول إن هذا ليس بشرك، **والصواب**: أنَّ هذا فهْمٌ خاطئٌ لكلامه.

ومثل شيخ الإسلام أنصح طالب العلم إذا أراد أن ينسب إليه مَقالةً في موضوع مهمٍّ ودقيق أن يجمع كلامه فيه ثمَّ يسْتخلص رأيَه؛ لأن كلام شيخ الإسلام كثير، وأُسلوبه متفاوت بين إطالةٍ واختصار، وإفاضةٍ واقتصار؛ فينبغي للإنسان أن يجمع كلام هذا العالم حتى ينسبَ إليه مَقالةً.

فالحقُّ أن شيخ الإسلام يَرى أن هذا من الشرك؛ قد نصَّ عليه في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» ، وله موضعٌ آخر من أصْرح ما يكون في الجزء الأول من «مجموع الفتاوى» في صحيفة (تسعٍ وخمسين ومائة، وستين ومائة) نصَّ فيه على أن مثل هذا الدعاء من أعظم الشرك، أو من أعظم أفعال المشركين، كلمة نحو هذه.

وأمَّا ما ظُنَّ من بعض كلامه أنَّه وصَف هذا الفعل بأنه بدعة فإنَّ هذا لا يتعارض مع حُكْمه عليه بأنه شرك؛ فإنَّ البدعة نوعان:

- النوع الأول: بدعة مكفِّرة.
- النوع الثاني: بدعة مفسِّقة.

فما المشكلة أن يُوصفَ ما هو شرك أو كفْرٌ بأنه بدعة! هو يجمعُ الأمرين، فلا شكَّ أن هذا من جهة شرك ومن جهة بدعة؛ لأنَّنا قد علمْنا أن هذا شيء ما كان معروفًا عند السلف البَتَّة، مع وجود المقتضي لطلبِ الشفاعة وهو حرصُهم عليها ومع ذلك امتنعوا عن ذلك، فهذا يجعل هذا الفعل بدعة، فهو بدعة وشرك.

ثمَّ يُؤيّد هذا ويُؤكِّدُه أني وقفتُ على مواضع لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كان يصف فيها الشرك الذي لا يخالف أحدٌ من أهل السُّنة في أنه شرك بأنه بدعة ويسكت، وهو نفسُه في مواضعَ كثيرة يصف هذه الصور بأنها شرك، تجدوا أنه في مواضع يقول في دعاء الغائبين وفي دعاء الأموات مطلقًا وفي دعاء الجن والملائكة بأنَّ هذا بدعة، أَهَذا يجعلنا نقول إنَّ شيخ الإسلام يعتقد أن دعاء غير الله بدعة؟ لا، كوْنه بدعة لا يتعارض مع كونه شركًا، بلْ في مواضع إذا جاء إلى مثل هذه الصور الشركية التي هو من أعظم الناس تقريرًا لكونها شركًا تجد أنه يقول: هذا من المحرمات؛ خلاص إذن لتقولوا أنَّ الدعاء الشركي محرَّمٌ فقط وليس بشرك؛ لأن ابن تيمية يقول إنه محرم!! كونه محرَّمًا لا يتعارض مع كونه شركًا، فالتحريم حُكْمٌ عام، فحتى الشرك حرمه الله، أليس كذلك؟ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] ، فنسْبَةُ هذه المقالة وأنه لا يرى أنها شرك لشيخ الإسلام لا شكَّ أن فيها ما فيها!

كان هنا مسألة يُسألُ عنها وهي: قد علمْنا مسألة سؤال الشفاعة ومِلْك الله عَزَّوَجَلَّ لها ..وإلى آخره، ولكن كيف نصنع فيما جاء في بعض الأحاديث من سؤال الصحابة رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشفاعة؟! هذا أيضًا ممَّا يُلبِّسُ به القُبوريُّون!

نقول: نعم، سأل أصحابُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك؛ ففي مسند الإمام أحمد بإسنادٍ

صحيحٍ من حديث عوف بن مالك الأشْجَعِي رضي الله عنه ، الحديث فيه قصة وكانوا في سفرٍ مع رسول الله ﷺ، الشاهد من الحديث: أن النبي ﷺ قال: «إنَّ اللهَ خَيَّرَنِي بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ» ، هنا قالوا له رضي الله عنهم: «نَنْشُدُكَ اللهَ وَالصُّحْبَةَ إِلَّا جَعَلْتَنَا مِنْ أَهْلِ شَفَاعَتِكَ»، فقال: «أَنْتُمْ مِنْ أَهْلِ شَفَاعَتِي». وجاء نحْوُه أيضًا من حديث خَادمٍ لرسول الله ﷺ، أخرجه الإمام أحمد.

قالوا هاهنا: الصحابة يقولون: «إِلَّا جَعَلْتَنَا مِنْ أَهْلِ شَفَاعَتِكَ» إذن هو ﷺ يملُك الشفاعة!

والجواب عن هذا: أنَّ يُقال: إن هذا الفهْم فهْمٌ خاطئ؛ فإنَّ هذا السؤال من الصحابة معناه: ادعُ الله أن تكون شفيعًا لنا، ادعُ الله أن نكون من أهل الشفاعة، هذا هو مرادُهم، ويدلُّ عليه: ما جاء في رواية من حديث عوف عند «ابن ماجة» بإسنادٍ صحيح وفيها: «قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِهَا»، والروايات يُفسِّرُ بعضها بعضًا، لابدَّ أن نجمع بين الروايات حتى نخْلُص إلى فهْمها الفهم الصحيح، إذن كونهم يقولون: «إِلَّا جَعَلْتَنَا مِنْ أَهْلِ شَفَاعَتِكَ» مرادُهم فيه: ادعُ الله أن يجعلنا من أهلها.

والسؤال: طلبُهم هذا فيه محْذور؟ لا محْذور فيه، لِمَ؟ سؤالٌ لحيٍّ حاضر

قادر، فما المشكلة؟! شأْنُ هذا كشأْنِ ما يكون يوم القيامة حينما يقولون: أَلَا تشفع لنا عند ربِّك؟ ما معنى هذا الحديث؟ سياقُه يُفسِّره، يعني: الشفاعة مِلْكٌ لك فأنت تشفع إذا شئْتَ فيمَن شئت؟ لا، المقصود أن تستأذن ربَّك سبحانه وتعالى في الشفاعة؛ وهذا الذي يكون منه ﷺ، كما دلَّ على هذا الأحاديث التي في «الصحيحين» وغيرها.

إذن على هذا النَّسق يُفهمُ هذا الحديث وأمثاله؛ أنهم يسألونه ماذا؟ أن يسأل الله وأن يدعو الله لهم أن يكونوا من أهل الشفاعة.

قد يقول قائل: فماذا أنت قائلٌ في قوله في الحديث: «أنتُم من أَهْلِها» أو «أَنْتُمْ مِنْ أَهْلِ شَفَاعَتِي»؟ إذن هو شيء يملُكه كالمالِ الذي يعطيه اللهُ إيَّاه فهو يوزِّعُه ويمنحه لمن يشاء! هل هذا الفهم صحيحٌ؟ كيف نفهم هذا؟

هذا إخْبارٌ بغيبٍ، وليس تمليكًا أو تصرُّفًا من لدُنْ رسول الله ﷺ، إنَّما إخْبارٌ بغيب، وهل النبي ﷺ ينطقُ عن الهَوى؟ حاشَا وكلَّا، إذن هذا إخْبارٌ بغيب أوْحَاهُ الله عز وجل إليه، هذا نظيرُ حديث عُكَّاشَة حينما قال: «ادعُ الله أن يجعلَني منهم» قال: «أنت منهم» ؛ إذن: قولوا: أن الجنة مِلْكٌ لرسول الله ﷺ يُدخل من يشاء، ويمنع من يشاء، هذا لا يقول به مسلم. إنَّما المقصود هنا إخْبارٌ بغيب أوْحَاهُ الله ﷻ إليه، فأعْلَم اللهُ نبيَّه ﷺ أنهم من أهل الشفاعة، وانتهى

الأمر.

فهذا يُبيِّنُ لك مسْلك القوم في التعامل مع النُّصوص، نصوصٌ في الوضوح والكثرة من أوضحِ ما يكون كثرةً ووضوحًا يدعونها كلَّها ثمَّ يأتون إلى هذه المواضع التي فيها نوع اشْتباه!! يُعرضُون عن تلك كلها ويقفون عند هذه!! ولا يفهمونها حقَّ فهْمها، وإنَّما القوم معتقدون ثمَّ هم مستدلُّون.

ويُؤيِّدُ هذا - يا إخْوتاه -؛ انظر الآن فهمْنا واستفدنا من هذا الحديث -يعني نحنُ نجعل هذا الحديث عليهم لا لهُم- نحنُ فهمْنا من هذا الحديث حرْص الصحابة على موضوع الشفاعة، أَثْبَتَ عن واحد ممَّن جاء في هذا الحديث قط أنه سأل النبي ﷺ بعد موته ذلك؟ أَثْبَتَ عن واحد من الصحابة هذا؟

الجواب: لا، إذن الحديث صار عليهم لا لهُم ، كونهم يسألونه أن يدعوَ الله في حياته ويمتنعون عن هذا بعد موته؛ هذا دليل على أن سؤال النبي ﷺ الشفاعة بعد موته غير مشروع.

قال المصنف رحمه الله:

فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللهَ أَنْ يُشَفِّعَهُ فيكَ فَأَطِعْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، وَأَيْضًا فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيَهَا غَيْرَ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَصَحَّ أَنَّ الْمَلائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالأَوْلِيَاءَ يَشْفَعُونَ وَالأَفْرَاطَ يَشْفَعُونَ.

أَتَقُولُ: إِنَّ اللهَ أَعْطَاهُم الشَّفَاعَةَ، فَأَطْلُبُهَا مِنْهُمْ؟ فَإِنْ قُلْتَ هَذَا رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ التِي ذَكَرَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ.

وَإِنْ قُلْتَ: لاَ، بَطَلَ قَوْلُكَ: أَعْطَاهُ اللهُ الشَّفَاعَةَ، وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ.

قال الشارح وفقه الله:

«الأَفْرَاط» يعني: الصغار الذين ماتوا قبل والِدِيهم.

وينفرطُ العِقدُ حينها ويفتضحُ أمرُهم، فما يبقى أحدٌ إلَّا وقد دعوه؛ حتى الأفراط الصغار يدعونهم! فيَبِينُ حالهم، وأن حالَهم كحال المشركين الأولين، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾، ينفضحُ حالهم إذا الْتزموا هذا اللَّازم.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (أَتَقُولُ: إِنَّ اللهَ أَعْطَاهُم الشَّفَاعَةَ، فَأَطْلُبُهَا مِنْهُمْ؟ فَإِنْ قُلْتَ هَذَا رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ التِي ذَكَرَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ). نعم، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ﴾ [الزمر:٤٣]. (وَإِنْ قُلْتَ: لاَ، بَطَلَ قَوْلُكَ: أَعْطَاهُ اللهُ الشَّفَاعَةَ، وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ).

قال المصنف رحمه الله:

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لاَ أُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، حَاشَا وَكَلاَّ، وَلكِن الالْتِجَاء إِلَى الصَّالِحِين لَيْسَ بِشِرْكٍ.

فَقُلْ لَهُ: إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مَنْ تَحْرِيمِ الزِّنا، وَتُقِرُّ أَنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُهُ؛ فَمَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي عَظَّمَهُ الله، وَذَكَرَ أَنَّهُ لاَ يَغْفِرُهُ؟ فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي.

فَقُلْ لَهُ: كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِن الشِّرْكِ وَأَنْتَ لاَ تَعْرِفُهُ؟! كَيْفَ يُحَرِّمُ اللهُ عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لاَ يَغْفِرُهُ وَلاَ تَسْأَلُ عَنْهُ وَلاَ تَعْرِفُهُ؟ أَتَظُنُّ أَنَّ اللهَ عَجَّلَ يُحَرِّمُهُ وَلاَ يُبَيِّنُهُ لَنَا؟!

قال الشارح وفقه الله:

انتقلَ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن تكلَّم عن شُبهة المشركين المتعلقة بالشفاعة إلى الكلام عمَّا هو أعمُّ من ذلك؛ وهو البحث معَ المشركين في الشرك، وأنَّهم ينفون عن أنفسهم تُهْمَةَ الشرك. ووجْهُ ذلك هنا: أنَّ الشرك إنَّما هو عبادة الأصنام، مضْمون هذه الشُّبهة السابعة أنَّ الشرك عبادة الأصنام.

وتلاحِظُ أنَّ هذا الموضوع قد سبقَ للمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن تكلَّم عنه، ومرَّ بِنا قبل صَفحَات، ولكن وجْهُ العَرض هاهنا مختلف، وهذا يُبيِّنُ لنا أنَّه في هذا الباب الذي نبحث فيه أصول الشُّبه معدودة، وصورها كثيرة، تجدُ شُبهاتٍ كثيرة في أشكالها، وصياغتها، وترتيب الحُجَّة فيها، ولكن إذا فحصْتَها وجدتَها لا تخرج عن شُبهٍ معيَّنة.

ولذا طالب العلم مُطالَبٌ بأنْ يضبط أصول الشُّبه عند القوم، فإنَّه إن فعلَ هذا سَهُلَ عليه الجواب عن عامة شُبهاتِهم، فالمسألة لا تعدو أن تكون تَكْرَارًا لشيءٍ معيَّن ولكنَّ الصورة مختلفة، والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ صاحبُ باع ، بلْ صاحبُ باعٍ كبير في الدعوة إلى التوحيد، وفي مناقشة ومُناظرة ومُحاجَجَة مُخالِفيه، ولذا فإنَّه قد يصوغ الشُّبهة بأكثرَ من وجه؛ لأجل أن تتنبَّه إلى كيفية الجواب، فإنَّه قد مرَّ عليه مثل هذا كثيرًا في دعوته رحمة الله تعالى عليه، فمن نُصْحِه وحرصِه على بيان الحق لطلاب العلم تجد أنه يكرِّر هذه الشُّبه ولكن بالأساليب المختلفة؛ لأنَّه يعلم أنهم يصوغونها تارةً بكذا وتارةً بكذا.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «**فإن قال: أَنَا لاَ أُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، حَاشَا وَكَلاَّ، وَلكِن الالْتِجَاء إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ**»؛ الحقيقة أنَّ المشركين أحرصُ شيء على دفْع وصْمة الشرك عنهم، وهذه قاعدة مطَّرِدة في كلِّ أهل الضلال، فلا تكاد تجد ضالًا يُقرُّ بضلالِه، هذه قاعدة شبْه مطَّرِدة ؛ لا تكاد تجد ضالًا يُقرُّ بضلالِه ، فالمشرك يَرى أنَّ شركَه عمل صالح، والمعطِّل يَرى أن تعْطيله للصفات تنزيهٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، وقِسْ على هذا.

إذن هذا الذي حقيقة الأمر فيه أنه قد وقع في حمْأة الشرك، يدفع عن نفسه ذلك، فيقول: «**أَنَا لاَ أُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، حَاشَا وَكَلاَّ**». طيب وما أنت فيه من أنواع

العبادة التي تصرفها لغير الله؟! يقول: «**الالْتِجَاء إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ**» هذا دعْوَى، والدَّعَاوَى لا تقدِّم ولا تأخِّر.

ومن مسالك المخالفين عمومًا، والقبوريّين خصوصًا: أنَّهم يتلاعبون بالألْفاظ، فيُسمُّون الشيء بغير اسْمه، ومثل هذا يرُوجُ على الجاهل دون العالم، الخبير ذو العلم بالحق وبحال هؤلاء مثْلُ هذه الدَّعاوى لا تقدِّم عنده ولا تأخِّر، فتبديل الأسماء لا يبدِّل الأحكام، والاصْطلاحات الحادثة لا تغيِّر من الحقائق شيئًا، هذه قواعد مُسلَّمة عند أهل العلم.

القاعدة عند أهل العلم أنَّ العبرة بالحقائق والمعاني لا بالألْفاظ والمباني، والشرك شركٌ وإن سَمَّوه توسّلًا، والشرك شركٌ وإن سَمَّوه تعظيمًا للأولياء، والشرك شركٌ وإن سَمَّوه الْتماسًا للشفاعة، والتعطيل للصفات تعطيلٌ وإن سَمَّوه تنزيهًا، والرّبا رِبًا وإن سَمَّوه إكْرامية، والخمر خمرٌ وإن سَمَّوها شرابًا روحيًا، إلى غير ما هناك. إذن هذا التلاعب لا عبرة به.

والله ﷻ إذا حكمَ بحُكْمٍ فإنه الحكيم سبحانه وتعالى، فالحكْم متعلِّق بعلَّة وليس بمجرد الاسم، الحكْم متعلِّق بعلَّة فيُناطُ الحكم به وليس لمجرد الاسم؛ بمعنى: أن المشرك لو قال عن نفسه: (أنا لستُ مشركًا) انتفى الحكْم حينئذٍ؟

الجواب: لا، الأحكام لا تتعلق بمجرد الأسماء، وإنما بعِلَلِها التي ترتَّب الحكم عليها، والأحكام تترتَّب على هذه العِلَل بحسب ما فيها من مصالح وما

فيها من مفاسد.

قال: «**فَقُلْ لَهُ: إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مَنْ تَحْرِيمِ الزِّنا، وَتُقِرُّ أَنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُهُ، فَمَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي عَظَّمَهُ اللهُ وَذَكَرَ أَنَّهُ لاَ يَغْفِرُهُ؟**»؛ لاحِظ معي هاهنا الأسلوب الدعوي الحكيم الذي يسْلُكه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ؛ فرحمة الله عليه ما أشدَّ حِرْصه على هداية الناس، كيف أنه يتلطَّف بهذا المخالف في مقام التعليم، ما قال له: يا عدو الله تكذب! إنَّما ترفَّق وقال له: هَلُمَّ، تعال، دعْنا نبحث في هذا الأمر، للنظر، هل أنت على صواب أو خطأ، فالرفق بالمخالفِ في مقام التعليم من المهمِّ يا أيُّها الدَّاعية إلى التوحيد.

والحقُّ أن هذا الكتاب كتابٌ يعْتني كثيرًا بدروس الدعوة إلى التوحيد، ولو قِيلَ لي: سَمِّ هذا الكتاب اسمًا آخر سوى ما سمَّاه به مؤلِّفُه وهو «كشف الشبهات»، فإنَّني سأسمِّيه: «فقْه الدعوة إلى التوحيد»، فإن هذا الكتاب مَلِيءٌ بدروس الدعوة إلى التوحيد وفقْه ذلك، ومرَّ بنا أشياء، وسيمرُّ بنا - إن شاء الله - أشياء.

من الدروس التي نستفيدها في هذا الموضع أيضًا: أنَّ من المهمِّ لداعية التوحيد أن ينتقل بالمخالفِ من المتفق عليه إلى المختَلَفِ فيه، ثَمَّة قدرٌ متفقٌ عليه؛ وهو أنَّ الله حرم الشرك، وأنَّ تحريمه تحريمٌ مؤكَّدٌ، هذا قدرٌ لا يخالف فيه

أحدٌ يلْتزم بالكتاب والسُّنة، فسيُقرُّ ولا شكَّ بأنَّ الشرك محرم وشأنه شأنٌ عظيم من جهة الوَعيد عليه، فالله ﷻ حرمه أشدّ من تحريم الزنا بلْ أشدّ من تحريم كل شيء، هو أشدّ من تحريم القتْل بغير حق الذي هو أعظم الذنوب خَلَا الشرك بالله سبحانه وتعالى ، وفي «الصحيح» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه؛ أنَّه سأل النبي ﷺ: «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» .

إذن هذا هو الذنب الأعْظم، لا شيء أعظم منه من الذنوب؛ ذنبٌ لا يغفره الله لمن مات عليه ولم يتبْ منه، ذنبٌ صاحبُه يائسٌ من رحمة الله، ذنبٌ يُخرج من الملَّة، ولا شيء سواه كذلك، ذنبٌ يُخلِّدُ صاحبه في النار أبد الآبدين - نعوذ بالله من هذه الحال -.

إذن؛ سَلْهُ - يأيُّها المُوحِّد - ما هذا الشيء الذي حرمه الله ﷻ وعظَّم شأْنَه.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي**»؛ وهذا الغالب على جُهَّال المشركين أنَّهم يَهْرِفُون بما لا يعرفون، ما يدري، هو لُقِّنَ أشياء فيردِّدُها، لا أقل ولا أكثر، ما يدري ما هي حقيقة الشرك.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **فَقُلْ لَهُ: كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْتَ لاَ تَعْرِفُهُ ؟ كَيْفَ يُحَرِّمُ اللهُ عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لاَ يَغْفِرُهُ وَلاَ تَسْأَلُ عَنْهُ، وَلاَ تَعْرِفُهُ؟ أَتَظُنُّ أَنَّ اللهَ ﷻ يُحَرِّمُهُ، وَلاَ يُبَيِّنُهُ لَنَا؟!**» ؛ في جوابه حينما قال: (**لا أدْرِي**) هاهنا

احتمالان، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أجابَه على الاحتمالَين:

۞ **الاحتمال الأول:** أنَّه يقرّ بأن الله بيَّنَ ما هو الشرك الذي حرمه، ويُسلِّم أن بيان ذلك في النصوص موجود، لكنَّه هو لا يدري.

۞ **الاحتمال الثاني:** أن يكون مقرًّا بأنه لا يدري؛ لأنَّ النصوص ما جاء فيها بيان حقيقة الشرك.

الشيخ أجاب على الاحتمالين :

الأول أنه لا يدري؛ لأنَّه مُعْرِض عن تعلُّم التوحيد وضدّه، وهذا حال أكثرهم، هذا الشأْن شأنٌ عظيم جدًا ، واجبٌ على كل مسلم أن يتعلَّم التوحيد وأن يتعلَّم ضدَّه، ولكن القوم مُعرضون، فجهْلُهم بحقيقة الشرك إنما هو بسببِ إعراضِهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤] ، إعراضهم هو سبب هذا الجهل .

ولا شكَّ أن الجهل الناشئ عن الإعراض ليس بعُذْرٍ، وهذا ممَّا لا خلاف فيه بين أهل العلم ؛ أنَّ الجهل الناشئ عن الإعراض ليس بعُذْرٍ لصاحبِه، فهذا الجاهل لا يدري ما هو الشرك الذي حرَّمه الله، ومع ذلك فإنه يتفَيهَق ويقول: أنا لسْتُ مشركًا، كيف تنفي عن نفسك شيئًا لا تدري حقيقته!! الحكْم بالبراءة من الشيء يسْتلزم العلم به عند كلِّ عاقل؛ لأنَّ الحكم على الشيء فرْعٌ عن تصوّره، فكيف تنفي عن نفسك وتقول أنا لسْتُ مشركًا!! تبرأ من هذا الأمر، تقول: أنا لا

أشرك؛ حاشا وكلَّا، وأنت لا تدري أصلًا ما هو هذا الشرك!! هذا ليس فعلًا سديدًا عند العقلاء.

والاحتمال الثاني: يقول أنا لا أدري؛ لأنه ما جاء في النصوص بيان هذا! وهذا أقبح، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يردُّ قائلًا: «**أَتَظُنُّ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُحَرِّمُهُ، وَلا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟!**» كيف يكون ذلك! هذا من تكليف ما لا يُطاق، وهو مُنتفٍ في هذه الشريعة، كيف يكون ذلك والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١١٩] فما حرَّمه الله عَزَّوَجَلَّ قد بيَّن حقيقتَه حتى يكون الناس على بيِّنةٍ من أمْرهم.

قال المصنف رحمه الله:

فَإِنْ قَالَ: الشِّرْكُ عِبادَةُ الأَصْنامِ، وَنَحْنُ لاَ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ.

قال الشارح وفقه الله:

انتقل الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى جوابٍ ثانٍ .

لاحِظ معي أنَّ الجواب الأول الذي يعتمد على دَعْوَى مجرَّدة عن البُرهان، هو يقول: أنا لسْتُ مشركًا، ولا يدري ما هو المشرك، هذا جواب عاميٍّ جاهل.

أمَّا الجواب الثاني فهذا من صاحب شُبهة، عنده شيء من العلم ولكن -معَ الأسف- هو علْمٌ لا ينفع بلْ يضرُّ صاحبَه، هذا صاحب شُبهة وصاحب تلْبيس، فيأتي متَحَذْلِقًا فيقول: أنا أعرف ما هو الشرك، الشرك هو كذا وكذا، وجوابه خاطئ.

إذن؛ هذا يفيدنا - يا إخوتاه - أنَّ المخالفين للتوحيد على مرَاتب، فتُعامَلُ كلُّ مرتبة بحسبِ حالها؛ لا يُخاطَبُ الجاهل العامي بما يُخاطَبُ العالِم، نزِّلْ كل واحدٍ من هؤلاء منزلته بحسب حاله، بحسب مسْتواه من جهة الشُّبه، فربَّما لا يحتاج إلى أكثر من أن يُعلَّمَ برِفْقٍ؛ ربَّما يكون مُلبِّسًا عنده من الشُّبه وما يدَّعِيه حُجَجًا ما يُحتاجُ معه إلى مناقشة، وربَّما يكون مهاجمًا لدعوة الحق، سَلِيط اللّسان، فيُعامَلُ بحسب حاله. إذن المخالِفُون للتوحيد على مراتب؛ فيُعامَلُ أهل كل مرتبة بحسب حالهم.

يقول: هذا «**الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنامِ، وَنَحْنُ لاَ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ**»؛ وهذا ما مرَّ بنا سابقًا وتكلمنا عنْه بالتفصيل، وأُعيدُ وأُكرِّرُ: شُبهاتُهم أصولها معدودة، وصورها وأشكالها كثيرة.

قال المصنف رحمه الله:

فَقُلْ لَهُ: مَا مَعْنى عِبَادَةِ الأَصْنامِ؟

قال الشارح وفقه الله:

عادَ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى هذا المسْلك الحَسَن في مناقشة المخالفين للتوحيد؛ وهو أسلوب الاسْتفصال، أسلوب طلب التفسير؛ أنت تتكلم عن شيء، دعْنا نبحثُ فيه.

ومن أحسنِ الأشياء أن تبدأَ معه من البداية، لا تدخل معه في نقاش في فرْع جُزْئي، أصِّلْ أولًا البداية، ما هو التوحيد؟ ما هي العبادة؟ ما هو الشرك الذي حرَّمه الله ﷻ؟ فإنَّك إن أحسنتَ الحُجَّة في هذا المقام سَهُلَ عليك أن تقود دفَّة الحوار . أمَّا أن تسلك معه مسلك النقاش في الفرعيات وأنت وإيَّاه حتى الآن ما اتفقْتما على الأصول، كيف أناقش في صورة من صور الشرك ونحن ما اتفقنا على حقيقة الشرك! وما اتفقنا على حقيقة العبادة التي الشرك فيها هو صرْف تلك العبادة لغير الله ﷻ! إذن ابحث أولًا في الأصول، وبالتالي ستجد أن الأمر اتَّسقَ معك وسَهُلَ عليك النقاش.

عاد الشيخ إلى الأسلوب نفسه فقال: «مَا مَعْنى عِبَادَةِ الأَصْنامِ؟»؛ وهنا أجابَ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بجوابَين:

- جواب على سبيل التسْليم.

◉ وجواب على سبيل المنْع - كما سيأتي -.

بدأ ذلك بالجواب الذي هو على سبيل التسْليم الجَدلي ؛ هَبْ أن الشرك عبادة الأصنام فحسْب كما تقول، حدِّثنِي ما معنى عبادة الأصنام؟

قال المصنف رحمه الله:

فَقُلْ لَهُ: مَا مَعْنى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ؟ أَتَظُنُّ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الأَحْجَارَ وَالأَخْشَابَ تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ وَتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاهَا؟ فَهَذَا يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ.

وَإِنْ قَالَ: هُوَ مَن قَصَدَ خَشَبَةً أَوْ حَجَرًا أَوْ بِنِيَّةً عَلَى قَبْرٍ أَوْ غَيْرِه، يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْبَحُونَ لَهُ، يَقُولُونَ: إِنَّهُ يُقَرِّبُنَا إِلَى اللهِ زُلْفَى، وَيَدْفَعُ عَنَا اللهُ بِبَرَكَتِهِ، وُيعْطِينَا بِبَرَكَتِه. فَقُلْ: صَدَقْتَ ... وَهَذَا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الأَحْجَارِ وَالْبِنَاءِ الَّذِي عَلَى الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا. فَهَذَا أَقَرَّ أَنَّ فِعْلَهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

❁ ❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الجواب ذكر أمرين.

الآن نحنُ نجاوبه على تسْليم أن الشرك مخصوصٌ بأنه عبادة الأصنام فحسْب.

❁ **الأمر الأول**: أن نقول له: إن كنتَ تقصد أنها تخلق وترزق وتدبِّر؛ فهذا باطل لا شكَّ فيه، والقرآن يُكذِّبُه، فلم يعتقد عبُّاد الأصنام ذلك في أصنامهم. مرَّ بِنا هذا الموضوع غير مرَّة، وذكرنا الأدلة عليه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وَإِنْ قَالَ: هُوَ مَن قَصَدَ خَشَبَةً أَوْ حَجَرًا أَوْ بِنِيَّةً عَلَى قَبْرٍ أَوْ غَيْرِه، يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْبَحُونَ لَهُ، يَقُولُونَ: إِنَّهُ يُقَرِّبُنَا إِلَى اللهِ زُلْفَى، وَيَدْفَعُ عَنَا اللهُ بِبَرَكَتِهِ، وُيعْطِينَا بِبَرَكَتِه. فَقُلْ: صَدَقْتَ ... وَهَذَا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الأَحْجَارِ وَالْبِنَاءِ الَّذِي عَلَى الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا. فَهَذَا أَقَرَّ أَنَّ فِعْلَهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ)**.

نعم، هذا هو الأمر الثاني، وهو أن نقول: ثبت عندنا أنهم ما كانوا يعتقدون في الأصنام أنها تخلق وترزق وتدبِّر بنصِّ القرآن.

❁ **إذن الاحتمال الثاني**: أنهم يفعلون هذا لأجل طلب الشفاعة والزُلْفى عند الله ﷻ، سيجيب بهذا. إذا لم يجب بالأول فسيجيب بالثاني، فيقول الشرك هو هذا الأمر؛ أن نقصُد خشبةً أو حجرًا أو بِنْيةً وندعوها ونذبحُ لها، ونقول إنَّ هذا يقرِّبُنا إلى الله زُلْفَى، ويدفع عنَّا بِبَركتِه، ويعطينا بِبَركتِه.

فنقول: صدقتَ ؛ نعم أجبتَ جوابًا صحيحًا يحْكِي الواقع. هو «صدقتَ» لا من جهة أنك أصبتَ الحق، فهذا الفعل صواب، هو يقول: صدقتَ في أن هذا هو المُطابِق للواقع، عُبَّاد الأصنام يعبدونها لأجل هذا ؛ يتوجَّهُون إليها بالعبادة لأجل طلب الزُّلْفَى عند الله سبحانه وتعالى، وحين ذلك نقول لهذا القائل: فعْلُكم وفعْلُهم سواء ولا فرْق.

وقد علمْنا سابقًا أنَّ من مقاصد الدعوة إلى التوحيد بيانُ عدم الفرق بين شرك الأولين وشرك المتأخِّرين. إذن في مقامِ الشرك لا فرْق بين معبود ومعبود؛ هذه من القواعد المتَّفق عليها في مقام الشرك «لا فرْق بين معبودٍ ومعبود» ؛ أن يكون حجرًا أو أن يكون شجرًا، أن يكون شمسًا أو أن يكون قمرًا، أن يكون صنمًا، أن يكون قبرًا، لا فرْق بين هذا وهذا.

وعلِمْنا قاعدةَ الباب سابقًا : «علَّة الشرك التشْريك؛ فلا فرْق بين شريك

وشَريك»؛ (علَّة الشرك التشريك) أن تجعل لله ندًّا، (علَّة الشرك) يعني من جهة تحريمه (التشريك) ؛اتِّخاذ النِّد، (فلا فرْق بين شريك وشَريك).

وقلنا - يا إخْوتاه -: المقام مقامٌ عظيم، مقامٌ في حقِّ الله ﷻ فيتلاشى ما سواه، في مقام تجريد التوحيد يتلاشى ما سواه، ويصبح الكلُّ عبيدًا مخلوقين لله لا يستحقُّون من حق الله شيئًا، مهْما كان هذا المعبود؛ سواءً كان وليًّا لله، أو كان عدوًّا لله، كان عاقلًا، كان غير عاقل، لا الْتفاتَ إلى هذا ، في مقام تجريد التوحيد يتلاشى ما سوى الله سبحانه وتعالى.

وهذا من الأمور المهمِّة، وهي نُكْتَة لَطيفة، أشار إليها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضعٍ مهمّ في كتابه العظيم «الردّ على البكْري» ، وهذا كتاب يحسُنُ بطالبِ العلم أن يقرأَه؛ فإنه من الكتب النافعة جدًا في باب توحيد العبادة، كتاب «الاسْتغاثة» أو «الرد على البكْري».

المقصود: أنَّه إذا أجاب بالجواب السابق فإنَّنا نبيّن له أن حالهم وحالكم سواء، أنتم تفعلون ما فعلوا حذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، أنتم لا تريدون إلَّا التقريب إلى الله زُلْفَى، وأنه بِبَركة الوليّ والشيخ يعطيكم الله، وبِبَركة الوليّ والشيخ يدفع عنكم، هذا حالكم!

وأحْكِي لك أمرًا وهو: أنَّني كنتُ مرة في إحدى البلاد، فمرَرْتُ بقرية في

طريقي وأنا ماشي سائق بالسيارة، مرَرْنا بقرية ورأيتُ ضريحًا عليه قُبَّة، يلْتجئُ إلى هذا الضريح أهل هذه القرية، وقريبٌ من هذا الضريح يوجد حجارة متكسّرة كأنَّه بناء تهدَّم أو شيء من هذا، فقال لي مرافقِي: أتدري ما هذا؟ قلتُ: لا، قال: هذه الحجارة محلّ الضريح السابق، ثمَّ لمَّا تهدَّم بنوا له - للولي المزْعوم - ضريحًا بجواره، قلتُ: ما سببُ تهدُّمِه؟ قال: جاءت صاعقة من السماء- سبحان الله العظيم! ولله الحكمةُ البالغة- ما أصابت شيئًا من القرية إلَّا هذا الضريح، فقلتُ له: إذن المُفْترض أن القوم يستيقظوا من غفْلتهم فيعلموا أن هذا الولي لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر، يعني إذا ما نفعَ نفسه فكيف ينفع غيره! فقال ليس صاحبي: هيهَات، القوم أُشْرِبُوا في قلوبهم حب الشرك، وزيَّن لهم شيوخ الخرافة والقبورية، قال لهم شيوخهم: عليكم أن تحبوا هذا الولي أكثر من السابق، تدرون لماذا؟ السَّبب أن هذه الصاعقة كانت نازلة عليكم، فقال الشيخ: لا، أنا أدفعُها، أنا أتحمّل، فنزلَت على رأسه، فهو له عليكم مِنَّة عظيمة، فقلتُ لصاحبي: ليتَ أحدًا ردَّ عليهم فقال: وليُّكم هذا وليٌّ ضعيف ما يستحق أن تلجئوا إليه، ألسْتم تزعمون أن له جاهًا وحظْوة عند الله، بلْ تقولون إنَّ له تأثيرًا في هذا الكون، لماذا ما دفعَها أصلًا، وأراحكم، لماذا أكلَها على رأسِه، هذا دليلٌ على أنه مسكين، ضعيف، ما يملك شيئًا، فلا يستحق أن يُلْجأَ إليه.

المقصود: أنَّ حال القوم ما سمعتَ؛ يطلبون البركات والخيرات والعَطايا

ببركة الشيخ أو دفْع المكروهات والأذى عن أنفسهم بهذا، بالالْتجاء إلى هذه القبور وهذه الأضرحة. ونسألُ الله العافية والسلامة، ونسأله أن يحفظَنا من أوضار الشرك، وأن يثبِّتَنا على التوحيد حتى نلْقَاه، ونحمده أن عافانا من هذه البلايا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فَهَذَا أَقَرَّ أَنَّ فِعْلَهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ**»؛ قوله: «**فِعْلَهُمْ**» الضمير هنا الظاهر - والله أعلم - أن المؤلف يريد به القبوريّين المتأخِّرين، وهناك احتمال أنه يريد المتقدِّمين، لكن لعلَّ الأقرب - والعلم عند الله - أنه يريد القبوريّين المتأخِّرين، أقرَّ أن فعْل القبوريّين المتأخِّرين هو عبادة الأصنام، يعني هو مثل وفي حقيقة عبادة الأصنام ولا فرْق.

«**وَهُوَ الْمَطْلُوبُ**»؛ المطلوب بيان نفْي الفارق بين شرْك المتقدِّمين وشرْك المتأخِّرين.

قال المصنف رحمه الله:

وَيُقَالُ أَيضًا: قَوْلُكَ (الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ) هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهَذَا، وَأَنَّ الاعْتِمَادَ عَلَى الصَّالِحِينَ، وَدعُاءَهُمْ لا يَدْخُلُ فِي ذَلِك؟ فَهَذَا يَرُدُّهُ مَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ مِنْ كُفْرِ مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الْمَلائِكَةِ أَوْ عِيسَىٰ أَوْ الصَّالِحِينَ، فَلابُدَّ أَنْ يُقِرَّ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ فَهُوَ الشِّرْكُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ. وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

قال الشارح وفقه الله:

هذا هو الجواب الثاني الذي هو جوابٌ بالمنْع وعدم التسْليم؛ لا نسلِّم لك – يأيُّها القائل – أن الشرك مخصوص بعبادة الأصنام.

❁ وأجاب عن هذا بجوابٍ واضح، خلاصتُه: أن واقع المشركين الذي بيَّنه الله ورسوله ﷺ يدلُّ على أنهم ما كانوا مشركين بالأصنام فحسْب، النبي ﷺ بُعِثَ إلى قومٍ مختلفين في عباداتهم وفي معْبوداتهم؛ فالأصنام كانت تُعبد، والأنبياء كانوا يُعبَدُون؛ كعيسى، والأولياء والصالحون كانوا يُعبدُون؛ كمريمَ وغيرها ممَّا قصَّ الله سبحانه وتعالى علينا، والشمس والقمر: ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت:٣٧]، والملائكة والجن، إلى غير ذلك، فيُردُّ عليه بما بيَّن الله سبحانه وتعالى في كتابه من كفْر من تعلَّق على الملائكة أو عيسى أو الصالحين أو غيرهم، إذن: **هذا هو الجواب الأول**.

۞ وعلمْنا جوابَين آخرين، أن نقول: إن الأصنام في عبادتها لم تكن مقصودة لذاتِها بلْ كانت مقصودةً لغيرها، وهذا ما سبق تفصيله سابقًا.

۞ **ويُجابُ ثالثًا**: بأنَّ أدلة القرآن التي عابَت على المشركين ونَهَتْ عن الشرك لا يمكن تنزيل كثير منها على الأصنام، ولا يَليقُ ما ذُكِرَ فيها بالأصنام: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٦- ٥٧] أتَرى هذا لائقًا بالأصنام؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ هذا يتنزَّل على الأصنام؟ الجواب: أنه لا يتنزَّل على الأصنام.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ [الكهف:١٠٢] أَهَذا يتنزَّل على الأصنام؟ الجواب: إنه لا يتنزَّل على الأصنام.

أرَأَيتُم قول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» ألَه أيُّ علاقة بالأصنام؟ ليس له علاقة بالأصنام.

إذن: كذبُوا حينما زعموا أن الشرك محصور ومقصور ومخصوص بعبادة الأصنام.

۞ **والجواب الرابع عن دعْواهم هذه أن نقول لهم**: إن الأدلة الآمرة بعبادة

الله وحده لا شريك له والنَّاهية عن الشرك به كانت أدلَّة عامة لا تخْصيص فيها، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]، ما قال (ولا يشرك بعبادة ربِّه الأصنام!) ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] وما قال: (فلا تدعو مع الله الأصنام)، وقِسْ على هذا في أدلة كثيرة تجد أنه لم يُعلَّق النهي عن الشرك بالأصنام قط، وإنَّما تجد إذا اسْتقريتَ النُّصوص النَّهي نهْيًا عامًا، فيعمُّ كل شيء، والقاعدة علمْناها : «في مقام الشرك لا فرْق بين معبود ومعبود»، و«علة الشرك التشريك، فلا فرْق بين شريك وشَريك».

قال المصنف رحمه الله :

وَسِرُّ الْمَسأَلَةِ أَنَّهُ إِذَا قَالَ: (أَنَا لاَ أُشْرِكُ بِاللهِ) ، فَقُلْ لَهُ: وَمَا الشِّرْكُ بِاللهِ فَسِّرْهُ لِي؟

فَإِن قَالَ: هُوَ عِبَادَةُ الأَصْنَام. فَقُلْ لَهُ: وَمَا عِبَادَةُ الأَصْنَامِ؟ فَسِّرْهَا لِي.

وَإِنْ قَالَ: أَنَا لاَ أَعْبُدُ إِلاَّ اللهَ. فَقُلْ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ؟ فَسِّرْهَا لي.

فَإِنْ فَسَّرَهَا بِمَا بَيَّنَهُ اللهُ فِي الْقُرْآنِ فَهو الْمطْلُوبُ، وَإِن لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئًا وَهُوَ لاَ يَعْرِفُهُ؟ وَإِنْ فَسَّرَهُ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ بَيَّنْت لَهُ الآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ فِي مَعْنَى الشِّرْكِ بِاللهِ وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ؛ أَنَّهُ الَّذِي يَفْعلُونَ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِعَيْنِهِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ هِيَ التِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا، وَيَصِيحُونَ مِنْهُ.

قال الشارح وفقه الله:

هنا لخَّص المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما سبق، وبيَّن سرَّ المسألة يعني لُبَّها وخلاصتها؛ وهو ما ذكرَ لك، وبه تعلم أنَّ **المخالِف في هذا المقام له ثلاث أحوال**:

❁ **الحالة الأُولى**: إمَّا أن يكون جاهلًا لا يدري ، فيُبيَّنُ له الحق؛ وهذا أسهل مَن تواجه من هؤلاء يأيُّها المُوحِّد ، جاهلٌ وجهْلُه بسيط، فهذا تُبيّنُ له الحق.

❁ **الحالة الثاني**: أن يقول الحق؛ إذا سألتَه واسْتفصلْتَ واسْتفسرْتَ أن يجيب بالحق والصواب ويحْكِي الواقع، فتبيّنُ له حينها أنه لا فارق بين القديم

والحديث، لا فارق بين حال المتقدِّمين من المشركين وحال المتأخِّرين؛ وبهذا تقوم الحُجَّة عليه.

❁ **الحالة الثالثة**: أن يفسِّر تفسيرًا باطلًا ؛ إذا اسْتفصلْتَ واسْتفسرْتَ وسألتَ فإنه يجيب بجواب باطل، فيُبيَّنُ له خطأُه بالدليل.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَإِنْ فَسَّرَهُ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ بَيَّنْتَ لَهُ الآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ فِي مَعْنَى الشِّرْكِ بِاللهِ، وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ؛ أَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِعَيْنِهِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ هِيَ التِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا، وَيَصِيحُونَ مِنْهُ**). «**يَصِيحُونَ مِنْهُ**» منكرين للتوحيد، وهذا الذي ذكرتُ لك وقرَّرْتُه من مقاصد الدعوة إلى التوحيد «بيان نفْي الفارق بين شرك الأوَّلين وشرك المتأخِّرين».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَيَصِيحُونَ مِنْهُ كَمَا صَاحَ إِخْوَانُهُمْ حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾** [ص:٥]) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾[الصافات: ٣٥- ٣٦] إذن حالهم هُوَ هُوَ، إنكار المشركين الأولين على النبي ﷺ المتأخِّرون يضَارعُون الأوَّلين فيه، فيدَّعُون على أهل التوحيد أنهم لا يقدِّرُون الأولياء ولا النبي ﷺ ولا الصالحين، فهلْ هذا إلَّا دليل انحراف عن الحق! مع أن أهل التوحيد ما طلبوا منهم إلَّا أن يعظِّموا الله، يغضبون أشدّ الغضب من أدْنى كلمة إذا قلتَ لهم: (إن النبي ﷺ في قبره لا يضر ولا ينفع) يقول: أسأْتَ الأدب مع

رسول الله ﷺ مع أن هذا هو الأدب، مع أن هذا هو كلُّ الأدب؛ لأنَّه موافقة لرسول الله ﷺ فيما جاء به، ثمَّ إنَّ سوء أدبِكم مع الله ﷻ والله إنَّه لأَعظم، والأدب مع الله أوجب من الأدب مع كل أحد.

إذن: القوم لِمَا أُشرِبُوا في قلوبهم من حبِّ الشرك يغضبون للذين يشركونهم مع الله سبحانه وتعالى أعظم من غضبهم وحرْقَتِهم على حق الله ﷻ، لا يبَالي، لا تجد من هؤلاء والله حُرْقة على شركٍ يقع، حتى ولو كان بِبُوذا، حتى ولو كان بعبادة النار، حتى ولو كان بعبادة القرَدة والبقر، ما تجد تلك الحُرْقة في قلوبهم؛ لأنهم أصلًا يعلمون من أنفسهم أنَّه ليس هناك خلاف كبير بينَنا وبين أولئك .

فحقُّ الله ﷻ الذي هو عبادتُه وحده لا شريك له مهْضُومٌ عند القوم، ما يقيمون له وزْنًا، ثمَّ يغضبون، ويُلْقُون التُّهَم، ويُشنِّعُون أشدّ التشْنيع على أهل التوحيد الذين يقولون لهم: وحِّدُوا الله، وجِّهُوا قلوبكم وجوارحكم في عبادتها إلى المعبود الواحد العظيم المستحق للعبادة وهو الله ﷻ، أيُّ شيء يغضبكم في ذلك؟! هل تعلمون أحدًا أعظم من الله! هل تعلمون أحدًا أكبر من الله! هل تعلمون أحدًا أقدر من الله؟ إذن لماذا تتوجَّهُون لغيره؟ لكن هذا لا يُرضيهم، اتّباع الهَوى، أُشْرِبُوا حبّ الشرك في قلوبهم - نعوذ بالله من الخذْلان -.

والله ﷻ أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُمْ لَمْ يَكْفُرُوا بِدُعَاءِ الْمَلائِكَةِ وَالأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّمَا كَفَرُوا لَمَّا قَالُوا الْمَلائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ. وَنَحْنُ لَمْ نَقُلْ عَبْدُ الْقَادِرِ وَلاَ غَيْرُهُ ابنُ اللهِ.

قال الشارح وفقه الله:

هذه الشُّبَهة الثامنة من الشُّبهِ التي سعَى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ وجزَاه عنَّا خيرًا إلى كشْفها في هذا الكتاب العظيم. **مضْمون هذه الشُّبَهة** : سببُ كُفْر المشركين الأوَّلين نسْبَةُ الولد إلى الله، لا الاسْتغاثة والدعاء والعبادة لغيرِ الله.

وهذه الشُّبَهة والتي بعدها موجودةٌ في بعضِ نُسَخ كشف الشُّبهات دون بعض، ولذا لا تسْتغرب إذا وجدتَ بعضَ الشروح التي ألَّفها أو ألْقَاها بعضُ أهل العلم؛ كشرح الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ وغيره، لا تجد إشارةً إلى هذه الشُّبَه ولا شرحًا لها؛ لأنَّها موجودة في بعضِ النُّسَخ دون بعض، ولا أدْري ما السَّبب، ولعلَّه أن يكون بسبب أنَّ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إنَّما ألْحَقها بعدما كتبَ الكتابة الأولية، أو بعد النسخة الأولية، لأنَّ مؤلفات الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تنتشر عقِيبَ تأْليفه لها؛ يتلقَّاها طلبةُ العلم ويتلقَّفُونها، فتنتشر عقِيبَ تأليفه لها، ثمَّ لعلَّه يعِنُّ له أن يُضيف شيئًا ويُلْحقه؛ فلعلَّ هذا ممَّا أضافه الشيخ في آخره، والعلم عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

أمَّا مضْمون هذه الشُّبَهة والتي بعدها ؛ فلا شكَّ أنَّه ممَّا تدَاوله أهل الشرك والضلالة، وأحسنَ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ حينما تناول بالردِّ والتفنيد هاتَين الشُّبهتين.

أمَّا هذه الشُّبَهة التي سمعت فما من شكٍّ أنها أضْعف شُبَهِ القوم، وهي من السَّخافة بمَحل أن يُقال: إنَّ المشركين الأولين ما كفروا لكونهم يدعون ويعبدون غير الله، وإنَّما كفروا لأنَّهم ادَّعوا لله الولد، حيث قالوا: إنَّ الملائكة بناتُ الله؛ فهذا من السُّخف وخَبَلِ العقل بمكان. والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ردَّ هذه الشُّبَهة من ثلاثة أوجه.

ولا شكَّ أنَّ من المشركين الأولين من كان يعتقد أن الملائكة بناتُ الله- تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا- ، وقد أفصَحَ كتابُ الله عَزَّ وَجَلَّ عن مقالتِهم هذه، فقال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ [النحل:٥٧] نزَّهَ نفسه عن هذه المَقالة الشَّنيعة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٠] كما سيأتي الكلامُ عن هذه الآية فيما أوردَه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

كذلك في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥] ؛ فهذه مَقالة طائفة من المشركين الأولين ولا سيّما قريش، وجُهينَة، وخُزاعة، أو بعض خُزاعة، وكِنانَة، وبني سَلَمَة، وغيرَ هؤلاء، هؤلاء كانوا يقولون: "إنَّ الملائكة بناتُ الله من سَرَوات الجنّ" ؛ يعني: أنَّ الله -تعالى عن مَقالتهم - قد صاهر الجن، فوُلِدَ له هؤلاء الملائكة.

وهذا الأمر كان له أثرٌ في فعْلهم، من ذلك: وأْدُ البنات، فوأْدُ البنات له

أسبابٌ عندهم، منها ما يرجع إلى كراهَة البنات وأنهنَّ قد يجلبْنَ العار، ومن ذلك أيضًا سببٌ اقتصادي؛ كونهُنَّ عالة، إنما يُنفَقُ عليهنَّ بلا مردود يعود على الوالد، ومن ذلك أيضًا سببٌ دِيني، وقد ذكر هذا القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ ؛ حيث إنهم لمَّا اعتقدوا أن الملائكة بنات الله قالوا: "أَلْحِقُوا البنات بالبنات" ، يعني: اقتُلوا البنات؛ لأجل أن يرتقِين فيلْحقنَ بالملائكة اللَّائي هُنَّ بناتُ الله في زعْمهم - تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا -.

المقصود: أنَّ هذه مقالة من مقالات المشركين ولا شكَّ، ولكنَّها مقالة كُفْريةٌ مسْتقلَّة عن شرْكهم في العبادة، كما سيذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال المصنف رحمه الله:

فَالْجَوَابُ: أَنَّ نِسْبَةَ الْوَلَدِ إِلَى اللهِ تَعَالَى كُفْرٌ مُسْتَقِلٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ١ - ٣]. وَالأَحَدُ: الَّذِي لا نَظِيرَ لَهُ. والصَّمَدُ: الْمَقْصُودُ فِي الْحَوَائِجِ. فَمَنْ جَحَدَ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ وَلَوْ لَمْ يَجْحَدْ آخِرَ السُّورَةِ.

❊ ❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

هذا جوابٌ من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بيَّن فيه أن **الواجب على كلِّ أحد أن يعتقد أمرين:**

۞ **أولًا**: كون الله سبحانه وتعالى أحدًا؛ يعني: أنَّه مُتوحِّدٌ بجميع الكمالات، فهو الواحد في ذاتِه الذي لا كُفْء له، وهو الواحد في صفاته الذي لا مثيل له، وهو الواحد في عبادته فلا شريك له. فهذا واجب أولي .

۞ **ثانيًا**: أن يُعتقدَ تنزُّه الله سبحانه وتعالى عن أن يكون والدًا أو أن يكون مولودًا ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣].وادّعاء كون الله ﷻ مولودًا لوالد هذا ما افْتراه أحد من الناس فيما أعلم، والعلم عند الله ﷻ .والمقصود أنَّ زعْم نسبة الولد إلى الله ﷻ قد افْتراه كثيرٌ من الناس، ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٠].

فهما أمران مستقلان؛ إثبات الوحدانية لله سبحانه، وإثبات كونه غير والدٍ

لمولود، وكونه غير مولود لوالِد، فهذان الأمران مستقلَّان.

فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن؛ هذه السورة العظيمة قد أرْشَدت إلى وجوب اعتقاد الأمرين، فمن جحدَ واحدًا من هذين الأمرين فهذا كافٍ في كفْره ولو لم يجحدْ الشطر الثاني، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «**فَمَنْ جَحَدَ هَذَا**» يعني كون الله عَزَّوَجَلَّ أحدًا صمدًا، وهذا ولا شكَّ يتضمَّن توحيد الله في العبادة؛ لأنَّ من أحَدِيَّتِه أحَدِيَّتُه في العبادة، ولأنَّ الصمد يقتضي كونه المعبود المسؤول المطلوب وحدَه لا شريك له، فالصمد: يعني الذي تصْمد إليه الخلائق في حاجاتها، تصمد يعني: تقصد، فالخلق جميعًا إنما يقصدون، وواجبٌ أن يقصدوا الله تعالى وحده لا شريك له.

وهوَ الإلَهُ السّيد الصَّمدُ الذي ... صَمدَتْ إليهِ الخلقُ بالإِذْعانِ

فالله وحده الذي يُصمَدُ إليه ويُقصدُ ويُطلبُ في قضاء الحاجات جلَّ وعلا، فمن جَحَدَ هذا القدر فإنَّه كافر ولو أنه لم يجحد بقية السورة، وهي قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ .

فهؤلاء المشركون المتأخِّرون الذين يزعمون أنَّ مقالتهم ليس فيها نسْبة الولد إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وبالتالي فإنَّهم بُرآء من الشرك؛ لكونهم ما قالوا إنَّ الأولياء كعبدِ القادر الجيلاني وهو من العلماء العُبَّاد من علماء الحنابلة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وكان له كلام حَسَنٌ في التوحيد والصفات والقدَر، كما بيَّن هذا ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في

ترجمتِه، فمثل عبد القادر ومثل بقية الأولياء حقًّا ،فضلًا عن هذا أنبياء الله ﷻ؛ كنبينا محمد ﷺ، هؤلاء يقولون: نحن لا ندَّعي أنهم أولادٌ لله ﷻ، فبالتالي انتفينا عن الكفر.

فنقول: هذا باطل؛ فإنكم إن قلتم بالحق في موضع فإنَّ هذا لا يسْتلزم أن تكون جميع مقالاتكم حقًّا، وهذا يُدركُه كلُّ عاقل، كون الإنسان لم يقل بالباطل في موضع لا يسْتلزم أنَّ كل ما قالَه صواب، أليس كذلك؟ فكونكم تُشركُون بالله ﷻ في العبادة هذا كفْرٌ مستقل.

فالمقصود: أنَّ المشركين الأولين أتوا بكفْريَّات وما أتوا بكفْر واحد، ومَن قال لكم - يا هؤلاء - إنَّ المشركين الأولين إنَّما كفروا فقط بمقالتِهم "إنَّ الملائكة بناتُ الله" !! هذا غير صحيح، ولا يقوله عاقل، بل القوم أتوا بكفْريَّات.

وإضافة إلى ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقول: يلْزمكم أيضًا أن يكون المشركون الأولون ما كفروا بإنكارهم البعث إنَّما كفروا بمجرد نسْبة الولد إلى الله ﷻ، أمَّا إنكارهم البعث وكونهم أقسموا بالله جهْد أيمانهم لا يبعث الله مَن يموت هذا ليس كفرًا، ويلْزمكم أن يكون إنكارهم نبوَّةَ النبي ﷺ أيضًا ليستْ كفْرًا، وهل يقول عاقل بذلك؟!

جوابُنا عليكم هو جوابُكم على هذا الإيراد؛ إن قلتم : لا، إنكار البعث كفْرٌ، وإنكار نبوَّة النبي ﷺ كُفْرٌ ، كلُّ واحد من هذه كفْرٌ مستقل، كما أنَّ نسْبة الولد كفْرٌ مستقل كذلك الشأن في صرْف العبادة لغير الله.

بلْ أنتم متناقضون! لم تزالوا تقرِّرُون أن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ؛ بمقالتكم هذه صارت عبادةُ الأصنام ليست كفرًا، أرأيتَ كم يقود الهوى إلى التناقض! هم يسعون السَّعي الحثيث للانتِفاء من وصْمة الشرك الذي هم واقِعُون في حمْأَتِه؛ فيأتون بمثْل هذه التخبّطات، فنسْبة الولد إلى الله ﷻ شيء، والشرك في العبادة شيء آخر، فمن لم يزْعم أنَّ أحدًا من المخلوقين ابنٌ أو بنتٌ لله ﷻ فهذا لا يعني أنَّه سَلِمَ من الكفر أوّله وآخره.

قال المصنف رحمه الله:

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، فَفَرَّقَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ، وَجَعَلَ كُلاً مِنْهُمَا كُفْراً مُسْتَقِلاً. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٠] فَفَرَّقَ بَيْنَ كُفْرَيْنِ.

❋ ❋ ❋ ❋

قال الشارح وفقه الله:

هذا دليلٌ آخر يدلُّ على بُطلان قولهم وهو: كون الله سبحانه وتعالى أثبت كفرَين لا كفْرًا واحدًا للمشركين، فقال سبحانه: «﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ﴾» هذا فيه ردٌّ على كفْرٍ من كفْرياتهم، وهو دعْواهم أنَّ لله ولدًا، ثم قال: «﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾»؛ عطف، والعطف في مثل هذا المقام يقتضي المغَايرة؛ فهما إذن مسألتَان، «﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾» فيه إشارة إلى الرَّد على كفْرهم من جهة اتخاذ الآلهة مع الله، «فَفَرَّقَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ، وَجَعَلَ كُلاً مِنْهُمَا كُفْراً مُسْتَقِلاً».

كذلك ردَّ عليهم بآية الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ هذه الآية أيضًا فيها أنَّ ثَمَّة أمرين مختلفَين:

الأمر الأول: كون هؤلاء الكفار جعلوا لله شركاءَ الجنّ.

ولأهل العلم بحثٌ طويل في إعراب «شُرَكَاءَ الْجِنَّ»؛ والأقرب والأظهر - والعلم عند الله ﷻ - أنَّ «شُرَكَاءَ» مفعول ثانٍ مقدَّم، و«الْجِنَّ» مفعول أول،

وترتيب الكلام في أصْله: (وجعلوا لله الجنَّ شركاء) ؛ يعني: جعلوا الجنَّ شركاء لله، وإنما قدَّم الشركاء - والعلم عند الله ﷻ - تعظيمًا وتشْنيعًا للقول بالشرك وإثبات الشّركاء لله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾؛ هذه جُملة حالية، والضمير فيها :

❁ **إمَّا أن يكون عائدًا للجاعلين الذين جعلوا لله الشركاء**؛ فيكون المعنى: وجعلوا لله شركاء الجنّ مع أنَّه خلقهم، وجعلوا لله شركاء الجن وقد خلقهم؛ فكيف يعبدون غيرَ خالقٍ لهم!! هذا قَبيحٌ في العقول، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ يعني معَ كونه خالقًا لهم ما وحَّدُوه بالعبادة، فذهبوا يعبدون معه غيره!! ولا شكَّ أن هذا فيه قُبحٌ، وهذا على طريقة القرآن في الاسْتدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الأُلوهيّة، فمن خلق هو المستحقّ للعبادة.

❁ **والقول الثاني: أنَّ الضمير عائدٌ إلى الجنّ** ؛ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ مع كون الجنّ المعبودِين مخلوقين، وهذا قبيح، كيف يكون المخلوق معبودًا!! هذا لا يستحقّ العبادة، إنَّما يستحق العبادة من كان خالقًا لا من كان مخلوقًا.

قال: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ؛ خَرَقُوا: يعني ائْتَفَكُوا، واخْتلقُوا، وتخرَّصُوا، وكذَبُوا؛ لا شكَّ أنَّها من أشْنع الكذبات والمختلَقات والإفْك من القول أن يُنسبَ إلى الله الولد - تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا -، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ

وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٢]. إذن هذه مقالةٌ كاذبة، بالغةٌ في الشَّناعة مبْلغًا عظيمًا.

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ من الكفار من خرَقَ وافترى ونسب البَنينَ لله ﷻ؛ كاليهود الذين قالوا "إنَّ عُزيرًا ابنُ الله"، وكالنصارى الذين قالوا "إنَّ عيسى ابنُ الله"، ﴿وَبَنَاتٍ﴾ يعني المشركين من مشركِي العرب الذين قالوا "إنَّ الملائكة بناتُ الله".

المقصود: أنَّ الله ﷻ فرَّقَ بين الكفرَين، فهذا كفْرٌ وهذا كفْرٌ، فمن سَلِمَ من واحدٍ لا يلزم أن يكون سالمًا من الآخر؛ إلَّا إذا كان بالفعل عابدًا لله مجتنبًا للشرك.

قال المصنف رحمه الله:

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَيْضًا: أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِدُعَاءِ اللاتِّ مَعَ كَوْنِهِ رَجُلاً صَالِحًا لَمْ يَجْعَلُوهُ ابْنًا اللهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعِبَادَةِ الْجِنِّ لَمْ يَجْعَلُوهُمْ كَذَلِكَ.

قال الشارح وفقه الله:

هذا جوابٌ ثانٍ ذكرَه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ وهو بحسبِ ما ذكرتُ لك يكون الجواب الثالث، يعني إضافةً إلى الإلْزام الذي هو الجواب الثاني فهذا هو الجواب الثالث، والثاني من جهة كلام المؤلف.

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَيْضًا: أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِدُعَاءِ اللاتِّ»؛ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم:١٩-٢٠]، باتفاق المسلمين أنَّ الذين عبدوا اللَّاتّ كفار، هل أحدٌ من أهل الملَّة يدَّعي أنَّ الذين عبدوا اللَّاتّ لم يكونوا كفارًا؟ لا أحد يخالف في هذا.

هل الذين عبدوا اللَّاتّ ادَّعوا أنه ابنٌ لله؟ الجواب: لا، إنَّما الذي جاء عن ابن عباس وجاء عن مجاهد وجاء عن جماعة رحمهم الله ورضي عنهم إنما هو ذِكْرُ أن اللَّاتّ -وهو اسم فاعلٍ من اللَّتّ الذي كان يلتُّ السَّوِيق- هذا كان رجلًا صالحًا فحسْب، ما ذكروا فيه أنه ولدٌ لله، ما قالوا هذا، إنما قالوا فقط: إنه رجلٌ صالح؛ فغلَوا فيه فعبدوا القبر، ثمَّ عبدوا الصخْرة التي بجوار قبره.

فالمقصود: أنَّ هذه الدليل يُلزمهم بأحدِ أمرين:

- إمَّا أن تكون مقالتُهم صحيحة، فتكونُ عبادة اللّاتّ غير كفْرٍ.

- وإمَّا أن تكون عبادة اللّاتّ كفرًا ؛ فيبطل هذا الحصْر الذي حصروا فيه كفْرَ المشركين الأولين بأنَّه لكونهم ادَّعوا الولدَ لله ﷻ فحسْب.

وقلْ مثل هذا فيما ذكرَه الله في تَتِمَّة الآية، هل العُزَّى التي عبدوها كانت ابنًا لله؟ ثلاث شجرات عبدوها، أو عبدوا البناء الذي عليها، أو عبدوا الصنم الذي عندها - على خلاف بين أهل العلم في تفسير العُزَّى - وكلُّ مَن عبدها فقد كفر وإن كان لا يُعقل أن يُقال: إنها بنتٌ لله! أليس كذلك؟ وباعتبار كون الصنم من حيث كونه صنمًا، أو باعتبار الشجرة من حيث كونها شجرة هذا لا يُعقل أن يقول قائلٌ إنها بنتٌ لله ﷻ .

وقلْ مثل هذا في مَناة؛ مَناة صخْرة عُبِدَتْ وكثرَ عابدُها، وقِيل صنم ؛ أفرأيتُم كفْرَ هذا الذي عبدها إنَّما كفرَ لكونه اعتقد أنَّ مَناة الصخرة بنتًا لله؟ أيقول هذا عاقل؟! لا يقول عاقلٌ ذلك.

فدلَّ هذا على بُطلان مقالتهم.

قال المصنف رحمه الله:

وَكَذَلِكَ الْعُلَمَاءُ أَيْضًا وَجَمِيعُ الْمَذَاهِبِ الأَرْبَعَةِ يَذْكُرُونَ فِي (بَابِ حكْمِ الْمُرْتَدِّ) أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا زَعَمَ أَنَّ لِلَّهِ وَلَدًا فَهُوَ مُرْتَدّ، وإِنْ أَشْرَكَ بِاللهِ فَهُوَ مُرْتَدٌّ؛ فَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ، وَهَذَا في غَايَةِ الْوُضُوحِ.

❊ ❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

يُردُّ عليهم أيضًا بما هو متقرِّرٌ عند أهل العلم في جميع المذاهب -في المذاهب الأربعة وفي غيرها أيضًا- حينما يسْرُدون نواقض الإسلام وأسباب الرِّدّة فيذكرون سببَين مستقلَّين، يقولون: إنَّ من نسبَ لله ﷻ الوَلَد فقد كفرَ، ويقولون: إنَّ من أشركَ بالله ﷻ فقد كفرَ وارْتدَّ أيضًا، «فَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ»؛ وعليه: فلا أحد من أهل العلم يشترط في الكفْر والرِّدة اجتماع أكثر من مُكفِّر، لا أحد يقول: إنه لا يكفر حتى يجمع كلَّ أسباب الرِّدة أو أكثرها أو بعضها، إنما ناقضٌ واحدٌ كافٍ في الرِّدة.

الشَّأْن في أسباب الرِّدة عن دين الله ﷻ، الشَّأْن في نوقض الإسلام كالشَّأن في نواقض الطهارة؛ كما أنَّ ناقضًا واحدًا من نواقض الطهارة كافٍ في الحكْم ببُطلانِها كذلك الشَّأن في نواقض الإسلام، ناقضٌ واحد كافٍ في الحكْم بالخروج عن هذه الملَّة.

الخلاصة: نسْبَة الولد إلى الله كفْرٌ وليستْ كلّ الكفر، هذه الخلاصة التي

نخْلُصُ من خلال ما سبقَ بها ؛ «**نسْبَة الولـد إلـى الله كفْـرٌ، وليسـتْ كـلّ الكفـر**» ، فانتقَضَتْ مقالتُهم.

قال المصنف رحمه الله:

وَإِنْ قَالَ: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]

فَقُلْ: هَذَا هُوَ الْحَقُّ، وَلكِنْ لا يُعْبَدُونَ.

وَنَحْنُ لاَ نُنْكِرُ إِلاَّ عِبَادَتَهُمْ مَع اللهِ، وَإِشْرَاكَهُمْ مَعَهُ.

وَإِلاَّ فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ حُبُّهُمْ، وَاتِّبَاعُهُمْ، وَالإِقْرَارُ بِكَرَامَاتِهِمْ.

قال الشارح وفقه الله:

هذه الشُّبَهة التاسعة: الاسْتدلال بمكانة الأولياء وكَراماتِهم؛ أي: **مضمون هذه الشُّبَهة** إنَّ مكانة الأولياء وعظيم منزلتهم وما ثبتَ لهم من الكرامات مُسَوِّغٌ للتوجُّه إليهم بالدعاء والنذر والذبح وغير ذلك؛ لكونهم أولياء لهم منزلة عظيمة عند الله، ولكونِ الله ﷻ يُجري على أيديهم كَرامات هذا كافٍ في صحة الالْتجاء إليهم. وهذه الشُّبَهة من أكثر الشُّبَهِ انتشارًا وتقريرًا من المشركين المعاصرين، لا تكاد تجدُ أحدًا منهم ألَّفَ في تسويغ الشرك إلَّا وينصُّ عليها.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بيَّن أن قولهم في هذا المقام يشتمل على حقٍّ وباطل؛ كون الأولياء لهم منزلة عليَّة هذا قدرٌ لا يُختلَف فيه، وكون الأولياء لهم كَرامات هذا أيضًا لا يُختلف فيه، ولكن هل هذا القدرُ كافٍ في تجويز الالْتجاء إليهم في قبورهم والتَّوجهِ لهم بأنواع العبادة؟ الجواب: لا.

الحقيقة أنَّ المشركين هنا وقعوا في مغالطة منطقية عن قصْد، فالبحث في

صحَّة أو جواز أن يُسْتغاثَ بهم دون الله ﷻ ويُذبح ويُنذر لهم.. إلى آخره، وهم قفزوا إلى موضوع آخر ليس محلّ البحث وهو: الأولياء لهم مكانة ولهم كرامة؛ هذا ليس محل البحث وليس موضع الخلاف، ولا تلازم بين الأمرين؛ فكونهم أهل منزلة رفيعة وأهل كرامات هذا شيء ، وجواز التَّوجه لهم بالعبادة شيء آخر!

والجماعة وضعوا هذه المغالطة لإرْبَاكِ الناظر؛ أنت تُنكر الاسْتغاثة بهؤلاء إذن أنت تنكر كرامات الأولياء. وانظروا إليهم ، ولذلك من أكثر من شنَّعُوا على أهل التوحيد من المتأخِّرين -من الشيخ محمد الإمام المُجدِّد رَحِمَهُ اللَّهُ ومَن بعده- أنهم كانوا يُنكرُون كرامات الأولياء، باسْتمرار يكرِّرُون هذه الشُّبهة "هؤلاء الوهَّابية مُنكرون لكرامات الأولياء، لا يحترمون الأولياء، ولا يُقدِّرُون الأولياء" لِمَ؟ لمجرَّد أنهم قالوا: "اعبدوا الله وحده ولا تعبدوا الأولياء" وهذا - كما سمعتَ - نوعٌ من المغالطة التي لا يلْجأ إليها مُنصِف.

دعونا نبحث نحن وأنتم في موضع الخلاف، اسْتحقاق العبادة، ثبوت الوَلاية والكَرامة يساوي أو يُلازم اسْتحقاق العبادة؟ هذا هو موضع البحث، وليس في ثبوت الوَلاية والكَرامة، فتَنبَّه إلى هذا الأمر!!

القوم يَرون أن التلازم حاصلٌ بين إنكار عبادة غير الله من الأولياء

والصالحين، وإنكار وَلايتهم وكرامتهم، وهذا - كما علمتَ - مُنبنٍ عندهم على تقرير أمرين:

❁ **الأول**: أنهم يَرون أن مكانتهم ومنزلتهم مسوِّغةٌ للاستغاثة بهم.

❁ **الثاني**: أنَّ من كراماتهم إجابة من دَعاهم وتوجَّه إليهم.

إذن المسألة مَبنية على هذين الأمرين:

❁ ثبوتُ الوَلايةِ يُسوِّغ الاسْتغاثة بهم.

❁ من كراماتهم كونهم يُغيثون ويُجيبُون ويُلَبُّون طلبَ من دعاهم.

والجواب عن هذه المقالة من وجوه، نُجيب عن الأمرين معًا:

❁ **الوجه الأول**: لا تلازم -لا شرعًا ولا عقلًا- بين ثبوت الوَلاية والكَرامة، وصحة الاسْتغاثة وما إليها؛ لا تلازم بين الأمرين، ومن ادَّعى ذلك فإنه مُطالَبٌ بالدَّليل، وهذا القدر كافٍ، كلُّ دعْوى مجردة عن الدليل يكفي في ردِّها عدمُ التسليم بها؛ هذا من قواعد الجَدَل المتَّفق عليها، من ادَّعى دعْوى مجرَّدة هكذا يكفي أن نقول: لا نسلِّم بها، ويسقط قوله حتى يُثبِتَ هو هذه الدَّعْوى، والدَّعوى هنا ثبوت التلازم بين الأمرين؛ ثبوت الوَلاية والكرامة يعني صحة وجواز الاسْتغاثة. مع أنَّه لا تلازم لا من جهة الشرع، يعني لا يوجد دليل يقول: الوليُّ يجوز الاسْتغاثة به؛ اللهمَّ إلَّا في عقولهم وفيما ينحِتُونَه من الأكاذيب، (إذا أعْيتكُم الأمور فعليكم بأصحاب القبور) ينسبون هذا إلى رسول الله ﷺ؛ وهو

كلامٌ مكْذوبٌ ساقط، حاشا وكلّا أن يتفوَّهَ أو أن يتكلَّم به رسول الله ﷺ.

❁ **الوجه الثاني**: كلامكُم ربَّما يكون له مساغٌ ووجهٌ لو كانت الكرامة من فعْل الولي وبإرادتِه وقُدرتِه؛ والحق أنَّ الكرامة من فعْل الله وراجعةٌ إلى إرادته وقُدرته. الولي الذي يُجرِي الله ﷻ على يدَيه الكرامة - ومعناها هذا الأمر الخَارقَ للعادة - الولي في هذا مُكْرَمٌ لا مُكْرِمٌ، هذه قاعدة احفظْها: الولي مُكْرَمٌ لا مُكْرِمٌ، فليس هو الذي فعل وأوجدَ هذه الكرامة، إنَّما هي محْض إكْرامٍ وتفضُّلٍ من الله سبحانه وتعالى .

لو كان كلامُهم حقًّا -وهو جواز الاسْتغاثة بهم- لكان لزومًا؛ لكون الكرامة من فعْل الولي، والحقُّ أنَّ الأمر ليس كذلك، فلا هو الذي أرادَ، ولا هو الذي قدِر، ولا هو الذي فعلَ، إنَّما الأمر راجعٌ إلى الله سبحانه وتعالى وحده، فما جرى لأصحابِ الكهْف، ما جرى لمريمَ عليها السلام، وما جرى لكثيرٍ من سَلَفِ هذه الأُمَّة الصالح من الصحابة ومَن بعدهم؛ كلُّ ذلك إنَّما هو إلى الله سبحانه وتعالى.

إذن: كان الذي يجب أن تتعلَّق القلوب بمَن يملِك الكرامة، وليس بالذي أُكْرِمَ بالكَرامة؛ هذا الذي يقتضيه العقل والشرع، إذا كان الله ﷻ هو الذي بيدِه إجراء الكرامات إذن توجَّه إليه جلَّ في عُلاه. إذن هذا الجواب الثاني.

❁ **الجواب الثالث**: لا تلازم بين الكرامة والتَّصرف، وأُريدُ بـ (التَّصرف): التَّصرف في هذا الكون، التدبير الذي يدَّعونه؛ كون الله ﷻ أجرى كرامةً على يد عبده الصالح لحُجَّة أو حاجة، لمصلحته أو لمصلحة غيره، هذا لا يستلزم كونه قادرًا على التصرف في هذا الكون، فيُعطي، أو يمنع، أو يُغيث من دعاه، أو يَهب الأولاد، أو يُغيث اللهفات، أو ما شاكل ذلك، لا يوجد التلازم بين هذين الأمرين، كون الله ﷻ أكرمه بشيء معيَّن لا يسْتلزم أن يكون وهو في قبره رَهين عمله أنَّ كل ما يطلبه الناس منه شرقًا وغربًا فإنَّه قادرٌ على فعْله، هذا شيء غير معقول فضلًا عن كونه شيئًا منتفيًا في الشريعة.

❁ **الجواب الرابع**: أنكم تزْعمون اتباع الدليل في إثبات الكرامة؛ يعني إذا جئنا إليهم فقلنا: ما الدليل على ثبوت كرامات الأولياء؟ يقولون: الدَّليل الشرع، ويبدؤون بقوله: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ، ويبدؤون يسردون ما ذكرَه الله في شأن أهل الكهْف، وما ذكر الله في شأْن مريمَ، إلى آخره. إذن هم يزْعمون أنَّ ثبوت الكرامة كان بالدليل.

نقول: والدليل نفسُه قد دلَّ على وجوب إفراد الله بالعبادة وعدم جواز إشْراك غيره معه فيها، فلأيِّ سببٍ تأخذون بشطْرٍ من الأدلَّة وتدَعون الشطر الآخر! لا شكَّ أن هذا دليل على هواكم لا إنصافكم.

هم يدَّعون أنَّ ثبوت مكانة الأولياء وكراماتهم وما إلى ذلك قد دلَّ الدليل

عليها ، نقول: والدليل نفسه قد دلَّ على أنَّ العبادة يجب أن تكون لله، والواجب الجمع بين النُّصوص والأَخْذ بها جميعًا، وليس أن نؤمن ببعضِ الكتاب ونكفر ببعض.

۞ **الجواب الخامس**: أنَّ النبي ﷺ قد قال: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ»؛ وإغاثة الملْهوفِين وإجارة المسْتجيرين هل هي واحدة من هذه الثلاث؟ لا.

إذن أنتم بين أمرين:

◉ إمَّا أن تصدِّقُوا رسول الله ﷺ ؛ وبالتالي فتعودوا على أنفسكم بالتكذيب في مقالتكم "أنَّ الولي من كراماته أنه يفعل ويغيث" ، والنبي ﷺ يقول: «انْقَطَعَ عَمَلُهُ».

◉ أو أن يكون كلامكم حقًّا، وكلام رسول الله ﷺ كذِب؛ وحاشا رسول الله ﷺ من ذلك، كرامات الأولياء التي هي من جهة فِعْلِهم تنتهي بموتِهم، أمَّا بعد وفاة الإنسان فإنَّه ينقطع عملُه، لو أنه قد سُئِلَ هذا الولي ما يقدر عليه وهو حاضر يسمع فإنَّه يجيب ويُلبِّي الدعوة، ولكن بعد وفاته الأمر مختلِف. والقوم - على كلِّ حال - مشركون بأوليائهم أحياءً وأمواتًا، يسألون الأموات ، ويسألون الأحياء وهم غائبون أو ما لا يقدر عليه إلَّا الله سبحانه وتعالى في

حضْرَتِهم؛ ولا شكَّ أن هذا من أبطل الباطل!

القوم عندهم شُبهة وهي: أنَّهم يوردون قصَصًا كثيرة فيه أنَّ فلانًا وفلانًا قد ذهب إلى القبر الفلاني واسْتغاث بصاحبِه فحصل له مراده ، يشْحنون كتُبَهم من هذه الأكاذيب وهذه الكرامات. **والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:**

۞ **الوجه الأول:** إنَّ مبْنى الشريعة وأحكامها على الأدلَّة لا على القصَص والتجارب، إذا أردتُم إثبات شيء وتقرير حُكْمٍ فالواجب أن تقولوا: قال الله وقال رسوله ﷺ ، أمَّا هذه القصص والحِكايات التي تذْكرونها فإنَّه لا يجوز أن يُبْنَى عليها حُكْمٌ ، فليس في القصص مصدرًا من مصادرِ التشريع، هذا أمرٌ متَّفق عليه بين أهل العلم. فالمقام مقامُ احْتجاجٍ لإثبات حُكْمٍ وهو: جواز الاستغاثة بالموتى إلى آخره ؛ فهذا موضع لا يصح فيه إثبات الحكم؛ لأنَّ روايةً جاءت عن فلان، أو حكايةً ذكرَها فلان، أو قصةً ذكرَها فلان في مؤلَّفه؛ هذا ليس دليلًا، وبالتالي فإنَّ ما يُبنى عليه لا تقوم له حُجَّة.

۞ **الوجه الثاني:** جماعُ ما يذكرون في هذه القصص مرجعُه إلى ثلاثة أمور:

◉ **الأول:** أن يكون نقلًا كاذبًا.

◉ **الثاني:** أن يكون من تلاعُب الجنّ والشياطين.

◉ **الثالث:** أن يكون موافقًا قدرًا.

◉ **إمَّا أن يكون نقلًا كاذبًا**؛ وما أكثر الكذِب الذي شُحِنَتْ به كُتُب كرامات الأولياء ، بلْ لعلَّ هذا هو الأصل في الكتب التي أَلَّفُوها في هذا الباب، فتقرأُ عجبًا، يقول لك: "فلان من كراماتِه أنَّه طاف سبعة أشواط قرأ خلالها ثنتَي عشرة خَتْمة" ، اثنا عشر ألف ختمة للقرآن في سبعة أشواط! كم تأخذ السبعة الأشواط في أقصى حد؟ ساعة أو نصف ؛ ساعة اثنا عشر ألف ختْمة!! أو " فلانٌ من الفجر إلى العصر قرأ ثلاثمائةٍ وستين ألف ختْمة" ، يا لطيف ثلاثمائة وستين ألف ختْمة خلال عشر ساعات !! وقِسْ على هذا، نَاهِيكَ عما يذكرون من كونهم سُئِلُوا فأغاثوا، واحد أراد ابنًا أو ولدًا فذهب يستغيث ورجع وجد زوجتَه قد إمَّا حمَلَتْ وإمَّا ولَدَت!! وأشياء من هذا القَبيل لا يقبلها عاقل! فهي تُرهاتٌ وأكاذيب .

◉ **أو أن يكون الذي يذكرون راجعًا إلى تلاعب الشيطان** ؛ يقول لك: "ذهب فلان إلى قبر فدعا صاحبَه فجاءه الردُّ سمع صوتًا من داخل القبر"، أو "رأى أحدًا يخرج من القبر ويذهب إلى مكان كذا وكذا" ، وكلُّ هذا من تلاعب الشيطان بهم ، وما أكثر تلاعب الشيطان بهم، فإنهم أسلسُوا قيادهم للشيطان فصاروا سيقةً له وأُلْعُوبة بيدِه.

◉ **أن يكون الذي وقع وافق قدَر الله** ﷻ ، **وليس لهذا الدعاء تأثير**؛ لم يكن

الدعاء الشركي سبب حصول ما حصل، إنَّما الله ﷻ قدَّر في هذا الوقت حصول كذا ، والقوم لظلام قلوبهم ربطُوا بين الأمرين، ولا رابط بين الأمرين.

❁ **والجواب الثالث أن نقول لهم**: إن كنتُم تذكرون قصصًا، إن كان في جُعْبَتِكم قصصٌ تدَّعُونها، فإنَّ عند النصارى واليهود والهندوس والبُوذيّين وأضْرابهم من الكَفَرة قصصٌ من جنس هذه القصص التي تذكرون أو أكثر ؛ أنَّ أحدهم ذهب فدعا عند صنم بوذا، دعا هذا الصنم وإذا بمطلوبِه قد حصل، وهذا عندهم فيه من القصص شيء كثير. وكلُّ جواب تجيبون به عن هذا الإيراد هو جوابُنا عليكم في زعْمكم، إن كانت القصص حُجَّة لكم فلْتكن حُجَّة للكفار، وهل يقول مسلم إنَّ دعاء صنمٍ أمرٌ جائز لأجل هذه القصص التي تُدَّعَى؟ لا شكَّ أنَّه لا يقول أحدٌ البَتَّة ممَّن ينتسب إلى الإسلام بهذا.

إذن: تبيَّن لنا أنَّ هذه الحُجَّة - وهي من أقوى ما يذْكرون - كونه قد وقع وحصل وجُرِّب وقبر فلان ترياقٌ مجرَّب وما إلى ذلك، وقبر فلان سرٌّ من الأسرار، وفلان عنده من الأسرار والبركات و..و.. إلى آخره، هذا كلُّه لا يقدِّم ولا يؤخِّر لمن أراد النظر في دليلٍ صحيح.

أختم - يا إخوة - بالتنبيه على أمرٍ نستفيده في فقه الدعوة إلى التوحيد وهو: أنَّه في مقام التعليم والبيان لأمثال هؤلاء الجُهَّال لا يحسُن الخوضُ معهم في أعْيان الأولياء وثبوت ولايتِهم من عدمها، وكان أشياخنا - جزاهم الله عنَّا خيرًا

- يُنبِّهُون على هذا الأمر ، وكأنِّي بالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُنبِّهُنا على هذا ؛ يعني: ما قال في أثناء كلامه "هذا إن سلَّمنا أنَّ هؤلاء أولياء، وإلَّا فكثيرٌ منهم إنما هم ممخرِقون، وكثيرٌ منهم من شياطين الإنس، وإنما هم كذا وكذا" ، ما دخل في هذا الباب .

في هذا المقام لا يحسُن ولا يصلح أن تسْتثير حميّة المخالفِ لكَ وأنت تريد أن تكون سببَ هدايته، لا تسْتثِر حميَّتَه ، القوم عندهم حميَّة وغيْرة على مكانة هؤلاء الأولياء؛ فإذا دخلتَ معهم وقلت: والله من تقولون إنه السيد البدَوي هذا كذَّابٌ دجَّال بلْ هذا شخصية وهْمية و..و.. إلى آخره ممَّا يُقال في حقِّه، هذا يجعله تُستثار حفيظتُه فيقول: أنت كيف تتكلَّم على هذا!!

نحن ليس عندنا فرق بين الشرك بولي لله أو عدو لله، كما علمْنا سابقًا لا فرق عندنا بين معبودٍ ومعبود، وبالتالي فالدخول معهم في هذا المقام لن يكون مثمرًا، بلْ ربَّما يكون حاجزًا بينك وبينه، بين دعْوتك والوصول إلى قلبه.

ولذا الأحسن ألَّا تدخل معه في هذا النقاش ، سلِّم -ولو على سبيل الجدل- واقبل منه أن هؤلاء الأولياء يا أخي ليكونوا أولياء! ولكن هل هذا يعني جواز عباداتهم ودعائهم من غير الله عَزَّوَجَلَّ؟ خُذْ معه الكلام في هذا الجانب، ولا تدخل معه في الجانب الآخر، ويقول: "لا، أنت تدَّعي دعَاوى غير صحيحة، وإذا كان

فلان قال كذا، فصاحب الكتاب الفلاني قال بخلافه، والرجل كان صالحًا.." ، الآن أصبحَ النقاش نقاشًا ضعيفًا. إذن الأحسن والأَولى لا تخضْ معه ، وأنا أتكلَّم عن أصول وقواعد ، والمستثنيات لها أحوالها. الأفضل والأحسن ألَّا تخضْ معه في هذا المقام الذي نتحدَّث فيه في مكانة الولي الفلاني وعين الولي الفلاني، وهل هو وليٌّ أو لا؟ إلى آخره .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وَإِنْ قَالَ: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]). هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[يونس:٦٣] فيها تعريف الولي ؛ كلُّ من كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ :(فَقُلْ: هَذَا هُوَ الْحَقُّ، وَلكِنْ لا يُعْبَدُونَ) ولذلك قاعدة أهل التوحيد في هذا المقام : الأولياء يَعبُدُون ولا يُعبَدُون .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وَنَحْنُ لاَ نُنْكِرُ إِلاَّ عِبَادَتَهُمْ مَعَ اللهِ، وَإِشْرَاكَهُمْ مَعَهُ) نعم؛ ومحبّتهم لا توجب عبادتهم ، وتقديرهم لا يستلزم تأْليهَهُم .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وَإِلاَّ فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ حُبُّهُمْ، وَاتِّبَاعُهُمْ، وَالإِقْرَارُ بِكَرَامَاتِهِمْ).

وهذا فيه ردٌ على من زعم أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان منكرًا لكرامات الأولياء . كلامه واضح وله كلماتٌ أخرى منثورة في كُتُبِه تبيِّنُ أنه كان يثبت كرامات الأولياء ويحبُّ الأولياء، ويَدين الله عَزَّوَجَلَّ بإكرامهم ، ولكن هذا شيء وعبادتُهم شيء آخر؛ فهذا الذي كان يُنكرِه.

قال المصنف رحمه الله:

وَلاَ يَجْحَدُ كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ إِلاَّ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ.

قال الشارح وفقه الله:

نعم؛ هؤلاء هم المعتزلة أنكروا كرامات الأولياء بدعْوى ضَعيفة هي: أنَّه لو ثبتَتْ كرامات الأولياء لاخْتلطَتْ حُجَجُ الله على الناس والْتبسَ الأمر عليهم؛ لأنَّ النبوة عندهم لا تثبت إلَّا بالمعجزات، والمعجزة والكرامة كلاهما خارقٌ للعادة، فيشْتبه الأمر على الناس ويلْتبس المقام. وهذا الكلام غير صحيح.

❁ وذلك أنَّ التفريق بين النبوة والولاية، والتفريق بين المعجزة والكرامة من أسهل الأشياء وأيسرِها، لِمَ؟ لأنَّ المعجزة يُصاحبُها دعْوى النبوة، يعني من تجري على يدَيه يقول أنا نبي، والكرامة لا يحصل معها ذلك، فأيُّ الْتباسٍ بين الأمرين؟! لا سيما وأنَّ موضوع الالْتباس بالمعجزة أو موضوع الاغْترار بالمعجزة أمرٌ بعيد، لماذا؟ النبوة لا يدَّعيها إلَّا أصدقُ الناس أو أكْذب الناس - انتبهْ لهذا - النبوة لا يدَّعيها إلَّا أصدقُ الناس وأكْذبُهم.

والسؤال: هل يَعسرُ التفريق بين أصدقُ الناس وأكْذبِهم؟ هل يَعسرُ ويَصعب التفريق بين أتقى الناس وأحْسنهم خُلقًا وعبادةً، وبين مَن هو أفجر الناس؟ الآن لو أتيت إلى عامّي ما عنده علْم فسألته عن اثنين؛ أحدهما معروف بالتقوى والصلاح -هو جارٌ للاثنين- والآخر معروف بالكذب والسوء والشر، كونه

يفرِّق بينهما أمرٌ صعبٌ عليه؟ ليس صعب، وبالتالي فالتفريق بين الصادق والكاذب في دعْوى النبوة أمرٌ متيسّر لعامَّة الناس، فلا الْتباس.

إذن عندنا أمران:

۞ أولًا: أن نقول إنَّ المعجزة مقترنة بدعْوى النبوة.

۞ ثانيًا: التفريق بين الصادق والكاذب في دعْوى النبوة ميسُور وليس بمعسور، فلا اختلاط.

۞ **الردُّ الثاني أن نقول لهم**: إنَّ ثَمَّة فرْقٌ بين المعجزة والكرامة؛ فالأصل أن جنس المعجزة أعظم من جنس الكرامة، ما يجريه الله ﷻ على أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من هذه الخارقات للعادات لا شكَّ أنه أعظمُ كمًّا وكيفًا ممَّا يجري على أيدي الأولياء، وهذا إن تأمَّلتَه فيما جاء في المعجزات معَ ما ثبت من الكرامات تبيَّن لك.

إذن: لا يجحد كرامات الأولياء إلَّا أهل البدع والضلال، وأهل التوحيد والسُّنة ليسوا منهم بحمد الله.

قال المصنف رحمه الله:

وَدِينُ اللهِ وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، وَهُدًى بَيْنَ ضَلالَتَيْنِ، وَحَقٌّ بَيْنَ بَاطِلَيْنِ.

قال الشارح وفقه الله:

لا شكَّ بين غُلوِّ الخُرافيّين القبوريين ، وبين إنكار المتكلِّمين من المعتزلة ؛ فالحقُّ الوسط ثبوت الكرامة لا الغُلو فيها، بخلاف حال أولئك المشركين الذين يقولون ويُضيفون من الغلو في الأولياء ما لا حدّ له ، لا يدَعون شاذةً ولا فاذةً إلَّا ويضيفونها إلى الأولياء، ولا شكَّ أنَّ غُلوَّهم في النبي ﷺ أعظم ، ولذا يقول قائلهم كما قال البُوصيري في «البُردة» التي هي عند بعضِهم أوثق من صحيح البخاري، وربَّما تجد الاسْتدلال بها:

دَعْ ما ادَّعتْهُ النصارى في نَبيِّهمُ ... واحْكم بما شِئْتَ مدحًا فيه واحْتكِمِ
وانسِبْ إلى ذاتِه ما شِئْتَ من شَرفٍ ... وانسبْ إلى قدْرِه ما شِئْتَ من عِظمِ
فإنَّ قدْرَ رسول اللهِ ليس لهُ حدٌّ ... فيُعرِب عنْه ناطقٌ بِفَمِ

فقط تجنَّب أن تقول: "إنَّ رسول الله ﷺ ابنٌ لله، أو أنه ثالثُ ثلاثة" ، وبعد ذلك الباب مفتوح، قلْ ما شئْتَ؛ فقط تجنَّب هذه المقالة، فهذا فقط الغُلو، هذا فقط المدح الباطل.

دَعْ ما ادَّعتْهُ النصارى في نَبيِّهمُ ... واحْكم بما شِئْتَ مدحًا فيه واحْتكِمِ

انسبْ ما شِئتَ، إلى ذاتِه، إلى شرفِه ﷺ، ولا شكَّ أنَّه ذو الشرف والمكانة

عليه الصلاة والسلام، ولكن حذارِ من هذا الغُلو ، قلْ ما شئْتَ ولا تقفْ عند حد، حتى ولو قلْتَ: إنه يُستغاث بالنبي ﷺ في كلِّ ما يُستغاثُ فيه بالله، ولو قلتَ: إنَّ رسول الله ﷺ يُجيب السائلين، ويُغيث الملْهوفِين، ويُنفِّس عن المكْروبين، ويَسمع دعاء الدَّاعِين من المشارق والمغارب، قلْ ما شئْتَ لكن فقط لا تقل: إنَّه ابنٌ لله، أو ثالث ثلاثة.

فأيُّ غُلوٍّ كهذا الغُلو!! فنبينا ﷺ عبدٌ لا يُعبَد، ورسولٌ لا يُكذَّب بلْ يُطاعُ ويُتَّبع ﷺ، فإذا كان هذا في حقه وهو سيدُ ولد آدم عليه الصلاة والسلام فكيف بحقِّ هؤلاء الأولياء! فمن باب أَوْلَى أن يُقتصدَ في مدحِهم والثناء عليهم، وأن يُوقفَ عند حدِّ ما ورد به الشرع من قَدرهم.

والله ﷻ أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ هَذَا الذِي يُسَمِّيهِ المُشْرِكُونَ فِي وَقْتِنَا الاعْتِقَادَ هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، وَقَاتَلَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ عَلَيْهِ ؛ فاعْلَمْ أنَّ شِرْكَ الأَوَّلِينَ أخفُّ مِنْ شِرْكِ أَهْلِ زَمَانِنَا بِأَمْرَيْن .

قال الشارح وفقه الله:

هذا الفصل من هذا الكتاب يُبيِّنُ فيه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ مقارنةً مهمَّةً بين مُتقدِّمي المشركين ومتأخِّريهم ، وبدأ ذلك بذكْر أنَّ هذا الشرك الذي عليه متأخِّرُو المشركين، أو عليه مشركوا وقت المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ، يُسمُّون هذا الشرك بـ(الاعْتقاد)، وهذا تأكيدٌ لِمَا ذكره في أوائل هذه الرسالة - إن كنتُم تذْكرون - أنَّ الشرك الذي هم عليه هو الاعْتقاد أو ما يُسمُّونه (الاعْتقاد).

ومرادُه رَحِمَهُ اللَّهُ: اعْتقادُهم في أوليائهم ومعْبوداتِهم أنَّها تسْتحقُّ العبادة ، بلْ وتتصرَّف في هذا الكون؛ فهذا الشرك الذي هم عليه يُسمُّونه (الاعْتقاد)، وهي الجَادَّة المسْلوكة لهم من جهةِ أنَّهم يُسَمُّون الأشياء بغير اسمها، كما هي عادة الضالين في شتَّى الأبواب، فهؤلاء يسمون الشرك بالاعْتقاد، ويسمّون دعاء غير الله والاسْتغاثة بغيره (تشفُّعًا) أو (توسُّلًا) ، يُسمُّون الذبح لأوليائهم (صَدقات)، يُسمُّون النُّذور التي يقدِّمُونها لأصحاب الأضْرحة (حقَّ الأولياء)، وهلُمَّ جرًّا، وكلُّ ذلك لا يغيّر من حقيقة حالِهم شيئًا، فالشرك هو الشرك مهْما سمّوه، كما

أنَّ الخمر خمْرٌ وإن سمَّاها شاربها ماءً ؛ هذا لا يُغير من الواقع ولا من الحكم شيئًا، فالعبرة بالحقائق والمعاني ، لا بالألْفاظ والمَبانِي.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «**هُوَ الشِّرْك الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، وَقَاتَلَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ عَلَيْهِ**» ؛ وهذا من أوضح الأشياء وأجْلَاها، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور:٤٠].

قال رَحِمَهُ اللهُ: «**فاعْلَمْ أنَّ شِرْكَ الأَوَّلِينَ أخَفُّ مِنْ شِرْكِ أهْلِ زَمَانِنَا**» ؛ وهذا أيضًا ما ذكرَه رَحِمَهُ اللهُ في القاعدة الرابعة من القواعد الأربع، حيثُ ذكرَ أنَّ مشركِي زمانِنا أغْلظُ شركًا من الأوَّلين؛ قال «مشركوا زماننا أغلظ شركًا من الأولين» ، وهنا يقول: «**شِرْكَ الأَوَّلِينَ أخَفُّ مِنْ شِرْكِ أهْلِ زَمَانِنَا**» والمعنى واحد ، ودلَّلَ على هذا بأمرين .

هو يذكر أمرَين يُبيّنَان هذه الحقيقة المؤْلِمَة التي لم يَعِيها هؤلاء المشركون؛ أنَّ حالهم كحالِ المشركين الأولين بلْ هو أسْوأ، وهو يقول: هنا أمران يوضّحان ذلك، ولم يذكر هذا على سبيل التخْصيص والقصْر أو الحصْر ، كما نبَّه على هذا حَفيد الشيخ؛ الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ في تعْليقِه على هذه الرسالة، إنَّما الأَوْجه التي تتَبيّنُ بها هذه الحقيقة كثيرة ، ومنها هذان الأمران، وهما من أوضح الأشياء وأجْلاها.

قال المصنف رحمه الله:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الأَوَّلِينَ لاَ يُشْرِكُونَ وَلاَ يَدْعُونَ الْمَلاَئِكَةَ أَوْ الأَوْلِيَاءَ أَوْ الأَوْثَانَ مَع اللهِ إِلاَّ فِي الرَّخَاءِ، وَأَمَّا فِي الضُّرِّ والشِّدَّةِ فَيُخْلِصُونَ الدِّينَ لِلَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١- ٤٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ إِلَى قَوْلِه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر:٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الآية [لقمان:٣٢].

قال الشارح وفقه الله:

ساقَ المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هذه المواضع من كتاب الله- وهي أربعة مواضع- تدلُّكَ على أنَّ المشركين الأولين يُشركون في الرخاء دون الشدَّة؛ في حال الشدَّة ونُزول الضرّ فإنَّهم يخلِصُون لله جلَّ وعلا، والأدلَّة على هذا سِوى ما ذكر المؤلف عديدَة في القرآن، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ إليه لا إلى غيره ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ

عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٣- ٥٤] . فهذه المواضع تدلُّ دلالة واضحة صَريحة على أنَّ المشركين يُخلصون في الشدَّة ويُشركون مع الله ﷻ في الرخاء.

ونسْتفيدُ من هذه الآيات ومَثِيلَاتها فوائد جَمَّة، منها:

❁ **أولًا**: أنَّ المشركين كانوا يعرفون الله ويُقرُّون بوجودِه، لا كما يقول المُبطِلُون: إنَّهم ما عرفوا الله وما كانوا يعتقدون بوجودِه؛ فكيف يكون ذلك كذلك وهم يدعُونه! فلا يدعونه إلَّا وهم يقرُّون بوجودِه ويعرفُونه سبحانه وتعالى.

❁ **ثانيًا**: أنَّ المشركين كانوا يتعبَّدُون لله ﷻ، ومن ذلك أنَّهم يدعونه ويَجْأرون إليه ويسْتغيثون به؛ فما كانوا مُعرضِين عن عبادة الله ﷻ بالكلّية، بلْ كان لهم عبادات يتقرَّبُون بها إلى الله، وكانوا يخضعون لله، ويذلُّون له. وهذه المسألة مرَّتْ بنا سابقًا.

❁ **ثالثًا**: أنَّهم كانوا يقرُّون بالرُّبوبية لله ﷻ؛ بدَليل: أنَّهم يدعون الله في الشدَّة، مَفْزَعُهم إلى الله ﷻ في الشدَّة؛ وما كان ذلك كذلك إلَّا لأنَّهم يعْتقدون أنَّ الله ﷻ هو القدير الذي يقدر على كشْف ما بِهم، بلْ ومقاليد الأمور كلها بيدِه سبحانه وتعالى، فلِذا لجَأوا إليه وحدَه وأعْرضوا عمَّا كانوا به يُشركون، وما الْتفتُوا إلى ذلك، ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ بلْ عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي

الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ عِكْرِمة مَولَى ابن عباس -رَحِمَهُ اللهُ ورضي الله عن الصحابي ابن عباس رضي الله عنهما- يقول: «كانوا يَحملون معَهم الأصنام في السفن، فإذا هاجَ البحر طرحوها في البحر، وصاروا يقولون: يا رب، يا رب» !! هذه الأصنام الحبيبة إليهم المُعَظَّمَة في قلوبِهم التي يعبدونها ويَتقرَّبُون إليها، إذا جاءت الشدَّة أَلْقَوهَا في البحر، وما الْتفتُوا إليها. إذن: هم يعلمون أنَّ الرب القدير الذي يُسيِّر ويتصرَّف ويُصرِّفُ كل شيء هو الله وحده.

❁ **رابعًا**: أنَّ طريقة القرآن الاسْتدلال بالرُّبوبية على الأُلوهيّة، كما مرَّ بِنَا كثيرًا ؛ فهذه الآيات يحتجُّ الله سبحانه وتعالى بها عليهم من جهة كونهم يُخلصُون في الشدَّة؛ إذن أنتم تعتقدون أنَّ الله ﷻ هو الرّب، إذن واجبٌ عليكم أن تجعلوه الإله وحدَه، إذا كان الرّب وحدَه فواجبٌ أن يكون الإلهَ المعْبودَ وحدَه.

❁ **خامسًا**: أنَّ القوم متناقضُون؛ وهذا يدلُّك على نقْص عقولهم، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠]، فهذا يدلُّ على هذا التناقض الذي وقعوا فيه؛ وذلك أنَّ كونهم يُخلصُون في دعائهم ولُجوئهم إلى الله ﷻ في الشدَّة ويشركون معه حال الرخاء دليلٌ على تناقضِهم، فإنَّه إذا لم تكن هذه المعبودات نافعةً لكم في الشدَّة فلن تكون نافعةً أيضًا في الرخاء، وإذا

كانت أموركم بيدِ الله ﷻ وحده في الشدَّة فإنَّها كذلك في حال الرخاء، فالقوم متناقضون، والقرآن يُبيِّنُ لهم هذا التناقض لعلَّهم يرجعون.

ولأجل ذلك عِكْرمة ابن أبي جهْلٍ رضي الله عنه- وكان في هذه القصة كافرًا- لمَّا كان فتحُ مكةَ هربَ من مكةَ كما أخرج هذا «النسائي» وغيرُه بإسنادٍ صحيح، هربَ فركِب البحر ، في بعض الروايات: أنَّه أراد الذهاب إلى الحبشة، فهاجَ البحرُ بهم هو ومَن معه في السفينة، فقال بعضُهم لبعضهم: «أخلصُوا في الدعاء إلى ربكم، فإنَّه لا يُنجّيكم إلَّا هو» فقال عِكْرمة: «إذا كان لا يُنجّيني في البحر إلَّا هو، فلا يُنجّيني في البرِّ إلَّا هو»، فاسْتيقظَتْ فطرتُه، وعرَف التوحيد لما كان في تلك الحال، فلمَّا نجَّاه الله ﷻ رجع إلى رسول الله ﷺ وآمن به.

❁ **سادسًا**: أنَّ الله ﷻ يُجيبُ دعاءَ المُضْطر ولو كان كافرًا، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، فالله ﷻ إذا شاء أجابَ دعاء مَن دعاه، حتى ولو كان مشركًا كافرًا ؛ فإنَّ إجابة الدعاء من فروع الرُّبوبية، والله ﷻ ربُّ كل شيء، كما أنَّه يَرزق كلَّ شيء فإنَّه يُجيبُ مَن دعاه ولو كان كافرًا.

وهذا فيه فائدة من جهة الرَّد على القبوريّين الذين يقولون: "إنَّا جرَّبنا فدعَونَا أصحاب الأضْرحة، فحصل مطلوبُنا، فهذا دليلٌ على أنَّ دعاءهم حقٌّ" ، وهذا غير صحيح، فالله ﷻ أجابَ لمَّا شاء دعاء المشركين الكافرين الذي نحنُ

وإيَّاكم متفقون على أنَّهم مشركون، ومع ذلك لم يكن هذا دليلًا على أنَّ حالهم حالٌ صحيحة، فالله ﷻ يُجيبُ المُضْطر إذا دعاه مهْما كانت حالُه، وهذا لا يدلُّ على اسْتقامة مَن أُجيبَت دعوتُه.

❁ **سابعًا**: أنَّ الدعاء عبادة، وأنَّ التوجه بالدعاء لغير الله شرك، فالله ﷻ سمَّى الدعاء «دينًا» والدين والعبادة بمعنى؛ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، ودعاء غيره شرك ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾، ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ وكلُّ ذلك مَرَّ بِكم. إذن هذا دليلٌ على أن الدعاء عبادة، وأنَّ صرْفَه لغير الله شرك، كما مرَّ بِنَا كثيرًا.

❁ **ثامنًا**: أنَّ المشركين عرفوا التوحيد وأهمّيتَه لكنَّهم ما اسْتمروا عليه ولا اسْتقاموا، في حال شدَّتهم وضرّهم لجأوا إلى الله سبحانه وحده، وعرفوا أن التوحيد مهم وأنهم إن سلكُوا سبيلَه نَجَوا، لكنَّهم إذا وصلوا إلى برِّ النجاة عادوا إلى شركهم؛ وذلك إمَّا لكونهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة، أو لأنَّه عَظُمَ في نفوسهم مخالفة الآباء والأجداد، أو لحَسدٍ في نفوسهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، أو لغير ذلك من الأسباب.

❁ **وهذا يجرُّنا إلى فائدة تاسعة** وهي: أنَّ العلم وحدَه ليس مقتضيًا

للهداية، ليس كلُّ مَن علِمَ اهتدى ، بلْ الهداية توفيقٌ من الله سبحانه وتعالى، هِبَة يَهبُها الله تباركَ وتعالى لمن يشاء، وإلَّا فلو كان كلُّ مَن علِم اهتدى لكان هؤلاء مهتدِين، لأنَّهم علِموا وعرفوا لكنهم ما اهتدوا، إذن فلْيلْجأ الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى في طلبِ الهداية، العلْم سببٌ للهداية وليس مقتضيًا له، لا يقتضيها ولابدَّ، بل الأمر يفْتقر إلى هداية من الله سبحانه وتعالى، «والله لولا الله ما اهْتدَينا».

❁ **عاشرًا**: أنَّ التوحيد فطرة فطرَ الناس عليها، والدليل على ذلك: أنَّ هذه الفطرة تسْتيقظ حال الضرورة والشدَّة ، كما حصل لهؤلاء المشركين، كما حصل لعِكْرمة رضي الله عنه فيما سمعت . توحيد الله سبحانه والتوجه له وحده فطرةٌ فطرَ الله الناس عليها وجبلَ الخلْق عليها، ولكنها تُغطَّى وتَتأثَّر فتنحرِف ، لكن ربما تسْتيقظ في بعض الأحوال ، وهذا ما كان فيما قصَّ الله ﷻ علينا من حال هؤلاء المشركين الذين اسْتيقظَتْ فطْرتهم وزال ما تغشَّاها، كانت الفطرة في غَمْرة وسَكْرة في حالهم التي كانوا سادِرين فيها ، فكانت الشدَّة فاسْتيقظَت هذه الفطرة؛ فأخْلصوا لله ﷻ في الدعاء.

فهذه بعض الفوائد التي تُستفادُ من هذه الآيات.

قال المصنف رحمه الله:

فَمَنْ فَهِمَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي وَضَّحَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ؛ وَهِيَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُونَ اللهَ وَيَدْعُونَ غَيْرَهُ فِي الرَّخَاءِ، وَأَمَّا فِي الضَّرَّاءِ وَالشِّدَّةِ فَلاَ يَدْعُونَ إِلاَّ اللهَ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَيَنْسَوْنَ سَادَاتِهِمْ؛ تَبَيَّنَ لَهُ الْفَرْقُ بَيْنَ شِرْكِ أَهْلِ زَمَانِنَا وَشِرْكِ الأَوَّلِينَ.

❋ ❋ ❋ ❋

قال الشارح وفقه الله:

لأنَّ أهل زمانِنا، لأنَّ المتأخِّرين من المشركين يشركون مع الله ﷻ في الشدَّة أيضًا، الأوَّلون يشركون في الرخاء فقط، والمتأخِّرون يشركون في الرخاء والشدَّة.

بلْ إنَّني أقول: لَرُبَّما كانوا أعظم إشراكًا ، بلْ ربَّما نسوا الله سبحانه وتعالى في حال الشدَّة، وما يدعون إلَّا معبوداتهم من دون الله ﷻ! يا لله العَجب !! الله ﷻ يحْكي عن أبي جهلٍ وأبي لهبٍ وأضْرابِهما من المشركين أنَّهم يَنسون ما يشركون، ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ في حال الشدَّة، والقوم ينسون الله ﷻ!! لا يعرفون الله ﷻ في الشدَّة، لربَّما دعوا في حال الرخاء، لكنهم في الشدَّة كانوا أعْظم ما يكونون شركًا ، والأمثلة على هذا كثيرة.

وهذا دليلٌ على أنهم أشدُّ فسادًا في القلوب، وأشْنع شركًا، وأضلُّ سبيلًا من المشركين الأولين، وهذا الذي يريد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيانه لنا؛ أنَّ المشركين

المتأخِّرين زادُوا على المشركين الأولين، على حالهم تلْك كفَّرهم رسول الله ﷺ وقاتلهم وبيَّن شناعة حالهم، فكيف بهؤلاء الذين زادوا شركًا على شركِ الأولين! فصاروا يشركون مع الله ﷻ في كلِّ حال، بلْ حتى إنهم قد يُمحِّضُون الدعاء لغير الله ﷻ في حال الشدَّة.

وسبحان الله العظيم! **قارِن في ذهْنِك بين صورتين:**

❁ **الصورة الأُولى**: ما قاله عبدُ المطلب جدّ رسول الله ﷺ حينما أقبلَ أَبْرَهة وأصحاب الفيل بجَيشهم العرَمرَم، كيف أنه قال: «اللهمَّ إنَّ العبد يمنع رَحْلَه فامنْع رحالك»؛ دعَا من؟ دعا الله وحده، هُبَل ومَناف واللَّات ونائله وإساف ما هم بعيدين عنه، وهو على دين الجاهلية، لكن جاءت الشدَّة فلجَأَ إلى الله وحده؛ (اللهمَّ إنَّ العبد يمنع رحْلَه فامنْع رحالك).

❁ ضَعْ هذه الصورة مقابل **للصورة الأخرى**: ما حكى شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما غزا التَّتار بلاد المسلمين، ذكرَ هذا في «الردّ على البكري» كيف أنهم كانوا يصِيحون قائلين:

يَا خَائِفِينَ مِن التَّتَر ... لُوذُوا بِقَبرِ أَبِي عُمَر

قارِن الصورتين!! هذا يدعو الله فيقول: «اللهمَّ»، وهؤلاء يقولون: «لُوذُوا بقبرِ أبي عُمر»، قارِن بين الصورتين!! بين قصَّة عِكْرمة رضي الله عنه لمَّا جاءت الشدَّة تنادى مَن في السفينة فقالوا: «أخلصُوا في الدعاء إلى ربكم، فإنَّه لا يُنجّيكم

إلَّا هو» ، وبين ما تواترَ تواترًا قطْعيًا عن المشركين القبوريّين المتأخِّرين الذين لا يعرفون الله في هذه الحال، بلْ لا يعبدون إلَّا معْبوداتهم.

ذكرتُ لكم غير مرَّة القصة التي حصَلت مع الشيخ محمد باشميل رَحِمَهُ اللَّهُ في الرسالة الصغيرة النافعة «كيف نفهم التوحيد؟» ؛ ذكر أنهم كانوا نحوًا من ثمانين رجلًا في سفينة، فهاجَ البحر بهم حتى إنه يَنزل بهم كأنَّه يصل إلى قاعِ البحر، ويرتفع حتى كأنَّهم في أعلى جبل ، فما كان منهم الذين في السفينة إلَّا أن قالوا - أولئك يقولون: (أخلصُوا الدعاء إلى ربكم، فلا يُنجّيكم إلَّا هو)- هؤلاء يقولون: (لا يُنجّيكم من هذا إلَّا السيد ابنُ عيسى) فصاروا يجأَرون بصوتٍ عالٍ: "يا بن عيسى، يا بن عيسى، يا عمود الدِّين" يقول الشيخ - وكان شابًّا في وقتها - قلتُ لهم: لِمَ لا تدعون الله؟ ادعوا الله، يقول: فأقبلوا عليه وهمّوا به حتى كادوا أن يلْقُوه في البحر، لولا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قيَّض له شخصًا منهم كان يكْتُم إيمانه، فحال بينهم وبينه. فلمَّا انكشَفت هذه الغُمَّة قالوا له: أرأيتَ كيف أن ابن عيسى نجَّانا! إيَّاك أن تُسيءَ الظنَّ بالسَّادة، مساكين ! فقال لهم: (والله إن ابن عيسى لا يدري عنكم ولا عن ما أصابَكم ولا عن دعائكم، إنَّما نجَّاكم الله وحده) ، في قصة فيها فائدة، لعلَّكم ترجعون إليها ، وهذا كثير.

محمد رشيد رضا في تفسيره «المنار» ذكر قصة نحو هذه؛ وهي أنَّ القوم

كانوا في سفينة فهاجَ البحر بهم، فصار كلُّ واحدٍ يدعو معبودَه؛ الذي يَميل إلى البَدَوي يقول: (يا سيدي البَدَوي) ، وذاك يَميل إلى السّيدة نفيسة (يا سيدة نفيسة)، وذاك للدّسُوقِي، ورابع للشاذِلي، ما تسْمع إلَّا أسماء هذه المعبودات، ولا أحد يقول: (يا الله)! يقول رشيد رضا: فما كان من مُوحِّد كان معهم إلَّا أن قال: «يا الله، أغرِق أغرِق، فما عاد أحدٌ يعرفك»! هؤلاء الذين في السفينة لا يعرفونك، يا رب أغرِق أغرِق.

وهذا كثير ومتَواتر، كما ذكر الصنعاني في «تطهير الاعْتقاد»، والشوكاني، والنَّعْمي، وصِدّيق حَسَن خان، وغيرهم كثير من أهل العلم، هذا أمرٌ متَواتر لا يُجحَد. وليس الأمر خاصًا بحال البحر ورُكوب السفينة، بلْ كلما نزَلَت بهم ضَائقة لا تجد قلوبهم تتوجَّه ولا ألْسنتهم تجْأر إلَّا إلى معبوداتهم

مَا مسَّني الدَّهرُ ضَيمًا واسْتجرْتُ بِهِ (٢) إلَّا ونلْتُ جوارًا منْه لَم يُضَم

البُرْدَة يحفظها الملايين من الناس، يتغنّون ويطْربون بها.

وآخر يقول للبَدَوي:

رُحْماكَ أَرْجو يا أَبَا الفتْيَان فِي خَطْبٍ أَهاج القلْب من حسَراتِه
مَالِي سِواكَ أرومُه فِي كشْفِه أوْ أرْتَجِي إن ضِقْتُ مِن وَثَبَاتِه
حَاشَا عليكَ تَردُّ خويدِمًا قصرَ الفؤادَ عَليكَ في حَاجاتِه

(٢) يعني رسول الله ﷺ .

(قصَر الفؤاد عليك -يخاطِب البدوي- في حاجاتِه)، ما يعرف إلَّا سيده البدوي!!.

في العراق ضَريح كبير يسمّى «ضريح النبي جَرْجيس»، ولا أدري - والله - مَن هذا جَرْجيس! يُنشدون عنده، بلْ مكتوب في لوحةٍ هناك:

زُرْ حَضْـرَةً مُلِئَـتْ نُـورًا وتقْديسًـا   واقْصِدْ نَبيَّ الهدَى ذَا المَجد جَرجِيسا

مـا جَـاءَهُ قاصِـدٌ يَشْـكُوا ملمَّتَـه   إلَّا ونُفِّـسَ عنْـه الكـرْبُ تَنفيسًـا

هذا الكلام ما وقع فيه أبو جهْل ولا أبو لهَب، لكن وقع فيه أُناس يقولون إنَّنا مسلمون، وربَّما تجد عند أحدهم سُبْحَة طولها متران، يُسبح ويقول: "لا إله إلَّا الله .. لا إله إلَّا الله" وهو واقعٌ في شرك ما وقع فيه أبو لهَب ولا أبو جهْل!.

على كلِّ حال؛ هذا المقام أكثر من أن يُعدَّد فيه ما وقع، وأنا أذكر لك طرفًا من هذه الأخبار؛ لأنَّ بعض الناس قد يُشكِّك، يقول: "أنتم تبالغون"، لا والله، ما في هذا مبالَغة، بلْ ما ذُكِرَت إلَّا - كما يقولون - كمثْل قطرة في بحر، ما ذُكِرَ إلَّا مقدارٌ يَسير من سيل عَرَمرَم طال وتَدفق، والله المستعان!

قال المصنف رحمه الله:

وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ يَفْهَمُ قَلْبُهُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فَهْمًا رَاسِخًا، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ، وَبِهِ التَّوفِيقُ.

قال الشارح وفقه الله:

الله المستعان، وما أقلّ هؤلاء مَن يفْهمها؟! مَن يتجرَّد لطلب الحق، أتَظنُّ أن هؤلاء القبوريّين لا يقرؤون القرآن؟ والله يقرؤون، وكثير مِنهم يحفظونه، والآيات التي سمعتَ يعرفونها ويحفظونها ويُجوِّدونها، ولكن المُصيبة أنَّ قلوبهم في أَكِنَّة ، ما أصبحوا ينتفعون بما يسمعون وبما يقرؤون ، فلأجل ذلك ما استفادوا شيئًا، القرآن يُتغنَّى به، يُحسَّنُ الصوت ويُعتَنى بتجويدِه! لكن أن يُفهم، وأن يُتدبَّر، وأن يُسْتجاب لِمَا فيه من توجيهات وأَوامر، هذا هم أبعد الناس عنه، وهذا من أعظم أسباب ضلالاهم، والله المستعان.

قال المصنف رحمه الله:

والأمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الأَوَّلِين يَدْعُونَ مَع اللهِ أُنَاسًا مُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللهِ؛ إِمَّا أَنْبِيَاءَ، وإِمَّا أَوْلِيَاءَ، وَإِمَّا مَلائِكَةً، أَوْ يَدْعُونَ أَحْجَاراً، وَأَشْجَاراً مُطِيعَةً للّهِ لَيْسَتْ بِعَاصِيَةٍ، وَأَهْلُ زَمَانِنَا يَدْعُونَ مَع اللهِ أُنَاسًا مِنْ أفسَقِ النَّاسِ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ هُم الَّذِينَ يَحْكُونَ عَنْهُم الْفُجُورَ مِن الزِّنَا وَالسَّرِقَةِ وَتَرْكِ الصَّلاَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالَّذِي يَعْتَقِدُ فِي الصَّالِحِ وَالَّذِي لاَ يَعْصِي - مِثْلِ الْخَشَبِ وَالْحَجَرِ - أَهْوَنُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ فِيمَنْ يُشَاهِدُ فِسْقَهُ وَفَسَادَه، وَيُشْهَدُ بِهِ.

قال الشارح وفقه الله:

لا شكَّ في ذلك ولا ريب، هذا أمرٌ ثانٍ يُبيِّنُ لك أن شرك المتأخِّرين أشْنع وأقْبح وأغْلظ من شرك المتقدِّمين ؛ الأوَّلون يدعون أُناسًا صالحين، أو على الأقل يدعون جمادات لا تعصي الله، هي عابدةٌ لله ﷻ العُبودية العامة، ﴿بَل لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة:١١٦]، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:١٨] ؛ فالمشركون إمَّا أن يعبدوا أُناسًا، أو إمَّا أن يعبدوا صالحين من البشر، أو من الملائكة، أو يعبدوا هذه الجمادات من الأصنام والأشجار ، لكن أن يصل الحال إلى درجة أن يُعبَدَ الفجَّار والفسَّاق والضَّلال!! هذا

المستوى ما وصلوا إليه، لكن وصل إليه المتأخِّرون؛ فصار الأمر أشْنع ، لأن من يَعبد الصالحين على الأقلّ الأمر في حقِّه أهون، كلُّه شرك، ولا فرق عندنا بين معبود ومعبود، لكن المسألة أنَّ الشرك في نفسه درَكات، الشرك متفاوت، فليس الشرك كأسْنان المشْط درجة واحدة، كما أنَّ الإيمان ليس كأسْنان المشْط درجة واحدة، بل الكفر درجات، والكفار بعضُهم أقبح من بعض . فهذا الذي يتوجَّه بالعبادة لغير الله من الفجَّار يشرك ويُعانِدُ أيضًا، بعكْس الأول، وهذا ما عليه المتأخِّرون.

طبعًا حينما نقول: المتأخِّرون لا نعني أن كل فرْدٍ فردٍ منهم واقعٌ في الأول والثاني، أو ما سأذكره بعد قليل ، إنما هذا واقعٌ في الجملة منهم ، وقلنا: إنَّ هذه القاعدة في كلِّ ما يُنسَبُ إلى المِلَلِ والفرق؛ حينما يُقال: "الفِرقة الفلانية، أو المِلَّة الفلانية، أو المذهب الفلاني يقول بكذا" يعني هم قائلون فيه بماذا؟ في الجملة، وليس أنَّ كل فرْد فرد . من الذي يقدر على أن يُحيط علْمًا بمقالة كل واحد من أهل هذه الملَّة، أو من أهل هذا المذهب؟! إنَّما المسألة في الجملة، هذا واقعٌ منهم وهذا كثير وفاشٍ فيهم، وهذا القدر كافٍ.

فالمقصود: أنَّ المتأخِّرين قد يتوجَّهون بالعبادة لأفجر الناس، والأمثلة على هذا كثيرة:

❖ (أحمد البدوي) من أكبر الطَّواغيت على وجْه الأرض التي تُعبدُ من دون الله، هذا الرجل يحجُّ إليه الآلاف المُؤلَّفة ، بل يُقال إنهم يبلغون الملايين، مولده ثلاث مرات في السَّنة، ومن هو هذا البدوي؟! لا تسْمع إذا قرأتَ عنه، ولا تقرأ عنه إلَّا كل قبيحة! السَّخَاوي في «الضوء اللَّامع» ذكرَ مَنقبَةً له وهي: (أنَّه في صلاة الجمعة كشفَ عورته في الجامع، وبالَ في ثيابه، وجلس ولم يصلِّ!) هذه كرامتُهم، نقل هذا السَّخَاوي عن المِقْرِيزي عن أحد شُيوخِه أنَّه ذهب إليه في الجامع وحَكَى ما رآه منه. والنُّقولات عنه في هذا كثيرة.

❖ (ابن عربي) الذي هو من أعظم الناس كُفْرًا بالله ﷻ، إمامُ أهل وحْدة الوُجود، ذاك الشيخ النَّجس الذي لا يحرِّم فرجًا، ذاك الذي يقول: إنَّ الله هو الناكح والمنكوح!! انظروا إلى - الشبكة بين أيديكم - انظروا إلى ضَريحه الذي تجدونه في الشام، يأتي الناس إليه زُرافات وَوُحْدان، ويلجؤون إليه.

❖ في مكةَ كان هناك قُبَّة على قبر، تُسمَّى «قُبَّة أبي طالب»، وأبو طالبٍ هذا كان أحد حكَّام مكة الظلَمَة، لمَّا مات وضعوا عليه هذه القُبَّة فصار مشهدًا، فصارت الناس تأتي وتشرك بالله ﷻ عنده، وهو حاكمٌ ظالمٌ، ذكر هذا غير واحدٍ من أهل العلم الذين كتبوا في دخول الدولة السعودية في مكة، حتى يسَّر الله ﷻ لمَّا دخلت الدولة السعودية أزالَت هذ المُنكَر، وزالَ هذا الشرك بحمْد الله.

المُضْحِك في الأمر ليس هذا، المُضْحِك أنَّ الأمر مع مرور الزمن تطوَّر، فظنَّ الجُهَّال أن هذه القُبَّة قُبَّةُ أبي طالب عمّ النبي ﷺ الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، الذي صحَّ بأصحِّ إسناد عن رسول الله ﷺ أنه يُعذَّبُ في النار، وأنه يَنتعِلُ نعْلَين من نار يغْلِي منهما دماغه، والقوم يتوجَّهون إليه على أنَّه أبو طالب، ويدعونه ويسْتغيثون به! أرأيتَ مسْتوى هذه العقول؟

❖ ودونَك كُتُب الكرامات عندهم، كـ«جامع كرامات الأولياء» للنَّبْهاني، أو كُتُب الشَّعراني، له أكثر من كتاب، واقرأ - والله - شيء يسْتحي الإنسان من أن يتلفَّظ به، أولياء يُعبدُون من دون الله ﷻ كراماتهم: أنهم يأتون الدواب يفعلون بها الفاحشة، ويتحسَّسون النساء، ويزْنون، ويسْرقون، أو أنَّهم يمكثون المُدَّة الطويلة لا يُصلُّون، وعلى هذا النَّسق تجد شيئًا كثيرًا ؛ فهذا بعض حال هؤلاء المشركين، أنهم ربَّما أشركوا مع الله سبحانه وتعالى أُناسًا من أفْسق الناس، وهذا لا شكَّ أنه أشْنع وأقبح.

والأمر - كما ذكرتُ لك - لا يقتصر على هذين الأمرين، **بلْ ثَمَّة أمورُ أخرى:**

◉ **ومنها:** أنَّ المتأخِّرين يُشركُون في الرُّبوبية مع الألوهية -كما مرَّ بِنَا هذا غير مرَّة- بخلاف حال المتقدِّمين، وقد أحسنَ المحقِّق - بارك الله فيه - حينما

أوْرد هذه الجملة في الهامش وهي كلمة حسنة من الشيخ عبدالرحمن بن حسن في «قرة عيون الموحدين» ، قال المحقق : زاد الشيخ عبد الرحمن بن حسن أمرًا ثالثًا فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «**أنَّهم يعتقدون أن آلهتهم من الأموات يتصرَّفون في الكون دون الله، وجمعوا بين نوعَي الشرك في الإلهية والرُّبوبية، وقد سمعْنا ذلك منهم مُشَافَهَة**» . إي والله، وهذا من أوضح الأشياء، أين شرك الأوَّلين من شرك القُبوريّين المتأخِّرين؟!

«مقدِّمة تاريخ نجد» لابن غَنَّام ؛ أتمنَّى أن تقرؤوها فإن فيها فائدة نافعة في حكاية حال العالم الإسلامي أو واقع كثير من العالم الإسلامي قُبَيل دعْوة الإمام المُجدِّد الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ . **من ذلك ، مِمَّا ذكرَ**: أنَّ ذَكَر نخْلةٍ كان في نجد يُسمَّى «الفَحَّال»، فكانت المرأة إذا تأخَّر خاطبها -ما جاءَها أحد- كانت تأتي فتضمّ هذه النخلة وتقول: (يا فحْل الفُحُول، أُريد زوجًا قبل الحول)! شرك ما وقع فيه المتقدِّمون!.

ذكر عن ما يحصل من منكرات عظيمة عند قبر ابن عَلْوان في اليمن، وكيف أنه كان يُلقَّبُ بـ «مُنجِّي الغارِقين» ، ليس الله كما كان يعتقده أبو جهْل وأبو لهَب، إنما ابن عَلْوان هو الذي يُنجِّي الغارِقين.

ذكرَ عن قبر العَيدروس أنهم يأتون عنده فيحتفلون، ويصْدحون قائلين:

شَـــي لله يـــا عَيــــدروس   شَـــي لله يـــا مُحْيـــي النُّفـــوس

العَيدروس هو الذي يُحيي النفوس، وليس الله!!

النَّعْمي رَحِمَهُ اللهُ له كتابٌ في غاية الحُسْن اسْمه: «معارج الألْباب» ؛ أُوصِيك بقراءته فإنَّه مفيدٌ نافعٌ جدًا، ذكر فيه من أحوال هؤلاء المشركين أشياء رآها هو، وأشياء بلغتْه وسمعَ بها، **من ذلك**: أنَّ امرأة عَظُم عليها جدًا أنَّ قُبَّةً أو ضَريحًا تهدَّم على مَن تعْتقد فيه، فكانت تصيح وتقول:

مَــن يَشْــفِي لَنَـا مَرْضَـانا مَــن يَحْمِــي لَنَـا حِمَانـا

مسْكينة، تظنُّ أنَّ الأمور انتهتْ! بعد هذا الضريح الذي تهدَّم (مَن يشْفي لنا مَرضانا، مَن يحْمي لنا حِمانا) ، ارْتكسُوا إلى قدْر من الشرك ما وصل إليه المشركون الأوَّلون.

◉ **الأمر الرابع الذي يُبيِّنُ لك أن شرك المتأخِّرين أغْلظُ وأشْنعُ من شرك الأوَّلين**: أنَّ في المشركين المتأخِّرين مَن يسوِّي تسْويةً تامَّة بين الله ومَن يعبده سواه.

المشركون الأوَّلون حَكَى الله ﷻ عن حالهم بقوله: ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧- ٩٨]، ما هي التسْوية؟ تسْويتُهم: أنهم يقولون: (لبَّيكَ لا شريكَ لك، إلَّا شريكًا هو لك تمْلِكُه وما مَلَك) .

أمَّا المتأخِّرون فالأمر أعْظم! حَكَى شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «الردّ على الشَّاذلي» أنَّ طائفة من هؤلاء القبوريّين كانوا يعتقدون أنَّ محمدًا ﷺ كان يعلم

ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر عليه الله ، وأنَّ هذا تسلْسلَ في الأولياء حتى انتهى إلى أبي الحسن الشّاذلي؛ فكانوا يعتقدون هذه التسْوية، أنَّ الشَّاذلي يعلمُ ما يعلمُه الله، ويقدر على ما يقدر عليه الله. أرأيتُم أحدًا من المشركين الأوَّلين قال مثل هذه المَقالة في اللَّات والعُزَّى؟ والله ما وصل، والله ما حصل.

◉ **الأمر الخامس**: أنَّ المشركين المتأخِّرين أشدُّ تعْظيمًا لمعبوداتهم من الله، ولذا يتوجَّهون إليها أكثر مِمَّا يتوجَّهون لله! هذه المعبودات، والآلهة التي اتَّخذوها مع الله هي والله في نفوسهم أو في نفوس كثير منهم أعظم من الله.

والدَّليل على ذلك: ما تَواترَ عنهم تواترًا قطْعيًا أنهم يتحاشون الحلف كذبًا بمعْبوداتهم، ولا يتحاشَون من الحلف بالله ﷻ كذبًا، وهذا شيء مُدَوَّنٌ مكتوب ومسْموع، قد سمعتُ والله طرفًا منه، ودُونَكم كُتُب أهل العلم؛ لِتَروا نماذِج من هذا الأمر، على أيِّ شيء يدلُّ هذا؟ يدلُّك على أنَّ معبوداتهم في قلوبهم أعظم، وأن قدْرها في نفوسهم أكبر، وإلَّا ما وقع منهم هذا الأمر؛ ولذلك توجُّهُهم إليها واحْتفاؤهم بها ولُجوؤُهم إليها أعظم.

ذكرتُ لكم غير مرَّة القصة التي فيها عِبرة، وتدلُّك على خُطورة المقام التي أوردَها الألُوسِي رَحِمَهُ اللهُ في تفْسيره، وهو أنَّه جاءه وهو شاب صغير أحد المُتمشْيخِين، فقال له: "اسْمع، إذا نزَلَت بك نازلة، فإيَّاك أن تدعو الله، فإنَّ الله

لا يَهتمُّ بك، ولا يُبالِي بما نزل بك، وإنَّما عليك بالأولياء، فإنهم يسارِعون إلى كشْف ما بِكَ". بالله عليكم بلغَكم عن أبي جهْل أو أُمَيَّة أو عُتْبة أو رَبيعة أو شَيبة أنهم وقعوا في هذا الشرك؟ والله ما وقعوا في هذا.

وذكرتُ لكم أيضًا قصة الشيخ محمد رشيد رِضا التي أوْرَها في تفسيره «المنار»، وهي أنه سمع امرأة نزلَت بها نازلة، فكانت تجْأر: (يا متْبُولي، يا متْبُولي) ، فلمَّا هدأَ روعُها قلْتُ لها: لماذا لا تتوجَّهين إلى الله بالدعاء، لماذا لا تدعِين الله؟ قالت: (المَتْبُول ما يَسْتنَّاش) ، معنى الكلام: المتْبُول لا ينتظر، المتْبُولي سريع الإجابة، ولكن الله ﷻ في نفسها ليس كذلك.

أرأيتم كيف وصل هؤلاء المتأخِّرون إلى هذا الدَّرَك السَّحِيق من الضلال.

◉ **الأمر السادس**: أنَّ المشركين المتأخِّرين جمعوا بين الإشراك مع الله سبحانه وتعالى في الأُلوهية والرُّبوبية -جمعوا مع هذا- تعْطِيل الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّهم بين مُعطِّلَة، أو حُلوليّين، أو من القائلين بالاتِّحاد ووحْدة الوُجود؛ بمعنى: معَ شرْكهم بالله سبحانه وتعالى تجد طائفةً منهم:

❖ تنفي عُلوَّ الله ﷻ وتقول: "إنَّه لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا عن يمينه، ولا عن شماله" إلى آخر ذاك الهُرَاء الذي يذكره، وهذا في الحقيقة لازِمُه وصْف الله ﷻ بالعَدم، لأنَّ هذا أدقّ ما يمكن أن تقوله للعَدم.

❖ الطائفة الثانية يعتقدون أنَّ الله ﷻ في كلِّ مكان، أو أن كل شيء هو الله، تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا، وهذا ولا شكَّ تعْطيل لله سبحانه وتعالى بالكلّية؛ تعْطيلٌ عن أن يكون له ذاتٌ وصفاتٌ تباركَ وتعالى.

فأيُّ شرك أعظم من هذا الشرك! وأيُّ كفْرٍ أعظم من هذا الكفر الذي وقع فيه هؤلاء! وهذا - والله - ما يُعرَف عن المشركين الأوَّلين. في حديث «الترمذي» في قصة حُصين الخُزاعي أبي عمرْان رضي الله عنهما، لمَّا سأله رسول الله ﷺ: «كم تعبد يا حُصين؟» قال: (أعبدُ سبعة؛ ستَّة في الأرض، وَوَاحدًا في السماء)، هذه العقائد عن المشركين التي كان عليها المتأخِّرون ما نعرفها في المُتقدِّمين، فزادَ هؤلاء خُبْثًا وضلالًا على ما عليه المتقدِّمون. والله المستعان.

لعلَّ هذا القدر فيه كفاية ، والله ﷻ أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصَحُّ عُقُولاً وَأَخَفُّ شِرْكًا مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ شُبْهَةً يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبَهِهِمْ؛ فَاصْغِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا.

❁ ❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ**» من المشركين الذين بُعِثَ رسول الله ﷺ فيهم «**أَصَحُّ عُقُولاً وَأَخَفُّ شِرْكًا مِنْ هَؤُلَاءِ**» يعني القبوريّين المتأخِّرين، وهذا ما تبيَّن لنا في الدرس الماضي؛ فأراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يبنيَ على هذا الذي بيَّنه في كلامِه القريب، وما بيَّنه في الكلام القريب مبْنيٌّ على ما قبله أيضًا.

وفَهْمُ هذه المسألة التي أطلْنا فيها القول في الدرس الماضي مفيدٌ لنا يا معْشر طلاب العلم، هذا الموضوع لا يُذكر على سبيل التفكُّه، حينما نقول: "إنَّ المشركين المتأخِّرين أغْلظُ شركًا من المتقدِّمين" لا نريد بهذا أن نتفكَّه ونتَسلَّى بمثل هذا الكلام، **وإنَّما أن تسْتفيد فائدتين:**

❁ **الأُولى**: أن نعلمَ أنَّ غلَط مَن حامى عن هؤلاء القبوريّين، وزعمَ أنَّهم لكونِهم يشهدون أن (لا إله إلَّا الله) أو يتلفَّظون بـ (لا إله إلَّا الله) ويُصلُّون ويصومون، أنَّ هذا كافٍ للحكْم عليهم بالإسلام وإن بدرَ منهم ما بدَرَ؛ فهؤلاء

قد أخطأوا خطأً عظيمًا ، فما يقع من هؤلاء المتأخِّرين من جنس ما يقع من المتقدِّمين ، بلْ هو أشْنع منه كما تبيَّن لنا.

❁ **والفائدة الثانية**: أنَّ نعلم أن المقام جِدٌّ ليس بالهزْل ؛ إذن لابدَّ من التشْمير عن سَاعد الجِد في الدعوة إلى التوحيد، وبيان حقيقة ما جاء به محمدٌ ﷺ، وبيان ما يُضادُّ ذلك؛ فكثيرٌ من أولئك الذين ربَّما تأْخُذُهم العاطِفة فيزْعمُون أنَّ هؤلاء مسلمون ويُصلُّون ويَصومون ويتعبَّدُون لله سبحانه بأنواع العبادات؛ أنَّ هذا كافٍ في الحكْم عليهم بالإسلام، وبالتالي لا حاجة إلى هذه الهِمَّة في دعْوتهم إلى الإسلام الحق الصافي النَّقي عن أدْران الشرك ، لكن من أدرك أنَّ القوم واقِعون في حمْأة الشرك فإنَّه سيمتلِئُ قلبُه غَيرةً على حُرُمات الله، وحسْرةً على هؤلاء .

أهل السُّنة أعْلَم بالحق وأرْحم بالخلْق، فلا يريدون أنَّ هؤلاء يتعرَّضون لعذاب الله ﷻ وسخطه، بل لا يريدون هذا لأَحد، ولذا يجدُّون ويجتهدون في الدعوة؛ في دعوة القريب ودعوة البعيد، ودعوة الموافق ودعوة المخالِف ، هذا هو شأن ودَيدَن أهل السُّنة والجماعة، وهذا ما اسْتفادوه من سُنَّة وسِيرة نبيِّهم محمد ﷺ .

هذا عَلاوَة على أنَّ أهل السُّنة والتوحيد في قلوبهم تعظيمٌ لله، ولذا فإنَّهم

يعتقدون أنَّ شأْن الله ﷻ أعْظم من أن يُشركَ به ، ولذا فهم يجدُّون في الدعوة إلى توحيد الله؛ لأنهم لا يُطيقون أن يروا شرْكًا على وجْه الأرض، حقُّ الله أن يُوحَّد ولا يُشركَ به، وأن يُطاعَ فلا يُعصَى سبحانه وتعالى، فمن تعْظيمهم لله: أنَّهم يسعون في الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك.

فهذا مِمَّا نسْتفيده ممَّا تقرَّر سابقًا من فدَاحة ما عليه المشركون المتأخِّرون.

ثمَّ أرود الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد اسْتحضر في ذهْنِه ما قد يُورَدُ على الموحِّد إنْ أبان عن هذه الحقيقة وهي أن ما يقع من المتأخِّرين مثل أو أعظم ممَّا يقع من المتقدِّمين، اسْتحضر أنَّ القُبوريّين قد يُورِدُون على هذا الموحِّد شُبهَة ، والحق أنَّها شُبهَة من أكثر ما يُذكر، فيقولون: أنتم لم تنفكُّوا عن أن تجعلونا مثل المشركين الأوَّلين حتى جعلتمونا أشدّ منهم، فأين ذهبَت شهادتُنا بأن لا إله إلَّا الله التي نقولها صباح مساء؟! وأين ذهبَت صلاتُنا وزكاتُنا وصيامُنا وحجُّنا وذكرُنا؟! أين ذهبَ كلُّ هذا؟! ألَم يكن له عندكم وزن البَتَّة حتى تجعلونا من جنس هؤلاء؟!

إذن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخِبرَته الكبيرة في الدعوة إلى التوحيد اسْتحضر أنَّ هذا الإيراد قد يُورَد في هذا المحل ، وهو - كما ذكرتُ لك - من أكثر ما يُذكر في كُتُبِهم، فيذكرون هذه الشُّبهة فاسْتمع لها ، وأحسِن تصوّرها، ثمَّ أحسِن فهْم الجواب عنها.

قال المصنف رحمه الله:

وَهِي أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَشْهَدُونَ أَنْ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ، وَيُكَذِّبُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَيُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، وَيُكَذِّبونَ الْقُرْآنَ، وَيَجْعَلُونَهُ سِحْرًا، وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَنُصَدِّقُ الْقُرْآنَ، ونُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَنُصَلِّي، وَنَصُومُ؛ فَكَيْفَ تَجْعَلُونَنَا مِثْلَ أولئِكَ؟

قال الشارح وفقه الله:

مضْمون هذه الشُّبهة: أن من قال (لا إله إلَّا الله) فإنَّه لا يكفر وإن فعلَ ما فعلَ.

مضْمون هذه الشُّبهة: أن من قال (لا إله إلَّا الله) وأتَى بما بعدها؛ من صلاة وصيام.. إلى آخره، يعني: دخلَ في الإسلام فإنَّه لا يكفر وإن فعلَ ما فعلَ، وإن صدَرَت منه الأقوال أو الأفعال، أو الاعْتقادات التي تحْكمون عليها بما تحْكمون، فإنَّ هذا لا يُخرِجُ من دخل في الإسلام منْه ؛ وعليه فهذه النُّصوص التي جاءت في الشرك وأحوال المشركين وما إلى ذلك، هذه إنَّما نزلَت في قومٍ كانوا فبَانوا ، إذن لا يصح تنزِيل هذه النُّصوص على هؤلاء الذين يشْهدون أن لا إله إلَّا الله ؛ هذا هو مضْمون هذه الشُّبهة.

وحقيقة الحال - يا أيُّها الإخوة - **أنَّ أعداء التوحيد هم بين اثْنين:**

- إمَّا أن يُنكِرِ الواحدُ منهم أن تكون الأقوال والأفعال والاعْتقادات التي تصدرُ

منهم- وهي اعْتقادات عند النظر إلى الكتاب والسُّنة شِرْكية، وأقوال شركية، وأفعال شركية- **أقول**: إمَّا أن تجد أحدهم يقول إنَّ هذه الأشياء ليسَت شركًا أصلًا ؛ وهذا ما مرَّ بِنَا الرَّد عليه فيما مضى في ما سَلَفَ من هذا الكتاب.

۞ وإمَّا أن يقول قائلُهم: سلَّمنا أن هذه الأقوال والأفعال شرك، ولكن الواحد منَّا إن فعلَها فإنه لا يكفر ولا يَخرج من المِلَّة ولا يكون كالمشركين الأولين ، والسبب: وجود المانع ؛ ثَمَّة مانعٌ يمنع من إلْحاق حُكْمِنا بأُولئك ألَا وهو: كوننا نشهد ألَّا إله إلَّا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ونؤمن به، ونؤمن بالقرآن، والبعث، إلى آخره، إذن هذا مانع يمنع من هذا التكفير.

طيب هذه الأفعال التي تفعلونها ما حُكْمُها؟! الأمر في ذلك سهل، منهم مَن يقول: إنَّها معصية، ومنهم مَن يقول: إنها شرك أو كُفْر أصغر، إلى آخر ما يذكرون، المهم أنَّها ليست شركًا أكبر، ولا يمكن أن يُحكمَ بالرَّدة والكفر الأكبر على من فعلَ هذه الأشياء لوجودِ هذا المانع.

وقد يقول بشُبهَتهم -ويتناوله جواب أهل التوحيد- أُناسٌ ليسوا منهم، ولكنهم يريدون أن يقفوا - كما يقولون - في المُنتصف، يقولون: نحن لسْنا من هؤلاء ولا نفعل فعْلهم ولا نوافقهم على ما هم عليه، ولكن لا نحْكم بالكفْر على هذه الأفعال؛ مَن قال: (لا إله إلَّا الله) فإنَّنا نسْكت عنه وإن فعلَ ما فعل.

هناك فئَة من الناس موجودون ويتكلَّمون ويُؤلِّفُون، وهذا هو الطرح الذي

يطرحون؛ يقولون نحن لسْنا مع القبوريّين ولا نوافقهم على ما يفعلون، ولكن لا نوافق على الحكم عليهم بما تقتضيه أفعالُهم؛ لأنَّهم يقولون (لا إله إلَّا الله) ، فواجبٌ الكَفّ عمَّن قال (لا إله إلَّا الله). **إذن: هذه الشُّبهَة تُطرَح من هاتين الطائفتين.**

وقبل أن ندخل في الجواب المطوَّل المُحْكم الذي هو من أحسن الأجوبة ، بلْ هو من أحسن ما في هذه الرسالة، كما نصَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما سنقرأ هذا بعَون الله. قبل أن ندخل في هذه الأجوبة التي ساقها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أُحِبُّ أن أُقدِّمَ بمقدِّمات مُمَهِّدَات تفيدُنا في جواب هذه الشُّبهة، **مقدِّمات أو أُصول مفيدة في نقْض هذه الشُّبهَة وتفْكيكها!**

❁ **المقدِّمة الأولى**: الشريعة جاءت بالجمْع بين المتماثلات، والتفْريق بين المختلفات؛ وبناءً على هذا نقول لهؤلاء القُبوريّين : إنَّ الجامع بينكم وبين الأوَّلين من المشركين موجود، والفارق معْدوم، فصار الحكْم واحدًا. وأمَّا المانع أو الفرق الذي ذكرتموه وزَعمتم أنَّه يُفَرِّقُ في الحكْم بينكم وبين الأوَّلين نقول إنه فارقٌ غير مؤثر ، ليس كلُّ فارقٍ يُدَّعى يمنع من إلْحاق الحكم، بلْ لابدَّ أن يكون فارقًا أو فرْقًا صحيحًا ليكون مؤثِّرًا، أمَّا الفرق الذي ذكرتُم فإنَّه فرْق غير مؤثِّر ، وسيتّضح هذا بما سنذْكرُه - إن شاء الله تعالى - في الأجوبة القوية

المُحْكَمة التي ستأتي.

❖ **المقدِّمة الثانية**: إنَّ الدعْوى التي ادَّعيتمُوها مقلوبةٌ عليكم. بيان ذلك: أنكم تقولون تضعُون قاعدة كلّية: (كلُّ من قال لا إله إلَّا الله، أو من قال لا إله إلَّا الله فلا يصح تكْفيره) فنقول: فما بالكم تُكفِّرُون أهل التوحيد الذين تُسمُّونهم "الوهَّابية"؟! هذه كُتُبكم ومَقالاتكم طافحَة بتكفير الوهَّابية، هكذا كلام صحيح أو لا؟ والله إنَّه لَصحيح ، وكُتُبهم مشحونة بتكْفير أهل التوحيد الذين يُسمُّونهم بـ (الوهَّابية)، بلْ في الكتب نفسها؛ تجد مثلًا أحمد زيني دحلان يُقرِّرُ هذه الشُّبهَة في الكتاب الذي يُقرِّرُ فيه أن الوهَّابية كفَّار ، بلْ من أشدّ أنواع الكفار، عجيب!

جوابُنا عليكم في شُبهَتِكم هو جوابكم علينا في إيرادنا ، كلُّ جوابٍ تجيبُون به نحن نقلبه عليكم. أليس الذين تزْعمونهم وهَّابية يقولون (لا إله إلَّا الله)؟ الجواب: بلى، يصلُّون؟ بلى، يصومون يُزكُّون؟ بلى، يحجُّون؟ وكم منعوهم من الحج ، في فتَرات من الزمن مُنِعُوا من الحجّ، واسْتحلُّوا دماءَهم ، بلْ سبَوا نساءهم، وهذا ثابتٌ في التاريخ، أنَّهم في بعض المواضع أعداء التوحيد تسلَّطُوا على الموحِّدين فقتلوا رجالهم وأخذوا نساءهم سَبَايَا - مع الأسف الشَّديد -!!

هؤلاء يقولون: (لا إله إلَّا الله) وينتسِبون للإسلام، ويؤمنون بالقرآن، وبالبعْث، إلى آخره، يقولون بنفْس ما تقرِّرونه في الشُّبهَة؛ إذن لماذا تكفِّرونهم؟! إن قلتم: لأنَّه قد صدرَ منهم ناقض، نقول: انتقَضَت القاعدة، صار ليس كلُّ مَن

يقول: (لا إله إلَّا الله) مسلمًا ولو فعل ما فعلَ، وصارت عندنا الحُجَّة عليكم، فإنَّنا أنتم الآن أعْطيتمونا الحُجَّة؛ لأنَّنا نقول: وأنتم صدرَ منكم الناقض الذي حكمْنا بموجِبه.

❁ **المقدَّمة الثالثة**: لو كان الكفر لا يقع من أحدٍ من هذه الأُمَّة لاسْتلْزَمَ هذا تكْذيب رسول الله ﷺ ، لأنَّه قد ثبت في «الصحيحين» عنه ﷺ أنَّه قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ، حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ» ، والنساء هنا من هذه الأُمَّة ، وعند «أبي داود» بإسنادٍ صحيح على شرْط مسلم قال ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِن أُمَّتِي الْأَوْثَانَ». إذن ثُبوت الردّة والوقوع في الكفُر أمْرٌ يقع في هذه الأُمَّة كما أخبر النبي ﷺ. **فأنتم بين أمرين:**

◉ إمَّا أن تقولوا: إنَّ الكفر لا يقع البَتَّة من أحدٍ مِمَّن ينتسِب إلى الإسلام؛ فتكون هذه الأحاديث كاذبة، ويكون النبيﷺ قد أخبر بخلاف الواقع، وهذا كُفْرٌ من قائله، ولا يقوله مسلم.

◉ أو تُسلِّمُوا لِمَا دلَّت عليه الأحاديث، وعليه ستكون قاعدتُكم منخَرِمَة، قاعدة غير صحيحة.

❁ **المقدَّمة الرابعة نقول**: البحث ينبغي أن يكون في سببِ الكفر لا في وجود

الكفر.

بناءً على ما سبق نقول: البحث العقلي المنصِف ينبغي أن يتوجَّه إلى سببِ الكفر، هل هو سبب صحيح أو غير صحيح، أمَّا كون الكفر يقع ويوجد ويحصل هذا لا ينبغي أن يكون محلًا للنقاش ، فإنَّ الدين لا معنى له إذا لم يكن ثَمَّة تكفيرٌ لمن خالفه ، انتبهْ لهذا ، لا دين ليس فيه تكفير؛ لأنَّ ما معنى أن تقول: "هذا دين، وأنا أتديّن به، وأنا أَلْتزم به، وأنا أعتقده" ؟ معنى ذلك أن تعتقد أنه الحق، أليس كذلك؟ إذن: ما حكْم ما سواه؟ باطل ، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ﴾ [يونس:٣٢] هذه قضية لا يختلف فيها أحدٌ من أهل الأديان؛ إذا اعتقدتَ أن هذا الدين حق إذن ما عدَاه باطل، وإلَّا فما معنى أن تعتقد أنه دينٌ حق إذا كان ما سواه أيضًا حق! ليس دِينًا يُلتَزم ، فمتى ما الْتزمتَ بالدين إذن كلُّ ما سواه باطل.

وما درجة البطلان هنا؟ ليس عندنا بحكْم الإسلام إلَّا مرتبتان: إيمان، وكفْر، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢] في درجة في الوسط؟ في مرتبة في الوسط بين المنزلَتين؟ الجواب: لا. إذن: المؤمن هو الذي الْتزمَ بهذا الدين الذي جاء به محمدٌ ﷺ ، إذن كلُّ من عدَاه يجب أن يكون كافرًا، انتهتِ القضية. وهذا ليس محل النقاش ولا اجتهاد، هذا أصلٌ من أصول الملَّة ؛ أنَّ كل مَن لم يكن ملْتزمًا بدينِ محمدﷺ الذي جاء به من عند ربِّه فإنه يكون كافرًا.

إذن: لا ينبغي أبدًا أن يكون البحث في وجود الكفر، بلْ في سبَبِه ، وحينئذٍ تعالوا وهلموا لنبحث : هل الاسْتغاثة بغير الله سبحانه وتعالى شرْك أم لا؟ هل الذبح لغير الله ﷻ كفْرٌ أم لا؟ إلى آخره، ونحنُ قد أقمْنا الحُجَّة والبُرهان على أن هذه الأفعال كُفْرية . ناقشونا في هذا ، أمَّا أن تقولوا : "والله لا، ما يصح وقوع الكفر أصلًا"؛ هذا خارج عن حدود الشرع والعقل أيضًا لِمَا هو متَّفقٌ عليه بين الأديان جميعًا، كل صاحب دين فإنه يعتقد أنه على حق وأن مَن عداه فإنه ضالٌ هالكٌ كافر.

إذن: أَوَدُّ أن أُنبِّهَ هنا إلى مسألة : دائمًا - يا إخوة - لا ينبغي أن تكون تصرُّفات أهل السُّنة وطلَبة العلم رُدود أفعال ؛ لمَّا وُجِدَ أُناسٌ يَضلون في التكفير، بالغ أُناسٌ في الطرف المقابل، فصاروا ينهون عن التكفير؛ (لا يصح التكفير، لا يجوز التكفير) ، انتبِه! بعده فتْرة من هذا الطرح، بعد مُدَّة من هذا الطرح ستكون العاقبة عاقبة وَخِيمَة، هذا غلط إذا كان هناك أُناسٌ أخطأوا في ذلك فلا يجوز أن نُخطِئ في جانبٍ آخر، الشريعة ليستْ رُدود أفعال، الشريعة الْتزامٌ بالكتاب والسُّنة؛ هذا هو الوسط ، ليس الوسط أنك دائمًا تأْخذ بالطرف المقابل للغَالِين، لا؛ لأنَّك ستكون واقعًا في غُلوٍّ مقابل.

إذن الخطأ الذي ينبغي الدَّيدَنة عليه والتحذير منه: هو التكفير بالباطل، أو ما

يعبِّر عنه كثيرٌ من أهل العلم بـ «الغُلوّ في التكفير» هو هذا المقصود، لمَّا يقولون: «الغُلوّ بالتكفير» يعني تكْفير مَن لا يستحقّ التكفير. فالبحث لا ينبغي أن ينصبَّ على التحذير منه، الآن نسمع من بعض الفُضلاء يقول: «التحذير من التكفير»، هذا لا يجوز - سبحان الله -، الله ﷻ قد كفَّر في كتابه، كم في كتاب الله: (لقد كفر، لقد كفر)، فالبحث لا ينبغي أن ينصبَّ على التكفير، وإنَّما على التكفير بغير حقّ، أو الغُلو في التكفير.

❁ **المقدَّمة الخامسة**: من المتَّفق عليه بين علماء الإسلام «أنَّ الخصال التي يثبت بها أصل الإيمان لابدَّ من اجْتماعها، وأمَّا الخصال التي يثبت بها الكفر - ونعني طبعًا الكفر الأكبر - فلا يلْزم اجتماعها»، انتبهْ لهذه القاعدة فإنَّ القوم يُلبِّسُون.

أُعيد: الخِصال التي يثبت بها أصل الإيمان؛ التي يصبح بها الإنسان فيه من أهل الملَّة وفي الدائرة الإسلامية، نقول هذه خصال؛ لابدَّ من قول، ولابدَّ من اعْتقاد، ولابدَّ من فعْل، هذه لابدَّ من اجتماعها، خصْلة واحدة تكفي في الحكْم بهذا الإيمان؟ لا، خصلة واحدة لا تكفي في الحكْم، بلْ لابدَّ من اجتماع الخصال التي يثبت بها أصل الإيمان، وهذا متَّفقٌ عليه.

في المقابل ماذا عن الكفر؟ هل لابدَّ من اجتماع كلّ المكفِّرات لثبوت الكفر؟ الجواب: يكفي مكفِّرٌ واحد. الشأْن في هذه المسألة كالشَّأْن في مسألة

الوضوء؛ الوضوء فيه خصال ليثبت وصف الوضوء حتى نقول "فلان متوضِّئ" ثَمَّة خصال لابدَّ من اجتماعها، فمن انتقصَ منها واحدًا -ما غسل قَدَمَه أو ما غسل يدَه- نقول إنه متوضِّئ لأنَّه قد جمع تسعين في المائة من خصال الوضوء؟ الجواب: لا بالتأكيد، لابدَّ من اجتماعها. طيب النَّواقض للطهارة كثيرة أو لا؟ النَّواقض للطهارة كثيرة، لابدَّ من اجتماعها جميعًا حتى نثبِتَ الحكْم بنقْض الطهارة فنقول: فلان منتَقِضٌ انتقَضَتْ طهارته؟ لابدَّ أن تجتمع النواقض؟ لا، يكفي ناقضٌ واحد، كذلك الشأْن في هذه المسألة.

إذن من تلْبيس القبوريّين: أنَّهم يَدورون أو يحومون حول هذا المعنى؛ أنه حتى يثبت الكفر لابدَّ أن تجتمع ؛ يكفر بالقرآن، وبالبعث، وبنبوّة النبي ﷺ، إلى آخره حتى نحكم عليه بالكفر، وهذا ليس بصحيح، خصْلةٌ واحدة مكفِّرٌ واحدة ناقضٌ واحد كافٍ للحكم بالكفْر ولو أتى الإنسان بما أتى من خصال الإيمان، وسيأتي تفصيل هذا إن شاء الله في جواب الشيخ .

إذن القوم يقولون: قياسُكم قياسٌ مع الفارق؛ الذي نزل فيهم القرآن لا يشهدون ويُكذِّبُون .. إلى آخره، ونحنُ نشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمدًا رسول الله . وهذه دعْوى يدَّعُونها، وإلَّا فـ«لا إله إلَّا الله» ليسَت قولًا مجرَّدًا ، لو شهِد هؤلاء بـ«لا إله إلَّا الله» حقًا لَمَا وقعوا فيما وقعوا فيه، «لا إله إلَّا الله» ليسَت قولًا

مجرَّدًا، وإنّما قولٌ يَسْتَتْبِع اعْتقادًا وعملًا، «لا إله إلَّا الله» مقيدة بقيودٍ ثقال، لا تنفع قائلها إلَّا باجتماعها، وإلَّا فلو كان ذلك كافيًا مجرَّد أن تقول «لا إله إلَّا الله» سَلِمتَ وفُزْتَ بمجرَّد هذا القول إذن لكان المنافقون مسلمين! ألم يكونوا يقولون: «لا إله إلَّا الله»؟ عبد الله بن أُبَيّ وجماعتُه أَمَا كانوا يقولون: (لا إله إلَّا الله)؟ أَنَفَعتهُم «لا إله إلَّا الله»؟ لا. إذن «لا إله إلَّا الله» لتنفع قائلها لابدَّ من فعلٍ وكَفّ؛ فعل بالقلب والجوارح، وكفّ؛ الفعْل لابدَّ من صدْق ويَقين وإخلاص.. إلى آخره، ولابدَّ من كفّ يعني: أن يَكفَّ عمَّا يناقض «لا إله إلَّا الله»، والقوم ما كفُّوا عمَّا أن يناقض «لا إله إلَّا الله».

المقصود: أنَّهم يدَّعُون أنهم يشهدون لا إله إلَّا الله، ويصدِّقُون بالقرآن، ويؤمنون بالبعث، فكيف تجعلوننا مثل أولئك؟! انظر إلى هذا الأسلوب عندهم وهو اسْتثارة العاطفة، هم ما أتوا بـ- كما يقولون - حُجَّة بُرهانية، إنما أتوا باسْتثارةٍ للعاطفة، وهذا لا يقدِّم أو يؤخِّر، نحن مسلمون، نحن نقول كذا، كيف تجعلوننا كمثل أولئك؟! يعني تعطف عليهم وتحزن وتقول: خلاص أنتم مسلمون؛ هذا لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر عند التحقيق، العبرة بالدليل والبُرهان، إن كنتم مسلمين حقًّا فأهل السُّنة - والله - لا يتُوقون ولا يتشوَّفُون إلى تكفير الناس، الشيء الذي في قلوبهم ويتمنَّونَه أن يكون كلُّ أهل الأرض مسلمين، مؤمنين، موحِّدين، يتمنَّونَ هذا، ولذلك هم يسعون إلى الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛

لحرْصِهم على أن يكون الناس على خير وهُدَى ويسلموا من عذاب الله ﷻ.

نأتي الآن للجواب، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أطالَ في هذه المسألة إطالة واضحة؛ لأهَمّيتها، وأتى بأجوبَة في غاية الحُسْن والإقناع لمن تدبَّرَها ، ويمكن أن نجعلها في ثمانِ أجوبة ساقها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مما ستقرأه – إن شاء الله –. **نبدأ بالجواب الأول.**

قال المصنف رحمه الله:

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ وَكَذَّبهُ فِي شَيْءٍ أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الإِسْلاَمِ، وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ، كَمَنْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلاَةِ، أَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلاَةِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الزَّكَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّوْمِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الْحَجِّ. وَلَمَّا لَمْ يَنْقَدْ أُنَاسٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِلحَجِّ أَنْزَلَ اللهُ فِي حَقِّهِمْ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]، وَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ الْبَعْثَ كَفَرَ بِالإِجْمَاعِ وَحَلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠- ١٥١]، فَإِذَا كَانَ اللهُ قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ الكَافِرُ حَقًا زَالَتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ، وَهَذِهِ هِيَ التِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الأَحْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْنَا.

قال الشارح وفقه الله:

مضمون هذه الشُّبهَة، **خلاصتها**: القاعدة التي ذكرتُموها مُنتقضَة، هذه الكلّية التي تقرِّرون وهي «أنَّ كل مَن قال لا إله إلَّا الله فإنه لا يكفر وإن فعلَ ما

فعل» نقول: هذه مُنتقضَة، والقاعدة تنتقض وتُصبح منقوضَة ساقِطة بتخلف صورة اجتمعَت فيها شروط هذه القاعدة وانتفَت موانعها، ومع ذلك انتقضَت، إذن ليستْ قاعدة، فكيف مع صور تخلَّفت عن هذه القاعدة!! إذن هذه القاعدة منقوضَة، غير صحيحة.

بيان ذلك: يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أَنَّهُ لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ وَكَذَّبهُ في شَيْءٍ أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الإِسْلاَمِ**»؛ يعني في ابْتداء دخوله في الإسلام، وليس بعد أن أَسْلَم، في ابْتداء دخوله قال: "أنا مصدِّق رسول الله ﷺ في كلِّ شيءٍ إلَّا في شيء واحد لا أُصدِّقُه ، هذا ما أوجَبَه الله؛ الحج ما أوجَبَه الله، أنا أُصدِّقُ رسول الله ﷺ في كلِّ شيءٍ إلَّا في الحجِّ مثلًا" ، فنقول: هل هو مسلم؟ ما دخل في الإسلام ولا شمَّ له رائحة.

كذلك إذا آمن ببعض القرآن وجَحَدَ بعضه، لو قال: "أنا مؤمن بكلِّ القرآن إلَّا مثلًا قصة إبراهيم في قول الله ﷻ: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ [البقرة:٢٦٠] إلى آخره، قال: أنا لا أُؤمِن بمعناها، هذا كلام غير داخل في العقل، هذا شيء ما حصل، كيف طير تقطَّع ثمَّ يجتمع ! أنا لا أُؤمِن بهذا، وأَرَى أن هذا كذب، وإلَّا كل القرآن من أوَّله إلى آخره صدق"، نقول: ما شمَّ للإسلام رائحة.

أو كذَّب اللفظ فقط؛ قال اللفظ فقط هو كَاذِب.

أو شكَّ؛ لو شكَّ مجرَّد شكٍّ، قال: "والله احْتمال، هذا الكلام حق واحْتمال أن يكون باطلًا" ، نقول: إنه ما شمَّ في الإسلام رائحة.

لاحِظ أنَّ هذا نفْترض أنه يقول «لا إله إلَّا الله» والقاعدة عندكم: (أنَّ من قال لا إله إلَّا الله لا يُكفر) ، وهذا بيننا وبينكم فيه اتفاق أنَّه كافر ، إذن: قاعدتكم مُنْتَقِضَة.

«**كمَن أقرَّ بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة**»؛ رجلٌ موحِّد لكن يقول: الصلاة غير واجبة، بيننا وبينهم اتفاق أنه كافر . أو أقرَّ بالتوحيد والصلاة وجحدَ وجوبَ الزكاة، أو أقرَّ بهذا كلِّه وجحدَ الصوم، أو أقرَّ بهذا كلِّه وجحدَ الحجّ؛ كلُّ ذلك يحكم فيه نحن وهُم أنه كُفْر، ومَن قال هذا فقد كفَرَ.

قال: «**وَلَمَّا لَمْ يَنْقَدْ**»؛ الانقياد هنا يُريد به الالْتزام ، الالْتزام: يعني اعْتقاد التكْليف، وليس مجرَّد عدم الفعْل، بل اعْتقاد عدم التكْليف، يقول: الحج هذا أصلًا ما هو واجبٌ علي، واجب عليكم، أمَّا أنا لا يجب عليَّ، نقول: هذا لم يَنقَدْ . وباتفاق أهل العلم أنَّ من لم يَنقدْ أو لم يلْتزم وجوبَ الحجّ فإنه يكون كافرًا، بخلاف الذي يلْتزم ولا يفعل، يقول: أنا مشغول بالتجارة، وأعلمُ أنِّي عاصٍ، فيَترك الحج وهو ملْتزمٌ بوجوبِه ويعتقد تكليفَه به؛ فجمهُور أهل العلم - وهو الصحيح - أنَّه لا يكفر. إذن: فرْقٌ بين الالْتزام والفعل.

قال: «(**فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِلحَجِّ أَنْزَلَ اللهُ فِي حَقِّهِمْ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾**)»؛ لعلَّ المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يُشيرُ إلى ما أخْرجَه سعيد بن منصور والطَّبري بنحْوِه، عن عِكْرِمة مولَى ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّه لمَّا نزل قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥] قالت اليهود: فنحن مسلمون، إذن نحن من النَّاجِين لسْنا من الخاسرين، فأمرَ الله نبيَّه ﷺ أن يخاصِمَهم أو أن يخصِمَهم، فقال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ أمرَ بالحجِّ فحُجُّوا» ، فأبَوا أن يَحُجُّوا؛ قالوا: إن الله ما أوجبَ علينا الحجّ، فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]، من كفرَ بهذا الحجِّ وأنكرَ وجوبَه فإنه يكون كافرًا.

◉ وهذا الذي عليه كثيرٌ من السَّلف في هذه الآية؛ أنَّ قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي بالحجِّ فلم يعْتقدْ وجوبَه.

◉ وبعضُ أهل العلم ذهبَ إلى أنَّ المقصود ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ «الواو» هنا اسْتئنافية؛ ومَن كفرَ بالله وملائكته إلى آخره ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، ويدخل في هذا الكفر عدمُ الإيمان بالحجِّ.

يعني إمَّا أن يجعلوا ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ عمومًا، والحجُّ إنكاره داخلٌ في هذا، أو يجعلوه خاصًا بموضوع الحجّ ، وعلى القولَين الاسْتدلال صحيح. إذن

من أنكرَ وجوب الحج ولو صلَّى وصام وزكَّى وشهد أن لا إله إلَّا الله فإنه يكون كافرًا، فإذن القاعدة منتقضة.

قال: «وَمَنْ أقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ» مع الحجِّ «وَجَحَدَ الْبَعْثَ كَفَرَ بالإجْمَاعِ» ؛ بل لو شكَّ مجردَّ شكٍّ فإنه يكون كافرًا، لابدَّ من الإيمان ولابدَّ من الجزْم ، ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الرعد:٥] جعلَهم الله ﷻ كفَّارًا لعدمِ إيمانهم بالبعث، وهذا أمْرٌ مُجمَع عليه؛ أنَّ مَن آمن بكلِّ ما جاء به النبي ﷺ وكفرَ فقط بالبعث فإنه يكون كافرًا.

ثمَّ قال: «كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾»؛ هذا الاسْتدلال ليس متعلِّقًا بمسألة البعث، إنَّما هو لكلِّ ما سبق ، أنَّ من آمن ببَعْض وكفَرَ ببَعْض أو لم يُؤمن ببَعْض فإنه يكون كافرًا . خصال الإيمان التي يثبت بها أصل الإيمان لابدَّ من اجْتماعها، بعض تلْك الخصال لا ينفع، مَن اقتصرَ على بعض الخصال فإنه لا ينتفع شيئًا ، لأنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ ؛ جعلَهم كُفَّارًا بالرسل مطلقًا معَ كونهم مؤمنين ببَعض الرسل، لأنَّه قال: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ ومعَ ذلك مع حُكْمِه وإخْباره بأنهم مؤمنون ببَعْض الرسل إلَّا أنه حَكَمَ عليهم بأنهم كفَّار بالرسل مطلقًا ، وأكَّد هذا لمَّا قال في خِتام الآية: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

إذن: إيمانٌ ببَعْض وعدم إيمان ببَعْض لا ينفع صاحبَه شيئًا ، لابدَّ من اجتماع

الخِصال والشُّعب التي يثبُت بها أصل الإيمان.

إذن: إلى هنا المؤلف ما دخل عليهم في مسألة إنكار التوحيد، هذا ما سيأتي في الجواب الثاني، هو فقط يريد أن يُدلِّلَ على أن القاعدة الكلّية التي يقرِّرُون قاعدة منتقضة، إذن كلامُكم ساقط. وهذا كلامٌ جيّد أن تنقض القاعدة التي ينقضونها ابْتداءً، هذه قاعدة غير صحيحة، أنتم تُؤصِّلُون أشياء غير ثابتة، إذن كلامكم كلامٌ باطل.

قال: «وَهَذِهِ هِيَ التي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الأَحْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْنَا» ؛ أقرب ما يمكن أن يُقالَ في هذه الرسالة: إنَّها الرسالة التي أرسلَها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى رجلٍ من أهل الأحْساء اسْمُه «أحمد بن عبد الكريم» ، لعلَّه هو المقصود هنا في قوله: «بَعْضُ أَهْلِ الأَحْسَاءِ» ولعلّ هذه هي الرسالة، وهي في مؤلَّفات الشيخ، في الجُزء السابع، في قسْم الرسائل الشخصية، من صحِيفَة ست عشرة ومائتين إلى أربعٍ وعشرين ومائتين ، وهي رسالة نافعة جدًّا لطالبِ العلم في هذا المقام ؛ حبَّذا لو رجعتَ - يا طالب العلم - إليها.

باختصار نأخذ الجواب الثاني.

قال المصنف رحمه الله:

وَيُقَالُ: إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ ﷺ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ فَهُوَ كَافِرٌ حَلَالُ الدَّمِ وَالْمَالِ بِالإِجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ الْبَعْثَ، وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وُجُوبَ الصَّوْمِ لاَ تَخْتَلِفُ الْمَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا . فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ، فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ كَفَرَ ، وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لاَ يَكْفُرُ؟! سُبْحَانَ اللهِ! مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ .

قال الشارح وفقه الله:

هذا الجواب الثاني، وخلاصته : الاسْتدلال عليهم بقياس الأَوْلى؛ إذا كان جحْدُ شيءٍ من واجبات الإسلام وأرْكانه كُفْرًا معَ الإتْيان بغيره، فكيف بجحْد أول الإسلام وأساسِه وزُبْدة الرسالة وأهمّ ما فيها! أَلا يكون أوْلَى بالكُفْر ؟ - أعْني من ترَك ذلك ولم يَأْتِ به، وأنكرَه - لا شكَّ أنَّه أَوْلى . التوحيد الذي دلَّت عليه «لا إله إلَّا الله» بالمطابَقة - سبحان الله العظيم - مَن لم يأْتِ به مسلم! والذي لا يأْتي بالحج لِعدم الْتزامه به لا يكون مسلمًا، ما هذا الفقْه العجيب!

إذا كان من أنكرَ الحج كفرَ ، فمَن أنكر التوحيد كافرٌ من باب أوْلى؛ التوحيد هو الأساس، التوحيد هو الأهَم، التوحيد هو الأوَّل، مُنْذُ أن بُعِثَ رسولُ الله ﷺ

وهـو يقـول: «لا إلـه إلَّا الله»، وقولـوا «لا إلـه إلَّا الله» مـن اليـوم الأول، وهـذه الأشياء؛ الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج هذه تأخَّرت ، يعني ما وجبَ منها شيءٌ إلَّا بعد أكثر مـن عشر سنوات؛ الصلاة في العاشرة مـن البعثة، الصيام والزكاة بعد ذلك في الثانية من الهجرة، الحجّ في التاسعة، طبعًا في بعضها خلاف، لكن لا إشْكال في كونها كلها بعد عشر سنوات من البعثة أو أكثر بالنسبة لبعضها، أمَّا التوحيد من أول يوم، فكيف يكون هذا الأمر الذي عظَّمَه الله ورسوله ﷺ أمْرًا سهلًا لا يُبالَى بحال مَن جحَدَه وأنكرَه وأتى بما ينقضه؟! وأمَّا الصلاة والصيام والحجّ والزكاة فإنَّكم تزْعمون أن من أنكرَها كفرَ ، وأنتُم مُصيبُون في هذا، ونحنُ معكم، وكلُّ المسلمين معكم أنَّ من أنكرَ هذه كفرَ، لكن الحق الذي لا ريب فيه : **أنَّ من أنكر التوحيد كافرٌ من باب أَوْلى**، والشريعة - كما علِمْنا - تحْكم بالاجتماع بين المُتماثلات والتفْريق بين المختلفات .

فهذا هو الجواب الثاني باختصار ؛ قياس الأَولى المتَّفَقُ عليه بين العلماء يقتضي أنَّ من أنكر التوحيد كالذي فعلَ أو كالذي يحصل من القبوريّين أَوْلى بأن يكون كافرًا من الذي ينكر الواجبات الأخرى؛ كالصلاة والصيام وغير ذلك.

والله ﷻ أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

وَيُقَالُ أَيْضًا : هَؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ، وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُصَلُّونَ، وَيُؤَذِّنُونَ، وَيَصُومُونَ.

فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ. قُلْنَا: هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ ؛ إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا فِي رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَفَرَ، وَحَلَّ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَلَمْ تَنْفَعْهُ الشَّهَادَتَانِ وَلَا الصَّلَاةُ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ (شَمْسَانَ) أَوْ (يُوسُفَ) أَوْ صَحَابِيًّا أَوْ نَبِيًّا فِي مَرْتَبَةِ جَبَّارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ سُبْحَانَهُ مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٩].

❋ ❋ ❋ ❋

قال الشارح وفقه الله:

هذا هو الجواب الثالث عن الشُّبهة التي أوردها القبوريّون ، وهي: كيف تكفِّرُون من يقول: لا إله إلَّا الله، ويصلي ويصوم ؟!كيف تجعلونه كعبَّاد الأوثان؟! وأجاب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بجوابَين مضى الكلام فيهما في الدرس الماضي، وهذا أوان الكلام عن هذا الجواب الثالث.

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : «هَؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ، وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُصَلُّونَ، وَيُؤَذِّنُونَ، وَيَصُومُونَ» ؛ بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ارْتدَّ كثير

من العرب، وهؤلاء المرْتدُّون في الجملة ثلاثة أصناف:

❁ **الصنف الأول**: من كفرَ بالإسلام جملةً ، ورجعَ إلى دين الجاهلية.

❁ **الصنف الثاني**: من ادَّعى أنه لا يزال مسلمًا إلَّا أنه اعْتقد النبوَّة بعد النبي ﷺ في أحدٍ من الناس؛ كهؤلاء الذين سمعتَ الذين هم أصحاب مُسيلمة الكذَّاب، وغيرهم أيضًا على شاكلتهم؛ بنو حنيفة اعْتقدوا أن مُسيلمة رسولٌ مع أو بعد رسول الله ﷺ، وكذلك بنو أسد وغَطَفَان وطَي اعْتقدوا في طُليحة الأسَدي أنه نبيّ، وكذلك بنو تميم اعْتقدوا في سَجَاح الكاهنة التميمية ، اعْتقدوا أيضًا فيها النُّبوة. فهؤلاء ما زعموا أنَّهم تركوا الإسلام جُملةً كالفَريق الأول، وإنما ادَّعوا النبوَّة في غير رسول الله ﷺ.

❁ و**الصنف الثالث**: هم الذين منعوا الزكاة؛ فقاتلهم الصحابة رضي الله عنهم على الردَّة، هؤلاء الذين امتنعوا فكان منعُهم للزكاة عن عدم الْتزام بها؛ بمعنى: أنهم اعْتقدوا أن الزكاة إنَّما تُؤخذُ من لدُن رسول الله ﷺ فحسْب، لأنهم يقولون: الله جلَّ وعلا يقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة:١٠٣] الخِطاب إنما توجَّه للنبي ﷺ ؛ فهؤلاء اعْتقدوا أن وجوب الزكاة والتكليف بها انتهى بوفاة النبي ﷺ، فامتنعوا عن أدائها لأبي بكر ﷺ ، قالوا: نحن نقيم الصلاة لكن لا نؤتي الزكاة.

وهؤلاء الأصناف الثلاثة كلهم كفَّارٌ بإجماع الصحابة رضي الله عنهم، وقاتلَهم الصحابة الأخْيار قتال الردَّة في حروب الردَّة المشهورة التي كان عامَّتُها في أواخر السَّنة الحادية عشرة وأوائل الثانية عشرة من الهجرة، فهذا الصنف الذين ادَّعوا النبوَّة أو اعْتقدوا النبوَّة في مُسيلمة، أو إخوانهم من المُدَّعِين، هؤلاء كفَّار مع كونهم كانوا يصلون ويصومون ويزْعمون أنهم مسلمون.

فأوردَ الشيخ هاهنا إيرادًا على لسانِ هؤلاء المخالفين فقال: «فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ»، يعني يقول: هؤلاء بنو حنيفةَ يقولون إن مُسيلمة نبيّ؛ ولذلك كفَرُوا.

فأجاب الشيخ ﵀ بأن هذا هو المطلوب، المطلوب أن تصِلوا إلى هذه المعلومة، وهي: أنَّ من رفعَ أحدًا من البشر إلى مرْتبة رسول الله ﷺ فإنه كافرٌ ولا شكَّ، فكيف بالذي يرفع أحدًا من البشر أو غيرهم إلى مرْتبة جبَّار السماوات والأرض!! أليس أحْرَى أن يكون كافرًا؟ الجواب بالتأْكِيد: بلى؛ **بمعنى**: إذا كان من لم يقُم بشهادة أن محمدًا رسول الله كافرًا، فكذلك الذي لم يقُم بشهادة أن لا إله إلَّا الله هو أحْرى أن يكون كافرًا؛ وهذا الذي وقع من هؤلاء القبوريّين، إن كان تكفير الأوَّلين متحتّمًا فتكفير الآخرين متحتّم.

وهاهنا قاعدة تنفعك يا طالب العلم في مُحاجَّة هؤلاء القبوريّين، وهي **القول في إحدى الشهادتَين كالقول في الأخرى**؛ إذا كان من لم يأتِ بشهادة أن

محمدًا رسول الله، وليس يخْفَاكَ أن من مقْتضيات شهادة أن محمدًا رسول الله اعْتقاد أنه خاتَم النَّبيّين، فلا نبيَّ بعْده .

إذن: من اعْتقدَ أن نبيًا بعد رسول الله ﷺ إذن هو ما أتى بشهادة أن محمدًا رسول الله، فحكمْنا عليه بالكفْر بإجماع المسلمين، فكيف بالذي ما أتى بشهادة أن لا إله إلَّا الله وهي الأصل!! كيف بالذي اعْتقدَ في أحدٍ أنَّ له ما هو حقٌّ خالصٌ لله تباركَ وتعالى؛ من الرُّبوبية أو الأُلوهية أو الأسماء والصفات!! أليسَ أحق بأن يكون كافرًا؟ الجواب بالتأْكِيد: بلا.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قُلْنَا: هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلاً فِي رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَفَرَ وَحَلَّ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَلَمْ تَنْفَعْهُ الشَّهَادَتَانِ وَلا الصَّلاَةُ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ (شَمْسَانَ) أَوْ (يُوسُفَ)، أَوْ صَحَابِيًّا، أَوْ نَبِيًّا فِي مَرْتَبَةِ جَبَّارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ؟ سُبْحَانَهُ مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾»؛

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر هاهنا اسْمَ اثنين من الطَّواغيت الذين كانوا يُعبدُون مع الله عَزَّ وَجَلَّ في عهْد المؤلف وقُبيلَه.

قال المحقق[٣]: «سئل شيخ شيوخِنا العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ

(٣) [ص ٨٢، تحقيق: د. دغش العجمي] .

عن يوسف وشمسان المذْكورَين هنا، فقال[٤] : يوسف وشمسان وتاج[٥] أسماء أُناسٍ كفرة طَواغيت؛ فأمَّا تاج فهو من أهل الخرْج، تُصرَف إليه النذور ويُدْعَى ويُعتقَدُ فيه النفع والضر، وكان يأتي إلى أهل الدرعية من بلدة الخرْج لتحصيل ما له من النذور، وقد كان يخافه كثيرٌ من الناس الذين يعتقدون فيه، وله أعْوان وحاشية لا يُتعَرَّض لهم بمكْروه، بل يُدَّعَى فيهم الدَّعَاوَى الكاذبة، وتُنسَبُ إليهم الحكايات القبيحة؛ ومِمَّا يُنسَبُ إلى تاجٍ أنه أعْمى، ويأتي من بلده الخرْج من غير قائد يقوده» ؛ والرجل كان معروفًا بالفُجور والانحلال من أحكام الشريعة، ولعلَّه من قصَدَه الشيخ هو ومَن على شاكلته، حينما ذكر السبب الثاني الذي جعله يقول: إن شرك المتأخِّرين أقْبَح من شرك الأوَّلين، من ذلك أن المتأخِّرين يُشركون مع الله ﷻ أُناسًا هم من أفْجر الفاجرين وأفْسق الفاسقين، فلعلَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان يُشيرُ إلى هذا وأمثاله، فإنَّ تاجًا وشمسانَ ويوسفَ وأبا حديدة وأمثال هؤلاء كان لهم شأْنٌ عظيم، كان يُعتقدُ فيهم اعْتقاداتٌ عظيمة لا تُعتقدُ إلَّا في الله سبحانه وتعالى، وكان هذا قُبيلَ قيام الدعوة، رحمة الله على الإمام المُجدِّد وجزَاه عنَّا خير الجزاء.

---

(٤) هذا كلام الشيخ محمد بن إبراهيم مُفْتي الديار رَحِمَهُ اللَّهُ قبل الشيخ عبد العزيز بن باز.

(٥) «تاج» سيأتي ذكْرُ تاج بعد قليل.

«وأمَّا شمسان فالذي يظهر من رسائل إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يَبعد عن العارض(٦)**، وله أولادٌ يعُتقَدُ فيهم»**(٧)؛ وهذا الرجل في الجزْء العاشر من «الدُّرر السَّنِية» الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أفْتَى بكفْر شمسان وأولاده، وأنهم من الطَّواغيت؛ لأنهم كانوا يدعون الناس إلى عبادتهم، يقول الشيخ: «كانوا يدعون الناس إلى عبادتهم، عبادةً تفوق عبادة اللَّات والعُزَّى بأضْعاف» ، تجد هذا في الجزء العاشر من «الدُّرر السَّنِية» في إحدى رسائل الشيخ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وأمَّا يوسف فقد كان على قبره وثَنٌ يُعتَقدُ فيه...**

أمَّا تاريخ وجودهم فهو قريب من عصر إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد ذكرَهم في كثيرٍ من رسائله؛ لأنهم من أشهر الطَّواغيت التي يَعتقد فيها أهلُ نجد وما يقاربها، وكانوا يعتقدون فيهم الوِلاية، ويصْرفون لهم شيئًا من العبادة، وينذرون لهم النذور، ويَرجون بذلك نظير ما يرجوه عُبَّاد اللَّات والعُزَّى»(٨).

(٦) «العَارض» يعني جهة الرياض وما حولها، هذه تُسمَّى «العَارض».

(٧) [ص ٨٢، تحقيق: د. دغش العجمي] .

(٨) [ص ٨٢، تحقيق: د. دغش العجمي] .

قال المصنف رحمه الله:

وَيُقَالُ أَيْضًا[٩]: الَّذِينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ ﷺ بِالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدَّعُونَ الإِسْلاَمَ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ ﷺ وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلكِنِ اعْتَقَدُوا فِي عَلِيٍّ ﷺ مِثْلَ الاعْتِقَادِ فِي (يُوسُفَ)، وَ (شَمْسَانَ) وَأَمْثَالِهِمَا. فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكَفِّرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟ أَمْ تَظُنُّونَ الاعْتِقَاد - فِي يُوسُفَ وَفِي (تَاجٍ) وَأَمْثَالِهِ لاَ يَضُرُّ، وَالاعْتِقَادُ فِي عَلِيِّ بْنِ أبي طَالِبٍ ﷺ يُكَفِّرُ؟!

قال الشارح وفقه الله:

الآن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر لنا حُكْمًا إجْماعيًا كان من لدُن أصحاب النبي ﷺ، مقتْضاه: أنَّ من فعل مُكفِّرًا من المكفِّرات فإنَّه كافٍ في الحكْم بالردَّة والخروج من الإسلام، فـ«لا إله إلَّا الله» يمكن أن تنتقض في حقِّ قائلها، ولا يلْزم اجتماع المكفِّرات، بلْ يكفي مُكفِّرٌ أو ناقضٌ واحد، فهذا الذي كان من بني حنيفة أنهم كانوا يعْتقدون النُّبوَّة في مُسيلمة، ولا يُعرف قط عن هؤلاء الأتْباع أنهم اعْتقدوا في مُسيلمة الرُّبوبية أو الأُلوهية ، لا تُعرف في الروايات أن أتباع مسيلمة اعتقدوا فيه هذا ، إنما اعْتقدوا فيه النُّبوة فقط، ومع ذلك هم كفَّار بإجماع الصحابة، **إذن هذا إجماع**.

---

(٩) هذا هو الجواب الرابع.

ويتبعه إجماعٌ ثانٍ، وهو: تحريق الغالية؛ السَّبئية، غُلاة الشيعة الذين اعْتقدوا الأُلوهية والربوبية في علي ﷺ، مع أنهم كانوا يدَّعُون الإسلام، وما جحدوا الصلاة، ولا جحدوا الصوم، إنما كان كُفْرُهم - باتفاق الصحابة - هو في هذا الاعْتقاد في علي ﷺ، فكفروا، وارْتدُّوا، وقُتِلُوا على الردَّة بإجماع الصحابة، وإن كان ابن عباس رضي الله عنهما قد خالفَ عليًّا ﷺ في قتْلهم بالتحْريق بالنَّار، وأنَّه كان الذي ينبغي أن يُقتلُوا بالسيف، وأكثر الفقهاء على هذا؛ أن قتْلَهم - أعْني المُرْتدِّين - ينبغي أن يكون بالسيف «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ».

فالمقصود: أنَّ هؤلاء الغَالية من الشيعة الذين اعْتقدوا في علي ﷺ، هؤلاء كان كُفْرُهم من هذه الحَيثِية فقط، وما اجتمعت فيهم كلُّ المكفِّرات، فإذا كان مُكفِّرٌ واحد كافٍ في الحكم بالكفْر فقد ثبت المطلوب؛ وأنَّ ما ادَّعوه من أن من قال (لا إله إلَّا الله) لا يكفر، أو لا يكفر إلَّا إذا اجتمعت فيه كلُّ المكفِّرات، فهذا لا شكَّ أنه باطل.

وتحْريق علي ﷺ لهؤلاء الزَّنادقة الغَالية أصْلُه ثابت في «صحيح البخاري»، وجاء تفصيلُه في بعض الروايات حسَّنها الحافظ ابن حجر ﷺ في «فتح الباري»، وأنه أمهلَهم ثلاثة أيام، في كل يوم كانوا يأتون فيقولون: (أنتَ هوَ) يريدون أنه الله! وأن الله ﷻ قد حلَّ فيه!! فكان يرْدعُهم وينصحُهم، ويقول

عن نفسه: إنه عبْدٌ لله ﷻ، يأكل الطعام كما يأكل الناس الطعام، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، وأنه لا يدري ما يفعلُ الله به، فيطردهم في اليوم الأول ثمَّ الثاني ثمَّ الثالث، فلمَّا اسْتَتَمَّت اسْتتابتُهم ثلاثة أيام خدَّ الأخْاديد، وقال ذلك البيت المعروف:

لمَّا رأَيتُ الأمْرَ أمْرًا مُنكرا أَجَّجْتُ ناري ودَعَوْتُ قَمْبَرا(١٠)

المقصود أن هؤلاء الغَالية كفرُوا، وقُتِلُوا على الردَّة بإجماع الصحابة ﵃؛ مع أن الذي أتوا به مُكفِّرٌ واحد.

والحُجَّة التي أوردها الشيخ ﵀ هاهنا في قوله: «**فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ، وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ الصَّحَابَةَ يُكَفِّرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟ أَمْ تَظُنُّونَ الاعْتِقَادَ فِي يُوسُفَ، وَفِي (تَاجٍ) وَأَمْثَالِهِ لاَ يَضُرُّ، وَالاعْتِقَادُ فِي عَلِيِّ بْنِ أبي طَالِبٍ رضي الله عنه يُكَفِّرُ؟**»؛ الاحْتمالات في هذا المقام بالاسْتقراء ثلاثة:

❁ **الاحْتمال الأول**: إمَّا أن يكون الصحابة أخطأوا؛ فهؤلاء القوم لم يكفروا، الصحيح والتحقيق أنهم ما كفروا . وهل يقول بهذا أحد؟ الجواب: لا، إجماع الصحابة ﵃ ثابتٌ وحُجَّة، فهم كُفَّار مرْتدُّون بالإجماع، إذن هذا الاحْتمال باطل، غير وارد.

❁ **الاحْتمال الثاني**: أن يكون المكفِّر إنما هو الاعْتقاد في عليٍّ ﵁ وحده؛

(١٠) خادمه «قَمْبَرا».

من اعْتقد في أحدٍ سِواه شيئًا من الأُلوهية أو الربوبية فإنه لا يكفر، الكافر فقط هو الذي يعتقد في علي، وهل يقول أحدٌ بهذا؟ لا يقول أحد. إن كان ثَمَّة مسامحَة في هذا المقام فعليٌّ ﷺ ماذا؟ أشرف وأرْفع، أليس كذلك؟ لو اعْتُقِدَ العكس لكان أهْون ، لو قِيلَ بالعكس لكان أهون، إن كان هناك مسامحة فالمسامحة في عبادة علي وليس في المسامحة في عبادة غيره. يعني: إن كان الشَّنيع عبادة عليٍّ فقط دون ما سواه، هذا قول خُلْف! كيف إذا كان الغُلو في علي مكفِّر، والغُلو فيمَن دونه ليس مُكفِّر! هذا خُلْف ولا يُقال به. إذن **الحق والصواب**: أنَّ هذا الاحْتمال أيضًا باطل، غير وارد أن يكون الاعْتقاد في علي مكفِّرًا، والاعْتقاد في غيره ليس بمكفِّر، هذا تفريق بين متماثلات، ولا تأتي الشريعة به.

۞ **الاحْتمال الثالث**: وهو التسْليم بأن الاعْتقاد في كلِّ مُكفِّر ؛ الاعْتقاد في علي وفي غير علي كلُّه مُكفِّر، فلا فرْق بين معْبود ومعْبود، علَّة الشرك التشْريك، فلا فرْق بين شَريك وشَريك، لا فرْق بين شَريك يُدَّعَى وآخر ، إنَّما العبرة والعلَّة في الحكم بالشرك إنَّما هو في مجرَّد التنديد، واعْتقاد أن هناك شريكٌ مع الله سبحانه وتعالى.

إذن: يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أَمْ تَظُنُّونَ الاعْتِقَاد - فِي يُوسُفَ، وَفِي (تَاجٍ) وَأَمْثَالِهِ لاَ يَضُرُّ، وَالاعْتِقَادُ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبي طَالِبٍ رضي الله عنه يُكَفِّرُ؟**» لا شكَّ

أن هذا غير وارد.

وأقول: إذا كان هذا يقوله الشيخ في حق (تاج)، و(يوسف)، و(شمسان) فكيف في حق غيرهما مِمَّن لهم شأْوٌ عند القبوريّين أعظم! مَن تاج ومن شمسان أمام الأقطاب الأربعة الذين عليهم مدار تحْريك هذا الكون بكلِّ ما فيه؛ (الرِّفَاعي، والدّسُوقي، والبَدَوي، والجيلاَني) وغيرهم!! أين هذا عن أولئك الذين أُضيفَ إليهم ما لا يُضاف إلَّا لله ﷻ ! أين هؤلاء المذْكورون من الغوث الذي هو قُطْب الأقطاب، الفرد الجامع، والأقطاب أو الأوتاد الأربعة، والبُدلاء السبعة، والنُّجَبَاء الأربعون، والبُدلاء الثلاثمائة؟! أين هذا من هذا!! من شمسان، ومَن !! هؤلاء الأربعة إليهم تصْريف هذا الكون، والهداية، والإضْلال، والثواب، والعقاب، والجنَّة، والنَّار، حتى جريان الحوت في البحر مرجعُه إليهم؛ هذا الذي يعْتقده القبوريّون أو يعْتقده كثير فيهم، ويعتقد الآخرون في غيرهم نظيرَ هذا الاعْتقاد ؛ أصحاب الشَّاذلي يجعلونه هو الغَوث القُطْب، قُطْب الأقطاب الفرد الجامع ، وأتْباع التِّيجَاني يجعلونه كذلك، وأتْباع أبي العباس المُرسي، وأتْباع فلان، وأتْباع فلانة، كل واحدٍ من هؤلاء يجعل هذا التدبير والتصْريف لهذا الكون إليهم ، عندهم اجتماع يومي الأقطاب الأربعة، ومقرّ الاجتماع في «غار حراء»، كل يوم قبل الفجر يجتمع الأقطاب الأربعة، والغَوث يجلس خارج الغار، وأمَّا الأربعة ففي داخله، وقد يحضر أُناسٌ آخرون

أيضًا من النُّجباء والبُدلاء، ويتداولون تصْريف الكون يومًا بيوم، اجتماع يومي في غار حراء لتدبير أمْر هذا الكون، لا يتحرَّك متحرِّكٌ ولا يسكن ساكنٌ إلَّا بقرار ومَشيئة منهم، هذا - يا إخْوتاه- ورب السماء ليس تقوّلًا عليهم، هذا ما هو مُدوَّنٌ في كُتُبِهم، هذا الذي يعتقدونه في نفوسهم.

وبعضهم يرفع أكثر حتى من الغَوث، يعني بعضهم تجاوز ؛ كأتْباع الرّفاعي مثلًا تجاوز حتى الغَوث، القطْب الأقطاب الفرْد الجامع، تجاوزه إلى مرحلة ما أدْري إلى أين وصل! فأين الاعْتقاد في تاج وأمثاله من هؤلاء، وأين هذا الاعْتقاد مِمَّا كان يعتقده أبو جهْل وأبو لهَب؟! أتَرون صناديدَ قريش وكُفَّارها وصلوا إلى هذا المستوى السَّحيق من الكفْر؟ لا والله، ما وصلوا إلى هذا . والله المستعان!

هذان إجماعان من الصحابة ﷺ على أن (لا إله إلَّا الله) يمكن أن تنتقض في حقِّ قائلها، والإجماعات سِوى هذا كثيرة، إجماع الصحابة على ردَّة مانِعِي الزكاة الذين ما الْتزمُوا وجوبَها، وهؤلاء كانوا عِدَّة قبائل؛ في الحجاز، في نجد، في غيرها من جزيرة العرب، كانوا لا يؤدُّون الزكاة، ويعتقدون عدم وجوبها، كما ذكرتُ لك، وفيهم قال أبو بكر ﷺ - كما في «الصحيحين» -: «والله لو منَعُوني عَنَاقًا أو عِقَالًا كانوا يؤدُّونَه إلى رسول الله ﷺ لَقاتلتُهم عليه».

ومن ذلك أيضًا: ما كان من جماعة في الشام في عهْد عمرَ ﷺ اسْتحلُّوا شُرْب الخمر -وهذا الأثر عند ابن أبي شيبةَ وغيره- فرُفِعَ أمرُهم إلى عمرَ ﷺ في المدينة، فأمرَ بإحْضارهم، واتَّفق رأيُه مع رأْي علي ﷺ مع رأْي بقيّة الصحابة على أنهم يُسْتَتَابُون ثلاثة أيام، فإن أقروا بتحْريم الخمر جُلِدُوا على شُرْبِها، وإن استحلُّوها بعد ذلك فإنهم يُقتَلُون ردَّةً ؛ فكان أن أقروا بتحريمها فجُلِدُوا على شُربها.

الشاهد: يقولون (لا إله إلَّا الله) ويصلون ويصومون ويفعلون أحكام الإسلام، ويلْتزمون بكل الشريعة، ولكن أتوا فقط إلى شيء واحد وهو: كونُهم لم يلْتزموا بتحريم الخمر التي جاء النَّص وثبت الإجماع على تحْريمها ؛ فحينئذٍ أجمعَ الصحابة ﷺ على أن كل ما كان منهم من قول (لا إله إلَّا الله) ومن صلاة ومن عبادة وغيرها؛ أن هذا لا ينفعهم إن اسْتمروا على الاسْتحلال، الاسْتحلال مُكفِّرٌ واحد، ومع ذلك فإنهم حكموا بردَّتهم لو استمروا على هذا الحكم بعد الاسْتِتَابة . إذن: هذا طرَف من إجماع الصحابة ﷺ على أن (لا إله إلَّا الله) يمكن أن تنتقض ويَزول حكمُها بفعْل ناقض من نواقضها ، وأنَّ نواقض الإسلام لا يُشترطُ اجْتماعها، فبطل قول القوم.

قال المصنف رحمه الله:

وَيُقَالُ أَيْضًا: بَنُو عُبَيْدٍ القَدَّاحِ - الَّذِينَ مَلكُوا الْمَغْرِبَ وَمِصْرَ فِي زَمَنِ بَنِي العَبَّاسِ - كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيَدَّعُونَ الإِسْلاَمَ، وَيُصَلّوْنَ الْجُمُعَةَ، وَالْجَمَاعَةَ، فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ - دَوْنَ مَا نَحْنُ فِيهِ - أَجْمَعَ العُلَمَاءُ عَلَى كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلادَهُمْ بِلادُ حَرْبٍ، وَغَزَاهُم الْمُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَذُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ.

❃ ❃ ❃ ❃

قال الشارح وفقه الله:

هذا الجواب الخامس؛ وهو: إجماع أهل العلم قاطبة على كفْر العُبيديّين، الإسْماعيليّين، البَاطنيّين، الذين هم من أخْبث خلْق الله ﷻ.

قال: «**وَيُقَالُ أَيْضًا: بَنُو عُبَيْدٍ القَدَّاحِ**»؛ عُبيد هذا هو مؤسِّس هذه الدولة العُبيديّة، وكان اسْمه، ويُقال إنه لَقَبُه «عُبيد الله»، الشيخ عبَّر بـ«عُبيد» وهو «عُبيد الله»، ويُقال: إن اسْمه كان سعيدًا. وهذا الرجل كان يهوديًا من المغرب، فانتسبَ إلى زوج أُمِّه، وكان اسمه : الحُسين بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن مَيمون القدَّاح، وعبد الله بن مَيمون القدَّاح تعرفونه؛ هو زعيم القَرامطة - قبَّحهم الله - الذين هم أكفر من اليهود والنصارى باتفاق المسلمين.

والرجل ادَّعَى أنه فاطمي من وَلَدِ فاطمة رضي الله عنها، وأنه هاشمي من آل بيت النبي ﷺ، وحاشا أن يكون من وَلِدِ فاطمة رضي الله عنها الطاهرة

المُطَهَّرَة مثل هذا الرّجس الخبيث الذي هو عُبيد الله المهْدي القَبيح .

وعامَّة أهل العلم على أن هؤلاء أدْعياء للنسب الشريف، وأن النسب الشريف بريء منهم وهم بُرَآء منه، وأن أصولهم ترجع إلى هذا اليهودي، أو إلى مَن ينتسبون إليه وهو: المجوسي مَيمون القدَّاح ، فهذا الذي أراده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: «بَنُو عُبَيْدٍ القَدَّاحِ» يعني أبْناء المهدي، أو عُبيد الله المهْدي مؤسِّس الدولة العُبيدية التي ينتسب على الصحيح مؤسِّسها إلى عبد الله بن ميمون القدَّاح.

وهذه الدولة نشأت في تونس في آخر القرن الثالث، وانتقلَت بعد ذلك توسعت فدخلوا إلى مصر في السنة الثانية والستين بعد الثلاثمائة، وامتدَّ ملْكُهم فحكموا المغرب ومصر والحجاز وغيرها، وكانوا أهل غنى وقوَّة وظُلْم وسطْوة، وامتدَّ ملْكُهم مدَّة طويلة، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «البداية»: «إن مُلْكَهم امتدَّ مائتين وثمانين سنة وكسْرًا» ؛ يعني أكثر من مائتين وثمانين سَنة، وكان حكّامُهم أو مَن تسَّموا بالخلفاء الفاطميّين -والصحيح أنهم ليسوا فاطميّين، وإنما هم عُبيديّون كما علمْنا- بلغوا أربعة عشر خليفة ، وانتهَت مدَّتُهم بحمد الله وفضْله بموت آخر خليفة منهم وهو «العاضد» سنة سبعٍ وستين وخمسمائة ، حينما وجَّه نور الدين محمود بن زَنكِي -جزاه الله عن المسلمين خيرًا- وجَّه إليهم أسَد الدين (شيرَكوه) وابن أخيه (صلاح الدين الأيّوبي) فدخلوا إلى مصر وتحكَّموا فيها، ثم تُوفي أسدُ الدين، وصار الحكم والقوة بيد صلاح الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

وكان يُلاين لمصلحة رآها، يُلاين هذا الخليفة العاضد إلى أن هلَك - قبَّحَه الله - سنة سبعٍ وستين وخمسمائة ، فانتهَت بهذا دولتهم، وأزال صلاح الدين - جزاه الله خيرًا - كل آثار حكْمِهم في مصرَ وغيرها من المَمَالك التي كانوا يحكمونها، وانتهَت بهذا دولتهم - والحمد لله - .

فهؤلاء العُبيديّون من أخْبث خلْق الله ﷻ ومن أكفر الناس، وشَناعاتهم أكثرُ كما قِيل، بعض المؤرِّخين يقول: شَناعاتهم أكثرُ من حبَّات الرَّمل والقطر، مبالغةً في كثْرة الشَّناعات التي جاءت عنهم.

وسبحان الله العظيم! القرن الرابع والخامس الهجري مرَّت الأُمَّة الإسلامية فيه بمرحلة فيها شيء من الصعوبة، فإنه قد تسنَّم في كثير من الأقطار الإسلامية الحكْم الرافضة، فحدِّثْ ولا حرج عن الوَيلات والنَّكبات التي أصابت الإسلام وأهله؛ العُبيديّون الإسماعيليّون الباطنيّون حكموا مصرَ والمغرب والحجاز، وإخوانهم من الإسماعيلية - وإن كانوا متأخِّرين عنهم بعض الوقت - الصُّليحيّون في اليمن، وإخوانهم أيضًا القَرامطة في البحرين والأحْساء ، وإخوانهم البوَيديّون وهم زيديّة أو زيديّة انتقلوا إلى الاثْنا عشرية، وكانوا على وِفاقٍ تام واتحاد مع الفاطميّين أعني: العُبيديّين، وهؤلاء كانوا في العراق وفي فارس، وعندنا أيضًا الحَمَدانيّون هؤلاء في حَلَب والمَوصِل، وكانوا

اثنا عشرية .

فالأمر كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «البداية»: «إنَّه انتشر الرَّفْضُ في الأقطار وعَمَّ سبُّ الصحابة رضي الله عنهم» بسبب هؤلاء الرَّافضة الأخباث، وأصاب المسلمين في كل قُطْرٍ من هذه الأقْطار وَيلات، وأصاب أهل السُّنة أمورٌ عظيمة، ولا سيّما من قِبلِ العُبيديّين الذين مؤسِّس دولتهم عُبيد الله المهدي، هذا الخبيث قتلَ أربعة آلاف رجل، ما بين عالِم وعابِد، أبَوا أن يسبُّوا الصحابة وأن يكفُّوا عن التَّرَضي عنهم. وفي عهد العُبيديّين نُقِشَ سبُّ الصحابة في المساجد، وفي الشوارع ، وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ العالم من علماء أهل السُّنة كان يخْشى أن يُحدِّثَ بحديث عن رسول الله ﷺ في ظِل دولتهم؛ خشْية أن يُقتل .

فهؤلاء الرافضة شرٌّ عظيم على الإسلام والمسلمين، بجميع أصنافهم، سواء كانوا اثني عشرية، أو كانوا من الإسماعيليّة الذين هم أخْبث. فالله المستعان!

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**بَنُو عُبَيْدٍ القَدَّاحِ - الَّذِينَ مَلكُوا الْمَغْرِبَ وَمِصْرَ فِي زَمَنِ بَنِي العَبَّاسِ - كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيَدَّعُونَ الإِسْلاَمَ، وَيُصَلّوْنَ الْجُمُعَةَ، وَالْجَمَاعَةَ**»؛ الحقيقة أن العُبيديّين في الانتساب ينتسبون إلى الإسلام ، يعني لا ينتسبون إلى يهودية، ولا إلى نصرانية، ولا إلى مجوسية، لا؛ هم ينتسبون إلى الإسلام، والناس في ذلك الوقت كثيرٌ منهم أَبَى

أن يجاريَهم في مصر والمغرب، فكانت الصلاة قائمة وكان الأذان قائمًا على مُضايقة من هؤلاء شديدة، لكن الإسلام باقٍ، والناس يصلون ويؤدُّون شعائر الله ﷻ.

يقول: «**فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ - دَوْنَ مَا نَحْنُ فِيهِ - أَجْمَعَ العُلَمَاءُ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَقِتَالِهِمْ**»؛ الحقيقة أن قول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ دَوْنَ مَا نَحْنُ فِيهِ**» الذي يبدو - والله أعلم - أنَّ كلامه هذا محمولٌ على حالهم في ابْتداء أمرهم، وأنه في ابْتداء أمرهم أظهروا مخالفات من أمور تتعلّق بالْتزام الشريعة؛ فإنهم أبطلوا بعض العبادات، كصلاة التراويح، وأباحوا نكاح الأخْتَين والجمْع بينهما، وعطَّلُوا بعض الحُدود، فكفَّرهم أهل العلم، لكنَّ الأمر تفاقم بعد ذلك، وليس يخْفاك أن الباطل يبدأ صغيرًا ثمَّ لا يلْبَث أن يُصبح كبيرًا.

فإن كان أراد المؤلف هذا ؛ فهذا يعني له وجْهٌ، أنه أراد تكفير أهل العلم لهم في ابْتداء أمْرهم، وفي بُدوّ ما ظهر منهم ، وأمَّا في مجموع ما كان من حالهم فلا شكَّ أنَّه لا أحد يُضاهي هؤلاء العُبيديّين في الكفْر والضلال ، لا أحد من المنتسِبين إلى الإسلام يُضاهِيهِم، إلَّا من كان على شاكلتهم، فالقوم اعْتقدوا الربوبية في غير الله ﷻ، وادَّعى بعضهم الربوبية، حتى كان الشاعر يمدح بعض

حُكَّامهم فيقول:

مـا شـئْتَ لا مَـا شَـاءَتِ الأَقْـدَارُ فَـاحْكُم فأنـتَ الوَاحِـدُ القَهَّـارُ

ادَّعوا الإلهية، حتى إنَّ الذهبي -أظن ذكر أنه في ثلاثمائة وست وتسعين أو نحو هذا للهجرة- أنه جاء الأمر من الحاكم بأمْره إلى الحرَمين، وكانت تحت حُكْمهم ، أنه إذا ذُكِرَ الحاكم فكلُّ مَن في الحرمين عليهم أن يقفوا تعْظيمًا له ثمَّ أن يسجدوا له، وهذا أيضًا كان يحصل في القاهرة، فإذا ذُكِرَ اسمُه وجب على كل من سمع اسمه أن يسجد، وكل من رآه عليه أن يسجد، حتى كان الناس يسجدون في الأسواق، كلّما ذُكِرَ اسمُه.

وادَّعى بعضهم أيضًا النبوَّة، وكان منهم السخرية والاسْتهزاء برسول الله ﷺ ، وكانوا يقولون بتناسخ الأرواح، وكانوا يقولون بالحُلول وأنَّ الله سبحانه وتعالى حلَّ في الحاكم بأمْره، وكانوا أيضًا إباحية لم يلْتزموا بشريعة الله ﷻ بلْ أبطلوا كثيرًا من أحكام الإسلام، وأباحوا كثيرًا من المحظورات، وهؤلاء أيضًا هم أساس من الأُسُسِ التي قامت عليها القبورية ، فهم أهل شرك وقبورية، والمشْهَد المشهور في القاهرة يزْعمون أن تحته رأس الحسين هم الذين أَسَّسوه، ورأس الحسين رضي الله عنه ليس له علاقة بهذا المشْهد باتفاق العلماء، كما نقل هذا شيخ الإسلام، وإنما دُفِنَ جسدُه رضي الله عنه في العراق، ورأسه حُمِلَ إلى المدينة فدُفِنَ في المدينة. وكثير من المشاهِد وتعظيم القبور عند قبر النَّفيسة مثلًا، ذكر الذهبي

رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هذا كان من دسائسِهم.

وعمومًا القبورية أو الشرك في باب الأُلوهية إنَّما دخلَ بسببِ هؤلاء الرافضة لمَّا تحكَّموا في كثير من الأقطار الإسلامية. وأضِفْ إلى هذا تكفيرهم وسبَّهم وقدْحهم في أصحاب رسول الله ﷺ، وأضِفْ إلى هذا أنهم كانوا يعتقدون بِقدَمِ العالَم على مذهب كفَّار الفلاسفة، وكانوا يعتقدون في الكواكب وأنها مدبِّرة ومصرِّفة لهذا الكون، إلى غير ذلك من هذه الشناعات .

مساوئ لو قُسِمْنَ على الغَواني   لَمَا أُمرْنَ إلَّا بالطلاق

فمخازِيهم عظيمة وشرّهم مسْتطير، وكل ما عند القبوريّين الذين يناظرُهم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه موجود فيهم، وزيادة عليه بأضْعاف مضَاعَفة ، فلا شكَّ أنهم من أخْبث خلْق الله عَزَّوَجَلَّ، وهم من أكْفَر الكُفَّار ، وكُفْرُهم أشد - كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ - أشدّ من كُفْر أتباع مُسيلمة، وعِداؤهم للإسلام أشدّ من عِداء التَّتار ؛ التَّتار الذين هم من أعظم الناس حنَقًا على الإسلام والمسلمين، هؤلاء أشدّ عداوة للإسلام والمسلمين منهم.

فيُوجَّه كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: «**فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ دَوْنَ مَا نَحْنُ فِيهِ**» على أن هذا الحكْم فيهم في ابْتداء أمْرهم، ثمَّ تفاقَم حالهم بعد ذلك.

قال: «وَأَنَّ بِلادَهُمْ بِلادُ حَرْبٍ»؛ نعم، حكموا بهذا، وألَّف ابنُ الجَوزي كتابه «النصر على مصر»، وأفتى العلماء نور الدين محمود بن زَنكي بوجوب قِتالهم، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقل أيضًا عن أهل العلم أن دارهم دارُ ردَّة ونفاق، وغزاهم المسلمون حتى اسْتنقذوا ما بأيديهم من بلْدان المسلمين، والأمر كما وصفتُ لك قبل قليل.

والمقصود من هذا - يا إخْوتاه - أنَّ الاسْتدلال اسْتلالٌ صحيحٌ مستقيمٌ بإجماع العلماء على تكفير العُبيديّين وقِتالهم على الردَّة من أن مَن أظهر الإسلام وفعل مُكفِّرًا أو أكثر فإنه يكْفر ولا تنفعه (لا إله إلَّا الله)، هذا القدر الاسْتدلال به صحيح لا شكَّ فيه، وبه يثبُت المطلوب؛ أن من قال: (لا إله إلَّا الله) وهؤلاء الفجّار الكفَّار كانوا يقولون (لا إله إلَّا الله)، وما منعهم قول (لا إله إلَّا الله) من حُكْم الكفْر الذي وصمَهُم به أهل العلم بالاتفاق.

فالمقصود في الاسْتدلال حاصلٌ؛ وهو أن من ادَّعى الإسلام وفعلَ ما فعلَ من شرائعه ثمَّ ارْتكبَ ناقضًا من نواقض الإسلام فإنه يَكْفر بذلك.

والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

ويُقال أيضًا: إذا كان الأوَّلون لم يكفروا إلاَّ لأنَّهم جمعوا بين الشِّرك وتكذيب الرَّسول ﷺ والقرآن وإنكار البعث وغير ذلك، فما معنى الباب الَّذي ذكر العلماء في كُلِّ مذهبٍ «بابُ حُكم المرتد»؟ وهو المسلم الَّذي يكفر بعد إسلامه . ثُمَّ ذكروا أنواعًا كثيرةً، كُلُّ نوعٍ منها يُكَفِّرُ ويُحِلُّ دم الرَّجل وماله حتَّى أنَّهم ذكروا أشياء يسيرةً عند من فعَلها، مثل كلمةٍ يذكرها بلسانه دُون قلبه، أو كلمةٍ يذكرها على وجه المزح واللَّعب .

قال الشارح وفقه الله:

لا يزال المُؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ يُتابع الرُّدود النَّاقضة لزعم القبوريين أنَّه لا يكفُر المسلم إلاَّ إذا اجتمعت في حقه مُكفرَّاتٌ، أو المكفرات ؛ وبين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في الأوجه الخمسة الماضية ما يشفي ويكفي ، ويزيد ذلك بيانًا وتوضيحًا في هذه الأوجه القادمة .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: « **إذا كان الأوَّلون لم يكفروا إلاَّ لأنَّهم جمعوا بين الشِّرك وتكذيب الرَّسول ﷺ والقرآن وإنكار البعث وغير ذلك**» ؛ هذا ما يزعمه هؤلاء القبوريون أنَّ ثمَّة فارقًا بين الحكم على كفار قريش وأضرابهم؛ والحكم على من وقع في ناقضٍ من نواقض الإسلام كـ: الشرك بالله ﷻ ؛ وهذه الجملة قد تكلَّمنا عنها سابقًا .

المهم معنا هنا أنَّ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يريد أن يبين أنَّ ما ذكروه غير صحيح ، وأن ناقضًا واحداً ، ومكفِّرًا واحدًا كافٍ في الحكم بالكفر والردة بعد الإسلام ،

وأن الشرك بالله ﷻ من وقع فيه فإنه يكون كافراً بالله ، ولا يُشترط مع هذا أن يجمع ما جمعه المشركون الأولون من التكذيب بالنبي ﷺ ؛ والتكذيبِ بالقرآن ونحو ذلك؛ فكون كفارِ قريش جمعوا أنواعًا من الكفر كل واحدٍ منها كفرٌ باستقلالٍ لو انفرد لا يعني أن أفرادها ليست مكفِّرة؛ وهذه المسألة قد كررناها وأعدناها فيما مضى .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهذا هو الوجه السادس-: « **فما معنى الباب الَّذي ذكر العلماء في كُلِّ مذهبٍ (بابُ حُكم المرتد)**» ؛ بمعنى: المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إنَّ العلماء في جميع المذاهب -في المذاهب المتبوعة وغيرها- مُجمعون على ثبوت حكمٍ شرعيٍ في حق من وقع فيه وهو حكم الردة؛ ولذا أَلَّفوا في بيان هذا الحكم وهذه الردة مؤلفاتٍ مستقلة ، كما ضمَّنوا الكتب والدواوين الفقهية أبوابًا تفصِّل ذلك؛ حتى أنك لا تكاد تجد كتابًا فقهيًا معتبراً جامعًا إلا وقد ضُمِّن فيه بابٌ لبيان هذا الحكم ، فتجدهم يقولون (باب حكم المرتد) ؛ وقد يقولون (باب الردة) ؛ أي بيان الردة وبيان أحكامها . وهذا لا تُخطئك العين في مشاهدته إنْ فتشتَ وقلَّبت كتب الفقه من جميع المذاهب ، ناهيك كما أسلفتُ عما أُلِّفَ مفرداً في بيان هذا الأمر.

وما هي الردة؟ الردة كفرٌ بعد إسلام؛ وإن شئت فقل: الردة كفرُ المسلم .

و«المرتد» هو من عرَّفه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «**المسلم الَّذي يكفر بعد إسلامه**».

ثم ذكروا أنواعًا كثيرة ، وما قال أحدٌ قط إنه لابد أن تجتمع جميعًا في ثبوت هذا الحكم ؛ إنما يقولون: من قال كذا -ويذكرون شيئًا واحداً- فقد كفر ،

ومن فعل كذا -ويذكرون شيئًا واحداً- فقد كفر؛ ومن اعتقد كذا -ويذكرون شيئًا واحداً- فقد كفر ؛ وهذه كلمة إجماعٍ من الفقهاء؛ إذن ما ذكروا باطلٌ بإجماع الفقهاء.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «**وهو المسلم الَّذي يكفر بعد إسلامه، ثُمَّ ذكروا أنواعًا كثيرةً**» ؛ نعم! ذكروا أنواعًا كثيرةً للردة لا تقتصر على مسألة تكذيب البعث، أو تكذيب رسول الله ﷺ ، بل ذكروا أشياء كثيرة عسيرٌ إحصاؤها ولا يُكاد استقصاؤها ؛ حتى إنَّ الحجاويَّ الحنبلي في كتابه « الإقناع» عدَّ أكثر من -أربعمائة- ناقض ذكر هذا المؤلف الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض رسائله؛ ولو فتشت في كتبٍ أكبر وأوسع لوجدت عدداً أكثر .

وغير خافٍ عليك أن المذهب الحنفي أكثر المذاهب تفريعًا في هذا الباب وإيراداً للصور والنماذج ، وغيرهم أيضًا أكثر من ذلك؛ فالشافعية؛ والمالكية؛ والحنابلة وغيرهم من الفقهاء ، حتى ممن لم يكونوا من أهل المذاهب المتبوعة وصنفوا وكتبوا وجاءت عنهم المسائل والروايات قد تضمنت كلماتهم بيانًا لشيءٍ من هذه المكفرات وأسباب الردة .

فأسباب الردة كثيرة؛ ومجموعها يرجع إلى أربعة أنواع:

- إلى قول .
- وإلى فعلٍ .
- وإلى اعتقادٍ.

۞ وإلى شكٍ مضادٍ للإسلام .

تفصيل ذلك: كل ما ذكروا من صورٍ ونماذج ووقائع تقتضي الردة راجعٌ إلى هذه الأمور الأربعة؛ إما إلى قولٍ يضاد الإسلام ، وإما إلى فعلٍ يضاد الإسلام ، وإما إلى اعتقادٍ يضاد للإسلام ، وإما إلى شكٍ يضاد الإسلام .

۞ القول: كأن يدعو غير الله ، أو أن يسب الله أو رسوله ﷺ ، أو شيئاً من دين الإسلام .

۞ والفعل: كأن يسجد لقبرٍ أو صنمٍ ، أو أن يبول على مصحف .

۞ واعتقاد: كأن يعتقد مشاركة غير الله له في الخلق والتدبير .

۞ أو شك: كأن يشك في صدق رسول الله ﷺ مثلاً .

فهذه الأنواع والصور الكثيرة المذكورة في كتب الفقه ترجع إلى هذه الأصول الأربعة ، وأنت خبيرٌ بأن الكلام في الكفر على وزان الكلام في الإيمان ؛ فكما أنَّ الإيمان يرجع إلى قولٍ وعمل ، كذلك الكفر يرجع إلى قولٍ وعمل ، كما الإيمان يرجع إلى قول القلب وعمله وقول اللسان وعمل الجوارح كذلك بالنسبة للكفر ؛ هذا الذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة .

فكل واحدٍ من هذه المكفرات يستقل بالكفر ولا يُشترط فيه مشاركة غيره ، ولا يشترط موضعٌ أو محلٌ آخر للكفر ؛ بمعنى: لا يُشترط في الحكم بثبوت الكفر بقولٍ مواطأة القلب -أي أن يكفر القلب مع كفر اللسان- بل لو كفر

اللسان بقولٍ فإن الإنسان يكفر ولا نظر لنا إلى ما في قلبه ، كما أنه لو اعتقد بقلبه وما تكلم ولا فعل فإنه يكفر ولا نظر لنا إلى قوله أو فعله .

ولذا أجمع أهل السنة -كما نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ - على أن من سب رسول الله ﷺ فإنه كافرٌ باطنا وظاهرًا ، وإن كان يستحل هذا السب ، وإن كان يعتقد تحريم هذا السب ، وإن كان ذاهلاً عن اعتقاده ، في وقت السب كان ذاهلاً لم يكن عنده التفاتٌ إلى ما في قلبه من جهة الاستحلال أو التحريم ؛ كل ذلك لا فرق فيه ، فالحكم معلقٌ بمجرد القول، وبمجرد الفعل، وبمجرد الاعتقاد، وبمجرد الشك دون اشتراط شيءٍ آخر ، لا تواطُؤُ أكثر من موضعٍ في اللسان أو القلب أو الجوارح ، ولا مشاركة ناقضٍ آخر حتى يحكم بالكفر . إذن قول القوم قولٌ باطلٌ بإجماع الفقهاء .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «**حتَّى أنَّهم ذكروا أشياء يسيرةً عند من فعَلها، مثلُ كلمةٍ يذكرها بلسانه دُون قلبه**» ؛ نعم! من فتش في كتب الفقهاء وجد أنهم يكفِّرون بأشياء يستصغرها كثيرٌ من الناس ، وقد يكون ما ذكروا مُسلَّمًا، وقد لا يكون مسلَّمًا .

انتبه: ليس كل ما ذكره الفقهاء مُكفِّراً يكون عند التحقيق مُكفراً ، وسبب ذلك في الغالب راجعٌ إلى ضبط مسألة التعظيم والاستخفاف ؛ فقد يتوسع بعض الناس في معنى التعظيم وما يضاده من الاستخفاف فيُدخلون ما لا ينبغي أن يصل إلى حد الكفر، يعني: ما لا يعارض أصل التعظيم الذي يقتضي الاستخفاف الكفري .

المقصود: أنهم قد توسعوا في ذلك ، وليس مقصودنا تحقيق القول في هذه المسائل الجزئية ، وإنما أن نقول إنهم قد توسعوا حتى في الحكم بأشياء يستصغرها بعض الناس؛ حتى قالوا: إن من قال "مُسيجد" كفر ؛ صغَّر كلمة المسجد قالوا هذا استخفاف . من قال: "مصيحف" بعض الفقهاء قالوا إنه يكفر . من قال: "قصعة ثريد خيرٌ من العلم" بعض الفقهاء قال إنه يكفر . من قال: "فلان أقصر من سورة الكوثر" بعض الفقهاء قالوا إنه يكفر. وفي هذا الزمان حدث ولا حرج عن أشياء كثيرة تقال مع الأسف الشديد وتُسمع؛ كأن يقال في حق امرأةٍ متحجبة: "إنها خيمةٌ متحركة" ، أو في شخصٍ متبعٍ سنة رسول الله ﷺ بإعفائه لحيته يقال في حقه: "إنه ذقن التيس" ، فهذه ولا شك أشياء يستصغرها ويستسهلها بعض الناس لكنها شيءٌ عظيم عند العلماء الذين يعرفون أحكام الشريعة .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «**مثل كلمةٍ يذكرها بلسانه دُون قلبه**» ؛ ليس مراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإنسان إذا تكلم كلمةً بلا شعور أنَّه يكفر بذلك ، ليس مراده هذا فإن التكليف شرط التكفير ، بمعنى: لو أنَّ إنسانًا قال كلمةً بلا شعور فإنَّه لا يكفر بذلك ، ألم تسمع ما أخبر النبي ﷺ عن الرجل صاحب الناقة الذي ضربه رسول الله ﷺ مثلاً للتائب فقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ» ، فهذا قال كلمةً بلا شعور ، فمن كان على منواله فإنه لا يكفر بذلك.

ليس هذا الذي أراده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، إنما أراد شيئًا آخر وهو ما يوضح الفرق بين مذهب أهل السنة والمرجئة ؛ فإنَّ أهل السنة والجماعة يقولون: إنه

يكفر بلسانه دون قلبه ، ويقصدون أنه لا يُشترط في كفره بقول يقوله مواطأة قلبه للسانه في الكفر ؛ قال كلمة الكفر وهو مكلفٌ يعرف ما يقول فإن هذا كافٍ في الحكم بكفره ولا نظر لنا إلى ما في قلبه ،كما ذكرت لك ذلك قبل قليل.

بخلاف قول المرجئة الذين يقولون : "إنَّ القول الظاهر والفعل الظاهر ليس كفرًا إنَّما هو أمارةٌ على الكفر ، فهو بمنزلة شهادة الشهود الذين قد يصيبون وقد يخطئون" ؛ مجرد أمارة ، إنَّما يكون كافراً لو كفر بقلبه . وسبب ذلك: أنَّهم كما حصروا الإيمان في القلب بالمعرفة أو التصديق ؛ فإنهم حصروا الكفر في القلب بالجهل أو التكذيب . وهذا لا شك كما ذكرت لكم أنه باطل ، بل الحكم يتعلق بالقول دون النظر إلى القلب ، كما يتعلق بالقلب دون النظر إلى القول أو الفعل ، والله ﷻ -كما سيأتي معنا- علق الحكم بالكفر على القول دون نظرٍ إلى ما في القلب ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]؛ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] . إذن: هذا الذي أراده المؤلف رَحِمَهُ اللهُ .

قال: «**أو كلمةٍ يذكرها على وجه المزح واللَّعب**» ؛ إذن مناط الحكم بالكفر هو القول أو الفعل ، وليس ما في القلب كما قد تجده في بعض كتب الفقه التي كُتبت على تأثرٍ بعقيدة المرجئة ؛ يقولون: "إنَّ من سبَّ مثلاً أو استهزأ بالله أو رسوله أو ثوابه أو عقابه إلخ ؛ فإنه يكفر إن استحل ذلك" ، لا شك أن هذا باطل ليس بصحيح ، هل ترى أحدًا من الفقهاء يقول: إن من كذب أو اغتاب كفر ومراده إن استحل ذلك؟ يعني: صار السب كالكذب والغيبة! لأنك تقول:

"هو كافرٌ إن كذب مستحلاً ، كذلك الأمر إذا أشرك في دعائه أو سب أو استهزأ فإنه كفر باستحلاله" ؛ وهذا لا شك أنه باطل ليس بصحيح؛ بل الحكم معلقٌ بمجرد هذا المزاح القولي ، وبمجرد هذا السب، وبمجرد هذا اللعب الذي يكون بقول أو بفعل ؛ قد يكفر لاعبًا بفعله كأن يغمز بعينه أو يحرك يده أو أصابعه على سبيل الاستهزاء والسخرية في سياق تحديثٍ بحديثٍ أو ذكر آيةٍ أو حكمٍ أو نحو ذلك ، بحيث يكون العُرف مقتضيًا بأنَّ هذا استهزاءٌ أو سبٌ من جهة الفعل .

المقصود: أنَّ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يريد أن يبين لنا أن ما ذكروا باطل بإجماع العلماء ؛ لأنَّ العلماء متفقون على ثبوت حكم الردة في حق من أتى قولاً كفريًا فقط ، أو فعلاً كفريا وليس أفعالاً وليس أقوالاً ، كذلك بالنسبة للاعتقاد أو الشك ، فما ذكروا باطلٌ بيقين والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله:

ويُقال أيضًا: الَّذين قال الله فيهم: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ [التوبة:٧٤]، أما سمعت الله كفَّرهم بكلمةٍ مع كونهم في زمن رسول الله ﷺ ويُجاهدون معه، ويُصلُّون معه ، ويُزكُّون ، ويحجُّون ، ويُوحِّدون .

قال الشارح وفقه الله:

كذلك هذه الآية التي تضمنت **الوجه السابع** للرد على شبهتهم فيها بيان أن الكفر يكون بكلمة ولا يُحتاج في الحكم به إلى اجتماع المكفرات ؛ هذا الذي أراده المؤلف.

الكفر يكون بكلمة لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]؛ فالكفر حصل وكانت علته كلمة وليس كلمات أو مكفرات؛ ﴿قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ انتهى الأمر ، فبطل قولهم ؛ كما ذكرت لك قبل قليل أن الحكم معلقٌ بهذا المكفِّر قوليًا أو فعليا أو اعتقاديًا؛ فالأمر فيه كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]؛ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] . فمن قال هذه الكلمة مخبراً عن اعتقاده وليس حاكيًا عن غيره أو تاليًا مثلاً لآية أو نحو ذلك فإنه يكون كافراً بمجرد هذا القول ؛ إذا أخبر بذلك راضيًا بهذا الحكم ، تدل القرائن على أن هذا قوله فإنه يكفر بمجرد هذا القول كما قدمنا .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ : «**أما سمعت الله كفَّرهم بكلمةٍ مع كونهم في زمن رسول الله ﷺ ويُجاهدون معه، ويُصلُّون معه، ويُزكُّون، ويحجُّون، ويُوحِّدون**» ؛ نعم! هم كذلك إلا أنهم يفعلون هذا ظاهراً ، هذا هو الصواب في فَهْمِ الآية؛ أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ يصلون ويحجون إلخ؛ ولكن هذا كان منهم ظاهراً ؛ لأن الآية في المنافقين دون شك ، لأن الله ﷻ قد قال قبلها: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[التوبة:٧٣] ثم قال ماذا؟ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا﴾إلخ ؛ فالآية فيمن؟ في المنافقين قطعـًا.

ويدل على هذا أيضا ما جاء في سبب نزول هذه الآية، وقد رويت عدة روايات، وذُكرت عدة أسباب لنزول هذه الآية، وإن كان أشهرها أنها نزلت في قول الجُلاس بن سُويد الأنصاري -وكان إذ ذاك منافقـًا ، ثم إنه قد تاب إلى الله ورجع وحسُن إسلامه بعد ذلك- قال: "إن كان ما يقول هذا الرجل حقـًا فلنحن شرٌّ من الحمير" ، فأُبلغ رسول الله ﷺ بذلك؛ ثم جاء يحلف لرسول الله ﷺ أنه ما قال ذلك . وقيل إنها نزلت في غيره من المنافقين .

وبعض أهل العلم -وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ وكذلك القرطبي في تفسيريهما- أنَّ هذه الآية عامة في كل أقوال المنافقين ، كأنه لم يثبت عندهم شيءٌ مما ذُكر في سبب نزولها.

فالمقصود أنَّ هذه الآية في المنافقين ، ومع ذلك فالاستدلال بها مستقيم ؛ حتى ولو كانت في المنافقين؛ لأنَّ المنافقين تصدر عنهم مكفِّرات ، والله ﷻ ذكر ها هنا مكفرًا من جملة ما وقع منهم ؛ الله ﷻ يقول: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ

﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]؛ كفروا بعد إسلامهم ظاهراً، هم كانوا كفاراً حقيقةً، مسلمين ظاهراً، فصاروا كفاراً ظاهراً وباطنـًا.

﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي: الكفر الظاهر؛ لأن المنافقين محكومٌ لهم بالإسلام الظاهر، فصار كفرهم بهذه الكلمة كفراً ظاهراً كما هو باطنٌ في الأصل؛ فاجتمع في حقهم الكفر الظاهر مع الكفر الباطن. إذن تُفهم الآية هكذا: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ الكفر الظاهر.

إذن مناط الحكم بالكفر تعلق بكلمة الكفر؛ إذن هذه الآية تدل على أن كل من قال كلمة الكفر كفَر وحُكم عليه بالكفر، بغض النظر عن كونه في الباطن من قبلُ مؤمنًا أو كافرًا؛ فلو كان مسلمًا من قبلُ فقال كلمة الكفر حكمنا بكفره؛ لأن ﷻ جعل علة الحكم بالكفر النطق بكلمة الكفر؛ فمن قال كلمة الكفر -بنص الآية- كفر بعد إسلامه، بغض النظر عما كان عليه حاله من قبل؛ هل كان في الباطن أيضـًا كافراً كحالِ المنافقين، أو كان مسلمـًا؛ فعلة الحكم بالكفر قول كلمة الكفر بغض النظر عما عليه قلبه قبل ذلك، وهذا كافٍ في بيان المقصود.

فاستدلال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ استدلالٌ صحيح.

قال المصنف رحمه الله:

وكذلك الَّذين قال الله فيهم: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [التوبة: ٦٥ – ٦٦]، فهؤلاء الَّذين صرَّح الله في كتابه أنَّهم كفروا بعد إيمانهم وهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قالوا كلمةً ذكروا أنَّهم قالوها على وجه المزح واللَّعب.

قال الشارح وفقه الله:

هذا هو الجواب المقارب في المعنى من الجواب السابق، فكلا الآيتين تدلان على المعنى نفسه؛ وهو: أن مناط الحكم بالكفر قد يكون كلمةً واحدة، فهذا هو الذي أراد المؤلف رحمه الله أن الكفر حاصلٌ بكلمة؛ ولا يشترط اجتماع المكفرات.

وعندنا في هذه الآية مسائل:

❁ **المسألة الأولى**: أنَّ أصل الإيمان مبنيّ على تعظيم الله ﷻ وتعظيم رسوله ﷺ، فما ضادَّ ذلك كان كفراً، وما يُضاد ذلك من الأقوال والأفعال يرجع إلى سبٍ -يعني شتم- أو استهزاء؛ سخرية، وإن كان السب لا شكَّ أنَّه أشدُّ وأعظم، لكن كلاهما كفر ومضاد للإسلام، ما كان استهزاء صريحًا أو سبًا صريحا فلا شك أن هذا مضادٌ للإسلام من كل وجه، وسببٌ للردة والعياذ بالله.

❁ **المسألة الثَّانية تتعلق بفهم الآية.**

هؤلاء الذين أخبر الله ﷻ عنهم في قوله: ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥- ٦٦] ؛ أكانوا

مؤمنين ضعاف الإيمان؟ يعني معهم أصل الإيمان ومعهم نفاق لم يخرجوا به من الإسلام؟ ففيهم نفاق وفيهم إيمان، ثم ارتدوا بهذه الكلمة فكفروا بعد إيمانهم ؟ هذا ما ذهب إليه طائفةٌ من أهل العلم وهو الذي يُفهم من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «الإيمان» . وكأنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يميل إلى ذلك كما سيأتي من استدلاله بهذه الآية في آخر هذا الكتاب .

أو أنَّ هذه الآية نزلت في منافقين؟ وهذا ما كرر ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الصارم المسلول».

الذي يبدو والله أعلم أن الثاني هو الصواب ، وهو الذي عليه عامة أهل العلم ؛ أن الذين أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنهم في هذه الآية وأنهم كفروا بعد إيمانهم ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أنهم منافقون ، وليسوا مسلمين ثم ارتدوا ؛ **ويدل على هذا أمورٌ:**

❁ **أوَّلاً** : سياق الآية، سباقها ولحاقها؛ الله عَزَّوَجَلَّ يقول قبلها: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ إذن الحديث عمن؟ ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ فالحديث كان عن المنافقين ، والإخبار كان عن استهزاء المنافقين . ثم ما بعدها أيضا: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ ؛ فدل هذا على أن هذا الكلام إنما تعلق بمنافقين .

❁ **ويزيد هذا تأكيداً وجهٌ ثانٍ** : وهو ما جاء في سبب نزول هذه الآية ، وأن عوف بن مالكٍ ﷺ قال لمن تكلم بكلمة الكفر وسخر واستهزأ برسول الله ﷺ وأصحابه حينما قال: "ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونـاً ولا أكذب ألسنـاً ولا أجبن عند اللقاء" قال: «كذبت ولكنك منافق» .

❁ **ويزيده بيانـاً الوجه الثَّالث وهو** : أن هذه الآية من سورة التوبة الفاضحة للمنافقين؛ فإن هذه السورة العظيمة قد كثر فيها الكلام عن المنافقين وبيان صفاتهم ، فهذا مما يؤكد أن الآية في المنافقين .

❁ **وزد على هذا أمرًا رابعًا يُؤكد ما سبق أيضـًا**؛ وهو: أن السخرية والاستهزاء ديدن المنافقين وصنعتهم ، ولذا أخبر الله ﷻ عنهم في سورة البقرة أنهم يقولون: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ .

فالذي يبدو والله تعالى أعلم أن هذه الآية نزلت في المنافقين ، ومع ذلك فالاستدلال بها صحيح؛ لأن هؤلاء كانوا مؤمنين حكمـًا كافرين حقيقةً ، كانوا مؤمنين حكمـًا محكومٌ لهم بحكم الإيمان الظاهر ، ثم لما قالوا هذه الكلمة – كلمة الكفر وسخروا برسول الله ﷺ- فإنهم كفروا ظاهراً ؛ فصار محكومـًا عليهم بالكفر الظاهر كما كانوا كافرين باطنًا ، كما قلنا في الآية السابقة وكلاهما في سورة التوبة .

أقول: الاستدلال مع هذا مستقيم ؛ لأن تأخير الحكم عليهم إلى الوقت الذي قالوا فيه هذه الكلمة -هم في الأصل كانوا كفارًا- تأخير الحكم عليهم بالكفر إلى الوقت الذي قالوا فيه هذه الكلمة حكَم الله ﷻ عليهم بالكفر ﴿قَدْ

كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ علة الكفر الكلمة التي قالوا ؛ إذن كل من قال كلمة الكفر كفر ، بغض النَّظر عن كونه في الأصل في قلبه مؤمنـًا أو كافراً؛ فالاستدلال بها مستقيمٌ لا شك في ذلك .

❖ **المسألة الثَّالثة** : هذه الآية فيها دليلٌ على أنَّ من نطق بكلمة الكفر عالمـًا بتحريمها لكنَّه لا يعلم أنها تبلغ به درجة الكفر أنه يكفر بذلك ؛ يشترط أن يكون عالمـًا بتحريمها ولا يشترط أن يكون ظانًّا بلوغها مبلغ الكفر ، بدليل أن ظاهر الآية فيها أنَّهم اعتذروا عن مقالتهم لا بأنهم كانوا يعتقدون معناها ، وإنما قالوها عن لعبٍ واستهزاء ؛ فدل هذا على أنَّه لا يُشترط أن يظن أنها تبلغ الكفر ، بل حتى لو كان يعلم أنَّها محرمة ثم تكلم بها يسخر ويلعب ويستهزأ ويُقطِّع الوقت -مثلا يقول: أنا ما كنت أدري أنها توصلني إلى حد الكفر - نقول إن هذا يصل إلى حد الكفر ، وأبان عن هذا الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ وكذلك المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض رسائله.

إذن حذارِ يا إخوتاه ؛ الكلمة شأنها عظيم ، أكثر ما يدخل الناس النار الفم والفرج ، في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال ﷺ : «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَهْوِى بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» ، نعوذ بالله كلمة!! ويتساهل ولا يبالي ولا يضع في ذهنه أنها قد تبلغ به ما بلغت ، وإذا بها تكون سبب خسارته والعياذ بالله.

إذن لابد من ضبط اللسان ، وحذارِ من التساهل وإلقاء الكلام؛ خُض فيما شئت واعبث والعب ولكن قف عند حد المطالب الدينية؛ شيءٌ يتعلق بالله ، أو

برسوله ﷺ ، أو بالرسل، أو بالملائكة، أو بالثَّواب أو بالعقاب، أو بالتشريعات، أو بغير ذلك مما له صلةٌ بما جاء به محمدٌ ﷺ فضع بينك وبين الخوض فيه ألف حاجز ؛ فالخسارة ها هنا ليست ديناراً ولا درهمًا ولا ناقةً ولا بعيراً ، إنما الخسارة أعظم من ذلك بكثير ، ولا مجال للاستدراك إن مات الإنسان دون توبة ، ليس هناك كما يقولون اليوم "دور ثاني" ، في الآخرة هل لك نفسان تُجرب؟ تتكلم؟ تخوض؟ فإن وقعت في عطب تعوِّض بنفس ثانية؟ تعود مرة أخرى للحياة فلا تكرر الخطأ؟ الجواب: "لا" ؛ إذن اضبط لسانك .

حتَّى من طلاب العلم قد تفْلت كلمات!! تُسمع تارةً وتارة؛ يضحك ويمزح يقول: "أنا أمزح مع أصحابي" ، يمزحون بماذا؟ يمزحون بآية؛ يمزحون بحديث؛ يمزحون بحكم شرعي، يستهزؤون بسنة، يقول: "أنا أضحك وأمزح"؛ لا يا عبد الله حذارِ من هذا السفه الموصل إلى الخسارة .

❁ **المسألة الرَّابعة:** مسألة السب والاستهزاء ؛ أجمع المسلمون قاطبة على أن من سب الله، أو سب رسوله ﷺ ، أو استهزأ بالله ، أو استهزأ برسوله ﷺ أو بسنته ، أو بشيء من الثواب والعقاب، إلى آخر ما هنالك؛ فإنه يكون بذلك :

◉ إنْ كان مسلمـًا ؛ يكون مرتداً غليظ الرِّدة .

◉ وإن كان كافراً ؛ فقد غلظ كفره.

◉ وإن كان ذا عهدٍ ؛ انتقض عهده .

هذا مما أجمع عليه المسلمون ، فإن الكفر دركات والعياذ بالله ، ومن أشنع وأقبح تلك الدركات أن يخوض الإنسان بسب الله أو رسوله ﷺ ، أو أن يستهزأ ويسخر بالله أو برسوله ﷺ.

قد يقول قائل: إنَّ ما عليه الكفار من الشرك والكفر أعظم من ذلك! فلا ينبغي أن تُضخَّم الأمور إن وقع من كافرٍ شيءٌ من السب أو السخرية .

والجواب: أن هذا غلط ؛ بل السخرية أو السبُّ لله أو لرسوله ﷺ كفرٌ وزيادة ، وكل ما هم عليه من الكفر أو الشرك تضمنه السب وزيادة . فالأمر أقبح وأشنع ؛ فإنَّ سب رسول الله ﷺ مثلاً يتضمن سَبًا لمرسله ﷻ ؛ وصلى الله على نبينا وسلم ، لأنه ما سُبَّ لشخصه إنما سب لأنه رسول الله ؛ وهذا يتضمن السب لرسالته ، والسب لآيات الله ، والسب للتَّوحيد ، والتَّزيين للشرك ؛ فصار هذا أعظم ما يكون من الكفر.

أضف إلى هذا : أنَّ سب رسول الله ﷺ وتقبيحه في أعين الناس أعظم الفساد في الأرض؛ لأنه يتضمن الصدَّ عن سبيل الله ﷻ وعن الوصول إلى هداه ؛ أتعلمون علمًا موروثًا؟ أتعلمون وحيًا عن الله ﷻ في هذه الأرض من غير طريق محمدٍ ﷺ بعد بعثته؟! فإذا حيل بين الناس وبين هذا الخير والهدى بالسخرية والاستهزاء والطعن والسب أي فسادٍ أعظم من هذا الفساد .

أضف إلى هذا : أن الأذى والضرر الذي يقع على أمة محمدٍ ﷺ بسبِّه أعظم ما يكون من الأذى والضرر ؛ وقد أبان عن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العظيم «الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ» ، أرأيت لو أن

ميتا سُبَّ وطُعن فيه ألا يتأذى أهله ومن يلوذ به ويتضررون؟! إذن كيف بأمة محمدٍ ﷺ الذي رسولها إلى قلوبها أحب إليها من كل شيء خلا محبة الله ﷻ، وهو المفدى بالآباء والأمهات ﷺ !! ألا ينال المسلمين أذىً وضررٌ عظيمٌ بالوقيعة في عِرضه عليه الصلاة والسلام؟ بلى والله.

بل كلما كان الإنسان أشد حبـًا واتباعـًا وتعزيراً لرسول الله ﷺ كان الأذى والضرر الواقع عليه من سب رسول الله ﷺ أو الاستهزاء به أعظم؛ فإنه لا شيء أشدَّ تهييجـًا للغيظ في القلوب المؤمنة من الوقيعة في رسول الله ﷺ. فالأمر عظيم؛ ولذا في «الصحيحين» قال ﷺ: «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ»؛ كعب بن الأشرف يهودي، هو في أصله كافر! لكن متى قال ﷺ «آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ»؟ لما صار يهجو رسول الله ﷺ.

إذن الأمر عظيم؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾[الأحزاب:٥٧]، شيءٌ يؤذي الله ويؤذي رسول الله ﷺ ألا يزعجك يا أيها المؤمن؟! شيءٌ بهذه المثابة أيصح أن يتناوله الإنسان بأطراف أصابعه؟! لا والله؛ بل هذا من المقامات الإيمانية؛ أن يشتد الأمر على المؤمن، ويتغيَّظَ قلبه، ويشتد حنَقُه حين يتناول كافرٌ من الكفار رسول الهدى محمداً ﷺ بشيءٍ من السب والسخرية.

والله إنَّ هذا من المقامات الإيمانية التي ينبغي أن يزن الإنسان نفسه فيها، الأمر والله ليس سهلا، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ

وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح:٨-٩] ؛ التَّعزيرُ: كلمةٌ جامعة لكل معاني نصرة رسول الله ﷺ ومنعه مما يُؤذيه عليه الصلاة والسلام .

إذن هذا مما يجدر -يا إخوتاه- التنبيه عليه والتذكير به . وأبشروا -يا أمة الإسلام- فالله سينتقم لنبيه محمدٍ ﷺ كما انتقم للأنبياء الذين استهزئ بهم من قبل﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام:١٠] ؛ فنحن نتربص بهؤلاء السَّاخرين المستهزئين الذين تناولوا العرض الشريف ، نتربَّص أن ينتقم الله ﷻ من كل من نال عرضه الشريف ﷺ .

والله ﷻ أعلم .

قال المصنف رحمه الله:

فتأمل هذه الشُّبهة؛ وهي قولهم: تُكفرون المسلمين أُناسًا يشهدون أن لا إله إلاَّ الله؛ وأنَّ مُحمَّدًا رسول الله، ويُصلُّون ويصومون. ثُمَّ تأمل جوابها، فإنَّه من أنفع ما في هذه الأوراق .

❁ ❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

ختم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامه عن -الجواب السَّابع- ببيان أهمية ما ذكر؛ ليحفِّز طالب العلم على العناية به ، فإنَّ ما ذكره الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أحسن ما يكون من الجواب عمَّا زعمه هؤلاء الزَّاعمون؛ من أنَّ من قال لا إله إلا الله وصلَّى وصام فإنَّه لا يضره أن يقع في الشِّرك، فمن دخل الإسلام فإنَّه لا يخرج منه ؛ هكذا يزعمون .

فنبَّه الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ما حبرَّه من الجواب، وأنَّه من أنفع ما في هذه الرسالة ؛ حيث إنَّه بيَّن أنَّ الفروق التي ذكروها بين شرك الأولين وشرك المتأخرِّين أنَّها فُروقٌ غيرُ مُؤثِّرةٍ ، هذه هي الخلاصة . بل أبان الشَّيخ أنَّ المتأخرين فاقوا الأولين في فداحة الشِّرك وغِلَظِه ، فالتَّنبه إلى هذا الأمر مُفيدٌ لك يا طالب العلم .

إذن قولهم: «**تُكفِّرون المسلمين أُناسًا يشهدون أن لا إله إلاَّ الله؛ وأنَّ مُحمَّدًا رسول الله، ويُصلُّون ويصومون**» لا شكَّ أنَّه لو وقف الأمر عند هذا الحدِّ لكان تكفير هؤلاء من أعظم الجرائم ، لكنَّ أهل البدع أصحاب أهواءٍ وأهل تلبيسٍ؛ فهم ما اقتصروا على شهادة أن لا اله إلا الله والصَّلاة والصيام؛ وإنَّما وقعوا فيما يُناقض لا إله إلا الله! فصار حالهم كحال الَّذي يتوضأ ثُمَّ يَنقض وُضوءَه، ثُمَّ بعد

ذلك يزعم أنَّه قد توضأ ؛ فنقول له: طهارتك انتقضت ، لم يعد لها وُجودٌ. كذلك الَّذي يأتي بـ(لا إله إلا الله) ثُمَّ ينقضها فإنَّه يبطل حُكمها في حقه ، ولا يكون لها أثرٌ في حقه؛ فينبغي التنبه إلى ذلك .

وأنا أقول: لو لم يكن من جوابٍ عن شُبهتهم الَّتي يُفخمونها ويُعظمونها؛ وهؤلاء أُناسٌ يقولون لا إله إلا الله ويصلون ويقومون ويصومون وأنتم تُكفرونهم كيف يكون هذا الأمر؟ تُكفِّرونهم لمجرد أن يستغيث بغير الله وأن يذبح لغير الله!! نقول: يا أخي ليس هؤلاء بل نقول إنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام لو وقعوا في الشِّرك لكفروا وحبطت أعمالهم - وحاشاهم من ذلك- ؛ هذا ليس كلامي هذا كلام الله ، الله ﷻ في سورة الأنعام بعد أن ذكر جُملةً من الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسَّلام ماذا قال؟ قال: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] . ليس الحديث هُنا مُتوجهاً إلى مُسلمين؛ الحديث مُتوجهٌ إلى أنبياء!! بل سيِّد الأنبياء وإمامهم مُحمدٌ ﷺ ما الَّذي قال الله في حقه؟ ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ لاحظ أنَّ الخطاب مُوجهٌ إلى رسول الله ﷺ فكيف بمن عداه!! مع مُلاحظة أنَّ هذا الخطاب توجه إلى معصومين من الوقوع في الشِّرك ، بالاتِّفاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الوقوع في الشرك، لكن هذا يدلك على خطورة الشرك .

إذا توجه هذا الخطاب بهذه الصورة إلى معصومين فكيف شأن من ليسو معصومين! ممن لا يقارنون بأهل هذه الرتبة العظيمة والاصطفاء الكبير؛ الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام.

أنا أقول: لو لم يكن من دليلٍ ينقض ما ذكروا إلاَّ هذا والله لكفى ؛ فكيف والأدلة والإجابات كثيرةٌ كما ساق المؤلف -جزاه الله عنا خيراً- وكما سيأتي معنا أيضًا .

قال المصنف رحمه الله:

ومن الدليل على ذلك أيضًا ما حكى الله ﷻ عن بني إسرائيل مع صلاحهم، وعلمهم أنهم قالوا لموسى: "اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة" ، وقول أُناسٍ من الصحابة ﭫ: «اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواط» فحلف النبي ﷺ أن هذا مثل قول بني إسرائيل «اجعل لنا إلهًا».

قال الشارح وفقه الله:

هذا جوابٌ ثامنٌ، يقول: «**ومن الدليل على ذلك أيضًا**»؛ من الدليل على أنَّ من وقع في الشِّرك فإنَّه يرتد بذلك عن الإسلام، وأنَّ ما ذكروا من أنَّ المسلم لا يكفر، أو إنَّه لا يكفر حتَّى تجتمع كل أو جُلُّ المكفرات أنَّ هذا باطلٌ، بدليل «**ما حكى الله**» يعني: قصَّ الله ﷻ لنا من شأن بني إسرائيل مع موسى عليه الصلاة والسلام؛ حينما أتوا على قومٍ يعكفون على أصنام لهم فسألوا نبي الله موسى أن يجعل لهم إلهًا كما لأولئك آلهةٌ، كأنَّهم استحسنوا هذا، وطلبوا من موسى عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم إلهًا يتوجهون إليه بالعكوف كما أولئك يفعلون؛ فأنكر عليهم ذلك موسى عليه الصلاة والسلام وقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فبين أنَّ سبب طلبهم هذا هو الجهل بالتَّوحيد الَّذي هو حق الله ﷻ عليهم. وكذلك حصل من بعض الصحابة الَّذين كانوا حُدثاء عهدٍ بجاهليةٍ مع رسول الله ﷺ في القصة المعروفة بقصة ذات أنواطٍ الَّتي رواها لنا أُبو واقدٍ الليثي ﷺ.

قال: «**وقول أُناسٍ من الصحابة اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواطٍ**»؛

وجه الجمع بين النَّصين: كون النبي ﷺ بيَّن في هذا الحديث أنَّ مقالة هؤلاء كمقالة أولئك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ما حكى الله ﷻ عن بني إسرائيل مع صلاحهم وعلمهم**»؛ وصف هؤلاء السَّائلين «**اجعل لنا إلهًا**» بالعلم **يُخرَّج -والعلم عند الله- على أحد وجهين:**

۞ **إمَّا بأنَّ المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ **أراد بني إسرائيل في الجملة**، وليس أعيان هؤلاء السائلين؛ يعني: ليس السائلين على وجه الخصوص، إنَّما بنو إسرائيل في الجملة؛ وفيهم الأنبياء والعلماء والصالحون، ولا شكَّ أنَّ في بني إسرائيل في ذاك الوقت علمٌ وصلاح وخيرٌ كثير حتَّى إنَّ الله ﷻ فضَّلهم في وقتهم على العالمين.

۞ **أو أن يكون مُراده** رَحِمَهُ اللَّهُ **أنَّهم أهل صلاحٍ وعلم بالنِّسبة إلى غيرهم من أهل زمانهم** من أهل مصر ونحوهم، فهؤلاء آمنوا واستجابوا لموسى -عليه الصلاة والسلام- وخرجوا معه.

أمَّا أن يكون المقصود وصف أولئك السَّائلين بالذَّات بأنَّهم من أهل العلم؛ فهذا في الحقيقة فيه نظر، بل ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «إغاثة اللهفان» أنَّ هؤلاء أهل جهلٍ قال: «وأيُّ جهلٍ فوق هذا! فالعهد قريب، وهلاك فرعون وقومه أمامهم، ثُمَّ يسألون مخلوقًا أن يجعل لهم إلهًا مخلوقًا!»، يقول: أي جهلٍ أعظم من هذا الجهل! وموسى عليه الصلاة والسلام قد وصفهم بذلك فقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، فالَّذي يبدو -والله أعلم- أنَّ مُراده واحدٌ من

هذين .

أمَّا حديث ذات أنواطٍ؛ حديث أبي واقدٍ الليثي قال: «**فحلف ﷺ أنَّ هذا مثل قول بني إسرائيل اجعل لنا إلهًا**» ؛ فأنكر النبي ﷺ مقالتهم؛ وأغلظ عليهم وقال لهم: «الله أكبر إنَّها السُّنن ، قلتم والَّذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة؛ لتركبن سَنَنَ -أو سُنَنَ- من كان قبلكم» ، فأغلظ النبي ﷺ النكير عليهم ، وبيَّن لهم أنَّ هذه المقالة مقالةٌ مُنكرة ، ولم يقل لهم "أنتم مُسلمون، وتشهدون أن لا إله إلا الله، وصحِبتم رسول الله ﷺ ؛فليس عليكم أن تقولوا ما تشَاءُوا وأن تفعلوا ما تشَاءُوا، فمن دخل في الإسلام فإنَّه لا يخرج منه مهما قال أو فعل أو اعتقد" . أرأيتم رسول الله ﷺ كان منه هذا؟ الجواب؟ "لا" ، أنكر وقال لهم مقالتكم كمقالة بني إسرائيل لموسى .

إذن: المقام مقامٌ عظيمٌ ، والمسألة ليست كما يتوهم أولئك المغرورون .

قال المصنف رحمه الله:

ولكن للمشركين شُبهةٌ يُدلون بها عند هذه القصة؛ وهي أنَّهم يقولون: "إنَّ بني إسرائيل لم يكفروا، وكذلك الَّذين قالوا اجعل لنا ذات أنواطٍ لم يكفروا .

فالجواب أن تقول: "إنَّ بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك، وكذلك الَّذين سألوا النبي ﷺ لم يفعلوا، ولا خلاف أنَّ بني إسرائيل لو فعلوا ذلك لكفروا ، وكذلك لا خلاف في أنَّ الَّذين نهاهم النبي ﷺ لو لم يُطيعوه واتَّخذوا ذات أنواطٍ بعد نهيه لكفروا، وهذا هو المطلوب.

قال الشارح وفقه الله:

أسأل الله ﷻ أن يجزي المؤلف عنا خيرا ؛ فإنَّه يسوق لنا العلم شيئًا فشيئا، يتدرج معنا، يُبين لنا الدليل ثُمَّ يستحضر أنَّ المخالف قد يُورد شيئًا يقدح في الاستدلال بالدليل؛ فيذكر الإيراد ثُمَّ يعود مُكِرًّا عليه بالنَّقد ؛ وهذا دليلٌ على سَعَةِ علم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ وعلى حرصه على بيان التَّوحيد، ورفقه بالنَّاس ، وسعيه السعي الحثيث في أن يسْلموا من أوضار الشِّرك ، لقد نصح وبيَّن جزاه الله خيرا .

يقول: « ولكن للمشركين شُبهةٌ يُدلون بها عند هذه القصة » ؛ إذن تنبه -يا أيُّها الموحد- كُن على ذُكْرٍ ، فإنَّ المسألة في مُقارعة ومُحاججة هؤلاء المشركين ليست حفلة يدخلها الإنسان وهو يضحك ويستمتع؛ المسألة تحتاج اهتمام وإدراك؛ لأنَّ المُقام فيه أخذٌ وعطاءٌ؛ والقوم عندهم شبهٌ ، إذن كُن على درايةٍ ، لمَّا تتكلم بشيء تستدل بشيء لابدَّ أن تُعمل ذهنك فيما قد يُورد عليك؛ فتحسن صياغة الجواب عنه؛ هذا لمن أراد أن يكون من دُعاة التَّوحيد

المُسَدَدين الَّذين ينفع الله ﷻ بدعوتهم ؛ وإلاَّ فالكلام الإجمالي والكلام العام - كما يُقال- ورمي الكلام على عواهنه، والاستدلالات الضعيفة هذه أمرها سهل، لكن كون طالب العلم وكون داعيةِ التوحيد يتعب ويُحَضِّر ويهتم هذا لا شكَّ أنَّه يحتاج إلى جُهدٍ ، ولكن من بذل جُهده في طلب العلم والنَّصيحة للمسلمين سيعينه الله ﷻ، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

هذا الإيراد من المخالفين هو كونهم يقولون: "هذا الدليل لنا وليس لكم"؛ قُلنا ما وجه ذلك؟ قالوا: إنَّ بني إسرائيل لم يكفروا ، وكذلك الَّذين قالوا اجعل لنا ذات أنواطٍ لم يكفروا" ؛ ما كفَّرهم النبي ﷺ ولا موسى من قبل ، ولا حكما عليهم على هؤلاء وهؤلاء بالردة ، ولا أمروهم بتجديد الإسلام ، ظاهروا النُّصوص أنَّهم ما ارتدوا ، وأنتم تُكفرون بمثل هذه الأفعال! إذن الدَّليل لنا وليس لكم .

يقولون: "أنتم تزعمون أنَّ من فعل كذا وكذا فقد كفر" ثُمَّ تُورد لنا هذا الدليل في الآية والحديث ، لكن في الآية والحديث ليس هُناك تكفيرٌ؛ إذن من يفعل هذه الأشياء فإنَّه لا يكفُر؛ وهذا الَّذي نقوله.

والجواب عن هذا: أنَّ المقام ها هُنا -يا إخوتاه- مقامُ شركٍ قولي أو عملي؟

دعونا نرجع قليلاً: بنو إسرائيل مروا على قومٍ ماذا يصنعون؟ «يعكفون» هذا فعل ولا قول؟ فعل ، والمشركون الَّذين مَرَّ بهم النبي ﷺ «وللمشركين

سِدرَةٌ يعكفون عندها»؛ الَّذي كان من أولئك ما هو فعل ولا قول؟ كان عُكوفًا وتبركًا ، ليس قولاً.

إذا كان المقام مقامَ شركٍ عملي وهم لم يعملوا ، إذن لم يكفروا؛ لمَّا كان المقام والمَوْرِدُ ها هنا موردَ شركٍ عمليٍ ، هل هم عملوا فعلوا! عكفوا وتبركوا؟ الجواب: لا؛ إذن لم يكن ثمَّة ما يقتضي التَّكفير ، ما وُجد السَّبب الَّذي يقتضي التَّكفير.

يقول قائل: إذن لماذا أُورد هذا الدليل أصلاً؟

الجواب: أورد الدليل على تقدير الفعل؛ الدليل يدل على أنَّهم لو فعلوا لكفروا؛ وهذا هو المطلوب ، نحن لا نبحث الآن في كون هؤلاء أو هؤلاء قد كفروا ، ولا نستدل بهذا ولا نقول بهذا؛ إنَّما نقول الدليل -سواءً في الآية أو في الحديث- يدل على أنَّهم لو فعلوا لكفروا ، إذن: المُسلم الَّذي يفعل الشرك يرتد؛ وهذا هو المطلوب الَّذي نريد أن نصل إليه.

أنظر ماذا يقول المؤلف: «**فالجواب أن تقول: إنَّ بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك، وكذلك الَّذين سألوا النبي ﷺ لم يفعلوا**»؛ لم يفعلوا الشِّرك؛ هُم مُجرد ما كان منهم قول يعني: طلب ، وهذا القَدر لا يُكفِّر ، متَّى ما كان المقام مقام شركٍ عمليٍ فمجرد طلبه ليس كُفراً ، **انتبه لهذا**: متى ما كان المقام مقام شركٍ عمليٍ فإنَّ مُجرد طلبه؛ التكلم القول هُنا ليس كفراً.

قد يقول قائلٌ: لكن أليس طلبهم دليلاً على أنَّهم عزموا على الكفر؛ والقاعدة أنَّ العزم على الكفر كفرٌ؟

أُجيب فأقول: حاشا وكلاَّ ما كان منهم عزمٌ على الكفر ، ولا يُشْعِرُ شيءٌ من ألفاظ الدليلين بهذا ، إنَّما كان طلبهم مُنزلاً منزلةَ الاستفتاء؛ وهذا القدر لا يُكَفِّر.

إذن: لماذا الإغلاظ عليهم؟

الجواب: أنَّه لا تلازم بين الإغلاظ والتَّكفير؛ هو طلبٌ باطل ومقالةٌ خاطئةٌ لا شك؛ لكن بحثنا ليس في هذا ، بحثنا في كون هؤلاء قد كفروا بمجرد الطلب ، ونحن نقول: إنَّه لا تكفير بهذا ، يعني: هم ما عكفوا وتبركوا بعد أن أخبرهم النبي ﷺ ؛ إنَّما قالوا اجعل لنا إلهًا، اجعل لنا ذات أنواطٍ؛ فهم ما بادروا ولا باشروا الكفر، وإنَّما طلبوا ذلك ، وهذا القدر ليس بمُكفرٍ .

إذن الاستدلال استدلالٌ مُستقيم؛ وهو على فرضٍ وتقديرِ فعلهم ، فإنَّه لا خلاف بأنَّهم لو فعلوا بعد أن بيَّن لهم النبي ﷺ فإنَّهم يكفرون ، لا شكَّ ولا ريب في هذا ، وهذا القدر كافٍ في بيان أنَّ المسلم يرتد بفعل الشِّرك كما يرتد بالقول الشركي وكما يرتد بالاعتقاد الشركي .

إذن: عدم التَّكفير ها هنا ليس لكونِ الفعل المُكفِّر لا يُكفِّر كما يزعمون ، إنَّما كان ذلك لشيءٍ آخر وهو كون الفعل الشركي ما حصل؛ هذا ما أجاب به المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسأبين جوابـًا آخر بعد قليل.

وعلى كل حال كلام أهل العلم في هذا الحديث كلامٌ طويل، وأنا إنَّما يُهمني فقط أن نفهم كلام الشيخ في السياق الَّذي أورده الشَّيخ ؛ فالشيخ الآن

أورد الدليل وفهمنا لِم أورد الدليل، وأورد إيرادَهُمْ وأجاب عن إيرادِهِمْ؛ وكل ذلك لا شك أنَّه قد كان كلاما مُستقيما جاريـًا على سَنَنِ العلم، وإلاَّ ففي الحديث نفسه وفي توجيهه -بغض النَّظر عن كلام أولئك واستدلالهم وإيرادهم- الكلام فيه على كل حال طويل.

ثمَّة توجيهاتٌ عديدةٌ لهذا الحديث :

۞ **أولها** ما سمعت وهو: أنَّهم طلبوا شركًا فعليـًا فأنكر النبي ﷺ عليهم ذلك؛ وعليه فهم لم يكفروا .

۞ **والتَّوجيه الثَّاني** -وهو الذي سيشير إليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد قليل- أن هذا الطلب شركٌ أكبر ، لكنهم لم يكفروا لوجود مانع الجهل ، لكونهم حُدَثَاءَ عهدٍ بجاهلية ؛ أسلموا عن قريب وما كانوا يدرون فعذرهم النبي ﷺ وهم استجابوا وانصاعوا .

۞ **توجيهٌ ثالثٌ**: أنَّ الذي كان منهم شركٌ أصغر وليس شركـًا أكبر ، وهذا الذي يُفهم من كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسائل كتاب التوحيد ، وكذلك يُفهم من كلامه في عدة رسائل في رسائله الشخصية؛ وبعضها في «الدرر السَنِيَةِ»؛ ووجه ذلك: أنَّ الطلب توجَّه لأن تكون ذات أنواطٍ سببـًا للبركة لا مانحةً للبركة ، ومن تبرك على وجه السببية مع اعتقاد أنَّ المبارِك هو الله فهذا شركٌ أصغر .

۞ **ووجهٌ رابع**: وهو أن الذي كان منهم لا هذا ولا هذا؛ إنما كان منهم إرادة مشابهة المشركين في التعليق، لا في التبرك ولا في العكوف؛ يريدون شجرة

يعلقون كما أولئك يعلقون دون إرادة تبركٍ ولا عكوف ، ومشابهة المشركين من حيث هي لا شك أنَّها أمرٌ منكر؛ ولذا أنكر النبي ﷺ عليهم؛ وهذا ما مال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «اقتضاءُ الصراطِ المستقيم» .

۞ **وتوجيهٌ خامس**: وهو أن الصحابة ﷺ ظنوا بسؤالهم رسول الله ﷺ أنه يدعو الله فيجعل الله البركة في هذه الشجرة ، يعني: كأنهم سألوا النبي ﷺ أن يدعو الله أن يجعل في هذه الشجرة بركةً تُلتَمَس . وهذا أضعف الأوجه، ولا يتناسب مع قوله ﷺ: «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى» .

فالوجه الأول هو أقوى الأوجه والعلم عند الله ﷻ .

قال المصنف رحمه الله:

فالجواب أن تقول: "إنَّ بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك، وكذلك الَّذين سألوا النبي ﷺ لم يفعلوا، ولا خلاف أنَّ بني إسرائيل لو فعلوا ذلك لكفروا؛ وكذلك لا خلاف أنَّ الَّذين نهاهم النبي ﷺ لو لم يُطيعوه واتَّخذوا ذات أنواطٍ بعد نهيه لكفروا، وهذا هو المطلوب [١١]، ولكن هذه القصة تفيد أنَّ المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها فتفيد التعلم والتحرز، ومعرفة أن قول الجاهل (التوحيد فهمناه) أن هذا من أكبر الجهل ومكائد الشيطان.

وتفيد أيضا أن المسلم المجتهد الذي إذا تكلم بكلام الكفر وهو لا يدري فنُبِّه على ذلك وتاب من ساعته أنه لا يكفر كما فعل بنو إسرائيل، والذين سألوا النبي ﷺ.

وتفيد أيضا أنه لو لم يكفُر فإنه يغلظ عليه الكلام تغليظا شديدا كما فعل رسول الله ﷺ.

قال الشارح وفقه الله:

أفادنا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخمسِ فوائد من حديث ذات أنواط:

أولها: قوله «أنَّ المسلم بل العالم قد يقع في أنواعٍ من الشرك لا يدري عنها»؛ الخطأ قد يقع فيه الفاضل، هؤلاء صحابةٌ من صحابةِ رسولِ الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ بينهم! ومع ذلك كان منهم ما كان من هذا الطلب وتلك المقالة؛

(١١) ما هو المطلوب الذي أراد إثباته؟ أن المسلم يرتد بفعل الشرك.

إذن: الخطأ قد يقع ، بل قد يقع الخطأ الكبير ، بل قد يقع الشرك ، فالمسلم قد يقع منه الشيء الذي يخالف الإسلام والتوحيد. إذن المسلم من حيث هو ليس معصومًا فالخطأ يقع؛ ولماذا تستكثرون يا أيها القبوريون وقوع هذا الخطأ ووقوع الشرك!! فالأمر يقع .

والعجيب أنَّ القوم حينما يقولون هذا الدليل لنا لا علينا ، هم يعلمون في أنفسهم أنهم مبطلون، لماذا؟ بغض النظر عن مسألة التكفير؛ النبي ﷺ أنكر المقالة أو لم ينكرها؟ أنكرها وأغلظ في الإنكار ، فهل أنتم تفعلون؟ دعونا من التكفير ، دعونا في النهي والإنكار عن أفعال الشرك وأقواله ؛ أنتم يا أيها المنظرون للقبورية تنكرون كما أنكر النبي ﷺ ؟ وتنهون وإذا جاء شخصٌ يريد العكوف عند قبر أو يتمسح بسياجه وأستاره هل تقولون له الله أكبر إنها السُنَن؟ يفعلون هذا؟ أو أنهم يزينون ويحثون؟ فلا شك أنَّهم أهل هوى .

المقصود أن المسلم -قال الشيخ:« **بل العالم** » - قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها ، وفي الحقيقة يبدو -والله أعلم- أن مراده بقوله:« **بل العالم** » يعني من حيث ما يشار إليه يوصف بالعلم وأنه من العلماء لكنَّ الذي يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها لا يكون والله أعلم عالمـًا بالتوحيد ، من كان عالمـًا بالتوحيد ورزقه الله ﷻ القَبول والانقياد فإنَّه لا يحصل منه ذلك والعلم عند الله ، إنَّما أناس يوصفون بالعلم وقد يكونون فعلاً علماء في الفقه، في اللغة، في التفسير! لكنهم مع الأسف ليسوا علماء في التوحيد ؛ فهؤلاء يقعون في أنواع من الشرك؛ وهذا حاصل ، وكم رأى أهل العلم بالتوحيد من ذلك نماذج، أناس

يوصفون بالعلم والإمامة وقد وقعوا في أشياء، هم أهل باع في فنونهم ، وأهل ذكاء وتآليف، ولكنهم لم يكونوا على علمٍ محقّقٍ بالتوحيد فجاءت منهم أشياء كثيرة تخالف التوحيد. والنماذج في هذا كثيرة ويكفي هذه الإلماحة، أما من كان من أهل العلم بالتوحيد لا أظن أنَّ هذا الأمر يقع.

إذن مراد الشيخ فيما يبدو والعلم عند الله بقوله: «**بل العالم**» يعني: من حيث ما يُوصَف، من حيث ما يشار إليه ، ليس العالِم بالتوحيد، إنَّما العالم في فنه قد يقع منه ذلك، وسبب ذلك الجهل بالتوحيد ؛ فهذه هي الفائدة الثانية التي عقَّب بها.

إذا كان الأمر بهذه المثابة إذن ماذا نصنع؟ قال الشيخ: «**فتفيد التعلم والتحرز**» ، استفدنا من القصة أنَّه لابد أن نتعلم التوحيد ، ولابد من التحرز ، لا بد من التفطن والاحتياط والاهتمام بهذا المقام العظيم ، المسألة ليست سهلة! تعلُّم التوحيد ؛ فإنَّ الزهد في تعلم التوحيد يوقع في ضده ، وما هلك من هلك إلا لأنه لم يعطه قدره؛ ما اهتم بالتوحيد تعلمًا ودراسةً وعنايةً فوقع أكبرُ خطأٍ على وجه الأرض وهو الشرك ، لا ذنب أعظم منه ، أي الذنبِ أعظم؟ قال ﷺ : «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» هذا هو الشرك.

ولذا -يا إخوتاه- الزهد في تعلم التوحيد أعظم مصيبةٍ ضُرب بها العالم الإسلامي في العصور المتأخرة ، وما كانت كثيرٌ من مظاهر الشرك مخالفاتِ العقيدة أن تقع؛ لو كان اهتمام وكان هناك حرص على تعلم التوحيد ؛ التوحيد هو الأول والأهم و الأوجب ، تعلم التوحيد هذا ليس شأن طلاب العلم فقط،

إنما هو واجبٌ فرضٌ على العالِم والجاهل، والذكر والأنثى، والمُحرِم والمُحل؛ كل أحد واجبٌ عليه أن يتعلم التوحيد؛ لأنَّ النجاة معلقةٌ به، لكن من نظر في أحوال الناس وهذا الذي يقع من العزوف والزهد في تعلم التوحيد يَعْظم عنده الشعور بالغربة ، فلا غربة أعظم مِن غربة مَن عرف التوحيد وقَدَرَهُ قَدْرَهُ ، لا غربة أعظم من هذا.

قال الشيخ: «**فتفيد التعلم والتحرز**» وفي نسخة: «**تفيد التعليم**» ، وكلاهما مطلوب؛ أن نتعلم وأن نُعلم كلاهما مطلوبٌ من المسلم أن يَتَعلم التوحيد ثم أن يُعلِّم التوحيد.

قال -**وهذه فائدةٌ ثالثة**-: «**ومعرفة أن قول الجاهل التوحيد فهمناه أن هذا من أكبر الجهل ومكائد الشيطان**» إي والله صدق ؛ هذه الكلمة «التوحيد فهمناه»، «التوحيد معروف»، «نحن نَعرف التوحيد» هذه الكلمة -يا أخوتاه- **تُقال على وجهين:**

- تُقال على وجه التزهيد في تعلُّم التوحيد .
- و تقال على وجه الزهد في تعلُّم التوحيد.

أما الأول: فيقع من عدوِ التوحيد؛ **وأمَّا الثَّاني**: فيقع من جاهلٍ بقدرهِ .

وكِلا هذين قد واجهه الشيخ الإمام المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ هذه الكلمة «التوحيد معروف» تقال على سبيل التزهيد ، يريد أن يحول بين الناس وبين تعلم التوحيد، يزهِّدهم "يا جماعة الموضوع ليس بهذه المثابة ،ما يستحق أن تضيعوا

أوقاتكم فيه" ؛ هذا يفعله عدو التوحيد .

ولو رجعت إلى «الدُرَر السَنَية» في الجزء الأول لوجدت رسالةً للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بيَّن فيها حال أحدِ أعداء التوحيد الذين ألَّبوا على دعوة التوحيد وهو: «**ابن مُوَيس**» ؛ رجل من أعداء دعوة التوحيد اسمه «**ابن مُوَيس**» نقل عنه الشيخ كلمة كان يزهِّد فيها ويقعد على طريق تعليم التوحيد بها ؛ كان يقول للناس: «بُنَيات حِرْمة[١٢] وعيالهم يعرفون التوحيد فضلاً عن رجالهم»؛ إذن ابن عبد الوهاب هذا يضحك على الناس الموضوع واضح وسهل؛ ولا يستحق هذا كله ، كل الناس تعرف التوحيد ، ما مراده؟ أن يزهد الناس بالتوحيد.

كذلك الأمر لو رجعت إلى الجزء العاشر في «الدُرَر السَنِية» لوجدت رسالةً من الشيخ إلى ابن سُحَيم أيضا أحد أعداء التوحيد المُألِّبين عليه وعلى دعوته ، راسله الشيخ برسالة ويقول: «يبلغني أنك تقول أنا أعرف التوحيد ؛ أنت الذي تعرف التوحيد؛ أنت وأبوك تقعون في أنواعٍ من الكفر تدرون أو لا تدرون»، وساق له جملة من المكفرات التي يقعون فيها؛ ثم تتبجح تقول نحن نعرف التوحيد!! وأنتم الجهال المعاندون للتوحيد .

أو ربما تكون هذه الكلمة من شخصٍ أُتِيَ من جهة غفلته وجهله وأنه ما عرف قدر التوحيد ؛ وهذا قد واجهه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كما بين الحفيد الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ مفتي الديار السعودية في وقته في شرحه على هذا الكتاب أن

---

(١٢) حِرمة: بلدة في نجد .

هذه الكلمة بلَغت الشيخ من بعض تلاميذه أو المراسلين يعني الذين كانوا يراسلونه ، يعني كأنهم رأوا أن الشيخ أكثر من الكلام في التوحيد يريدون شيئًا آخر ، يريدون كلام آخر في الفقه يريدون في الحديث ، إلى متى توحيد توحيد توحيد!! فبين الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذه المقالة صادرة عن جهل وأنَّها من مكائد الشيطان.

وذكر الشيخ ابن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فائدة وهي: أن بعض التلاميذ -كأن الشيخ لاحظ منهم هذا الملحظ - رأى منهم شيئًا من الزهد في تعلم التوحيد؛ فقال لهم يومـًا: إنه قد وُجِد رجلٌ وقع على أمه يجامعها -نعوذ بالله- فكان منهم استعظام واستكبار لهذا الأمر ، ثم تركهم ، ثم عاد إليهم بعد أيام وقال: إنه وُجِد رجلٌ مريض فنُصح أن يذبح دُيَيكًا - تصغير ديك- للولي الفلاني لأجل أن يُشفى؛ فوجد أن ردة الفعل لم تكن كتلك ، فبين لهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الأول أتى كبيرةً من الكبائر لكنه لا يزال مسلمـًا ، بعكس الثاني فإنه أتى بما يضاد الإسلام .

وكثيرٌ -يا إخوتاه- في هذا العصر من الفريقين ممن يزهِّد في التوحيد من أعداء التوحيد "أزعجتمونا من كثرة كلامكم في التوحيد، ما عندكم إلا توحيد؟!" سبحان الله ما يدري هذا الجاهل أن القرآن من أوله إلى آخره في التوحيد ، وأنه أهم شيءٍ في القرآن والسنة، وأعظم شيءٍ في القرآن والسنة، وأكثر شيءٍ في القرآن والسنة.

وطرفٌ آخر جهال مساكين يظنون أنهم على شيء؛ يقول يا جماعة هناك مبالغة التوحيد أمره سهل عشر دقائق تفهم التوحيد ، ما يحتاج الأمر ، ماهو

التوحيد! ربوبية، ألوهية، أسماء وصفات، انتهينا -يا أخي لماذا المبالغة هذه! .

التوحيد إن شئتَ أن تُجمله فإنه يمكنك أن تُجمله في أقل من عشر دقائق ؛ لكن العلم التفصيلي بالتوحيد هو النَّافع، وهذا لا تكفيه لا عشرة ولا عشرين ولا مئة ولا أكثر ، الأمر يحتاج إلى زمنٍ مديد، وجهدٍ كبير . التوحيد له تفاصيل كثيرة فيُحتاج إلى تعلُّمها ، ويحتاج إلى التذكير به فإنَّه قد يُنسى والمقام ليس سهلا . ثم التوحيد له معارِضات، ومضعِفات، ومنقِصات، ونواقض؛ وما أكثرها.

إذن السبب الأهم والتوفيق بيد الله من قبل ومن بعد هو التعلم ؛ من كان على علم فقد حاز السبب الذي يبصر به الحق ، ويسلم من الوقوع في العطب ، وإلا فإن البعيد عن التوحيد ما أسهل أن يقع ، لو مشيت يا رعاك الله في طريقٍ كثير المعاطب وأنت جاهلٌ به في ظلامٍ دامس تمشي فما أقرب أن تسقط ، بعكس إذا كنت ذا خبرةٍ وعندك بصرٌ وبصيرة فإنَّك إن مشيت في هذا الطريق تسلم بتوفيق الله.

وإذا كان هذا الكلام -يا إخوتاه- يقال فيما مضى في عهد الشيخ وفيما قبله وفيما بعده، فإنَّ الأمر في هذا العصر ينبغي أن يضاعف أكثر من ذلك بكثير؛ لأنَّ الخرق قد اتسع؛ مضعفات، ومنقصات، ونواقض، والصوارف عن التوحيد في هذا العصر؛ والله إنها كثيرة بل كثيرةٌ جداً، والله إنَّ الإنسان ليزداد يقينـًا أن محمدًا رسول ﷺ ؛ إي والله، لأنه سيتيقن من صدقه عليه الصلاة والسلام حينما قال: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِى فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا»، سيعلم صدقه حينما يسمع

قوله: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ؛ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِى كَافِرًا ، أَوْ يُمْسِى مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا » .

ماذا تقول في هذا العصر الذي انفجرت فيه أسباب الشر وفُتحت أبوابٌ بل فُتحت بحار مائجة من الفتن والضلالات على الناس!! يفتح الإنسان صفحة في وسائل التواصل وإذا به يُصدم بشبهة عظيمة من شبه القبوريين ، من جنس هذه التي ندرس أو غيرها ، فإذا أغلق وفتح صفحة ثانية يفاجئ بشبهة من شبه الروافض ، وما أكثر تلبيساتهم ، وما أكثر الذين وقعوا في لَبس بسبب تلك التلبيسات . ولا ينفك من ترْك هذا حتى يُصدم بتغريدة أو صفحة أو موقع ينشر الإلحاد واللادينية ؛ وهذا بحرٌ لا ساحل له ، ثم لا ينفك أن يُصدم بشبهة من شبه التنويريين العقلانيين الزنادقة الذين يضربون من الإسلام أساسه ، ثم يفاجأ بعد ذلك بشبهة من شبه القرآنيين، ولهم تيار موجود وأثَّر على عقول كثيرٍ من الناس، ثم يفاجأ بشُبه من غلاة التكفير ، وشبَه من القاديانية ، وشبه من العَلمانيين ، وشبه من الليبراليين ، وشبَه من الإباضية ، وشبه من أهل الفلسفة القديمة، أو من أهل الفلسفة الحديثة، أو من أهل فلسفة الطاقة الوثنية أو غيرها؛ وحدِّث ولا حرج ، لو شئت أن استرسل لاسترسلت.

إذن أمواج هائلة والله –يا إخوتاه– من الفتن التي تضاد التوحيد والاعتقاد ، وهذا الذي أتكلمه –يا إخوتاه– واقعٌ لا خيال، وحرِّك تراه ، يُنبِيكَ عن صدق كلامي كثرة المتهوِّكين، والمتذبذبين، والمتشككين، بل والناكصين –نسأل الله السلامة والعافية– الأمر عظيم مسائل التواصل ، والفضائيات ، والشبكة،

والإذاعات، والكتب، أشياء عظيمة جداً؛ وربما كان الأمر يتعلق بشرورٍ أقل من ذلك؛ وأنا لا أريد أن استرسل في بيانه؛ ولست أقول هلك الناس -لا والله- ولست أقول إنَّه لا خير لا والله ، بل الخير كثير ولله الحمد ، والشر كثير .

إذن كن متنبهًا -وهذا الخطاب أوجهه لك يا طالب العلم يا أيها الداعية- حتى تعرف واقعك ، ثم أن تنهض بأداء الأمانة الواجبة عليك ؛ التوحيد هو رقم واحد منك اهتمامًا في التعلم، واهتمامًا في التعليم، واهتمام في الدعوة ؛ مهما كان تخصصك، ولو كنت في اللغة، ولو كنت في الأدب، ولو كنت في البلاغة، ولو كنت في التفسير، ولو كنت في الفقه، ولو كنت في أصول الفقه، ولو كنت في أي تخصص، بل لو كنت طبيبًا أو مهندسًا أو عاملاً في مصنع؛ التوحيد لابد منه لتسْلم ولتكون سببًا في سلامة غيرك ، أنت مهدد في نفسك ، أنت مهدد في أسرتك ، أنت مهدد في قرابتك ، أنت مهدد في إخوانك المسلمين.

بعد كل هذا يقال التوحيد واضح ومفهوم ولا حاجة!! يا عبد الله اتق الله؛ الشُبه اليوم تتوجه إلى كل شيء ، في وجود الله شبه؛ في ألوهية الله شُبه ، في أسمائه وصفاته شبه ، في نبوة نبينا محمدٍ ﷺ شبه ، في اليوم الآخر شبه ، في القَدَر شبه ، في الملائكة شبه، في باب الاستدلال شُبه، في مرجعية المسلم العلمية شبه ، وأشياء وأشياء وأشياء ؛ بعد كل هذا نقول: والله التوحيد واضح ولا حاجة أن نهتم؛ التوحيد فهمناه !!. إذن -يا إخوتاه- حذارِ ؛ خذوا هذه النصيحة التي ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ناصحٍ مجرب ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «**ومعرفة أنَّ قَولَ الجاهل: التوحيد فهمناه؛ أن هذا من أكبر الجهل، ومكائد الشيطان**». والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله:

وتُفيد أيضًا أنَّ المسلم المجتهد الَّذي إذا تكلم بكلام الكفر وهو لا يدري فنُبه على ذلك وتاب من ساعته؛ أنَّه لا يكفر كما فعل بنو إسرائيل، والَّذين سألوا النبي ﷺ .

قال الشارح وفقه الله:

وقفنا عند الفوائد التي استنبطها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قصة حديث ذات أنواط؛

وذكرنا أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر خمس فوائد:

❁ **الفائدة الرابعة منها** قال: «**وتفيد أيضا أن المسلم المجتهد**» أي مجتهدٌ في معرفة الحق وفي العمل به، وليس المقصر «**إذا تكلم بكلام الكفر وهو لا يدري**» علِمنا أنه لا يدري أنه مُحَرَّم هذا القدر كافٍ؛ إذا لم يكن يدري أنَّه مُحَرَّمٌ فإنَّ هذا مما يُعذَر به، أمَّا إذا علِم أنَّه محرمٌ ولكن لا يظن أنَّ هذا التحريم يصل إلى درجة الكفر فهذا ليس بعذرٍ، يكفي أن يعلم أنَّ الله ﷻ حرَّمَ ذلك كما ذكرنا هذا فيما مضى.

قال: «**فنبِّه على ذلك وتاب من ساعته أنَّهُ لا يَكفُر كما فعل بنو إسرائيل والذين سألوا النبي ﷺ**»؛ وهذا كما أشرت لك في الدرس الماضي جوابٌ ثانٍ، أو توجيهٌ ثانٍ أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لحديث ذات أنواطٍ.

◉ **ذكرنا أنَّ الجواب الأول**: أنَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ما فعلوا الكفر؛ ما صدر منهم مُكَفِّر؛ لأنَّ الكُفر في حالتهم أو في تلك الحالة الَّتي هي بساط ذاك الحديث

وتلك القصة كان كفراً عمليـاً، وهم ما فعلوا شيئـاً ، وإنَّما مجرد طلب يُنَزَّل منزلة الاستفتاء.

◉ **الجواب الثاني** : هو على تسليم أنَّ تلك المقالة كُفرٌ ، مُجرد هذا القول الَّذي قالوا هو كفرٌ؛ لكنهم ما كفروا لوجود المانع ، والمانع هو جهلهم ؛كونهم كانوا حدثاء عهدٍ بجاهلية فما علِموا ولا أدركوا أنَّ مثل هذه المقالة وأنَّ مثل هذا الطلب لا يجوز ، فصدر منهم ما صدر ، والنبي ﷺ ما أجرى أحكام الرِّدة عليهم لأنهم كانوا جهالاً ، نُبِّهُوا فَتَنَبَّهُوا ، نُهوا فانتهوا.

ويقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا مما يستفاد من هذا الحديث: «أن الإنسان إذا تكلم بكلمة الكفر فنُبه من ساعته فانتهى فإنَّه لا يكفر بذلك».

ومسألة الجهل وكونه عُذراً أو ليس بعذر؛ الَّذي ينبغي فيها التَّنبه والتَّفصيل ؛ فالجهل لا يصلح إطلاق القول بأنَّه عُذرٌ مُطلقـاً ، كما أنَّه لا يَصلُح إطلاق القول بأنَّه ليس بعذرٍ ؛ بل المقام يختلف باختلاف المسائل، وباختلاف الفاعل، وباختلاف الحال . فهذا الإشكال الَّذي يقع بين طلبة العلم في مثل هذه المسائل راجعٌ غالبـاً إلى الإطلاق؛ الجهل عُذرٌ مُطلقـاً في كل مسألة وفي حق كل أحد، أو الجهل ليس بعذرٍ في كل مسألة أو في حق كل أحد .

والصَّواب: أنَّ المسائل مُتفاوتةٌ ؛ فمنها ما يكون الجهل عُذراً فيها ، ومنها ما لا يكون كذلك ؛ فلابُدَّ من التَّفصيل في مثل هذه المسائل ، والتَّنَبه إلى أنَّ كلام أهل العلم ينبغي أن يُفهم في سياقه ، ويُنَزَّل على الحالة الَّتي يتحدثون عنها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فنُبِّه على ذلك وتاب من ساعته أنَّهُ لا يَكفُر**» ؛ التَّنبيه هذه وظيفة الدُّعاة ووظيفة طلبة العلم ، هذه من الأمانة الَّتي تحمَّلوها بموجب كونهم طُلاَّبـًا للعلم ودعاةً إلى الله ﷻ ؛ فمتى ما وصل إلى أسماعهم كلمة كفر، شركٌ بالله ﷻ، سبٌّ أو استهزاءٌ، فواجبٌ عليهم أن يصدعوا بالحق وأن يوجهوا وأن ينبهوا متَّى كانوا مُستطيعين لذلك ، أمَّا السُّكوت فإنَّه من أسباب انتشار مثل هذه المنكرات، كثيرٌ من المجتمعات الَّتي فشا فيها المقالات المُكفِّرة كان من أسباب انتشارها سُكوتُ الدُّعاة وطلبة العلم عن القيام بواجب الأمانة.

قال المصنف رحمه الله:

وتُفيد أيضًا أنَّه لو لم يكفر فإنَّه يُغلَّظ عليه الكلام تغليظًا شديدًا كما فعل رسول الله ﷺ.

قال الشارح وفقه الله:

۞ **هذه الفائدة الخامسة والأخيرة:** أنَّ من وقع فيما يشبه تلك الحال التي جاءت في الحديث -فإنَّه وإن لم يَكفُر وإن لم يُكَفَّر- فإنَّه يُغَلَّظُ عليه في الإنكار، كما فعل النبي ﷺ فإنَّه قال: «**الله أكبر**» كبَّر الله ﷻ، وقال: «إنَّها السُّنن»؛ وقال: «قلتم والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة»، وقال ﷺ: «لتتبعن سَنن أو سُنن من كان قبلكم». إذن هذا فيه تغليظٌ في الإنكار من لدن رسول الله ﷺ، وهكذا ينبغي من أتباعه عليه الصلاة والسلام.

والتَّغليظ ها هنا راجعٌ إلى أنَّ المقام مقامٌ عظيم؛ التوحيد حق الله فلا يجوز لأحدٍ أن يتساهل في حق الله ﷻ، والتَّغليظ أيضًا من باب فقه الدعوة؛ فإنَّه متى ما غُلِّظ على الَّذي وقع في مثل هذه المقالة وأخطأ هذا الخطأ فإنَّه سوف يتنبه مُستقبلاً ويحذر أشد الحذر عن أن يصدر منه مثل ما كان قبل ذلك.

والداعية الموفق هو الَّذي يضع الإنكار -شدةً أو دون ذلك- في موضعه الَّذي يُحسِن أن يُنكر الإنكار الَّذي يتناسب مع المنكَر ومع حال من فعل.

ووضع النَّدى في موضع السيف بالعلى مُضرٌّ كوضع السيف في موضع النَّدى

الَّذي يجعل الأمور كلها كأسنان المشط؛ إنكاره على ترك أمرٍ مستحب يكاد أن يكون بالمستوى الَّذي ينكر به الشرك الأكبر، يتعامل مع هذه الحال

وتلك بالمستوى نفسه من الإنكار ! لا شك أنَّ هذا مخالفٌ لهدي النبي ﷺ ويتنافى وفقه الدعوة.

فينبغي عليك -يا طالب العلم- أن تكون فقيهًا حصيفًا ، تُنزِل الأمور منازلها ، وتحسن استخدام الأسلوب الأمثل في موضعه ؛ فالمنكرات العقدية المتعلقة بحق الله ﷻ ، مسائل التوحيد والشرك ينبغي عليك أن تتعامل في إنكار خطأ من أخطأ فيها بالأسلوب الحازم الفقيه الَّذي يجمع بين الحزم والفقه ، وألاَّ يكون هُناك تساهل في مثل هذه المسائل العظيمة .

قال المصنف رحمه الله:

ولهم شبهةٌ أخرى:

يقولون: إنَّ النبيَّ ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال: (لا إله إلا الله)، وقال: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ».

وكذلك قوله ﷺ: « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها.

ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها فإنه لا يكفر ولا يُقتل، ولو فعل ما فعل!

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى **الشبهة الثانية عشرة** : القوم -أعني: القبوريين- عندهم شبهة هي أيضاً من أكثر الشبه ورودًا في كتبهم ، يوردونها على أهل التوحيد في مقام إثبات أنَّ المسلم إذا شهد أن لا إله إلا الله فإنَّه لا يكفر ولو اعتقد أو قال أو فعل الشرك ؛ ليفعل ما يفعل وليقُل ما يقول ولا يضره ذلك! لماذا؟ لأنَّه شهد أن لا إله إلا الله.

تلاحظ أنَّ الشبهة هي هي في حقيقتها منذ أن قرأنا ذلك قبل صفحات ولا يزالون يدورون ويحومون حولها ، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لخبرته بحالهم فإنه يحاول أن يستقصي تلك الشبهات وإن كان الغاية منها واحدة .

القوم يقولون: الأدلة التي فيها فضل لا إله إلا الله ، والتي فيها وجوب الكف عمَّن قال لا إله إلا الله ، وأنَّ العِصمَة ثابتةٌ له في نفسه وماله ؛ كل من قال لا إله

إلا الله فواجبٌ الكف عنه وعدم التَّعرض له لا بتكفيرٍ ولا بما هو فوقه في إجراء الأحكام المترتبة على الردة.

-ويقولون: دونكم ما ثبت في «الصحيحين» من قصة أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما أدرك رجلاً، وكانوا -أعني الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- غزوا جماعةً من جُهَينة، فهرب رجلٌ منهم حتَّى أدركه أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورجلٌ من الأنصار، فلما أدرك أنَّه قد كان قاب قوسين أو أدنى من ضربة السيف تشهَّد شهادة الحق، قال: (أشهد أن لا إله إلا الله)؛ فكف الأنصاري عنه؛ وأمَّا أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنَّه طعنه برمحه فقتله، فلما بلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وفي روايةٍ أنَّ أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الَّذي بَلَّغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك يستفتيه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ؟!» فأبدى أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عذره وهو: أنَّ الرجل كان متعوِّذاً من السيف، أو أنَّه كان يخاف أن يُقتل، فلم يزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكرر عليه ذلك: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ؟!» حتَّى تمنَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن لم يكن أسلم إلا يومئذٍ، وفي روايةٍ لمَّا قال: إنما قال ذلك مُتعوِّذاً قال: «أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لاَ؟!» كما في رواية «مسلم». إذن هذا الحديث كما زعموا دليلٌ على أن من قال لا إله إلا الله فإنه صار معصوم الدم والمال لا يجوز التعرض له.

-وكذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذي ثبت في الصحيحين أيضاً: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ»، وفي رواية «بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»؛ إذن صاحب لا إله إلا الله لِيفعل ما يفعل فإنه لا يُتعرَّض له.

وهذا في الحقيقة من العجيب أن يُحاجج القبوريون أهل التوحيد بالنُّصوص الواردة في لا إله إلا الله ؛ هذا عجبٌ! فإنَّ أهل السنة والتوحيد أحق بهذه النصوص وهم أهلها القائمون بها علماً وعملا، الَّذين فهموا معانيها وألَّفُوا بينها، وأدركوا مَرَامِيَها حرفاً حرفاً؛ ثُمَّ يأتي هؤلاء فَيُزايدوا على أهل السنة والتوحيد! أمرٌ عجيبٌ ؛ وما أدراكم أنتم بنصوص لا إله إلا الله؟! ما أبعدكم عن فهمها وفقهها وإلا فلو أدركتموها لكان حالكم حال غير الحال.

المقصود: أن القوم يستدلون بهذه الأدلة ، ولا شك أن هذا استدلالٌ غير صحيح. والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ أفاض في الجواب عن هذه الشبهة؛ شبهة الاستدلال بهذه الأدلة -جزاه الله عنا خير الجزاء- .

والجواب المجمل عن هذه الشبهة -قبل أن نسترسل في قراءة كلام المؤلف رَحِمَهُ اللهُ- يمكن أن نلخصه في أربعة أوجهٍ:

❁ **الوجه الأول**: أن نقول لهم: إن «لا إله إلا الله» ليست كلمةً تُقال باللسان فحسب؛ «لا إله إلا الله» حتَّى ينتفع صاحبها: كلمةٌ تقال باللسان ولابد أن يَصْحَبَهَا اعتقادٌ جازم ، وأن يَتْبَعَهَا عملٌ مُصَدِّق، وكفٌ عمَّا يناقضها ؛ انتبه! فهذه قاعدة مهمة في فهم لا إله إلا الله ؛ «لا إله إلا الله» حتَّى ينتفع صاحبها حتىَّ ينتفع قائلها: كلمةٌ تقال باللسان وواجب أن يَصْحَبَهَا اعتقادٌ جازم، وأن يتبعها فعلٌ مُصَدِّقٌ، وكَفٌّ عمَّا يُناقضها. كل واحدةٍ من هذه الكلمات مقصودة :

◉ لابد من قولها ؛ فلو اعتقد معناها مع التَّمكن من التلفظ بها فلم يتلفظ فإنَّها لا تنفعه ؛ لا ينفعه اعتقادها مع التمكن من النُّطق بها .

◉ ولابد أن يكون تلَفُّظًا مَشْفُوعًا باعتقادٍ في القلب ؛ وإلاَّ فلو خلا القلب من هذا الاعتقاد المذكور في شُروط «لا إله إلا الله» -وكلكم تدركونه- فإنَّه لا ينتفع .

◉ ثُمَّ لابد أن يتبع ذلك عملٌ يُصَدِّقُ هذه الكلمة الَّتي قالها واعتقدها ؛ لابد أن يعبد الله مُخلصًا له الدِّين في الجملة ، وعلى قول جمهور أهل العلم بكفر تارك الصلاة لا بد أن يصلي؛ والَّذين لا يكفِّرون بترك الصلاة -وقولهم مرجوح- يشترطون أنَّه لا بد أن يفعل شيئًا ممَّا اختص بإيجابه محمدٌ ﷺ .

◉ وهذا القدر لا يكفي؛ بل لا بد أيضًا من أن يكف عن كل ما يناقض حقيقة «لا إله إلا الله»

فمتى ما اجتمعت هذه الأمور فإنَّ المُتَلَفِّظ بـ(لا إله إلا الله) ينتفع بها ، وإلا فلا ، من ظنَّ أنَّ مجرد التلفظ بلا إله إلا الله كافٍ في النَّجاة فلا شكَّ أنَّه قد ضل ضلالاً مبينًا ، بل قد كذَّب القرآن ؛ فإنَّه يلزمه أن يكون المنافقون مسلمين مؤمنين ناجين عند الله ﷻ ، وهل يقول بهذا أحد؟ أما كانوا يتلفظون بـ(لا إله إلا الله)؟ أفَنَفَعَتهم لا إله إلا الله؟

وقل مثل ذلك في اليهود فإنهم يقولون لا إله إلا الله؛ وفي النَّصارى فإنهم يقولون لا إله إلا الله؛ ويعتقدون أن الذي يُعبد هو الله ، لكن من أين أتى تكفيرهم؟ من كونهم نقضوا لا إله إلا الله من أوجهٍ كثيرة؛ وقعوا في الشرك ، في تكذيب النبي ﷺ إلى آخر ما هنالك.

السَّبئية الَّذين حرَّقهم عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله ، بنو حنيفة الذين قاتلهم أصحاب النبي ﷺ كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله ويشهدون أن محمداً رسول الله، ومع ذلك قُوتِلوا على الرِّدة ، والسَّبب: أنَّهم أتوا بما يَنقُض لا إله إلا الله فقالوا: مسيلمةٌ رسولٌ من عند الله . إذن ينبغي التنبه إلى إدراك ما هي لا إله إلا الله؟ ما حقيقتها؟ ما ينتفع قائلها؟ .

۞ **الوجه الثَّاني** -والوجه الثاني مُكملٌ ومُتَممٌ للوجه الأول- أن نقول : تلك الأدلة الَّتي استدللتم بها أدلةٌ مقيدة ، وهذه القيود لابد من اعتبارها وإلاَّ كان في كلام النبي ﷺ ما هو لغو، وحاشا أن يكون كلام رسول الله ﷺ كذلك . ففي الحديث الَّذي استدلوا به وهو قول النبي ﷺ « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ» الحديث له تتمة ، والتتمة ثابتةٌ في «الصحيحين»؛ «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ» . إذن لابد من شيءٍ يتبع (لا إله إلا الله) وهو: أن يقيموا الصلاة ، أن يؤتوا الزَّكاة، أن يلتزموا بأحكام الإسلام. وقل مثل ذلك فيما جاء في روايةٍ أخرى وهي عند «البخاري» قال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَإِذَا قَالُوهَا وَصَلَّوْا صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا ، فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ » . تجد في رواية عند «مسلم» النبي ﷺ يقول: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ» .

إذن ليست لا إله إلا الله وحدها -أعني النطق بها- كافية في حصول العصمة؛ لا بد أن تؤمن بمحمدٍ ﷺ وبكل ما جاء به محمدٌ ﷺ ؛ ويالله العجب هل التوحيد شيءٌ غريب عن دعوة النبي ﷺ؟ أو هو لُبُّ دعوته وأكبر وأعظم وأهم ما جاء في دعوته ﷺ؟! إذن من لم يأتي بالتوحيد هل سينتفع بلا إله إلا الله؟ الجواب: لن ينتفع بلا إله إلا الله .

ألم يسمعوا قول النبي ﷺ كما في «صحيح مسلم»: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ» ؛ متى حصلت العصمة ؟ لمَّا يجمع قائلها بين الإيمان بالله والكفر بما يُعبد من دون الله؛ وهذا تأكيد وإلاَّ فإنَّ لا إله إلا الله تتضمن الكفر بما يعبد من دون الله ، شطرها الكفر بما يعبد من دون الله. على أي شيءٍ يدل قول المسلم (لا إله)؟ على الكفر بكل ما يعبد من دون الله؛ و(إلا الله): إثبات العبادة كلها لله ﷻ؛ ومع ذلك يؤكد هذا النبي ﷺ بقوله: « وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ» ؛ فيالله العجب! هؤلاء الَّذين يعبدون غير الله ويصرفون لغير الله ما يصرفونه لله -بل ربما كان ذلك منهم أكثر وأعظم- هل كفروا بما يعبد من دون الله؟ لم يفعلوا.

❁ **الوجه الثَّالث**: أن نقول: القوم يقولون "كل من قال لا إله إلا الله فقد عصم ما له ودمه مهما فعل" هذه مقالتهم ، باتفاقٍ بيننا وبينهم أن من قال: لا إله إلا الله وأنكر البعث لا ينتفع بلا إله إلا الله ؛ إذن هذه الكلية انتقضت . ما ذكروا قضيةٌ موجِبةٌ كلية تنتقض بسالبة جزئية؛ فنحن نقول لهم: انتقضت هذه القضية الَّتي تقولون ، ثبت منا ومنكم أنَّ هناك من قال «لا إله إلا الله» وما انتفع ولا

حصلت العصمة له بذلك، كذلك من يقول لا إله إلا الله ويسب الله أو يسب رسول الله ﷺ؛ هذا لا شك باتفاق المسلمين أنَّه قد انتقضت في حقه (لا إله إلا الله) ولم ينتفع بها ولم تحصل له العصمة بذلك -أعني: بهذا النطق- إذن هذه الكلية الَّتي ذكروا باطلةٌ؛ ومهما يكون من شيء فقد مر بنا في الدروس الماضية بيان أن حُكم الرِّدة ثابتٌ بإجماع فقهاء الإسلام سابقًا ولاحقًا؛ وما هي الرِّدة؟ كُفرٌ بعد إِسلَام، ولهذه الردة أسبابٌ فمن وقع في سببٍ موجبٍ للرِّدة فإنَّه يرتد ولا ينتفع بلا إله إلا الله.

❁ **الوجه الرَّابع**: أن نقول: إذا كان الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وهم هم؛ لو أشركوا لأحبط الله أعمالهم وكانوا من الخاسرين مع كونهم معصومين!! ومع ذلك بيَّن الله ﷻ هذا الحكم؛ ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]؛ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]. فكيف بمن عداهم!! عجيبٌ والله؛ الله ﷻ يبين لنا في كتابه أن الأنبياء لو أشركوا فإن الحبوط والخسران سيكون مآلهم، فكيف تقولون إنَّ آحاد المسلمين لو أشركوا ما ضرهم شيئًا؟ أليس هذا قولاً عجيبا! وهو دليل على مدى الهوى الَّذي يرتعون فيه؛ والحمد لله الَّذي عافانا مما ابتلاهم به.

قال المصنف رحمه الله:

فيقال لهؤلاء المشركين الجهال: معلوم أنَّ رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون (لا إله إلا الله)، وأنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويصلون ويدَّعون الإسلام، وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال الشارح وفقه الله:

بدأ الشيخ رحمه الله يبين بطلان هذا التَّأصيل الَّذي أصَّله هؤلاء القبوريون المشركون، وهو: «**أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون لا إله إلا الله**» ، وهذا ثابتٌ لا شك؛ ومنه ما ثبت في «الصحيحين» ممَّا حصل عقيب غزوة الخندق من حكم النبي ﷺ وقد حكَّم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه فحكم بحكم الله وهو: «أن يقتل مُقَاتَلَتُهُم ،وأن تسبى ذراريهم ونسائهم، وأن تقسم أموالهم» وهم يقولون لا إله إلا الله ولم ينتفعوا بذلك .

بل ذكر الشافعي رحمه الله في كتابه «الأم» أنَّه قد بلغه أن من اليهود من هو مقيمٌ على دينه ويشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله –ليس فقط يقول لا إله إلا الله بل ويشهد أن محمد رسول الله– ولكنه يقول لم يبعث إلينا وبعث إلى العرب نحن بنو إسرائيل ليس لنا علاقة بذلك ، هذا يقوله من يقوله من اليهود وأيضًا من النَّصارى نص على اليهود والنصارى من أهل الكتاب ؛ هل نفعهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله؟ بل وأن يشهد أن محمداً رسول الله؟ ما نفعهم ذلك، لماذا؟ لوجود ما ينقض ذلك؛ وهو إنكار بعثة النبي ﷺ العامة لجميع الثقلين.

بل لو قال: "هو مبعوثٌ لكل البشر ولكنه ليس مبعوثًا للجن" فنقول إنَّه لا ينتفع بلا إله إلا الله ولا بشهادة أن محمداً رسول الله حتى يعتقد عموم بعثته الثَّقلين الجن والإنس.

إذن: (لا إله إلا الله) لا تنفع إلا باعتقاد وعمل وكفٍ عما يناقضها؛ وهؤلاء القبوريون ما قاموا بذلك، ما اعتقدوا الاعتقاد الصحيح ولا كفوا عما يناقض لا إله إلا الله.

كذلك في قصة بني حنيفة -وقد مرت بنا- كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله بل وأن محمداً رسول الله وما انتفعوا؛ ما درأ ذلك عنهم القتل والقتال لِم؟ لأنهم نقضوا ذلك بقولهم إن مسيلمة رسول الله، كيف يكون رسولا لله ونبينا ﷺ خاتم النبيين؟ إذن هم نقضوا هذه الشهادة فما حصلت لهم العصمة.

كذلك الذين حرَّقهم عليٌّ رضي الله عنه كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله وما عُصمت أنفسهم بذلك بل قتلهم شر قتلة رضي الله عنه، والسبب: أنَّهم نقضوا لا إله إلا الله حينما رفعوا بشرًا إلى مرتبة ربِّ البشر جل جلاله.

قال المصنف رحمه الله:

وهؤلاء الجهلة[١٣] مقرون أن من أنكر البعث كفر وقُتل ولو قال (لا إله إلا الله) ، وأن من جحد شيئا من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها؛ فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئا من الفروع، وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أساس دين الرسل ورأسه!! ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث .

قال الشارح وفقه الله:

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: هم يُوافقوننا على أنَّ من جحد شيئًا من أركان الإسلام فقال: "إنَّ الصلاة أو الزكاة أو الصوم هذه الأمور وأضرابها أو شيء منها ليس واجبًا" جحد وجوب ذلك؛ فإنه ماذا يكون عندهم؟ كافرًا .

يا لله العجب! إذا كان من جحد شيئًا من هذه العبادات كافرًا ألا يكون من جحد أصل تلك العبادات؟ فإنَّ كل العبادات إنَّما هي فروع لشهادة أن لا إله إلا الله، فروعٌ لتوحيد الله ولا ينفع فرعٌ بدون أصله، فهم يجحدون التوحيد ويزعمون أنَّ هذا لا يضر شيئًا ، بينما من جحد فرعًا فإنَّه يكفر عندهم ، وقد أصابوا؛ لكن هذا الحكم لا شكَّ أنَّه أولى ثُبوتًا في حق من جحد أصل الأصول وهو توحيد الله عَجَّلَ.

---

(١٣) الجهلة الذين نحاججهم .

قال المصنف رحمه الله:

ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث؛ فأما حديث أسامة فإنه قتل رجلا ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعى الإسلام إلا خوفا على دمه وماله، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك، وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [النساء: ٩٤] أي: تثبتوا. فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإنه تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قُتل لقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾، ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى. وكذلك الحديث الآخر وأمثاله، معناه ما ذكرناه أن من أظهر التوحيد والإسلام وجب الكف عنه، إلاَّ أن يتبين منه ما يناقض ذلك.

قال الشارح وفقه الله:

يقول: «**ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث**»؛ للهوى الذي غلف قلوبهم وإلا لو تجردوا لمعرفة الحق وصلوا إلى المعنى الصواب الَّذي هو من أظهر الأشياء وأوضحها، ولكن الهوى يفعل في صاحبه الأفاعيل.

قال: «**فأما حديث أسامة رضي الله عنه فإنه قتل رجلاً ادعى الإسلام حينما شهد أن لا إله إلا الله بسبب أنه ظن أنه ما ادعى الإسلام إلا خوفًا على دمه وماله**»؛ أسامة رضي الله عنه ظن أن الرجل قال لا إله إلا الله مُتخلِّصاً لا مُخْلِصًا؛ مُتخلِّصاً يريد أن يتخلص من هذه الحالة الَّتي وقع فيها وهي أنه سيقتل متعوذٌ من السيف، وليس أنه قالها مُخْلِصاً، يقول في نفسه هناك قرينة تدل على أنَّه ما أراد بهذه الكلمة وجه الله.

وهذا فيه قلبٌ للدليل عليهم؛ لأنَّ المُستقر في نفوس الصحابة ﵃ أنَّ (لا إله إلا الله) لا تنفع إلا باعتقادٍ جازم ، ومن ذلك أن يكون مخلصا لله ﷿ لا يريد شيئا من الدنيا ، لكنَّ رسول الله ﷺ أنكر فعله لم؟ لأنَّ اليقين لا يزول بالشك ، اليقين أنَّ الرجل قال لا إله إلا الله، فلا يزول عنه ذلك بالشك في أنَّه إنَّما قالها تعوذاً؛ ما الَّذي يدرينا «أفلا شققت عن قلبه؟» .

إذن هذا الحديث يدل على: أن من قال لا إله إلا الله من الكفار؛ الَّذين هم جاحدون لـ (لا إله إلا الله) ، وإلا فلو كان من أهل الكتاب الذين يقولون لا إله إلا الله فإن هذا القدر لا يكفي كما نصَّ علماء الإسلام ، بل لا بد أن يضم إلى ذلك ما يجحده؛ فإذا كان يجحد أن محمداً رسول الله ﷺ فلا بد من إظهار ذلك. أمَّا عبدة الأوثان الَّذين جحدوا لا إله إلا الله فبمجرد نطق لا إله إلا الله فإنَّه يجب الكف عن ذلك والأخذ بظاهره .

ثم ماذا؟ ثم إنَّه ينظر في حاله بعد ذلك؛ **بيانُ هذا**: أنَّ العصمة -يا إخوتاه- لها طرفان: ◉ شروعٌ. ◉ وتمام.

فمن قال (لا إله إلا الله) ممن يجحدها فقد شرع في العاصم لدمه وماله ، ثُمَّ إذا تمم ذلك من بعدُ فالتزم بحقوقها ولوازمها وكف عما يناقضها فقد تمم العصمة وتحققت فيه ، وإلا بطلت.

شأن (لا إله إلا الله) من شرع في الدخول في الإسلام كالَّذي شرع في الوضوء أو الصلاة؛ لا تنفعه حتىَّ يتمم ذلك ، ينفعه ابتداءً أن يُكفَّ عنه وألا يُتعرض له بسوء؛ فلا يقتل، ولا يسبى، ولا يُقْسَمُ ماله؛ ولكن ينظر بعد ذلك فإن

التزم جاء وقت الصلاة وقد وجبت عليه الصلاة ، أو جاء الصوم ووجب عليه الصوم؛ فإنَّنا نُلزمه بأن يصلي ويصوم؛ فإن جحد فقال: "أنا لا يجب عليَّ ذلك وأنا لا ألتزم بهذا" فإنَّ العصمة ها هنا انخرمت ولم تتم ولم تتحقق . إذن لا بُدَّ من التَّنبه إلى هذا الأمر ؛ ثمة شروعٌ في العصمة؛ وثمة تتميمٌ لها وبذا تتحقق. فمن نطق بلا إله إلا الله فقد شرع في العاصم ونُلزمه بعد ذلك بلوازم لا إله إلا الله وبالكف عمَّا يناقض ذلك ، فإن وقع منه هذا فقد تمت وتحققت العصمة في حقه .

ولذا النبي ﷺ جمع بين الأمرين في قوله: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ » وها هنا الشروع في العصمة؛ ثم قال: « وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ» وهذا تتميمها؛ كونه يلتزم بلوازم (لا إله إلا الله) هنا تتم له العصمة.

قال: « **والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك، وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾** » ؛ السَّلام حينما يقول إنسانٌ للمسلمين: "السلام عليكم" فظاهر حاله أنه حيا بتحية الإسلام ، فالكافرون غالبًا لا يحيون بها ، فظاهر حاله أنه مُسلم ، فكان الَّذي ينبغي أن يُكف عنه .

وقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا﴾**»

◉ **وهذا أحد الأقوال**: أنَّها نزلت في قصة أسامة .

◉ **والقول الثَّاني**: أنَّها نزلت في قصةٍ شبيهة؛ كان القاتل فيها المقداد ابن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

◉ **والقول الثالث**: وكلٌ جاء فيه روايات جاء في المقداد وجاء في الثالث وهو مُحَلِّم ابن جَثَّامَة أخو الصعب ابن جثامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ فحصلت له قصةٌ قريبةٌ من هذه وهو كونه قتل رجلًا بعد أن ظهر منه علامة الإسلام .

فتأول هؤلاء الأصحاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ذلك ، وأقوى ما جاء فيها : كان القاتل فيه غير مذكور وهو ما ثبت في «الصحيحين» من قول ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «أنه كان رجلٌ في غُنَيمةٍ له فلحقه المسلمون فقال: "السلام عليكم" فقتلوه؛ واستاقوا غنمه فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ قوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتبيَّنُوا﴾ الآية.

والمقصود من ذلك: أن الذي ينبغي أن يُكَفَّ عمن شهد أن لا إله إلا الله أو ظهرت منه علامةٌ تدل على أنَّه مسلم ، ثم يُتبَين في حاله لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿فتبيَّنُوا﴾.

وجمهور القراء قرأوا ﴿فتبيَّنُوا﴾، وقرأ بعضهم وهو حمزة والكسائي وخلف ﴿فَتَثبَّتُوا﴾ . في هذه وفي آية الحجرات الخلاف نفسه؛ ﴿فتبيَّنُوا﴾ و ﴿فَتَثبَّتُوا﴾ هنا وهنا كما سيأتي معنا في آية الحجرات.

◉ ومن أهل العلم من قال: إن التَّبيُّن أشد وأبلغ من التَّثبُّت .

◉ ومنهم -وهذا الَّذي اختاره أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ- أنهما متقاربان؛ ﴿فتبيَّنُوا﴾

يعني: تفحصوا وتعرفوا على حقيقة الحال، و﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ يعني: تأنوا ولا تستعجلوا، ومُؤدى اللَّفظين مع اختلافٍ دقيقٍ بينهما مؤداهما واحد.

قال: «**فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت فإن تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قُتل**»؛ وإلا فإن التزم بأحكام الإسلام فإنه قد تمت له العصمة قال ﷻ ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]؛ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم. وأما إذا ظهر منه ما يخالف ذلك فإنه يعامل بمقتضى تلك المخالفة؛ فإن ظهرت منه الردة فإنه يستتاب؛ فإن تاب وإلاَّ فإنَّه يُقتل.

قال: «**وكذلك الحديث الآخر وأمثاله**» وهو «أمرت أن أقاتل الناس» وما جرى مجرى هذه الأحاديث فالمعنى فيه واحد «**معناه ما ذكرناه أن من أظهر التوحيد والإسلام وجب الكف عنه إلا أن يتبين منه ما يناقض ذلك**»؛ **وهذه قاعدة لابد من حفظها**: من أظهر التوحيد والإسلام وجب الكف عنه إلا أن يتبين منه ما يناقض ذلك.

قال المصنف رحمه الله:

والدليل على هذا أن رسول الله ﷺ الذي قال: «أقتلته بعدما قال: (لا إله إلا الله)؟!» وقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»، هو الذي قال في الخوارج: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»، مع كونهم من أكثر الناس وتهليلا وعبادة، حتى إن الصحابة رضي الله عنهم يحقرون أنفسهم عندهم، وهم تعلموا العلم من الصحابة فلم تنفعهم (لا إله إلا الله) ولا كثرة العبادة ولا ادعاء الإسلام لمَّا ظهر منهم مخالفة الشريعة.

قال الشارح وفقه الله:

يقول: «والدليل على» ما ذكرنا من أن لا إله إلا الله لوازم من التزم بها انتفع وإلاَّ لم ينتفع «أن رسول الله ﷺ الَّذي قال» تلك الأحاديث، ففي قصة أسامة قال: «أقتلته بعد قال لا إله إلا الله وكرر ذلك عليه» وقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» هو الذي قال في الخوارج «أينما لقيتموهم فاقتلوهم» وقال أيضًا «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد».

الخوارج يقولون «لا إله إلا الله» ولهم عبادات بل هم مجتهدون في العبادات، حتَّى إن الصحابة يحقرون عباداتهم إلى عباداتهم، ومع ذلك فإن النبي ﷺ قد أمر بقتالهم!!

وأنت خبيرٌ أنَّ أهل العلم مختلفون في تكفير الخوارج، وفي المسألة روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله، وجمهور أهل العلم على عدم كفرهم، بل نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «المنهاج» اتفاق الصحابة على عدم تكفيرهم؛

وهذا هو الصواب ، وسيرة الصحابة رضي الله عنهم في قتالهم للخوارج تختلف عن سيرتهم في قتالهم للمرتدين .

وعلى كل حال ؛ على القول بكفرهم الأمر واضح مع كونهم قالوا (لا إله إلا الله) أمر النبي ﷺ بقتالهم لكونهم نقضوا لا إله إلا الله ، هذا على القول بكفرهم . وعلى القول بعدم كفرهم وإنَّما هم مبتدعةٌ ضُلَّال نقول: الاستدلال أوضح؛ لم؟ لأنَّه إذا لم تَعصم لا إله إلا الله ضُلَّالًا مُبتدعين ، بل أمر النبي ﷺ بقتالهم ؛ فلأن لا تعصم ولا تنفع من ينقض (لا إله إلا الله) من باب أولى .

أعيد: إذا كانت (لا إله إلا الله) ما نفعت الخوارج باعتبارهم ضُلَّالاً مبتدعين في دائرة الملَّة الإسلامية ما خرجوا عنها ، ومع ذلك لم تنفعهم في عصمة دمائهم بل أمر النبي ﷺ بقتالهم وحثَّ عليه؛ فلئن لا تعصم (لا إله إلا الله) من قالها وقد نقضها وخرج من دائرة الإسلام ، وهذا من باب أولى .

قال: «**حتى إن الصحابة يحقرون أنفسهم عندهم، وهم تعلموا العلم من الصحابة فلم تنفعهم (لا إله إلا الله)**» ؛ **يقول المحقق**: «في الأصل: (تمنعهم)»[١٤]، وهذه على القول الصَّحيح وهو عدم كفرهم أشبه ، هذه يعني: أشبه بالسياق فلم تمنعهم لا إله إلا الله من القتل والقتال. ويمكن أيضًا على قول جمهور أهل العلم أن تكون كلمة: «**فلم تنفعهم**» مُستقيمة؛ يعني: لم تنفعهم في كف القتال عنهم ، لم تنفعهم في حصول العصمة لدمائهم في أمر النبي

(١٤) [ص ٩٢، تحقيق: د. دغش العجمي] .

ﷺ بقتالهم.

قال: «**ولا كثرة العبادة ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة**»؛ العجيب! أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ها هنا يكاد أن يكفر الخوارج؛ والقوم يتهمونه بأنه من الخوارج عجيب!

ألاَّ ترى مدى الظلم الَّذي لحق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ! يقول لك: محمد ابن عبد الوهاب من الخوارج؛ وانظر شدَّته على الخوارج ! أفيكون من الخوارج وهو يكاد أن يكفر الخوارج! هذا ظلمٌ وأي ظلم.

قال المصنف رحمه الله:

وكذلك ما ذكرنا من قتال اليهود، وقتال الصحابة رضي الله عنهم بني حنيفة، وكذلك أراد ﷺ أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل منهم أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، وكان الرجل كاذبا عليهم. فكل هذا يدل على أن مراد النبي ﷺ في الأحاديث التي احتجوا بها ما ذكرناه.

❁ ❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

«**كذلك ما ذكرنا من قتال اليهود**» وقد مر الكلام فيه؛ وكذلك «**قتال الصحابة بني حنيفة**» مر الكلام فيه.

وأورد أيضـاً شاهداً جديدًا وهو: «**أن النبي ﷺ أراد أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجلٌ منهم أنهم منعوا الزكاة**» في قصةٍ معروفة أخرجها الإمام أحمد رحمه الله؛ وجاء من أوجهٍ كثيرة لا تكاد تخلو من ضعفٍ، لكنَّ هذا هو المشهور بل يكاد أن يكون المتفق عليه بين المفسرين؛ أنَّ هذه القصة هي سبب نزول آية الحجرات ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ وفي القراءة الأخرى كما ذكرت لك ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾؛ في قصةٍ مشهورة وكان الرجل كاذبـاً عليهم.

وجه الشاهد من هذه القصة: أن النبي ﷺ هـمَّ بقتالهم لمَّا بلغه أنَّهم منعوا الزكاة؛ فهذا دليلٌ على أنَّ الإقرار بـ(لا إله إلا الله) -وهم كانوا مُقرِّين بلا إله إلا الله- لا ينفع متى ما صدر ما يناقض لا إله إلا الله.

أُعيد فأقول: النبي ﷺ لم يمنعه إقرارهم بالشهادتين من أن يَهُمَّ بقتالهم لما

بلغه أنهم منعوا الزكاة فحسب ، وليس أنَّهم أنكروا القرآن، والبعثة، والنبوة، وصدر منهم عشرةٌ أو عشرون أو ثلاثون من نواقض الإسلام عندها هَمَّ النبي ﷺ أن يقاتلهم كلا ؛ الأمر تعلق بشيءٍ واحد وهو كونهم فيما بلغه منعوا الزكاة .

فكيف يقال بعد ذلك أن من قال (لا إله إلا الله)؛ ولو أشرك بالله، ولو دعا غير الله، ولو ذبح لغير الله، ولو صرف كل أنواع العبادة، بل ولو اعتقد الربوبية كما يفعلون في المخلوقين فإنه لا يضره ذلك شيئًا؛ ولا ينبغي أن يُمَسَّ منه شعرة! لماذا؟ لأنَّه قال لا إله إلا الله .

فتلك شبهةٌ داحضة ، وكلامٌ بالغ الخطأ ؛ فكل هذا يدل على أن مراد النبي ﷺ في الأحاديث الَّتي احتجوا بها ما ذكرنا.

وهذه هي **الخلاصة**: من شهد ألا إله إلا الله؛ وأقرَّ بالإسلام فإنَّه يجب الكفُّ عنه ، إلاَّ أن يتبيَّن منه ما يناقض ذلك، كما هو حال القبوريين الَّذين أشركوا مع الله غيره .

والله ﷻ أعلم .

قال المصنف رحمه الله:

ولهم شُبهةٌ أُخرى وهو ما ذكر النبي ﷺ أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى، فكلهم يعتذرون حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ قالوا: فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركا.

قال الشارح وفقه الله:

هذه هي **الشبهة الثَّالثة عشرة**؛ ومضمونها: أن الاستغاثة بغير الله ليست شركًا.

استدل القبوريون بما ثبت في «الصحيحين» من رواياتٍ مُتعددةٍ عن رسول الله ﷺ في ذكر الشَّفاعة العظمى الَّتي مبتدأها يكون بسؤال النَّاس الشَّفاعة لآدم ثُمَّ نوح ثُمَّ إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم ينتهي الأمر إلى نبينا محمد ﷺ، وكلهم يعتذر وكلهم يذكر ذنبًا إلا عيسى عليه السلام، وكلهم يقول «نفسي نفسي» إلا النبي ﷺ فإنَّه يقول: «أنا لها»؛ ثم ينطلق فيستأذن على ربه .. إلى آخر ما تعلم.

فالمقصود: أنَّ القوم قالوا أن هذا دليلٌ على أن الاستغاثة والدعاء للمخلوق ليس شركًا؛ وفرحوا بلفظ «الاستغاثة»؛ وجدوا أنَّ الإمام البخاري مثلاً أخرج من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ ثُمَّ بِمُوسَى ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ»؛ هذا الحديث فيه اختصار؛ وإلا فإنهم كما تدل الروايات الأخرى يستغيثون أيضًا بنوح وإبراهيم وعيسى عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

الشَّاهِدُ: أنهم فرحوا بلفظ «اسْتَغَاثُوا» فتشبثوا به وجعلوه -هذا اللفظ-

قضية عامة؛ إذن الاستغاثة بكل أحوالها جائزة، ألم تروا أنَّ النبي ﷺ قال: «اسْتَغَاثُوا» إذن انتهى الأمر؛ أنتم تنكرون شيئًا أجازه رسول الله ﷺ وما أنكره؛ هكذا فليكن الفقه!

وسبحان الله الَّذي طبع على قلوب هؤلاء! كيف غَفَلُوا عن الفروق العظيمة بين هذا الحديث وما نحن بصدده وما النزاع بيننا وبينهم فيه. من عجيب حال القوم الذي يدلك على مبلغ الهوى عندهم أنهم يعتمدون فُروقًا غير مُؤثرة وينفون فُروقًا مُؤثرةً؛ كما مرَّ بنا حينما زعموا أنَّ ثمَّة فرقًا بين أن تتوجه بالدعاء والذبح والنَّذر للصنم، أو أن تتوجه به إلى نبي أو ولي صالح؛ يقولون هناك فرق، وقلنا إنَّ هذا فرق غير مؤثر. وجاؤوا هنا فنفوا الفرق المؤثر بين الحي والميت، بين حال الحياة وحال الموت، سبحان الله العظيم! كيف يُغفل عن هذا؟ والله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢]؛ كيف يُغفل عن أنَّ هناك فرقًا بين سؤال حي وسؤال ميت! وهذا ما سيبينه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في جوابه.

والفقه -يا إخوة- كما يقول أهل العلم هو: معرفة الجمع والفرق؛ من المهم لطالب العلم أن يفقه الجمع والفرق؛ فإنَّ العلم كلَّ العلم حُسن فهم هذا الأمر، الجمع كونك تُلحق المسائل بنظائرها، تُلحق النَّظير بنظيره، وتنفي الفروق غير المؤثرة بين الأشباه، وأن تفهم الفروق بين المسائل المختلفة؛ فهذا هو الفقه وهذا هو العلم، لكن ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [المائدة:٤١]، فلا هم بالَّذين اعتبروا الفروق المؤثرة، ولا هم بالذين نفوا

الفروق غير المؤثرة ! والأمر فيهم عجيب.

لـــي كُـــلَّ يَـــومٍ مِـــن ذُؤالَـــة ضِـــغْثٌ يَزيـــدُ عَلـــى إبالـــة

بلية فوق بلية والله المستعان.

قال المصنف رحمه الله:

فالجواب أن نقول: سبحان من طبع على قلوب أعدائه، فإن الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها كما قال الله تعالى في قصة موسى ﷺ: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥].

قال الشارح وفقه الله:

القوم -كما يبين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ- استدلوا بمسألةٍ خارجة عن محل النزاع، هذا الدليل دليلٌ خارج عن محل النزاع؛ فإن ما يكون يوم القيامة من سؤال وطلب واستغاثة النَّاس بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام هذا يرجع إلى مسألة سؤال حي لحي، ونحن لا نبحث في هذا؛ بل هذا جائزٌ بالاتفاق، لا ننكره نحن ولا ينكره غيرنا، بل لا يوجد عاقلٌ ينكر ذلك؛ فإنَّ الإنسان مدنيٌّ بطبعه؛ فالنَّاس يعيشون مع بعضهم ويحتاج بعضهم بعضًا، ويُعاون بعضهم بعضًا، فهذا خارجٌ عن محل النِّزاع؛ أن يُسأل حيٌّ ما يقدر عليه، هذا لا إشكال فيه؛ وهذا الَّذي يكون من النَّاس يوم القيامة، وهذا الذي جاء في الأحاديث كما سيأتي كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عن ذلك.

إذن القاعدة هي: يجوز للمخلوق أن يسأل المخلوق ما يقدر عليه المخلوق؛ وعلى هذا تدل أدلةٌ لا تكاد تُحصى؛ من الكتاب ومن السنة قوليةً أو فعليةً أو إقراريةً، مع مُلاحظة أنَّه كُلَّما قَلَّلَ المسلم من سُؤال المخلوقين- باستثناء مسائل العلم فهذه لها شأن آخر- كان هذا أكملَ في تحقيق توحيده؛ ولذا أخذ العهد رسولنا ﷺ والبيعة على جماعة من أصحابه ألاَّ يسألوا النَّاس شيئًا،

فهذا من كمال التوحيد المستحب؛ أن يترفَّع الإنسان عن سؤال المخلوقين ما أمكنه، وللمسألة تفاصيلُ ليس هذا موضع البحث فيها.

إذن الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها.

والاستغاثة: طلب الغوث، والمراد بذلك: هو إزالة الكربة والشدة.

الغوث: إزالة الكُربة والشدة.

وليس يخفاك الفرق بين الدعاء والاستغاثة، فالعلاقة بينهما علاقة عمومٍ وخصوصٍ مطلق؛ فكل استغاثةٍ دُعاءٍ وليس كل دعاء استغاثة، فالاستغاثة دُعاءٌ من مكروبٍ.

إذن يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**كما قال الله تعالى في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾**»؛ استغاث بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الرجل الإسرائيلي على الَّذي هو من عدوه؛ **ووجه الاستدلال راجع إلى أمرين**:

❁ **الوجه الأول**: كون موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم ينكر عليه؛ وهذا الوجه فيه نظرٌ، لأنَّ هذا الإقرار كان من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبل النبوة؛ والإقرار المُعتبر هو ما يكون من نبي، وهو الآن في تلك الحال لم يكن نبيًا.

❁ **الوجه الثاني**: كون سياق هذه الآية في القرآن سياق إقرار، وهذا وجهٌ وجيه؛ أنَّه ليس في سياق الآية ما يُشعر بأنَّ هذا مُنكر، إذن هذا دليلٌ على أن الاستغاثة من المخلوق بالمخلوق الحي الحاضر القادر جائز.

قال المصنف رحمه الله:

وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب و غيره في أشياء يقدر عليها المخلوق.

قال الشارح وفقه الله:

كما قال جل وعلا ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢] ، فهذا من باب الأمر الجائز؛ أن يستغيث الإنسان بأصحابه وهم حاضرون أحياء قادرون في شأن الحرب وغيره ، فمثل هذا لا حرج فيه .

سؤال: كيف الجمع بين هذه الآية ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾[الأنفال: ٧٢] ؛ وبين قول الله جل وعلا ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [الأنفال: ١٠] ؟

الجواب : النَّصر الَّذي اختص الله ﷻ به هو خَلْقُ ما به يكون غلبة العدو؛ فخلق ما به يُغلب العدو؛ هذا لا شك أنَّه مُختصٌ بالله جل وعلا، وهو المراد بقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ ؛ أمَّا نصر المسلم لإخوانه فهذا من باب المعاونة ، الله جل وعلا يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] . إذن لا تعارض بين الآيتين.

قال المصنف رحمه الله:

ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء والأنبياء وغيرهم، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله.

قال الشارح وفقه الله:

هذا هو الأمر المنكر؛ دعاء غير الله ، الاستغاثة بغير الله الَّتي أنكرها أهل التوحيد؛ ودلَّ على أنها كفر بالله جل وعلا كما مر بنا هذا سابقا.

ضابط هذا يرجع إلى ثلاث صور -مرت بنا غير مرة- :

❁ **الصورة الأولى**: هي دعاء الأموات مُطلقـاً ، ونريد بقولنا (مُطلقًا): سواءً أكان الدعاء عند القبر أو بعيدًا عنه؛ وسواءً دُعيَ صاحب القبر وسُئل شيئا يستطيعه لو كان حياً أو يستطيعه المخلوقون ، أو ما لا يستطيعه إلا الله؛ فلا فرق كل ذلك شركٌ أكبر.

❁ **الصورة الثانية**: دعاء الحي الغائب مطلقا؛ ونريد بقولنا (مطلقا): أنَّه فيما يقدر عليه لو كان حاضرا أو فيما لا يقدر عليه .

وأنبه إلى أنَّه يلتحق ويدخل في المنع من دعاء الأموات: دعاء الأصنام والأشجار والأحجار ونحوها ، لأنَّه إذا كان دُعاء من كان حياً شركًا ؛ فدعاء من ليس بحي أصلاً ولا يكون حياً من باب أولى . كذلك بالنسبة لدعاء الغائبين؛ يلتحق بذلك دعاء الملائكة والجن لأنَّهم بالنسبة لنا في حكم الغائبين.

إذن من دعا حياً غائباً كشيخٍ وولي يعتقد فيه وهو بعيدٌ عنه فهتف باسمه في مُلمَّةٍ ومصيبةٍ نزلت به فإنَّه يكون مُشركًا بالله ﷻ شركًا أكبر.

❁ **الصورة الثَّالثة**: دعاء المخلوق ما لا يقدر عليه إلاَّ الله مُطلقًا؛ سواء أكان هذا لحيٍ حاضر أو كان لغيره، كل من سأل ما لا يقدر عليه إلاَّ الله. وهذا الضَّابط أحسن من أن تقول: (سؤال ما لا يقدر عليه المخلوق) فالأحسن أن تُعبر بقولك: (ما لا يقدر عليه إلا الله)، ولو عبر أحدٌ بالثَّاني لا بأس؛ لكنَّ المراد: ما لا يقدر عليه جنس المخلوقين، ليس هناك نظر ها هنا إلى المخلوق باعتبار ذاته؛ فقد يكون هو غير قادر، كأن تسأل شخصًا ضعيفًا أن ينصرك على شخص قوي فإنَّ هذا ليس شركًا، أمَّا أن يُسأل المخلوق شيئًا لا يقدر عليه المخلوقون البتة كهداية القلوب، ومغفرة الذنوب، وخلق القدرة على الأشياء، أو إعطاء الولد ونحو ذلك؛ فإنَّ هذا لا شك أنَّه شركٌ أكبر، وتفاصيل هذه المسائل مرت بنا فيما سبق وفي دروسٍ أُخرى أيضًا.

لكن هنا يقول المؤلف -وانتبه إلى ما قال- «**ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء والأنبياء وغيرهم** -إذن هذا دعاءٌ لأموات- **أو في غيبتهم** -دعاءٌ لأحياء غائبين- **في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله**»؛ انتبه! دُعاء ميتٍ أو غائبٍ ما لا يقدر عليه إلاَّ الله.

هذه الجملة الأخيرة هل لها مفهوم أو هي غير مفهومةٌ؟ هذه ليس لها مفهومٌ؛ بمعنى: هل نقول إنه لو سأل الإنسان ميتًا أو حيًا غائبًا شيئًا يقدر عليه المخلوقون لا يكون هذا شركًا؟

الجواب: لا، قطعًا؛ ليس هذا مراد المؤلف ولا مراد من يذكر مثل هذه الجملة من أهل العلم؛ إنَّما مراد أهل العلم حينما يذكرون هذا: حكاية واقع

القبوريين ؛ فإنَّ القوم شركهم مُضاعف ! لم يكتفوا أن يسألوا أمواتـًا أو غائبين ما يقدر عليه المخلوقون ، بل زادوا على هذا أن سألوهم ما لا يقدر عليه إلاَّ الله ، فصار شركـًا مُضاعفـًا. هذا هو واقعهم؛ فإنَّ أكثر ما يسألون -والشَّواهد عندنا كثيرةٌ- أكثر ما يسألون يسألون ما لا يقدر عليه إلا الله، ومن ذلك سؤال الشفاعة؛ ألا تدخل في ما لا يقدر عليه إلا الله؟ الجواب: بلى ، لأنَّ الشفاعة مِلكٌ لله ﷻ ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] . إذن هذا الَّذي يُوجَّه به كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ، وإلاَّ فإنَّ سؤال الميت مطلقـًا أو سؤال الغائب مطلقـًا شرك ، وسؤال ما لا يقدر عليه إلا الله شرك ولو كان سؤالاً لحيٍ حاضر ، لو جاء شخصٌ إلى وليٍّ يعتقد فيه وهو أمامه ويجالسه ويسمع كلامه فسأله أن يُنْزِلَ المطر أو أن يرزقه الولد؛ ماذا نقول؟ أوَ يُخالف مسلمٌ في أنَّ هذا شرك؟ لا يخالف أحدٌ في هذا.

إذن ينبغي أن نتنبه إلى مثل هذه التَّفاصيل والدَّقائق. وأحسن شيءٍ لطالب العلم إذا كان في مقام بيان مسائل التوحيد أن يُفصِّل ويدقق ؛ فإنَّ النَّاس يستشكلون العبارات الَّتي فيها شيءٌ من الإيهام ، أو شيءٌ من الإبهام، ربما أوقعت في نفوسهم شيئـًا لا سيما في هذا العصر ، فإنَّ أعداء التوحيد يقتنصون مثل هذه الجمل الَّتي فيها إيهامٌ أو إبهامٌ أو عمومٌ أو خصوصٌ غير مقصود ويؤثر في الفهم؛ فإنهم يقتنصون مثل هذا ويلبِّسون على الناس؛ فأحسن شيءٍ لطالب العلم أن يوصل العلم بطريقةٍ سهلةٍ مفهومة ودقيقة أيضـًا.

قال المصنف رحمه الله:

إذا ثبت ذلك؛ فاستغاثتهم بالأنبياء يوم القيامة يُريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف وهذا جائز في الدنيا والآخرة، أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك تقول له: ادع الله لي ، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه في حياته.

قال الشارح وفقه الله:

يريد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يقول: إنَّ حقيقة الحال في أحاديث الشفاعة يرجع إلى أمرين؛ يعني إذا أردنا أن نُحلِّل تلك الأحاديث فإنها تَنْحَلُ **إلى أمرين**:

❁ **الأول**: أنَّ السؤال ها هنا من حيٍ لحي ؛ السَّائل حي ، والمسؤول حي ، وكلاهما حاضر؛ هذا حاضرٌ عند هذا ، وهذا حاضرٌ عند هذا؛ فليس هذا من سؤال حيٍ لميت ، وليس سؤالاً من حيٍ لغائب؛ إذن خرج هذا عن كونه داخلاً فيما نُهي عنه . ولا شك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا الناس الذين يُسألون أنهم أحياء في ذلك المقام، بل حياتهم ثمة أكمل من حياتهم في هذه الدنيا، ولذلك لم يخرج عن كونه سؤالاً من حيٍ لحيٍ حاضر.

❁ **الأمر الثاني**: أنَّ المسألة توجهت إلى شيءٍ يقدر عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وهو كونهم يسألون الله ﷻ الإذن بالشفاعة ، وهذا ما كان من نبينا محمدٍ ﷺ الَّذي يقول: «أنا لها» ثم يستأذن ربه تبارك وتعالى في ذلك ؛ فلم يكن الأمر سؤالاً لشيءٍ لا يقدر عليه إلا الله ، إنَّما كان شيئًا يقدر عليه المخلوقون . والأنبياء عليهم الصلاة والسلام الَّذين سبقوا النبي عليه الصلاة

والسلام فاعتذروا إنَّما اعتذارهم لوجود مانعٍ ، لا لأن الأمر خارجٌ عن قدرة المخلوقين ، إنما كان لوجود مانعٍ كما تدل عليه الأحاديث.

❁ **وأضف إلى هذا أمراً ثالثـاً**: هذه الأحاديث متى تكون؟ يوم القيامة ، وما يوم القيامة؟ إنه اليوم العظيم الَّذي يظهر فيه للنَّاس من عظمة الله وجبروته وقدرته وسلطانه ما تنخلع عنده القلوب ، كما يظهر لهم جليًّا ذُل المخلوقين وضَعفهم وأنَّهم لا يملكون لأنفسهم شيئًا فضلاً عن أن يملكوا لغيرهم شيئًا؛ إذن السؤال والدعاء في ذاك المقام مأمونٌ فيه التفات القلب إلى المخلوقين ، بخلاف الحال في الدنيا ؛ فإنَّه لم يظهر للنَّاس من هذا الأمر ما يكون وما يظهر يوم القيامة ، فالقلوب تلتفت إلى المدعوين ؛ وهذا شركٌ .

إذن قياس الحال على الحال قياسٌ مع الفارق ، **قياس حال إنسانٍ في هذه الدار الدنيا يسأل إنسانًا في دارٍ أُخرى هي دار البرزخ حالٌ مُفترقة من هذه الأوجه الثَّلاثة:**

❁ **الأول** : أنَّ السؤال من حي لحي حاضر .

❁ **الثاني** : أنَّ المسألة توجهت إلى شيءٍ يقدر عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

❁ **الثالث**: أنَّه في يوم القيامة يُؤمَنُ التفات القلوب إلى المخلوقين مع ما يكون في ذلك اليوم مما شرحتُ لك .

قال المصنف رحمه الله:

إذا ثبت ذلك، فاستغاثتهم بالأنبياء يوم القيامة يُريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف وهذا جائز في الدنيا والآخرة، أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك تقول له: ادع الله لي كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه في حياته .

قال الشارح وفقه الله:

إذن؛ الَّذي سأله النـاسُ الأنبياء هو أن يسألوا الله تبارك وتعالى الإذن بالشفاعة ؛ فيقول هذا يُشبه ما يكون في الدنيا من سؤال الإنسان لأخيه الحي الحاضر أن يدعو الله له ، ومثل هذا -يقول الشيخ- لا بأس به ، ولا شكَّ في ذلك أنَّه لا بأس أن تسأل أخاك المسلم الَّذي يسمعك وأنت جليسه فتقول له : "ادع الله لي" .

وينبغي أن يُراعى في هذه المسألة أمران:

- **الأمر الأول:** أن يَقْصُدَ طالبُ ذلك نفعه ونفع المسؤول ؛ لا أنْ يَقْصُدَ نفع نفسه فقط ، فإنَّ مثل هذا جائزٌ وتركه أولى.

- **الأمر الثاني:** ألا يتخذه الإنسان دَيْدَنًا له ؛ فإنَّ هذا ليس من فعل السلف الصالح ؛ كونه كلما لقيَ أخاه قال: "ادع الله لي، ادع الله لي" ؛ هذا ليس من سيرة وسنة السلف الصالح.

ويدل على ما ذكرت لك: ما أخرج الإمام مسلمٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه»: أنَّ أم

الدرداء رضي الله عنه قالت لصفوان بن عبد الله : « أَتُرِيدُ الْحَجَّ الْعَامَ فَقُلْتُ نَعَمْ. قَالَتْ: فَادْعُ اللهَ لَنَا بِخَيْرٍ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ». فتلاحظ أن أم الدرداء رضي الله عنها عنها لاحظت الأمرين؛ نفع السائل الَّذي هو نفسها، ونفع المسؤول، أن تقصد أنك إذا قلت له: "ادع الله لي" أن الملك يقول: «ولك بمثله» فينتفع هو وينتفع أخوه ، وهذا حصل لمَّا علِمت أنه يريد الحج ، فوُجد السبب المُقتضي لمثل هذا الأمر ، ولم يكن هذا ديدنًا ودأبًا لها أو لغيرها من الصحابة رضي الله عنهم ، فمثل هذا لا بأس به.

قال رحمه الله: «**أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك تقول له: "ادع الله لي" كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه** -في بعض النسخ (يسألونه ذلك) -**في حياته**» ؛ كانوا في حياته يفعلون ، في الجملة كان هذا حاصلاً من الصحابة رضي الله عنهم ، والأحاديث في هذا كثيرة ، لو تأملتَ في الصحيحين فقط لوجدت من هذا عدداً من الأحاديث ؛ فيه أنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يسألون رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم ؛ من ذلك مثلاً:

- سؤال عمر رضي الله عنه رسول الله ﷺ أن يدعو الله لأمته أن يُوَسِّع عليها.
- من ذلك: سؤال أبي هريرة ادع الله أن يحببني وأمي إلى المؤمنين ، ويحبب المؤمنين إلينا. ونحمد الله أننا نحب أبا هريرة رضي الله عنه ونحب أمه، ونسأل الله أن يجعلنا من المؤمنين؛ من أهل كمال الإيمان.

◉ كذلك سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما مرض رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ و زاره وعاده رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «ادع الله لي ألا أُردَّ على عقبي».

◉ من ذلك: أيضـًا سؤال عكاشة بن محصن أن يجعله الله من السبعين ألفـًا.

◉ من ذلك: أم حرامٍ بنت مِلحان حينما سألت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن تكون من الغُزاة في البحر.

◉ من ذلك: سؤال المرأة التي كانت تُصرع أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ لها أنها إذا صُرعت ألَّا تتكشف.

في أحاديث على هذا النسق كثيرة ؛ فهذا حاصلٌ من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ .

والسؤال: كان هذا حاصلاً منهم في حياته؛ فماذا كان بعد وفاته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟

أيستطيعون أن يثبتوا حديثـًا واحداً فقط فيه أنَّ أحداً من الصحابة أتى قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فسأله أن يدعو الله لهم أو له؟ فضلاً عن أن يسألوه أن يكشف كُروبـًا ويُنفِّس هُمومـًا ويقضيَ دُيونـًا ويشفيَ مرضى إلى آخر ما يفعله هؤلاء القبوريون؟ هل يستطيعون أن يثبتوا ولو حديثـًا واحداً وقبر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بين ظهرانيهم وليس بينهم وبين هذا القبر مفاوز يشق عليهم الوصول إليه ، هو بين ظهرانيهم؛ ومع ذلك ما وجدنا صحابيـًا واحداً فعل هذا الأمر، في مقابل أنَّه في حياته قد فعلوا. إذن هل ثمَّة فرقٌ مُؤثر أم لا ؟ الجواب: بلى والله؛ وهذا إجماعٌ من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ على ترك دعاء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عند قبره ، فضلاً عن أن يكون دعاءً

بعيداً عن قبره .

إذن؛ الأمر ما سمعت من أنَّ ثمة فرقًا مُؤثرًا في هذا المقام بين حياة النبي ﷺ وحياة غيره ، وكذلك بالنسبة للأنبياء والأولياء . أما وُجد لهم حاجات! أما نزلت بهم أمورٌ وأمور! أما قُحِطوا واحتاجوا أن يستسقوا في عهد عمر رضي الله عنه! وهل أتوا القبر فسألوا؟ أما نزلت بهم تلك الواقعة العظيمة وهي وقعة الحَرَّةِ في زمن يزيد بن معاوية في سنة ثلاثٍ وستين -أمرٌ عظيم- أكان من أحدٍ من السلف في ذلك اليوم ذهابٌ إلى قبره واستغاثةٌ به ﷺ كما يفعل القبوريون؟

يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر

ويتواصون فيما بينهم: "إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور" ؛ أفعل واحدٌ من الصحابة رضي الله عنهم قط ذلك؟ ألم يكن منهم من يمرض! من يحتاج! من عليه دين! من أصاب ابنه مصيبة! أما كانت تنزل بهم أمور! لماذا ما ذهب واحدٌ قط لا من الصحابة ولا من التابعين ولا من أتباع التابعين ، لا أحد من أهل القرون المفضلة قصد قبر رسول الله ﷺ فسأله على الأقل أن يدعوَ الله لهم؛ وهم كانوا يفعلون في حياته .

ألا يدلك هذا -حينما يوجد المقتضي ويزول المانع- على أنه أمرٌ لا يجوز؛ بل منكرٌ غاية النكارة؟! أما كانوا يحبون رسول الله ﷺ؟ أما كانوا يعظمونه؟ أما كانوا يعرفون قدره؟

إذن هذا برهانٌ يقينيٌ قطعيٌ يدلك على مدى ضلال هؤلاء القبوريين ، ولو لم يكن من دليلٍ عندنا إلا هذا والله لكفى ، فكيف والأدلة سوى هذا بالعشرات.

قال المصنف رحمه الله:

أمَّا بعد موته ﷺ فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره.

❁ ❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

فضلًا على أن يكون بعيدًا عنهم ؛ كما يفعلون .

النَّبهاني في كتابه «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق»؛ أرأيتم محادة لله ولرسوله ﷺ كهذه المحادة؟ «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق»؛ نَقل عن مخطوطةٍ محفوظةٍ في بعض بلاد الشام ذكر أنها للتقيِّ السبكي يشتكي فيها إلى رسول الله ﷺ من ابن تيمية، يرسل رسالة من الشام إلى المدينة مع أحد الأشخاص الذين يريدون الذهاب إلى الحجاز في الحج ويقول: خُذ هذه الرسالة وأوصلها إلى رسول الله ﷺ ؛ والعجيب في هذه الرسالة أنَّه أول شيء يُعرِّف بنفسه، وأنَّه فُلان ونشأ كذا ودرس كذا وقرأ كذا وتعلم كذا، واشتغل بعد ذلك بالعلم بكذا وكذا ، وقد ظهر لنا ابن تيمية؛ هذا الرجل يقول في المسائل الفلانية كذا ، وفي المسائل الفلانية كذا ، وفي المسائل الفلانية كذا، ثُمَّ مات - هذه كتبها بعد وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما يذكر النبهاني والعهدة عليه، أنه كتبها سنة إحدى وخمسين وسبعمئة يعني بعد وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية بسنواتٍ طويلة- فالشاهد يقول ضاق صدره لما قرأ شيئًا من كتاب درء التعارض ، وزعم أنه كتب بعض التعليقات عليه ؛ فرد أتباع ابن تيمية عليه وأصابه غيظ عليه ، فهو تضايق من هذا وأرسل هذه الرسالة يشتكي إلى النبي ﷺ ويقول فيها : (فإن كنتُ مصيبًا فقوني؛ وإن كنتُ مخطئًا فاهدني) .

سبحان الله!! ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ، أما كان يقرأ هذه الآية؟ أما كان يحفظها؟ الظن أنه كان يحفظها؛ لكن ما تملك إلا أن تقول: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] .

والعجيب؛ أين العقل؟ إن كان رسول الله ﷺ قادرًا على أن يقويك إن كنت مصيبًا، أو أن يهديك إن كنت مخطئًا؛ ما حاجته -إن كان بهذه المثابة ووصل إلى هذه الدرجة التي يشارك فيها الله ﷻ فيما يختص به- ما حاجته ﷺ في أن تعرِّف بنفسك وتحكي حال ابن تيمية وكان منه وفعل وترك ؛ المفروض أن هذا عنده معلوم؛ لكن مناقضةٌ للعقل كما هي مناقضته للشرع . والحمد لله الَّذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله؛ والله إنها لمصيبة أن يصل الإنسان في عقله ودينه إلى هذه الدرجة والله المستعان .

ارجعوا إلى هذه الرسالة في كتاب الألوسي رَحِمَهُ اللهُ في رده على النَّبهاني، في كتابه العظيم «غاية الأماني في الرَّد على النَّبهاني» ؛ فإنَّ هذا الكتاب كتابٌ نافعٌ مُفيد في مسائل التوحيد والرَّد على المشركين.

قال المصنف رحمه الله:

بل أنكر السلف الصالح على من قصد دعاء الله عند قبره؛ فكيف بدعائه نفسه ﷺ.

قال الشارح وفقه الله:

يقول السلف أنكروا على من يدعو الله عند قبر النبي ﷺ ؛ فكيف بأن يدعو النبي ﷺ!! دعاء الله عند القبر بدعة ، أمَّا دعاء النبي ﷺ فإنه شرك ؛ فإنكار هذا سيكون منهم أعظم .

وأورد المحقق(١٥) -جزاه الله خيراً- هذا الأثر قال: «**من ذلك ما جاء عن علي ابن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجةٍ كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو؛ فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ أنه قال: " لا تتخذوا قبري عيدا ولا بيوتكم قبورا، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم "**» ؛ هذا الرجل جاء يدعو عند قبر النبي ﷺ في فرجة كانت موجودة في ذاك الوقت بقرب حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ؛ فنهاه هذا الإمام الجليل علي بن الحسين زين العابدين؛ الذي هو حفيد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن سادة آل البيت -رحمة الله تعالى عليه- فكان له قُرب النسب وقُرب الدار.

وقريبٌ من هذا الأثر: الأثر الذي جاء عن ابن عمه ، من أبناء عُمومته الحسن بن الحسن بن علي؛ حينما رأى رجلاً وهو سُهيل بن أبي سُهيل جاء عِند

---

(١٥) [ص ٩٥، تحقيق: د. دغش العجمي] .

القبر يُسلِّم -فقط يسلِّم- الأول كان يدعو بينما هذا جاء يسلِّم؛ والحسن بن الحسن كان يتعشى في بيت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فرآه فقال: هَلمَّ إلى العشاء فقال: لا أريد ، قال: ماذا جئت تصنع؟ قال: جئت أسلِّم -يعني على النبي ﷺ- قال: فإن النبي ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيدا ولا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم ، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ، ثم قال: ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء . انظر كيف كان من توفيق الله ﷻ أنَّ مثل هذه التوجيهات العظيمة خرجت من آل بيت النبي ﷺ الَّذين لهم قرب النسب وقرب الدار برسول الله ﷺ ؛ كيف كانوا حريصين أشد الحرص على سدِّ أي ذريعة يُمكن أن تخدش التوحيد ، مُجرد التردد على قبر النبي ﷺ للسلام فضلاً عن دعاء الله هناك ومع ذلك ينكرونه ؛ إنَّما الأمر الَّذي رُّخص فيه أن تسلم على النبي ﷺ إذا جئت من سفر أو أردت سفرًا ، كما كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يفعله، هذا الذي جاء عن ابن عمر فمثل هذا مُرخصٌ فيه ، أمَّا أنَّ القاطن في المدينة كُلَّما دخل أو كلما خرج من المسجد قصد القبر فسلَّم فهذا مما كان السلف رحمهم الله يعدونه من البدع ، وأنكره الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره .

المقصود -يا إخوة- انظروا إلى هذا النقاء وإلى هذا الصفاء ، انظروا إلى أنوار التوحيد العظيمة التي كانت فاشيةً في زمن السلف الصالح رحمهم الله ؛ انظروا كيف عاد الأمر عند أولئك القبوريين ظلمات بعضها فوق بعض من الشرك والبدع والضَّلالة ، نعوذ بالله من هذه الحال ، ونسأله الثبات على التوحيد والسنة . والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله:

ولهم شبهة أخرى؛ وهي: قصة إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار اعترض له جبرائيل في الهواء؛ فقال: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا؛ قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركًا لم يعرضها على إبراهيم.

قال الشارح وفقه الله:

هذه خاتمة الشبهات، وهي **الشبهة الرابع عشرة**، وهي قريبةٌ من الشُبهة الماضية، وحاصلها: أنهم يستدلون بقصة يذكرون أنها حصلت مع الخليل إبراهيم عليه السلام؛ وهي أن جبريل عليه السلام عرض عليه أن يغيثه؛ فلو كانت الاستغاثة بالمخلوق شركًا ما عرضها جبريل عليه السلام! فإنَّ الملائكة معصومون من الشرك ومن أن يعرضوا الشرك.

وإن تعجب فاعجب لما يستدل به هؤلاء القبوريون المشركون؛ فأنت ترى أنه قد تجارى بهم الهوى حتى صاروا يتشبثون بأي شيء، فلو كان في الوَهَنِ كبيت العنكبوت؛ ومن ذلك هذه القصة وهذا الاستدلال، الحمد الله الَّذي رد احتجاجهم إلى مثل هذا القدر.

والرد على هذه الشبهة خلاصته أنه من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن هذه القصة لا تصح بحال، بل هذه قصةٌ لا أصل لها، قد وصفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «الرد على الشاذلي» بأنها أثرٌ إسرائيليٌ لا أصل له، وجاء عنه أيضا: أنه وصفها بالوضع؛ أن هذا كلامٌ موضوع، يعني مكذوب، وأرفع ما في ذلك أنها من أقوال بعض السلف، وقد

أسند ابن جريرٍ في «تفسيره» هذه القصة عن مُعتَمِر بن سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ شيخ الإمام أحمد وإسحاق ويحيى وهذه الطبقة عن بعض أصحابه، هكذا غُفلاً عن ذكر هؤلاء الأصحاب ، عن بعض أصحابه ثم ساق هذه القصة، ولكن فيها: «أنه عرض جبريل هذا على إبراهيم لما أُوثق» ، يعني لما أوثق عُرض عليه ذلك وليس أنه لمّا كان في الهواء ، وكذلك رواها بعض أهل العلم عن كعب الأحبار، وذكرها الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «الآداب الشرعية» لابن مفلح ، إلى غير هؤلاء؛ فهي لا تعدو أن تكون قصةً يذكرها أهل العلم، وأنت خبيرٌ بأن مثل هذا لا حجة فيه؛ الحجة في كلام الله وفي كلام رسوله ﷺ ، وهذه القصة لا أصل لها في كتاب الله، ولا في ما ثبت عن رسول الله ﷺ ، ولا أيضا في كلام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فالاستدلال إذن ساقط.

۞ **الوجه الثاني:** أن هذه القصة مع سقوط حجيتها مخالفةٌ للصحيح الثابت ؛ فالصحيح الثابت كما في البخاري عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ألقي في النار ، فهذه هي مقالته وليست أنه قال: «أمّا إليك فلا» ؛ قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

۞ **الوجه الثالث:** أننا لو سلَّمنا جدلاً لصحة هذه القصة فإنَّ الاستدلال بها على جواز الاستغاثة الشركية استدلالٌ باطل؛ فالقصة بهذا القدر الذي ذكروا لا إشكال فيها، بيانُ ذلك: أنَّ العرض الذي حصل بالإغاثة كان من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وما حال جبريل في هذه القصة؟ حيٌ حاضرٌ قادر، إذن ما الإشكال؟! ومن ينازع أصلاً في جواز أن يَعْرِضَ حيٌ حاضرٌ قادرٌ إغاثة أو إعانة غيره!! هذا لا إشكال

فيه. فالجواب عن هذه الشبهة كالجواب عن الشبهة السابقة؛ فالاستغاثة التي حصلت أو التي تحصل من الناس يوم القيامة بالأنبياء استغاثةٌ بأحياء حاضرين قادرين ، وليس هذا موضع النزاع مع المشركين.

وأنبِّه إلى أنَّ هذه القصة بالقدر الذي ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهو الذي جاء أيضا في «تفسير الطبري» وفي غيره- انتهت القصة عند هذا الحد «أما إليك فلا» ، ومفهوم هذا أن حاجته إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ . وهذا ليس بمستغرب على خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ فهو الذي عَظُمَ توحيده وتوكله على الله تبارك وتعالى . لكن لهذه القصة في بعض المصادر تتمةٌ باطلة؛ وهي أن جبريل قال له: «فسل ربك؛ فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي» ؛ فكأنَّ هذا الكلام يفيد أنَّه لا حاجة إلى الدعاء ، فعِلم الله عَزَّ وَجَلَّ بحال عبده كافٍ ومغنٍ عن الدعاء؛ وهذا من أبطل الباطل، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام كم جاء عنه في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ من الدعوات؟ شيءٌ كثير ، فكيف يقال هذا؟ كيف يُظن أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يخبر باستغنائه عن الدعاء؟ وهو يعلم أنَّه محبوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنه سبب موصلٌ إلى المقصود ، بل وأن الله عَزَّ وَجَلَّ يغضب على من يدع سؤاله «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ» هكذا ثبت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المقصود: أن هذا الأثر تحكيه الصوفية في مقام التزهيد في الدعاء ؛ وهذا باطل مخالفٌ لكتاب الله ولسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولإجماع أهل العلم؛ فتنبه يا رعاك الله . إذن هذه القصة فيها قدرٌ مسلَّم وفيها قدرٌ غير مسلمٍ بل هو باطل. ومن أهل العلم من يكتفي بالشطر الأول ، ومنهم من يذكر الشطر الثاني ، والعلم

عند الله ﷻ.

قال المصنف رحمه الله:

فالجواب: إن هذا من جنس الشبهة الأولى؛ فإن جبرائيل عليه السلام عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه فإنه كما قال الله فيه ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]. فلو أذن الله له أن يأخذ ناره وما حولها من الأرض والجبال ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل، ولو أمره الله أن يضع إبراهيم عليه السلام في مكان بعيد عنهم لفعل؛ ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل.

وهذا كرجلٍ غني له مال كثير يرى رجلا محتاجا فيعرض عليه أن يقرضه أو يهبه شيئا يقضي به حاجته ؛ فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ ويصبر إلى أن يأتيه الله برزق لا منة فيه لأحد .

فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون؟

قال الشارح وفقه الله:

لا شك ؛ فجبريل عليه السلام -كما ذكرنا - حيٌّ حاضر قادر ، فهو في غاية القوة؛ حتى وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ [التكوير: ٢٠] ، ووصفه بقوله كما سمعت ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ، وإعانته -أعني إعانة إبراهيم عليه السلام في إنجائه من هذه النار- أمرٌ مقدورٌ له -عليهما الصلاة والسلام-. وذكر لك المؤلف رحمه الله أنّ من قدرته ما سمعت ، بل جاء عن جمعٍ من السلف -وإذا رجعت إلى كتب التفسير وجدت هذا- في تفسير الآيات الواردة في قوم لوط؛ أن جبريل عليه السلام -إن صح ما ذكروا- قد اقتلع قرى قوم لوط ورفعها إلى السماء، ثم قلبها وهوى بها إلى

الأرض؛ فمثل هذا ميسور لجبريل ﷺ، قد أقدره الله ﷻ عليه ؛ فكيف بما دونه؟ وهو ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ، وهو عظيم الخلقة ، رآه النبي ﷺ فكان من عظمته في خلقته أن سد الأفق ، وأتاه الله ﷻ من هذه القوة والقدرة ما سمعت وفوق ما سمعت ؛ فمثل هذا لا إشكال في كونه يعرض الإغاثة ، ولا إشكال لو قُبِل ذلك منه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وهذا كرجلٍ غني له مال كثير يرى رجلا محتاجا فيعرض عليه أن يقرضه أو يهبه شيئا يقضي به حاجته ؛ فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ ويصبر إلى أن يأتيه الله برزق لا منة فيه لأحد**). ولا شك أن هذا هو الأكمل ، لكن لو أخذ! هل يكون مشركا؟ لا يكون مشركا بالنص والإجماع.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون؟**) لو كانوا يفقهون!! ولكن الهوى أعماهم وأصمهم ؛ أين هذا عما نبحث فيه؟ نحن نبحث في دعاءٍ شركي، وهو دعاء الأموات والغائبين والأحياء الحاضرين فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ ؛ فهذا هو الشرك الأكبر المخرج من الملة.

قال المصنف رحمه الله:

ولنختم الكلام -إن شاء الله- بمسألة عظيمة مهمة تُفهم مما تقدم؛ لكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها ولكثرة الغلط فيها فنقول: لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل ، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما.

قال الشارح وفقه الله:

هذه خاتمةٌ حسنةٌ جليلة، قد أحسن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ما شاء الله أن يحسن في ختم هذه الرسالة بهذه الخاتمة ، وهذه الخاتمة فيها بيان العمل بالتوحيد بعد بيان العلم بالتوحيد.

وأنتَ إذا تأملتها وجدت أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قد ذكر فيها خصوصاً -وفي هذه الرسالة عموماً- خلاصة التجربة التي مر بها في دعوته للتوحيد ، ومقارعته لأهل الشرك، وما عاناه من النَّاس في سبيل هذه الدعوة ؛ فأعطاك في هذه الرسالة الخلاصة ، وإلا فيمكن لباحثٍ نبيه أن يعيد نثر هذه التنبيهات والتوجيهات - ومرَّ بنا الكلام عن طائفةٍ منها- أن يعيد نثرها وبيانها وشرحها من خلال كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ نفسه في مؤلفاته وفي رسائله ؛ ليتضح لك أن هذه الرسالة قد أودع فيها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ خلاصة التجربة الدعوية له رَحِمَهُ اللَّهُ إن صح هذا الوصف أو لم يكن فيه شيءٌ من المبالغة .

فالمقصود: أنَّ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أراد بعد أن بيّن لك علم التوحيد أن ينبهك على أنه قد حان وقت العمل بالتوحيد ، فحذارِ من ترك ذلك؛ فكم من الناس قد

عِلموا حقيقة التوحيد ولكنهم خُذلوا، فما انقادوا لهذا الحق ؛ فأراد أن ينبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على شيءٍ من الصوارف التي قد تصرف عن اتِّباع الحق والتوحيد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ولنختم الكلام -إن شاء الله- بمسألة عظيمة مهمة تُفهم مما تقدم؛ لكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها ولكثرة الغلط فيها**»؛ في مسائل العلم ما عظُم شأنه حسُن إفراده وتخصيصه بالتنبيه . المسائل الجليلة من مسائل العلم لا يحسن الاكتفاء بعرضها في درج الكلام وفي أعطاف الأسطر، بل إبرازها وتخصيصها بالتنبيه والتكرار هذا من مسالك التعليم الحسنة؛ حتى تُحفظ وحتى يكون لها رسوخ في نفوس المتعلمين ، وهذا ما كان من الشيخ -جزاه الله عنا خيراً-.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لا خلاف**» المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحكي إجماع أهل السنة على «**أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل**»؛ نعم! لا يكفي واحدٌ من هذه الثلاثة عن بقيتها .

◉ لا بد أن تُوَحد الله ﷻ بلسانك؛ فتشهد أن لا اله إلا الله ، ومع القدرة إذا تُرك التلفظ فإنه لا توحيد ولا إسلام .

◉ ولابد من توحيدٍ في القلب؛ لابد من اعتقاد انفراد الله ﷻ بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته .

◉ ثم لابد من توحيدٍ لله ﷻ بالعمل؛ لا بد أن تعبد الله ، ولابد أن تعبد الله مخلصاً له الدين ، لابد من شيء ؛ من عمل الجوارح تتعبد به لله ﷻ موحداً فيه

مخلصًا فيه لله تبارك وتعالى، وإلا فالاكتفاء بما فيه القلب واللسان لا ينجي صاحبه عند الله ﷻ، فلو صحَّ ما في القلب وصدَق ما في اللسان فلا بد من أن يظهر أثر ذلك على الجوارح، «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ».

والقاعدة عند أهل السنة -كما تعلمون-: أن كل إيمانٍ فلا بد له من قدرٍ من الإسلام يصححه، ولكل إسلامٍ لا بد من قدر من الإيمان يصححه؛ الإسلام هو الظاهر، والإيمان هو الباطن؛ لابد لكل إسلامٍ من إيمانٍ يصححه، ولا بد لكل إيمانٍ من إسلامٍ يصححه؛ وقد فصَّل هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الإيمان الكبير»، وهذا الكتاب حريٌّ بطالب العلم أن يدمن النظر فيه؛ إنه من أحسن الكتب التي بيَّنت حقيقة الإيمان عند أهل السنة وردَّت على المخالفين؛ إن لم يكن أحسنها.

قال: «**فإن اختل شيءٌ من هذا لم يكن الرجل مسلمًا**» لم يكن مسلمًا من الأصل؛ (إذا اختل) بمعنى: فُقِد واحد من هذه الثلاثة؛ فعُدم عنده قول اللسان، أو اعتقاد القلب، أو عمل الجوارح بالكلية، أو أنه عمل بجوارحه لكنَّه أشرك مع الله.

فترك العمل بالتوحيد يتجلى في صورتين:

- في أن يستكبر ويدَع العمل بالكلية.
- أو أن يعمل ولكنه يشرك في شيءٍ من العمل، وأعني بـ«يشرك» يعني

يشرك الشرك الأكبر، فهنا اختل بل فُقِد توحيده.

قال المصنف رحمه الله:

فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما.

❊ ❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

فرعون وقبله إبليس أكبر الكفار ما أوتي ولا أوتي فرعون من جهة الجهل، بل كان فرعون وكان إبليس وهكذا اليهود وكثيرٌ من المشركين وهكذا غيرهم إنما أُتوا من جهة الاستكبار لا الجهل ؛ أُوتي هؤلاء من جهة الاستكبار عن إتباع الحق والتوحيد لا من جهة الجهل.

فاليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وفرعون يعلم الحق هو وقومه ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] ؛ فما أوتي من جهة الجهل بل إنه بلغ درجة الاستيقان هو وقومه ، ولكنه الكِبر. وقُل مثل ذلك في أبي طالب؛ فإنه قد علم الحق وأظهر مكنون نفسه أيضا في نثره وشعره! ولكنه أبى واستكبر فمات على الكفر وعلى ملة عبد المطلب. وقُل مثل ذلك في كثير من المستشرقين في هذا العصر ما أُتوا من جهة الجهل إنما أُتوا من جهة الاستكبار ؛ فما عملوا بالتوحيد ، هم يعلمون الحق ولكنهم يستكبرون عن اتباعه.

قال: «كفرعون وإبليس وأمثالهما»؛ إبليس سمع أمر الله ، تَلَقّاه منه جل وعلا مباشرة؛ فكانت النتيجة أن ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]؛ وقس على هذا.

قال: «وهذا يغلط فيه كثيرٌ من الناس» ؛ ابتُلِيَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عصره بأناسٍ على هذه الشاكلة؛ علموا الحق، عرفوا التوحيد لكنهم ما عملوا به .

وكأني بالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلى هؤلاء ، ولو نظرت في رسائل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لوجدت شيئًا من ذلك في مؤلفاته في الجزء الأول ، لوجدت رسالتين أو أكثر في بيان حال هؤلاء أو مخاطبتهم؛ بأنهم عرفوا الحق وعرفوا التوحيد ولكنهم ما اتبعوه ، لم يكن عندهم شك في أنَّ دعوة التوحيد التي جاء بها ابن عبد الوهاب هي الدعوة الحقَّة ، ولكنهم ما التزموا بها ؛ إمَّا محاباة ومجاملة لأقوامهم ، وإما لخوف نقص شيءٍ من الدنيا عليهم -كما سيأتي بيانه في كلام المؤلف-؛ وإما لغير ذلك من الأسباب ؛ فوافقوا هؤلاء؛ وافقوا المشركين؛ إما وافقوهم عمليًا، وإما أفتوهم بجواز الشرك، وإما صححوا ما هم عليه من الشرك .

وبعضهم أحب أن يمسك العصا من الوسط -كما يقال- ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض رسائله عن بعض هؤلاء: «أنه سُئل عمَّا جاء به ابن عبدالوهاب؟ فقال: ما جاء به ابن عبدالوهاب هو دين الله ورسوله ﷺ. فقيل له: وماذا عمَّا عليه أهل حِرمة[١٦] ؟ فقال: ودين أهل حرمة دين الله ورسوله ﷺ». فعجب الشيخ المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هؤلاء الذين يصحِّحون هذا وهذا ، يجمعون بين الضب والنون؛ هذا حق وهذا حق وكله يعني كما يقولون بالعامية: "كله ماشي" تريد

(١٦) حِرمة : بلدة في نجد كان في أهلها في ذلك الوقت من يعمل أعمال المشركين ويعادي دعوة التوحيد.

تكون مع أهل التوحيد كن ، تريد أن تكون مع أهل الشرك كن؛ لا إشكال؛ كلها طرق توصل إلى الله -كما نسمع اليوم- تريد أن تكون مسلمًا ، يهوديًا ، نصرانيًا لا بأس كلها طرق توصل إلى الله؛ مقالةٌ فاسدةٌ كافرة ، بل الملة التي لا يقبل الله ﷻ سواها بعد بعثة محمدٍ ﷺ ليست إلا دين الإسلام ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

فهؤلاء يريدون أن يخلطوا الحق بالباطل؛ لأجل أن يكونوا مقبولين للطائفتين، لهؤلاء ولهؤلاء ، ما يريد أن يدخل في مشاكل كما يقال أو عداوات لا مع أهل الحق ولا مع أهل الباطل ، يريد في زعمه أن يكون متوسطًا بين الأطراف المختلفة .

ومسكينٌ هذا الإنسان فإنه قد أورد نفسه الموارد ؛ فإنَّ الكفر بالطاغوت شطر التوحيد وشطر الإيمان ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، لا ينفعك أن تعتقد أن الإسلام هو الحق وأن التوحيد حق الله أو أن رسول الله ﷺ رسولٌ من عند الله حتى تجمع إلى هذا اعتقاد بطلان كل عبادةٍ لغير الله وكل دينٍ سوى دين الإسلام وكل ما يعارض سنة محمدٍ ﷺ ، إذا لم تجمع هذا إلى هذا فإنك ما أتيت بالتوحيد ، وهذه مصيبةٌ عُظمى في هذه الأزمان -يا إخوتاه- ، وبيانها واجبٌ عليكم يا دعاة التوحيد ، فما أكثر التلبيس.

قال المصنف رحمه الله:

وهذا يغلط فيه كثير من الناس؛ يقولون هذا حق ونحن نفهم هذا ونشهد أنه الحق، ولكنا لا نقدر أن نفعله ، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم ، أو غير ذلك من الأعذار.

❁ ❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

«**لا يجوز عند أهل بلدنا**»؛ يعني لا يُرضيهم ولا يقبلون إلا من وافقهم ، سوف يعادوننا ، أو يطردوننا ، أو تذهب مكانتنا عندهم ، أو ما شاكل ذلك؛ لا يتقبلون ، جماعتنا أهل بلادنا قرابتنا قبيلتنا لا تقبل فماذا نصنع؟ لا بد أن نسايرهم ولا بد أن نجاملهم حتى تستقيم حياتنا ، وإلا فسيترتب على هذا مصاعب علينا وعلى أولادنا وعلى ضيعاتنا وعلى وظائفنا؛ فماذا نصنع؟ نماشيهم ونجاملهم ونوافقهم على ما هم عليه.

ليس أنهم سكتوا عن بيان الحق؛ فلهم في هذا سَعة عند عدم القدرة؛ أن تسكت عن بيان الحق وتنكر في قلبك؛ لكن المصيبة من هؤلاء أنهم يوافقونهم ويُظهرون الموافقة لهم مع أنهم ليسوا مكرهين ! ما وُضع السيف على رقبتهم ، إنما القضية قضية نقص في حظٍ دنيويٍ أو حظوةٍ عند هؤلاء؛ فاستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، قدَّموا العاجلة على الآجلة ، وأنت خبيرٌ بأنَّ الموافقة على الكفر كفرٌ ، يوافقوهم بتصحيح مذهبهم، بمشاركتهم فيما هم فيه، يمارس معهم طقوسهم الكفرية من باب المجاملة يقول: ماذا أصنع؟ ما أستطيع أن أخالفهم . فمسكينٌ من كانت هذه حاله؛ ولا ينفعه أن يقول "إنَّ قلبي مصدق بالحق

والتوحيد" لا ينفعه ذلك إذا كان قد وقع في ناقض من نواقض الإسلام.

وقد تبيّن لنا –يا إخوتاه– سابقًا أن مذهب أهل السنة والجماعة أن الكفر يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بالجوارح، ولا يُشترط اجتماع هذه الأمور، أو أن لا يكون كفرٌ ظاهرٌ إلا بكفرٍ باطنٍ يسبقه أو يصاحبه؛ لا يشترط هذا، بل لو كان في قلبه إيمان ولكنه يمارس بلسانه أو بفعله الكفر بدون أن يكون مُكرهًا ليس له عذرٌ شرعيٌ بهذا؛ فإن مثل هذا لا شك في كفره، كما أنه لو كفر بقلبه وحده كفر، كذلك لو كفر بجوارحه فقط كفر.

قال المصنف رحمه الله:

ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار .

قال الشارح وفقه الله:

نعم والله إنه لمسكين ! المسكين الذي هو أحق الناس بهذا الوصف: هو الذي لا يسعى في مصلحة نفسه . وهذا الذي يوافق المشركين على ما هم عليه مسكين، قد أورد نفسه المهلكة، وأبعدها عما فيه نجاتها؛ فهو والله إنه لمسكين.

قال: « **أنّ غالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيءٍ من الأعذار** » أي: التي يدَّعونها ولا تُغني عنهم من الله شيئا ، وسيأتي التمثيل على ذلك.

والغالب -كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ- على أعداء الرسل أن يكون كفرهم كفر إباءٍ واستكبار ؛ هذا هو الأغلب على أعداء الرسل، وليس الجهل ما يعرفون؟ لا ، يعرفون! لكن أغلب هؤلاء أُتوا من جهة الإباء والاستكبار؛ يعرفون الحق لكنهم لا يتبعونه ، ويتعذرون بأعذار يظنون أنها حجة ويظنون أنها عذرٌ لهم ، وهي لا تغني عنهم من الله شيئًا.

قال المصنف رحمه الله:

كما قال تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[التوبة: ٩] وغير ذلك من الآيات كقوله:﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[البقرة: ١٤٦] وقال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾[النحل: ٨٣].

قال الشارح وفقه الله:

هؤلاء يعرفون ولكنهم لا يعملون، وغالب هؤلاء أُتوا من جهة تعلقهم بالدنيا وتفضيلهم لها، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]، أُوتي هؤلاء من هذه الجهة.

والله ﷻ لما بيّن ذلك أفادنا هذا: بأن استحباب الحياة الدنيا على الآخرة أصلٌ من أصول الضلال التي تقود إلى الكفر وتوجب الخُسران؛ كون الإنسان يُقدِّم عاجلته على آجلته ويحرص على حظوظه الدنيوية ولو كان هذا على سبيل إيمانه -نسأل الله السلامة والعافية-.

قال المصنف رحمه الله:

فإن عمل بالتوحيد عملا ظاهرا وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه فهو منافق في الدرك الأسفل من النار، وهو شرٌ من الكافر الخالص كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

قال الشارح وفقه الله:

قال «**فإن عمل بالتوحيد عملا ظاهرا وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه**» ؛ الناس –يا إخوتاه– **ثلاثةٌ**:

- **أولهم**: الذي هو مؤمنٌ ظاهراً وباطنـاً ؛ وهذا هو الذي ينجو عند الله.
- **والثاني**: كافرٌ ظاهرًا ، وقد يكون في الباطن كافرًا، وقد يكون مصدِّقًا، ولكن النتيجة واحدة ، فلا فرق بين هذا وهذا.
- **والثالث**: أن يكون مؤمنـًا ظاهرًا كافرًا باطنـًا ؛ وهذه حال المنافقين .

وذكر الله ﷻ الأصناف الثلاثة في أوائل سورة البقرة.

هنا ينبه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ **إلى القسم الثالث**؛ بعد أن بين حال من عرف التوحيد ولكنه لم يعمل به، ذكر صنفـًا آخر وهو الذي يعمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه، قال: «**فهو منافق**» كيف يكون ذلك؟! لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه.

- **أولاً**: من لا يعتقد التوحيد بقلبه قد يكون ممن يفهم التوحيد ، وقد يكون ممن لا يفهم التوحيد . عامة المنافقين يعرفون التوحيد ولكن غلبت

عليهم شقوتهم فكانوا نصارى، كانوا يهوداً، كانوا مشركين، كانوا ملاحدة في الباطن ، لكن يُظهرون الإسلام وهم يعرفونه ، يعرفون التوحيد، يعرفون الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، ولكنهم اتبعوا الباطل، اتبعوا دينا في باطنهم خلاف الإسلام.

◉ وهناك من لا يعتقد بالتوحيد لأنه لا يفهمه؛ الاعتقاد فرعٌ عن المعرفة ، تعتقد شيئًا وأنت جاهلٌ به؟! لا تعتقد إلا ما تعلم وتعرف ، فإذا عرفته فإنك تجزم بقلبك به.

هنا ينبه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تنبيهًا مهمًا وهو: أن من لا يفهمه ، وهذا العدم -عدم الفهم- راجعٌ إلى الإعراض عن معرفته، والجهل الناشئ عن الإعراض عن معرفة الحق وعن تعلم الحق هذا الجهل ليس عذراً عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ قال تعالى -والحديث عن الكفار-: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]؛ أُتوا من جهة الإعراض عن تعلم الحق. وليس يخفاك أن العلم بما تكون به النجاة عند الله عَزَّوَجَلَّ فرضٌ لازم ، «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» ؛ فمن تمكَّن من العلم فأعرض زهدًا أو انشغالًا بغيره أو لأي سبب من الأسباب فإنه لا يكون معذوراً بهذا الجهل.

إذن؛ هناك طائفةٌ من الناس تعمل بالتوحيد عملاً ظاهراً ؛ يدعو الله وحده، هو في نفسه يدعو الله وحده؛ يصلي لله، يصوم لله، يتعبد لله، -طيب- ما المشكلة عنده؟ قال: «**لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه**»؛ هؤلاء مشكلتهم أنك تجدهم لا

يعرفون الكفر بالطاغوت ؛ لا يعرفون ما هو الطاغوت؟ وكيف يكون الشرك به؟ بالتالي فإنهم لا يكفرون في باطنهم بالطاغوت؛ بمعنى: لربما وجدت من يتعبد لله ﷻ وحده، لا يصدر منه الشرك، ولكن لو قيل له ما تقول في عُبَّاد الأصنام؟ ماذا تعتقد؟ فإنه يقول: لا أدري. أو يقول: لا بأس. أو يقول: أنا لا أتدخل في شؤون الآخرين. مع أن الذي يجب وجوبًا -بل هذا كما ذكرت شطر التوحيد- ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦] ما معنى «لا إله»؟ هذا الركن الأول من «لا إله إلا الله» ما معناه؟ الكفر بالطاغوت؟ اعتقاد بطلان عبادة غير الله، وأن كل معبودٍ سوى الله فإن عبادته باطلة، لا بد في قلبك من أن تعتقد ذلك . فإذا صحَّح ما عليه عُبَّاد غير الله، أو ترك اعتقاد بطلانهم؛ يقول: ما أدري ما حالهم؟ وسبب جهله راجعٌ إلى إعراضه عن التعلم وهو متمكنٌ من ذلك؛ فإن هذا في حكم المنافقين.

فإذا أدركت هذه المسألة أدركتَ عظم الحاجة إلى بيانها للناس ، ولا سيما في هذا الزمان مع كثرة تلبيس الملبسين، كثيرٌ أو بعض الناس تجد أن عنده توحيداً في الظاهر ولكن قلبه ما انطوى ولا اعتقد بطلان عبادة غير الله ﷻ ، في قلبه ما كفر بالطاغوت؛ فها هنا تكمن الخطورة. وهذا مما أحسن المؤلف رحمه الله في التنبيه عليه، لا يكفي أن تؤمن بالله حتى تجمع إلى هذا الكفرَ بالطاغوت.

قال المصنف رحمه الله:

فإن عمل بالتوحيد عملًا ظاهرًا وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه فهو منافق في الدرك الأسفل من النار؛ وهو شر من الكافر الخالص كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. وهذه المسألةٌ مسألةٌ طويلة تبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه أو مداراة، وترى من يعمل به ظاهرا لا باطنا؛ فإذا سألته عما يعتقده بقلبه فإذا هو لا يعرفه.

قال الشارح وفقه الله:

تسأله عما يعتقده في قلبه من التوحيد فإذا به لا يعرفه؛ وإذا لم يعرفه لم يعتقده، فما حصل منه التوحيد.

والأول قال: «**ترى من يعرف الحق ويترك العمل به**»؛ عند هذا عذر؟ نعم، ولا يكاد يخلو مبطلٌ من عذرٍ، وما أكثر الأعذار التي تُدَّعى.

قال: «**لخوف نقص دنيا؛ أو جاهٍ أو مداراة**»؛ يخشى أن ينقص عليه شيءٌ من الدنيا؛ يفوته شيءٌ من حظها؛ من مال، من منصب، من جاه، من وظيفة، من عقار، من شيءٍ من هذه الأشياء الدنيئة الحقيرة، أو ينقص جاهه؛ مكانته ومنزلته ورئاسته وإمامته تنقص، وأنت خبيرٌ بأن التَّشوف إلى هذه الأمور والتعلق بها من أشد الأشياء التي تتعلق بها القلوب؛ هذه اللذة التوهمية؛ **فاللذائذ -كما يذكرون-:**

❁ لذةٌ حسية ؛ يلتذ بطعام ، بشراب ، بنكاح ، بشيءٍ من هذا.

❁ ولذةٌ عِلميةٌ إيمانية.

❁ ولذةٌ توهمية؛ منها هذه اللذة التي تكون لصاحب الجاه والسلطة والمُقدَّم في الناس ؛ يجد في نفسه هذه الرفعة التي يتوهمها في نفسه ، لها لذةٌ وأي لذة! وكم أريقت الدماء وخُرِّبت الديار بسبب الحرص على هذه اللذة التوهمية -والله المستعان- مع أنه في حقيقتها مجرد وهم ، هو يتوهم في نفسه أنه ذو مكانة فيحب ذلك ويبذل الغالي والنفيس في هذا .

والتعلق بالأول والثاني بحيث يكون هو المقصود والمقدم على غيره حال أهل الخسارة ، أمَّا حال أهل النجاة والفلاح والفوز فإنهم يَقْصُدُون اللذة الإيمانية العلمية ، اللذة التي يجدونها في قلوبهم ، فإن للإيمان لذة وله طعمٌ أعظم بما لا مقارنة فيه مع اللذائذ الحسية التي يتنافس الناس فيها، أو اللذة التوهمية ؛ فمعرفة الله وعبادته التي توصل إلى لذة النظر إليه ﷻ -نسأل الله من فضله- هذه هي اللذة التي شَمَّر إليها المفلحون.

المقصود: أن هذا من بعض ما يصرف الناس عن الحق .

والصوارف عن الحق -يا إخوة- التي تعترض طريقه ولربما خطفت من خطفت من الناس ترجع إلى الآتي:

❁ **أولا: الجهل**؛ ولا سيما إذا صاحبه إعراضٌ عن معرفة الحق، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[الأنبياء: ٢٤] .

۞ **ثانيا: الخوف**؛ الخوف مما لا يستحق أو لا يجوز الخوف منه، فيدع التزام الحق بسبب هذه المخافة وهذه الخشية ، وهذا ما يسعى الشيطان إلى حشو قلوب من اتّبعه بها، ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

۞ **ثالثًا: حب الدنيا** ؛ ويدخل في حب الدنيا أشياء وأشياء؛ حب المال ، وحب المنصب ، وحب النساء ، وقس على هذا ، كم صرفت هذه عن الحق!

الأعشى -في قصته المشهورة- رجل عرف الحق ، بل مدح رسول الله ﷺ بقصيدةٍ من أحسن القصائد التي مُدح فيها رسول الله ﷺ ، قصيدةٌ عذبةٌ جدًا ، بل إنه شدَّ الرحال إلى رسول الله ﷺ في المدينة ليُسْلم، فاعترضه أحد دعاة السوء وأصدقاء السوء -قيل أنه أبو جهل وقيل غيره- إلى أين أنت ذاهب؟ قال: "إلى يثرب إلى محمد لأسلم". قال: أتعلم أنه يحرم الزنا؟ قال: ليس لي في هذا من أرب. قال: أتعلم أنه يحرم الخمر؟ -هنا أتاه من الشيء الذي نفسه متعلقةٌ به- فقال: "أما هذه فصعبةٌ عليَّ" أو كلمة نحوها، أرجع سنةً فأتروى من الخمر ، يرجع يجلس في محله سنة كما يقولون يشبع من الخمر -نسأل الله العافية والسلامة- فمات خلال هذه السنة ، صرفه عن الحق حب الدنيا.

وكم من الكفار من يصرفه عن الحق مثل هذا ! حتى أنه قد يصرفه شيءٌ تافه! تعجب والله؛ أن يظهر الحق أمام ناظِرَيه بأنواره فلا يتَّبعه بشيءٍ تافه من الدنيا، كلمت مرةً شخصًا عن الإسلام وبينته له؛ فقال: ما قلتَه حق. قلت: إذن

ما الذي يمنعك أن تسْلم؟ فقال لي: إن أسلمتُ فاتني الاحتفال بالأعياد؛ تعرفون الكفار ما أكثر أعيادهم، أعيادهم كثيرة ويحتفلون وقلوبهم متشوِّفة إلى هذا الشيء، فقال لا أصبر، كل من حولي الأسرة والمجتمع كلهم يحتفلون وأنا جالس؟! ما أستطيع؛ فانظر إلى هذا السبب التافه الذي بسببه أبى أن يقبل ما بينته له.

وقس على هذا كثير، يؤتى من قبل حب الدنيا؛ فيوافق النصارى، يوافق اليهود، يوافق المشركين عُبَّاد القبور أو غيرهم، أو يوافق الملاحدة، لأنه يريد أن ينفلت، والملاحدة من أكثر الأسباب التي تَحْفِزُهُم على الإلحاد حب الدنيا، يريد أن يَلْتَذَّ بالشهوات وأن يَعُبَّ منها عبًّا، فهو يعرف الحق لكنه أُتي من جهة هذا الصارف وهو حب الدنيا.

۞ **الرابع: التقليد**؛ ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

۞ **الخامس: الكبر**؛ يؤتى الانسان من جهة كبرٍ في نفسه، فيأبى عن الانصياع للحق؛ وكم وقع من وقع من الكافرين في الكفر بسبب الكِبر! ودونكم ما سمعتم، ما الذي جعل إبليس يكفر؟ ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، وكثيرٌ على هذه الشاكلة.

أمية ابن الصلت عَلم صدق رسول الله ﷺ وأن الإسلام هو الدين الحق، لكنه أبى أن يُسلم، استكبر، يقول: ماذا يقول عني نساء ثقيف؟ انظر إلى الكبر

الذي في نفسه؛ كيف يتكلمون عني؟ يعني أنا كنت في القديم أقول أني سأكون نبيًا ثم اتَّبع رجلاً من بني عبد مناف؟! أُتي من جهة الكبر ، وهكذا اليهود وهكذا كثيرٌ من المشركين.

۞ **السادس: العجب** ؛ أن يعجب الإنسان بنفسه فيقوده ذلك إلى الانصراف عن الحق ، يعجب بنفسه ، يعجب بعلمه ، يعجب بذكائه، يفرح بما عنده من العلم، قال الله -جل وعلا- في وصف الكفار ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[غافر: ٨٣] . وكم من الكفار وفي هذا العصر كان بعضهم يقول في معنى كلامه: "إن ذكائي يغنيني عن الأنبياء"، أُعجب جداً بنفسه وعلمه وذكائه فقال: أنا مستغن عن الأنبياء واتِّباعِهِم، ما حاجتي إلى هذا وعندي الذكاء الذي به أُبصر الأمور! لست بحاجة لأن أكون مُتَّبعًا نبيًا.

۞ **السابع: الغلو** ؛ أن يؤتى الإنسان من جهة الغلو ، فيغلو في متبوعه وفي محبوبه، فيبصر الحق لكنَّه ينصرف عنه؛ وهذا واضحٌ جليٌّ.

۞ **الثامن: الحسد** ؛ يعرف الحق لكنه ينصرف عنه لحسدٍ في نفسه، فلا يمنعه مانعٌ من أن يلتزم بالحق إلا أنه يحسد غيره . ولذا طلحة النَّمِيرِيُّ أخبر مسيلمة بأنه كذاب، قال: «ماذا عندك؟ قال: يأتيني آتٍ في الظلام. قال: والله إنك لكذاب؛ ولكن كذَّاب ربيعة أحب إليَّ من صادق مُضر»، عنده حسد؛ كيف يأتي الحق من قِبل قبيلةٍ أخرى غير قبيلته ، وكذلك كثيرٌ من المشركين الذين حسدوا رسول الله ﷺ فأبوا عن اتباعه، واليهود وغيرهم أتوا أيضا من جهة الحسد ، وقد

يجتمع -يا إخوتاه- أكثر من سبب فتعظم المحنة وتعظم البلية.

۞ **التاسع: الحمية والتعصب**؛ تجد عنده حميةً وتعصباً لقومه، لبلده، لوطنه، لغير ذلك؛ حتى يُؤدي به هذا إلى أن يترك الحق. وقد سمعت حال من ذكرت لك ممن أبى أن يقبل الحق تعصباً لقومه؛ يقول: "كذاب ربيعة أحب إلي من صادق مضر".

۞ **العاشر**: وهو الجامع والأعم لكل ما سبق؛ فهو يعمه وغيره: **اتباع الهوى**.

فهذه **أسبابٌ عشرة** تصرف من ابتلي بشيءٍ منها عن الحق ، إلا أن يأتيه مددٌ من الرحيم ﷻ فيعُصم من الوقوع في ذلك.

والوصية أن تفتش نفسك؛ فتِش نفسك ربما تكون مبتلىً بشيءٍ من هذا ؛ فعالجه مبكراً ، وإياك أن تتراخى وتتساهل فما يدريك

لا تحقرن سُبيباً كم جرَّ أمراً سُبيب

معظم النار من مستصغر الشرر ؛ ربما يكبر هذا الشيء اليسير الكامن في نفسك فيوردك هذه الموارد . هذا من مواطن جهاد النفس .

وفي «الزهد الكبير» للبيهقي أن عبد الله ابن عمروٍ رضي الله عنهما سأله رجلٌ عن الغزو قال: حدثني عن الغزو؟ فقال: «ابدأ بنفسك فجاهدها ، وابدأ بنفسك فاغزها» ، هذه هي الرتبة الأولى، والله إنها لصعبة، لا يستسهلنَّها إنسان، والله إنه لجهادٌ صعب؛ أن تجاهد نفسك وأن ترغمها على قبول الحق، أن تنظف نفسك

من الأوساخ والأدران التي تعلق بالقلوب هذا أمرٌ سهل باللسان، يمكن للإنسان أن يتكلم فيه ساعةً كاملة ، لكن العمل هو الذي يحتاج إلى صبرٍ ومصابرة ، فتش نفسك ربما تكون مبتلى بشيءٍ من هذا ، أسأل الله ﷻ أن يعافيني وإياكم من هذا. والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله تعالى وهما ما تقدم من قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦] فإذا تحققت أن بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين غزوا الروم مع الرسول ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه اللعب والمزح تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفا من نقص مال أو جاه أو مداراة لأحد أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها.

قال الشارح وفقه الله:

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله تعالى» تُعِينان على فهم ما سبق؛ وهو خطورة الكفر وأنه يكون بمجرد القول أو الفعل على ما مضى بيانه.

الآية الأولى آية التوبة؛ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا تحققت أن بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين غزوا الروم مع الرسول ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه اللعب والمزح»؛ هذا الذي ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ من أنَّ هؤلاء الذين نزل فيهم قوله ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ باعتبار القول الثاني في هذه الآية؛ وهو أن هؤلاء كانوا مسلمين ثم ارتدوا، والجمهور - وهو صحيحٌ إن شاء الله- على أنهم كانوا منافقين. وقد ذكرنا وجه ذلك والأدلة عليه في درسٍ ماضٍ.

وعلى كل حال الاستدلال على كلٍ متجه؛ سواءً كانوا منافقين ظهر كفرهم، أو كانوا مسلمين كفروا، الاستدلال على كلٍ متجه وهو: أنَّ من قال الكفر أو فعَله كفر، سواءً كان في باطنه مُسلماً أو كان في باطنه كافرًا، وإن كان في باطنه كافرا فإنَّه يكون كفره قد ظهر، ومن كان في باطنه مُسلماً فإنَّه يكفر بهذا.

قال: «كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه اللعب والمزح»؛ كذلك الذين رضوا بهذا ووافقوا على هذا فإنهم يكفرون بمجرد هذا؛ بمجرد أن يحضروا المجلس ويوافقون ويرضون وربما يضحكون فإنَّهم في حكم من سخر واستهزأ.

أرأيت أولئك الذين أخبر الله ﷻ عنهم ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ الذين قالوا: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء ...» إلى آخره؛ أتظن أنهم جميعًا تكلموا في نفس الوقت بالجملة نفسها؟ أو أن المتكلم بعضهم والآخرون موافقون راضون؟ فكان الحكم يعمُّهم ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ أي: جميعًا.

فالأمر لا يقتصر على أن يتكلم إنسان بكلمة الكفر، بل من رضي بذلك ووافق عليه أو أيّده ولو بغمزة عين أو بحركة لسان فإنَّه يشمله هذا الحكم؛ وهذا يدلك على خطورة المقام وأنَّ التوحيد عزيز، وأنَّ الكفر جدُّ خطير؛ فإنه قد يحصل بسبب كلمة، أو بسبب غمزة عين يفعلها على سبيل السخرية والاستهزاء، كأن يُتلى عليه شيءٌ من القرآن فيضحك ويسخر مما يتلى، أو يمد

لسانه ، فهذا كله -والعياذ بالله- قد يُلحِق صاحبه بهذا الحكم العظيم وهو الكُفر.

بما أن الحديث عن الاستهزاء لا بد من التنبيه -يا إخوتاه- على شيءٍ يقع من بعض من سفَه نفسه ، وهو ما يسمى بـ«النكات والمضحكات» التي يتناول صاحبها شيئًا من الآيات أو من سور القرآن؛ أو من أحكام الشريعة؛ أو سنة النبي ﷺ أو سيرته؛ يقول أضحَك وأنكِّت ويُدرج في ضمن ذلك شيئًا من حديث النبي ﷺ أو شيئًا من الآيات ، يضحك ويتندر والآخرون يضحكون؛ نكتة! الأمر -يا إخوتاه- خطير، كم يُسمع في كلام الناس ومجالسهم شيءٌ من هذا الأمر ، امزح بأي شيءٍ تشاء لكن إياك ثم إياك أن تصل إلى هذه الحدود الشرعية ، قف دونها واحذر ، فالمسألة إيمانٌ وكفر ، ولربما تقول كلمة لا تُلقي لها بالاً تهوي بك في النَّار تكون سبب الهلاك -نعوذ بالله من ذلك-؛ فانتبه لهذا الأمر.

وانتبه أيضًا إلى أنَّ من حام حول الحِمى يوشك أن يقع فيه ؛ بعض الناس المسألة عنده مثل الرياضيات ١+١=٢ ، يقول ما حكم هذه؟ إذا قيل هذا لا يصل إلى حد الكفر، -بعض الكلمات يتردد النظر فيها هل تبلغ درجة الكفر؟ أو أنها لا تبلغ ذلك- وهب أنها لا تبلغ ذلك! فإن الأمر لا يجعلها كلمةً مباحةً حلالاً زَلاَلاً ؛ لا، هذا يجعلها كلمةً خطيرة ، وكلمة قد تكون كفراً ، وإذا لم توصل صاحبها إلى درجة الكفر لربما أوقعته في شُعبةٍ من النفاق ، وكلمة بعد كلمة بعد كلمة لربما -والعياذ بالله- يزداد المرض؛ هذا المقام شأنه أُقرِّبه بهذه

الجراثيم التي تنتشر والتي تصيب النفوس، لربما جرثومة تدخل يتبعها أخرى فثالثة فيمرض الإنسان، ومرضٌ بعده مرض قد يهلك ويموت.

فالتساهل في هذا المقام والتهاون في إطلاق اللسان في مثل هذه المهالك قد يؤدي إلى الهلاك التام؛ فحذار، ليكن عندك كما يقولون مستشعِر، عندك خطوطٌ حمراء لا تسمح لنفسك ولا لغيرك أن يتجاوزها، الأحكام الشرعية، الآيات، الأحاديث، شيءٌ يتعلق ويمت بصلة بالشريعة أو بالنبي ﷺ؛ إياك أن تجعله محطًا للسخرية والضحك والاستهزاء.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفًا من نقص مال أو جاه أو مداراة لأحد أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها**»؛ مراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن من تكلم بكلمة الكفر جادًّا -لغرضٍ من الأغراض كالتي ذكرها- أولى أن يكون كافراً من المازح، الذي يتكلم بكلمة الكفر جادًا وإن كان هذا لحظٍ من الدنيا أو مداراةً لأحد أو أو إلى آخره فإنه أولى بحكم الكفر من المازح، إذا كان المازح الذي هو غير جاد في كلامه يكفر بكلمةٍ يقولها فالجادُّ من باب أولى.

قال المصنف رحمه الله:

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾[النحل: ١٠٦ - ١٠٧]؛ فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئنا بالإيمان، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه؛ سواء فعله خوفا أو مداراة لأحد أو مشحة بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله، أو فعله على وجه المزح، أو لغير ذلك من الأغراض إلا المُكره.

قال الشارح وفقه الله:

هذه الآية الثانية وهي آيةٌ عظيمة، والفائدة منها في الدرس العقدي كبيرة؛

قال جل وعلا: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾؛ «مَنْ كَفَرَ»:

- قيل: إن قوله «مَن» مستأنفة هنا، وجواب الشرط ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾.
- وقيل: أن «مَن» ها هنا بدلٌ من «الكاذبين»، لأنه قد سبق هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ من هم؟ ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾، فهي بدلٌ عن «الكاذبين».

قال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾؛ هذه الآية هي في سياق بيان حكم من أتى بقولٍ كفري أو فعلٍ كفري، الآية تدور على بيان حكم من أتى بكفرٍ ظاهرٍ ولا تتعلق بمن أتى بكفرٍ باطن، في هذا

الشطر ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ من كفر بالظاهر ؛ يعني: بقولٍ كفري أو فعلٍ كفري .

ولماذا ما قلنا أو باعتقاد كفري؟ الجواب: أنَّه استثنى المُكره ، ولا إكراه على ما في القلب ، لا يمكن أن يُكره إنسانٌ على اعتقادٍ كفريٍ أو على أن يشك شكـًا كفريـًا ، لماذا؟ لأنَّ القلب لا سبيل إلى الاطلاع على ما فيه؛ وبالتالي يمكن للإنسان أن يُصرِّح بخلاف ما يعتقد ، أما أن يوضع على رأسه سيف فيقال له اعتقد أنَّ المسيح ابن الله فيقول: هذا إكراه فيعتقد؛ نقول: هذا كافر؛ لماذا؟ لأنه اعتقد. قد يقول: أنا مكره ، نقول: لا إكراه على ما في القلب ، بل الواجب أن تعتقد كفر هذا ، وصرِّح بخلافه فيكون هذا التصريح إذا قال: عيسى ابن الله ليدفع عن نفسه نقول هذا مُكره ولا يكفر بهذه الكلمة.

إذن الآية تتعلق بالكفر الظاهر؛ فدل هذا على أن من قال كلمة الكفر أو فعَل فِعلَ الكفر فإنه يكفر بذلك؛ اللهم إلا في حالة الإكراه . إذن هذا دليلٌ لما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من أنَّ الكفر لا يختص بما في القلب من العلم والتصديق ، بل إنه يعم ما في القلب وما في اللسان وما في الجوارح أيضـًا ، والآية صريحةٌ في ذلك.

والمشهور في قوله ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**﴾ ؛ المشهور عند المفسرين: أنها نزلت في عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ؛ فإنَّه أُكره على أن يقول كلمة الكفر فقال ، فعُذر بذلك؛ عذره الله ورسوله ﷺ.

إذن ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ يعني من المكرَهين فقد كفر؛ بمعنى: **دلت الآية على ثلاث حالات:**

❁ **الحالة الأولى:** من قال كلمة الكفر أو فعل فِعل الكفر بلا إكراهٍ فقد كفر.

❁ **الحالة الثانية:** من أُكره على قول الكفر أو فِعل الكفر فانشرح صدره بذلك وقال أو فعل فقد كفر ؛ يُكره على أن يقول كلمة الكفر فيُخذَل -والعياذ بالله- فيرضى به ويسكن قلبه إليه ؛ ما حكمه؟ يكفر. وهذا أحد التوجيهات لحديث الرجل الذي قرّب ذباباً؛ قيل له قرّب فقرَّب ، على القول بأنه كان مكرها نقول بانه انشرح صدره بالكفر ورضي به ، وقد يحصل هذا ! قد يحصل أن الانسان يُخذل -والعياذ بالله- فإذا أكره انشرح صدره بالكفر؛ فدل هذا على الحالة الثانية وهي أن يُكره فينشرح صدره بذلك فيقول أو يفعل فيكفُر.

❁ **الحالة الثالثة:** أن يكره على قولٍ كفري أو فعلٍ كفري فيفعل مع طمأنينة قلبه بالإيمان؛ وهذا لا يكفر.

إذن هذه هي الأحوال التي دلت عليها الآية :

❖ وبهذا نفهم قوله: ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: من المكرهين؛ فهذا كافرٌ أيضـاً ، مثله مثل الذي قلنا في الحالة الأولى من قال أو فعل بلا إكراه كفر .

❖ أُكره فانشرح صدره كفر .

❖ أكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان فقال أو فعل لم يكفر، كما كان من عمار بن

ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إذن ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والسبب: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ﴾؛ «ذلك» واقعةٌ موقع التعليل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، نعوذ بالله من هذه الحال.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئنا بالإيمان**» راضٍ به، منشرحٌ صدره، ساكن إليه؛ فمثل هذا لو أُجبر فإنه يكون معذوراً.

«**وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه؛ سواء فعله خوفا**» يخاف أن يُعيَّر، يخاف أن يُطرد من الوظيفة، يخاف أن يُهجَّر من بلده؛ فيجاريهم ويوافقهم، والأمر ما وصل إلى حد الإكراه الملجِئ، فمثل هذا ليس بعذر؛ فإذا صدر منه الكفر كان كافراً -والعياذ بالله-.

قال: «**أو مداراةً لأحد أو مشحةً بوطنه**» ما يريد أن يغادر البلد؛ أين أذهب؟ أرض الله واسعة، سيجعل الله عَزَّ وَجَلَّ لك مخرجا. يقول: من أين آكل؟ نقول: لو تسأل على الأبواب، عند أبواب المساجد تمد يديك خيرٌ من أن توافق على أن ترتد -والعياذ بالله- عن دين الله؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ ما خلقك للأكل والشرب وتحصيل المال، الله خلقك لتكون مُوحداً عابداً له، والحياة قصيرة! ما يدريك إذا

أعطيتهم ما يريدون من الكفر لأجل أن تحصل على لُعاعة من الدنيا، ما يدريك أن تقوم من مجلسك ذاك! ما يدريك أن تتمتع بهذه الدنيا! لربما يسبق إليك الموت فخسرت في الدنيا وخسرت في الآخرة . إذن المقام -يا إخوتاه- عظيم.

قال: «**أو أهله؛ أو عشيرته أو ماله؛ أو فعله على وجه المزح؛ أو لغير ذلك من الأغراض**»؛ الأغراض كثيرة ، والسُكارى بحب الدنيا كُثر :

❖ لربما قال كلمة الكفر لأجل أن يُداهن بغرض التجارة، يقول يخبر عن نفسه بأنه -والعياذ بالله- نصراني لأجل أن يوافقوا على أن يدخل معهم شريكًا في التجارة ، يقول "وقلبي مطمئنٌ بالإيمان" سبحان الله!

❖ أو ربما يكتب في أوراق طلب اللجوء؛ طالب لجوء أو طالب إقامة أو طالب جنسية في بلاد الكفر؛ وهذا يحصل -يا إخوتاه- مع الأسف الشديد يكتب أنَّه نصراني أو يكتب أنه ملحد لأجل أن طلبه يوافقون عليه أو يسارعون إلى قبوله.

ومن فعل هذا فقد كفر . أين الإكراه هنا؟ يقول في بلدي ماذا أصنع! ما يوجد وظائف، أبنائي كيف يدرسون؟ لكن إذا ذهبت إلى بلاد الكفر أجد رغدًا من العيش ، أبنائي يدرسون في المدارس والجامعات، يمكن أن أشتري بيتًا .. ويمكن أن تتمتع بكفرك -والعياذ بالله- إذا صدر منك الكفر وأنت راضٍ غير مُكره . فالمقام -يا إخوتاه- خطير ؛ فحب الدنيا قد يكون سببًا -والعياذ بالله- للوقوع في الكفر ، فيحذر الإنسان ، التعلق بالدنيا من أعظم أسباب الشر.

قال المصنف رحمه الله:

والآية تدل على هذا من جهتين: الأولى قوله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ ؛ فلم يستثن الله إلا المكره.

قال الشارح وفقه الله:

نعم هذا الذي ذكرنا؛ أن من قال أو فعل الكفر فقد كفر ، ولا يشترط مصاحبة شيءٍ من ذلك في قلبه.

إذن فائدة الاستثناء هنا ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ : بيان أن المكرَه هو المستثنى من الكفر فحسب، الحكم بالكفر لا يُستثنى منه أحدٌ إلا في حال الإكراه؛ لو فعل رغبة أو فعل رهبةً أو فعل مداراةً أو فعل لتحصيل شيءٍ من الدنيا أو لأي سببٍ من الأسباب ، قال أو فعل الكفر فإنه يكفر بذلك؛ باستثناء حالة واحدة : أن يُكره إكراهًا يُعذر به ، ليس أي إكراه!

إذا قيل له: "أُكفُر أو تنصَّر وإلا صفعناك على وجهك" ليس عذراً ، "إن لم تفعل سجناك ثلاثة أيام" هذا ليس عذرا ؛ لكن أن يُهدد من قادرٍ على إنفاذ ما هَدَّد به بقتل أو قطع عضوٍ أو ضربٍ شديدٍ لا يحتمله أو ما شاكل ذلك ، أو يُهدَّد مثلاً بأذىً يصيب أهله أو ما شاكل ذلك؛ فمثل هذا لا شك أنه عذرٌ ؛ إذا هدد بانتهاك عرضه أو ما شاكل ذلك فهذا إكراهٌ يُعذر به ؛ فيعطيهم ما طلبوا ولا حرج عليه.

قال المصنف رحمه الله:

ومعلومٌ أن الإنسان لا يكرَه إلا على الكلام والعمل، وأما عقيدة القلب فلا يكرهه أحدٌ عليها.

قال الشارح وفقه الله:

في الهامش كلام(١٧) ربما يكون هذا من كلام المؤلف:

[وأما -ثم بياض مقدار كلمتين- أو الخائف من الأذى ونقص المال والجاه، والخائف من أن يُطرد من وطنه فلم يعذره الله تعالى؛ فمن تكلم بكلام الكفر أو عمل به مداراةً أو خوفًا على وطنه أو شحةً بأهله وعشيرته أو فعَله على وجه المزح أو لغير ذلك من الأغراض فقد كفر، إلا المكره فقد استثناه الله] .

(١٧) [ص ١٠١، تحقيق: د. دغش العجمي] .

قال المصنف رحمه الله:

والثانية قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧] ؛ فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظًا من حظوظ الدنيا فآثره على الدين.

قال الشارح وفقه الله:

الوجه الثاني الذي يُستدل به من الآية قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ ؛ «ذَٰلِكَ» قلنا هذه الكلمة نازلةٌ أو منزلةٌ منزلة التعليل؛ يعني لسبب؛ والباء في قوله ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ باء السببية.

﴿ذَٰلِكَ﴾ ما هو؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ﴾ هل المقصود ذلك العذاب والغضب المذكور في الآية بسبب أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة؟ أو ذلك الكفر بسبب أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة؟ بكلٍ قالت طائفة من أهل العلم؛ والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ جمع الأمرين ، ولا شك أن هذا وهذا مُتجه؛ إن قيل بهذا أو قيل بهذا فإنه متجه:

- ﴿ذَٰلِكَ﴾: يعني العذاب والغضب بسبب أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فكفروا ؛ فتوعدهم الله عَزَّ وَجَلَّ بالعذاب والغضب.
- أو أن ذلك الكفر ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ بسبب أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ؛ فسبب الكفر استحباب الحياة الدنيا على الآخرة.

وقوله:﴿**بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا**﴾؛ «اسْتَحَبُّوا» مبالغة في أحبوا، يعني: أحبوا محبةً عظيمة حتى إنَّهم أرخصوا دينهم لدنياهم. وأيضًا هذه الكلمة مضمَّنة معنى «آثروا»؛ بدليل أنَّ هذه الكلمة عُديت بـ «على»؛﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾؛ فأحبوا وأيضًا آثروا وفضلوا الحياة الدنيا على الآخرة -عياذًا بالله- فكان ما كان من الوعيد الذي جاء في النصوص.

قال: «**فصرَّح أن هذا الكفر والعذاب**» جمع بين القولين «**لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أنَّ له في ذلك حظًّا من حظوظ الدنيا فآثره على الدين**»؛ إذن -يا إخوتاه- هذا الكفر الذي حصل لم يكن لاقتناع هذا الكافر بالكفر، أو لحبه الكفر وتعلق قلبه به، أو بغضه للدين؛ ما كان هذا الكُفر هنا لذلك، إنَّما كان بسبب حبِّ الدنيا.

وهل يجتمع التصديق بالدين مع حبِّ الدنيا فيؤدي إلى الكفر؟ الحب المؤدي إلى الكفر هل يجتمع مع التصديق؟ بلى يجتمع؛ يمكن أن يكون مصدقًا لكن تعلقه بالدنيا غلب قلبه فارتد -والعياذ بالله-، وقد سمعنا في الدرس الماضي مثالاً على هذا؛ قلنا إنَّ الأعشى كان مُصدقًا لرسول الله ﷺ وأنشد فيه قصيدةً عظيمة؛ ما المانع عنده من الإسلام؟ حب شيء من الدنيا وهو الخمر. فيمكن أن يجتمع هذا الحب الكُفري مع التصديق. إذن المقامُ مقامٌ مخوف؛ وعلى من أراد نجاة نفس أن يحذر.

وعلى كل حال هاتان الآيتان من سورة النحل فيهما فوائد جمة؛ نلخص

بعضها فيما يأتي، وقد ذُكر شيءٌ منها فيما تقدم:

❁ **أولاً**: أن الكفر يكون بالفعل أو القول بدليل الاستثناء.

❁ **ثانيًا**: أنَّ المكره إكراهٌ يعذر به؛ على قولٍ كفريٍ أو فعل كفري فإنه لا يكفر .

وهنا مسألة علمية وهي: أن من أهل العلم من رأى أن العذر بالإكراه مقصورٌ على القول لا الفعل؛ إن أُكره على قولٍ كفريٍ أبيح له أن يقول ليَسلَم ولا يكفر ، أما لو أُكره على فعلٍ -كأن يُقال له اسجد لصنم- فإنه لا يجوز له ، حتى لو أُكره بالسيف واجبٌ عليه أن يصبر، ولو فعل كفر؛ وهذا ما ذهب إليه طائفةٌ من أهل العلم؛ كالحسن البصري والأوزاعي في جماعة -رحمة الله على الجميع-. والجمهور والصواب هو أنه لا فرق بين القول والفعل ، وعموم الآية يدفع هذا القول الذي ذكرته؛ لأنه قال: ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ و«مَن» من أدوات العموم؛ فمن أتى بالكفر سواءً بقول أو بفعل فإنه معذورٌ إذا كان مكرهـًا.

❁ **ثالثًا**: أنَّ التعلق بالدنيا قد يكون من أسباب الكفر -عياذًا بالله-؛ قد يعظُم التعلق بالدنيا حتى يصل بالإنسان إلى الكفر -والعياذ بالله-؛ يرى الحق أمام عينيه ولكنه يكون كالسكران! به سكرة من حبِّ الدنيا فلا يبالي بالتزام الحق -والعياذ بالله- ، ودليل هذا قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ -عياذاً بالله-؛ فدل هذا على أن الأصل الموجب للكفر والخُسران التعلق بالدنيا، تفضيل العاجلة على الآجلة -نسأل السلامة والعافية-.

❁ **رابعًا**: أنَّ من عقوبة السيئة السيئة بعدها؛ لأننا قد علِمنا أن قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ﴾ يعني: ذلك الكفر بسبب أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة. إذن وقعوا في هذه السيئة الأولى فخذلهم الله ﷻ وأضلهم فكفروا ؛ ما هي السيئة الأولى؟ ﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ فأضلهم الله ﷻ فكفروا . إذن من عقوبة الضلال الإضلال بعده ، إذن المقام خطير؛ ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٨ - ١٠]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ، ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨] ، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ [التوبة: ٧٧] ، ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٧] وهلم جرا في آياتٍ كثيرة.

إذن حذارِ ؛ هذا يدلك على خطورة تجاوز حدود الله والوقوع في معاصيه، فإنَّ هذه المعاصي يجر بعضها إلى بعض فتنقل صاحبها من صغيرٍ إلى كبير، ولربما أوقعته في الكفر؛ ومن هاهنا تعرف فقه السلف حينما قالوا: «إن المعاصي بريد الكفر» ؛ حب للدنيا، ربما تبدأ المسألة بمحبة المخدرات أو محبة خمر أو محبة امرأة محبة غير شرعية؛ فيعظم ذلك ويعظم ويعظم ربما أورد صاحبه الكفر -والعياذ بالله-! هذا التعلق القلبي بالصور والنساء ربما يؤدي إلى السجود للمحبوب -والعياذ بالله- وقد حصل هذا.

إذن التنبه إلى هذا الأمر؛ لا بد أن يكون -يا إخوتاه- للعلم أثرٌ في القلب ، إياك أن تجعل علمك علمًا نظريًا ، تقرأ وتتعلم وتتثقف كما يقولون وتمضي،

فتش في نفسك، وحاول أن تصقُل قلبك من هذا التعلق ، اجعل الدنيا في محلها ولا تبالغ في التعلق بها؛ اجعلها كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بمنزلة الخلاء ، خذ منها بقدر الحاجة ولا تعلق قلبك؛ مع كونك محتاجاً إليها ، أنت لا تستغني عن أمور الدنيا كما لا تستغني عن الخلاء؛ ولكن هل قلبك متعلق بالخلاء؟ أنت تدخله وتقضي حاجتك وتمضي ولا يتعلق قلبك بذلك؛ كذلك الدنيا خذ منها بُلْغتك؛ وسِر فيها بحسب ما تحتاج لكن لتجعل قلبك مترحلاً عنها إلى الدار الآخرة ، واصبر فعن قريب ستكون النُّقلة ، إن لم تكن اليوم فغداً أو بعد غد؛ ولكن ثق أنها قريبة ولو زاد الأمر ستكون قريبة ، وعندها ستنتقل إلى الحيَوان؛ ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] الحياة الحقيقية .

فمسكين هذا الذي يبيع الدر النفيس بالبعر الخسيس؛ ما الدنيا وما فيها ؟ كل الدنيا بما فيها من مباهج وملذات قارنها بالآخرة! والله لا تساوي شيء ، إذا كان النبي ﷺ يقول: «ومَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما عَلَيْهَا»! الصوت مثل العصا كم يأخذ حيزاً من الأرض؟ المساحة التي يأخذها سنتيمترات مربعة؛ هذا القدر من الجنة قال فيه الصادق المصدوق ﷺ: «خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما عَلَيْهَا» بكل ما فيها . واجعل لفكرك أن يُفكر ؛ كل ما في الدنيا من مباهج لا يساوي! طيب كيف بقية الجنة التي عرضها السماوات والأرض؟ إذن المقام يحتاج إلى صبر ، يحتاج إلى مجاهدة ، وعن قريب تحمد النتيجة؛ فالصابرون سيفوزون ، وتلك النفوس المتعلقة بالعاجلة ستندم والله المستعان.

نسأل الله النجاة -يا إخوتاه- ، والله إن النجاة بيد الله ﷻ ؛ لا بسبب علم، ولا فقه، ولا حكمة، ولا شهادة، ولا دروس، ولا كتب تُشرح، ولا شيءٌ من ذلك؛ النجاة والهداية بيد الله ﷻ ، فالجأ إلى الله واصدُق الله واعلم أن الله شكور؛ الله مُتصف بالشكر ومتصف بالمَكر؛ فاجمع اعتقادك بين الأمرين، إن أحسنتَ فوالله إن الله -جل في علاه- ليجزينك على الحسنة بالحسنة ، لا يجزيك على الحسنة بأن يضل قلبك ، الله أرحم وأكرم من ذلك.

لكن في مقابل هذا قد يُمكر بك، قد تُخذل بسبب ما تجترحه يداك ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[الليل: ٨ - ١٠] هذا المكر والخذلان عدلٌ من الله، وهو محمودٌ عليه -تبارك وتعالى-؛ ففكر دائماً في هذين الأمرين.

❁ **خامسًا**: الرد على المرجئة القائلين "إن الكفر لا يكون إلا بالتكذيب أو الجهل ، الكفر موضعه في القلب فحسب؛ الجوارح واللسان لا يتعلق بهما كفرٌ ، وفي القلب الأمر محصورٌ في التكذيب والجهل؛ وبالتالي متى زال التصديق والمعرفة من القلب فإن الإنسان يكفر ، وما سوى ذلك مهما كان منه فإنه لا يحصل منه كفرٌ"؛ **والردُّ من الآية على هذا القول من وجهين**:

◉ **الأول**: أن الله جل وعلا بيَّن سبب الكفر وهو استحباب الحياة الدنيا على الآخرة ؛ وقلنا إن هذا يمكن أن يجتمع مع التصديق؛ مقام التصديق والمعرفة شيء، ومقام الحب والبغض شيءٌ آخر، فلربما يكون الإنسان مُصدقاً ومُحباً للدنيا محبةً تُوصل إلى الكفر ، أو مُبغضاً للدين مع كونه مصدقاً ،-

وهـذا مـا علمنـاه في الـدرس الماضـي- كثيـرٌ مـن اليهـود مـن المشـركين مـن المستشرقين من غيرهم كانوا مصدقين كافرين ، اجتمع عنـدهم تصـديقٌ وبغـض أدى إلى الكفر . إذن ليس بصحيح أن الكفر محصورٌ على تكذيب القلب .

◉ **الثاني** كما ذكرنا: استثناء المكره ؛ والاستثناء هـا هنـا دلنـا علـى أن الكفـر المذكور أولاً في الآية إنما هو الكفر الظاهر ، لأنه هو الذي يقع فيه الإكراه ، فدل هذا على أن الكفر لا ينحصر في ما في القلب.

❁ **السادسـة والأخيـرة**: فائـدةٌ فقهيـة وهـي: إذا سـقط حكـم الكفـر بسـبب الإكراه سقط حكم غيره، كالبيع والإجارة والطلاق والنكاح ومـا شـاكل ذلـك؛ لأنه إذا سَقط الأعظم عن الناس سقط ما دونه . بناءً عليـه؛ فلـو أُكـره إنسـانٌ علـى طلاقٍ -قلنا يكره إكراهـًا يعذر به ، ولـيس كـل إكـراهٍ يعـذر بـه- إذا أُكـره إكراهـًا يعذر به على أن يطلق؛ لا يقع الطـلاق. وقـل مثـل هـذا في بقيـة المعـاملات ، إذن استفدنا من سقوط حكم الكفر بسبب الإكراه أن ما دونه يسقط.

قال المصنف رحمه الله:

والله ﷻ أعلم؛ وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم؛ والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

إي والله؛ الحمد لله رب العالمين؛ اللهم صل على محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليمًا كثيراً . نحمد الله على ما يسر من الانتهاء من شرح هذه الرسالة العظيمة الجليلة النافعة الماتعة ، وجزى الله عنا مؤلفها خير الجزاء؛ فقد بيَّن ونصح وجلّى كثيراً من الأمور التي ربما كنا جاهلين بها وغافلين عنها ، جزاه الله عنا خيراً ، وجزى جميع علماء السنة عنا خيرا.

والوصية يا إخوتاه -في ختام هذه الدروس بأمور أذكرها على سبيل الإيجاز:

❁ **أولاً يا إخوة:** أوصي نفسي وإياكم بأن نفرح بفضل الله ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس: ٥٨] ، واحمده سبحانه واشكره على ما منّ به عليك من نعمة التوحيد التي -ورب السماء- لا يوازيها شيءٌ من النعم . على وجه الأرض اليوم كثيرٌ من الناس -وفي باطنها أكثر- كم منهم من يعبد بوذا أو الصليب أو عيسى أو الأصنام ، أو هو ملحد، أو لا ديني أو هو يدَّعي الإسلام وهو من عباد القباب والقبور؛ وأنت هداك الله واجتباك ووفقك لأن لا يسجد وجهك ولا تنحني جبهتك إلا له تبارك وتعالى، ولا يلتفت قلبك محبةً وخوفًا ورجاءً إلا إليه.

يا أيها الرجل أترى نعمةً أعظم من هذه النعمة؟ والله لو حيزت لك الدنيا بكل ما فيها لم تُساوِ شيئًا أمام هذه النعمة؛ فاحمد الله ، أكثِر من حمد الله على هذا الفضل العظيم أن قلبك مطمئنٌ بالإيمان ، مطمئنٌ بالتوحيد ، فرحٌ بالإسلام والسنة ، لا تخالجك الشكوك والشبهات التي صرفت كثيرًا من الناس -عياذًا بالله- عن هذا الخير؛ فالأمر كله منه وإليه فاحمد لله.

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

❁ **الوصية الثانية**: الوصية لنفسي ولكم بالثبات؛ اثبتوا ثبَّتكم الله ، جاهدوا أنفسكم فالزمن زمنٌ صعبٌ، والأجواء ملبدةٌ بالغيوم؛ غيوم الشبهات وغيوم الشهوات ، وكلاهما صارفٌ عن الحق ، فرابطوا على ثغور القلوب والألسنة والجوارح ، وتفطنوا وتنبهوا وتبصَّروا وحذارِ من الغفلة ، إياك أن يأسرك الشيطان فتضل عن الصراط المستقيم.

❁ **الوصية الثالثة**: زد في تعلم التوحيد؛ إنه من أعظم أسباب الثبات عليه ، انظر لنفسك كم استفدت من هذا المتن ومن غيره من متون التوحيد! وتجلت أمام عينيك مسائل كثيرٌ من الناس جاهلٌ بها وغافلٌ عنها! فازدد وتبحر وعُبَّ من هذا العلم عبًّا ، ولا تتقاصر منه شيئًا؛ بل انظر ثم أعد النظر ثم كرر النظر في مسائل التوحيد حتى تسْلم بتوفيق الله ﷻ ويكون هذا سببًا للثبات.

❁ **الوصية الرابعة** يا إخوة : الله الله بالدعوة إلى التوحيد؛ الدعوة إلى التوحيد إنما ينهض بها الصادقون ، والمقام مقام توفيقٍ واجتباء ، فما أحسن وما أعظم هذه المِنَّة أن يسلكك الله ﷻ في سِلك الدعاة إلى التوحيد ! فقليل هم

الدعاة إلى التوحيد -مع الأسف- ، الموحدون بحمد الله في المسلمين كثير، ولكن أنت ترى أمام عينيك أنَّ الدعاة إلى التوحيد قليلون.

واعلم أنك أنت المحتاج إلى الدعوة إلى التوحيد ، وإلا فالله غالبٌ على أمره ، والتوحيد منصور بك أو بغيرك ، إنما نحن ندعو إلى التوحيد لأننا نحن المحتاجون إلى هذه الدعوة، محتاجون إليها لأنها سببٌ من أسباب الثبات ، ومحتاجون إليها لأن بالدعوة إلى التوحيد نؤدي الأمانة المعلقة برقابنا ، فإن هذه الدعوة ليست أمراً ثانويًا أو زائدًا أو اختياريـًا؛ "والله كما أشاء، إن شئت أدعو وإن شئت لا أدعو"؛ لا والله ! المقام أكبر من ذلك بكثير ، أنت عبدٌ لله وواجبٌ عليك أن تدعوَ إليه؛ وأعظم ما في دين الله بل أعظم ما في كل الأديان والكتب المنزلة ورسالات الأنبياء المرسلة؛ أعظم ما في ذلك توحيد الله.

إذن الله -يا إخوتاه- ببيان التوحيد للناس وبيان ضده ، وأن تكون دعوتنا له دعوةً مُفَصَلة بالأسلوب الحسن والطريقة الحكيمة، فينفع الله ﷻ بك وبدعوتك ، والذي أعطى غيرك قادرٌ على أن يعطيك ، انظر إلى هذه النعمة العظيمة التي نحسب أنَّ الله تبارك وتعالى أعطاها للمؤلف الشيخ حتى إن كتبه -كتب التوحيد- قد شرقت وغربت ، وتجد أنَّها تدرس في كثيرٍ من البلدان؛ وهو رجلٌ واحد بدأ بطلب العلم واستشعر أهمية الدعوة إلى الله فشمر وجاهد واجتهد ففتح الله ﷻ له هذا الخير ، نسأل الله أن يجعل ذلك كله في ميزان حسناته. وخزائن الله ملأى ، الله ﷻ فضله واسع ، فالذي أعطى هذا الشيخ قادرٌ على أن يعطك فيجعلك للمتقين إماماً ، يجعلك إماماً من أئمة التوحيد والدعاة

إليه .

لا تحقر من المعروف شيئًا، ولا ينبغي للداعية إلى الله عز وجل أن يلتفت إلى هذا؛ لا ، النظر إلى النتائج ليس إلينا، الواجب علينا النظر الشرعي ، أمَّا النتائج فهذا بابٌ قدري أمره إلى الله ﷻ ، ولربما كانت دعوتك وكلامك وكتابتك لا يظهر لها أثر إلا بعد أن تُوسَّد في التراب! كثيرٌ من ثمرات دعوة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ما ظهرت إلا بعد وفاته، هذه الجامعة وهذا الخير العظيم الذي نتفيأ ظلاله بفضل الله في هذه البلاد الطيبة كل ذلك ثمرة من ثمرات الدعوة إلى التوحيد التي نهض بها إمام الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ؛ والفضل لله أولاً وآخراً.

فالوصية -يا إخوتاه- بالاجتهاد ؛ أنت ترى أعداء الله أهل نشاط ومثابرة وتعاون على بث الشُّبه - وقد علمتَ طرفًا من ذلك وصُغتُ لك شواهد كثيرة- فهل ثمة مجال للتقاعس بعد كل هذا؟! أنت صاحب حق، معك النُّور ومعك أسباب الخير والهداية ثم تتقاعس عن الدعوة إلى الله ﷻ وبيان التوحيد والسنة والتحذير من الكفر والبدعة!! هذا في الحقيقة خِذْلان ؛ فسل ربك أن يجعلك للمتقين إماما ، أن يجعلك سبب هداية وداعية خير، وإذا وُفقت إلى هذا فقد وُفقت إلى خيرٍ كثيرٍ ورب السماء ، يذهب الناس بالدنيا والعقارات والسيارات والحسابات البنكية، وتذهب أنت بالدعوة إلى التوحيد، والله إنك أنت الرابح في هذه الصفقة.

أسأل الله عز وجل أن يثبتني وإياكم على التوحيد والسنة ، أسأل الله أن يحيينا على ذلك وأن يميتنا على ذلك ، ونعوذ به من الحوْر بعد الكوْر ، ربنا لا تزغ

قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة؛ إنك أنت الوهاب.

والله جل وعلا أعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك؛ أشهد أن لا إله إلا أنت؛ أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.